الجامع المفيد

لبيان مسائل كتاب

التوحيد الذي هو حق الله علي العبيد

(هام لكل مسلم ومسلمة)

جمع وتأليف

محمود بن محمد

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه والمؤمنين

(الجزء الأول)

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام علي رسول الله صلي الله عليه وسلم ، أما بعد

فهذا شرح جامع وميسر لكتاب التوحيد الذي هو حق الله علي العبيد علي وجه الوضوح والاختصار والشمول أيضا بلفظ مفهوم وعبارات واضحة ، ولا يكاد يقرأه أحد أو يسمعه إلا وقد فهم ما فيه لأني اقتصرت فيه علي إيضاح عقيدة التوحيد ، وتحرير مسائلها التي تضمنها الكتاب ، مع إيراد القواعد التي تجمع شملها ، وما يجب أن يفهم منه ، بحيث تستطيع أن تقرأه علي أولادك وآل بيتك وغيرهم.

وقد قمت بهذا العمل لأقرأه علي أهلي وقرابتي وإخواني القريبين مني ، ثم لاح لي أن أنشره علي وجه العموم عسي الله أن ينفع به ويكتب لي أجره يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتي الله بقلب سليم ، وقد استفدت من عامة شروح الكتاب القديمة والمعاصرة كما كتبت في الفهرس

ولم أنشغل فيه بتخريج أحاديثه خشية أن يطول الكتاب ، غير أن أحاديثه صحيحة أو حسنة بذاتها أو لغيرها بشواهدها ، وما حكم عليه بالضعف منها فأحاديث معدودة ، والحكم عليها إنما هو بضعف سندها مع صحة متنها ومعناه ، وقد استدل بها المصنف استئناسا أو لما يعضدها من شواهد أو متابعات.

فالله أسأل أن يتقبل مني وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم وأن ينفع به في الحياة وبعد الممات إنه قريب مجيب شكور حليم ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وصلي الله وسلم وبارك علي نبينا محمد وعلي آله وصحبه أجمعين .

واعلم أولا - يا عبد الله - أن أيَّ عملٍ يتقرب به العبد إلي الله سبحانه وتعالي لابد فيه من شرطين حتي يقبل، ولا يستغني بأحدهما عن الآخر وهما : شرط الإخلاص المنافي للشرك ، وشرط المتابعة للسنة المنافية للبدعة.

والشرط الأول هو موضوع الكتاب في الأساس، وأما الثاني فهو توحيد المتابعة لرسول الله صلي الله عليه وسلم بحيث نطيعه هو فيما أمر ونصدقه فيما أخبر وننتهي عما نهي عنه وزجر وألا نعبد الله إلا بما شرع وأن نتحاكم إليه في حياته وإلي سنته بعد مماته.

وحتي نحقق شرط المتابعة لا بد من تحقيق ستة شروط هي موافقة هدي الرسول صلي الله عليه وسلم في العبادة من حيث الزمان والمكان والسبب والجنس والقدر والكيفية ؛ فأما السبب فلا يخترع العبد سببا من عند نفسه كتخصيص مكان أو زمان بعبادة من العبادات كتخصيص ليلة النصف من شعبان بقيام أو يومها بصيام دون غيرها من الايام لا لشيء إلا لأنه يوم النصف ، ومثل تخصيص ليلة السابع والعشرين من شهر رجب بذلك أيضا ، فمن فعل فقد ابتدع وهو آثم وعمله مردود لحديث عائشة أن النبي صلي الله عليه وسلم قال(من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد - أي مردود علي صاحبه -) وفي رواية : من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد

وأما المكان : فتوافق عبادة الرسول صلي الله عليه وسلم في مكانها الذي عينه فلا يعتكف مثلا في البيت وإنما يكون الاعتكاف في مسجد .

وكذلك الزمان : فمن ذبح أضحيته قبل الصلاة بنية الأضحية فعمله مردود.

والجنس : إن كانت العبادة ذات جنس معين فلا يجوز تجاوزه أو تعديه إلي غيره كالأضاحي لا تكون إلا من بهيمة الأنعام الإبل أو البقر أوالغنم فمن ضحي بزعمه بخيل أو دجاج فهو آثم مبتدع وعمله مردود، كذلك زكاة الفطر من أخرجها نقودا فهو آثم مبتدع وعمله مردود.

والقدر : فمن صلي الظهر خمسا تقربا فكذلك.

والكيفية : فمن توضا بادئا بغسل رجليه فبدعة وإثم ووضوؤه باطل .

وعلي هذا فقس سائر العبادات.

- وكتاب (التوحيد الذي هو حق الله علي العبيد) هو لمصنفه الإمام المصلح محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالي – وقد صنف كثيرا من التصانيف في توحيد الأنبياء والمرسلين ، والرد علي من خالفه من المشركين ، ومن جملتها هذا الكتاب الذي نحن بصدد شرحه ، وهو كتاب فرد في معناه لم يسبقه إلي تصنيفه وترتيبه وجمعه بهذه الطريقة سابق ولا لحقه فيه لاحق حتي صار علما للموحدين وحجة علي المشركين ، فباعتبار التصنيف هو أول من جمع مسائل توحيد العبادة هذا الجمع النفيس ، وأما باعتبار المادة فهي موجودة مأخوذة من القرآن والسنة بلا ريب .

وموضوع هذا الكتاب أمران : بيان توحيد العبادة ، وإبطال ضده من الشرك والتنديد ، وسأبين فيه أثناء الشرح مع ذلك - إن شاء الله تعالي - عقيدة أهل السنة والجماعة في الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر ، وقد تطرق المصنف إلي كثير منها في الكتاب .

ولا نجاة للعبد إلا بتعلم التوحيد والشرك ، فيتعلم التوحيد ليعمل به ويتعلم الشرك ليحذره ،والفرق بينهما أن تعلم التوحيد يكون إجمالا وتفصيلا فيحيط العبد بمعاقد أصوله وتفاصيل فصوله ، وأما تعلم الشرك فيكفي فيه معرفة أصوله الكلية ؛ لأن تفاصيله ليست مطلوبة من العبد ولا تتناهي أفرادها بحسب ما يستجد من أحوال الناس لكن من وعي أصوله وقواعده التي تجمعها كما سيأتي معنا في الشرح عرف تفاصيله إذا حدثت ، **واعلم أنه لا يصرفك عن الشرك إلا رحمة الله وتوفيقه لا بحولك وقوتك** .

وليس محمد بن عبد الوهاب أول من دعا الناس إلي هذه الدعوة المباركة وهي الدعوة إلي توحيد الله تبارك وتعالي الدعوة المفصلة والتحذير من الشرك التحذير المفصل، بل هي دعوة الأنبياء

والمرسلين جميعا من قبل كما قال صلي الله عليه وسلم فيما صح (الأنبياءُ إخوَةٌ لعَلَّاتٍ: دِينُهم واحِدٌ، وأُمَّهاتُهم شَتَّى) فالعقيدة والتوحيد واحد وإنما الاختلاف في الشرائع ، ومن الأكاذيب التي يفتريها الأفاكون الذين أرادوا توهين هذه الدعوة كذبهم أننا أردنا تعظيم دعوة ابن عبد الوهاب بتبشيع حال الناس بالقول بأن كثيرا منهم كان علي الشرك ، وهذا يرده أن كثيرا من علماء المسلمين خارج بلاد الحجاز قد دعوا لمثل ما دعا إليه ابن عبد الوهاب وحذروا من هذا الشرك الذي طبّق الأرض وعمَّها

فلمحمد بن إسماعيل الصعاني (1099-1182) صاحب سبل السلام شرح بلوغ المرام وهو من اليمن كتاب تطهير الاعتقاد من أدران الشرك والإلحاد ، وله أشعار يذم فيها الشرك والمشركين ، ومنها قوله

وقد هتفوا عند الشدائد باسمها : كما يهتف المضطر بالصمد الفرد

وكم عقروا في سُوحِها من عقيرة : أُهِلَّتْ لغير الله جهلاً على عمد

وكم طائف حول القبور مُقبِّل : ويلتمس الأركان منهن بالأيدي

وكذلك الإمام محمد بن علي الشوكاني (1173 -1255)كما في كتابه الدر النضيد .

قال العصيمي في شرح إبطال التنديد في بيان عظم دعوة ابن عبد الوهاب :

(ما يذكره علماء التوحيد والسنة من معاني الإيمان والتوحيد ليس شيئا أخذوه عن الآباء والأجداد ولا هو مذهب لابن عبد الوهاب ولا من أكبر منه كابن تيمية وأحمد ابن حنبل ، وإنما هو الدين الذي جاء به النبي صلي الله عليه وسلم ربه عز وجل ، وعاه من وعاه وجهله من جهله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وقد ذكر العلامة أبو بكر بن محمد عارف خوقير المكي فيي بعض ردوده عن بعض سادات أهل حضرموت : أنه لولا البقية من علماء أهل نجد لجهل توحيد العبادة ، وصدق رحمه الله فإن كلام السلف وعلماء القرون الوسطي في توحيد العبادة قليل لأن المخالف فيه نادر حينئذ وإنما بلي به المسلمون وعظم به الخطب في القرن العاشر فما بعده إلي يومنا هذا ، فندب الله عز وجل من اصطفاهم للقيام بهذه الوظيفة ولا يختص هذا الأمر بهم ، بل من وفق لما جاء في الكتاب والسنة من توحيد ربنا عز وجل فهو من علمائه وإن كان أعجميا في أقاصي الشرق أو الغرب ، ولكن كتب علماء الدعوة رحمهم الله تعالي هي نجوم الاهتداء ومصابيح الدجي في توحيد العبادة ، ولا يعرف قدر هذا إلا من مازج التآليف التي صنفها الموافق والمخالف في توحيد الله عز وجل ، فمن عاني ما كتبوا وطال ما كتبه غيرهم عرف ما لكل من ذلك ، وهذا يوجب علي العبد أن يعتني بهذه التآليف جمعا وقراءة وتفهما ليعرف دينه ، فإن التلبيس في أمر توحيد العبادة كثر في هذ الأزمان ، وابتلينا بجماعة من المتشرعة المنتسبين إلي بلاد التوحيد وهم ينقضون أساسه ويهتكون أستاره ويضعفون هبته

ويقلعون أوتاده ، لما استزلهم الشيطان وخرجوا عما عليه جماعة المسلمين إلي مذاهب رضوا بها فصار لهم ف أمر توحيد الله عز وجل مقالات باطلة – قلت مثل الشريف العوني قاتله الله – وصرت تسمع ما يَنقُض التوحيد أو يُنقِصه مما يتعلق بالشرك الأكبر أو الولاء والبراء أو غيرها من أصول التوحيد من أناس رضعوا لبان علوم هذه البلاد ،ولكن ليست الأرض محلا لساكنها ، فإن الأرض المقدسة لا تقدس أحدا ، وإنما يقدس الإنسانَ عملُه فإذا صلح عمل الإنسان أصلح الله قلبه سواء كان عربيا أو أعجميا ، **فينبغي أن يزداد خوف العبد علي توحيده ، وأن يجتهد في تخليصه من هذه الواردات ، وأن يحوطه بالعناية والرعاية ، فإن الطريق طويل ، والعقبة كؤود ، والعدو راصد ، والشياطين لها أحابيل ، والشبهات تغتال من الخلق ما تغتال ، فكم من امرئ عُدَّ من الموحدين انقلب علي عقبيه فصار في حزب المشركين ، لأنه لم يحتفل بتوحيده ، ولا شد يدَه عليه، ولا استعظم ما وهبه الله عز وجل من التوفيق بالدلالة إليه ، فصار بعدُ نهبةً للآراء والأهواء مستضعفا بها لما مال إليها وركن معجبا بقول فلان أو علان حتي خرج من التوحيد أو كاد يخرج ، فلا تظن أنك بمنأي عن هذا ، قال إبراهيم التيمي رحمه الله تعالي : من يأمن الباء بعد إبراهيم ، يعني الخليل عليه الصلاة السلام لما قال واجنبني وبني أن نعبد الأَصنام ، فإذا كان خليل رب لعالمين وصفوة الأنبياء الأول من الرسل يخاف علي نفسه وعلي بنيه الأصنام وهو الذي حطمها ونقض جمعها ، يخشي أن يقع في الشرك ، فما الظن بغيره حقيق به أن يكون خوفه من الشرك عظيما** ، فإن من خاف الشيء حذره وأمن منه ، من لم يخف الشيء اطمأن إليه فربما التبس به ، وكان الحسن البصري رحمه الله تعالي يقول : لأن تصحب أناسا يخوفونك كل يوم حتي تلقي الله آمنا خير من أن تصحب قوما يؤمنونك كل يوم تي تلقي الله خائفا فنسأل الله أن يؤمننا بتوحيده في الدنيا والآخرة) **انتهي .**

- والتوحيد لغة من وحّد يوحّد توحيدا ، جعل الشيء واحدا ، وصيغة **(فعّل)** تأتي أيضا كما هو مقرر في علم الصرف بمعني النسبة ، فالمراد بتوحيد الله نسبته سبحانه إلي الوحدانية ، لأن وحدانية ربنا جل وعلا ليست بجعل جاعل :فإنه أول بوحدانيته قبل خلق السماوات والأرض ، إلا أن يكون المراد بالجعل فعل العبد فإن الإيمان والتوحيد قول وعمل واعتقاد فيوحده سبحانه بقوله وعمله واعتقاده وهذا يحتاج إلي جهاد منه حتي لا يتلبس بشرك فجوّز الجعلَ بهذا المعني بعضُهم .

والتوحيد في الشرع : إفراد الله بحقوقه وخصائصه ، وحقوق الله العبادات ، وخصائصه أسماؤه وصفاته وأفعاله.

فنوحده في العبادة – وهو القسم الأول من أقسام التوحيد الثلاثة وهو توحيد العبادة أو توحيد الألوهية وهو توحيد الله بأفعال عباده ويسمي هذ النوع توحيد الألوهية باعتبار إضافته إلى الله، وتوحيد عبادة باعتبار إضافته إلى العبد – ونوحده فيه بأن لا يجعل شيء من حق الله لغيره ،

وحقوق الله العبادات كما سيأتي من حديث معاذ أن النبي صلي الله عليه وسلم قال " حق الله علي العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا "فلا نسوي بين الله وبين أحد من خلقه كائنا من كان لا ملكا ولا نبيا ولا حاكما ولا محكوما في شيء من العبادات ، فلا تصرف العبادة إلا له وحده سبحانه ، وليس المراد بالتسوية كم العبادات أوكيفيتها وإنما المراد بالتسوية مجرد الجعل ولوكان المجعول لغير الله عبادة واحدة ، والعبادة هي كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة .

ونوحده بأسمائه الحسني وصفاته العلا – وهو توحيد الأسماء والصفات - بأن نثبت ما أثبت لنفسه في كتابه او علي لسان رسوله - صلي الله عليه وسلم – من الأسماء الحسني والصفات العلا بلا تشبيه ولا تمثيل ، ولا تكييف ولا تعطيل ، فنثبت له اليدين اللتين أثبتهما لنفسه في عدة آيات كقوله (يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) لكن لا نشبهها بخلفه ولا نشبه يدي خلقه به سبحانه وتعالي ، ولا نمثلها بشيء من خلقه ، ولا نتصور لها كيفا معينا لأننا لم نره سبحانه ولم نخبر بخبر صادق عن هذا الكيف ، وعلي الجانب الاخر لا نعطلها بزعم التنزيه إنه هو الذي أثبتها سبحانه لا نحن ، ولا نحرفها لمعني آخر غير معناها المعروف في لسان العرب فإنه أنزل كلامه عربيا لنعقله وأمرنا بتدبره فمن المحال أن تكون ألفاظا جامدة لا معني لها ، وكل هذه الصور في التعامل مع صفاته وهي التمثيل والتشبيه والتكييف والتعطيل من الكفر به علي ما سياتي بيانه إن شاء الله تعالي .

وما كان منها مشتركا بين الله وخلقه فإن التوحيد فيه أن نفرد الله عز وجل بالكمال المطلق فيها فالكمال المطلق إنما هو لله عز وجل، ومع نفي التشبيه والتمثيل والتعطيل والتحريف.

فالله يوصف بأنه رحيم والعبد يوصف بذلك أيضا، وكذلك صفة العلم والحكمة، والله سمي نفسه العزيز وقد قال تعالي (قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا) ، الله سمي نفسه الحليم ، وقد قال تعالي (فبشرناه بغلام حليم) ، فتوحيد الله هنا يكون بان نفرد الله بالكمال المطلق في هذه الصفات والأسماء وإنما يكون للإنسان منها ما يناسبه ، علي تفصيل في الأسماء يأتي بيانه - إن شاء الله تعالي - في باب (احترام أسماء الله تعالي وتغيير الاسم من أجل ذلك) .

ونوحده بأفعاله - وهو توحيد الربوبية - بأن نعتقد أنه وحده المدبر المصرف المالك المحيي المميت لا شريك له في شيء من أفعاله سبحانه، وأما ما ورد من إثبات الملكية لغير الله كقوله تعالى: {إِلاّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ} ، وقوله تعالى: {أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ} فهو ملك محدود فالإنسان يملك ما تحت يده، ولا يملك ما تحت يد غيره، وكذا هو ملك قاصر من حيث الوصف، فالإنسان لا يملك ما عنده تمام الملك، ولهذا لا يتصرف فيه إلا على حسب ما أذن له فيه شرعا.

فمثلا: لو أراد أن يحرق ماله قلنا: لا يجوز، أما الله- سبحانه-، فهو يملك ذلك كله ملكا عاما شاملا.

وكذلك التدبير فإنه محصور بما تحت يد الإنسان، ومحصور بما أُذن له فيه شرعا.

وأما ما ورد من إثبات خالق غير الله كقوله تعالى: {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} ، وكقوله صلى الله عليه وسلم في المصورين وهم النحاتون والرسامون لذوات الأرواح فهي محرمة كما أخبر الرسول صلي الله عليه وسلم يقال لهم: ((أحيوا ما خلقتم)) علي ما سيأتينا مفصلا في بابه

فهذا ليس خلقا حقيقة، وليس إيجادا بعد عدم، بل هو تحويل للشيء من حال إلى حال، وأيضا ليس شاملا، بل محصورا بما يتمكن الإنسان منه، ومحصورا بدائرة ضيقة فلا ينافي قولنا: إفراد الله بالخلق.

واسم الرب يدور علي ثلاثة معان ذكرها ابن الأنباري وهي: السيد، المالك، المصلح للشيء القائم عليه ، وأبلغ ما يذكر وذكر في القران من أفعال الربوبية أربعة : الخلق والرزق والملك والتدبير .

فالتوحيد هو إفراد الله عز وجل بأفعاله، وإفراده بأفعال عباده - أي العبادات أي أفردوه وخصوه بالعبادات دون غيره سبحانه - وإفراده بأسمائه وصفاته.

وسمي دين الإسلام توحيدا لأجل ذلك ؛ فإن مبناه علي أن الله واحد في ملكه وأفعاله لاشريك له وواحد في ذاته وصفاته لانظير له ، وواحد في إلهيته وعبادته لاندَ له وإلي هذه الأنواع الثلاثة ينقسم توحيد الأنبياء والمرسلين الذي جاؤوا به من عند الله ، وهي متلازمة كل نوع منها لا ينفك عن الآخر.

وإن شئت قلت التوحيد نوعان توحيد المعرفة والإثبات وهو توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات ، وتوحيد القصد والطلب وهو توحيد الإلهية أوالعبادة ، فإن التأله هو التعبد وأله أله ألوهة و إلهة أي تعبد ، وهذه القسمة الثنائية لتوحيد الله لا تعارض القسمة الثلاثية لأن القسمة الثلاثية هي باعتبار ما وجب لله ، وأما القسمة الثنائية فباعتبار فعل العبد وما يجب عليه لله .

وإن شئت قلت توحيد علمي خبري اعتقادي ومرده إلي أفعال الله وأسمائه وصفاته ومورده العلم بما جاء في الكتاب والسنة من ذلك فهو خبري ومحل الإيمان به هو القلب فهو اعتقادي علمي ، وتوحيد عملي هو توحيد العبادة ، فمرده إلي أفعال المكلفين .

قال ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية

(وملاك النجاة والسعادة والفوز بتحقيق التوحيدين اللذين عليهما مدار كتب الله تعالى وبتحقيقهما بعث الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ، وإليهما رغب الرسل صلوات الله وسلامه عليهم " كلهم " من أولهم إلى آخرهم.

أحدهما : التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي المتضمن إثبات صفات الكمال لله تعالى وتنزيهه فيها عن التشبيه والتمثيل وتنزيهه عن صفات النقص.

والتوحيد الثاني : عبادته وحده لا شريك له ، وتجريد محبته ، والإخلاص له ، وخوفه ورجاؤه ، والتوكل عليه ، والرضى به ربا وإلها ووليا وأن لا يجعل له عدلا في شيء من الأشياء.

وقد جمع سبحانه وتعالى هذين النوعين من التوحيد في سورتي الإخلاص وهما : سورة : (قل يأأيها الكافرون) المتضمنة للتوحيد العملي الإرادي ، وسورة : (قل هو الله أحد) المتضمنة للتوحيد الخبري العلمي.

فسورة : (قل هو الله أحد) فيها بيان ما يجب لله تعالى من صفات الكمال ، وبيان ما يجب تنزيهه عنه من النقائص والأمثال ، وسورة : (قل يأأيها الكافرون) فيها إيجاب عبادته وحده (لا شريك له) والتبري من عبادة كل ما سواه ولا يتم أحد التوحيدين إلا بالآخر ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ بهاتين السورتين في سنة الفجر والمغرب والوتر اللتين هما فاتحة العمل وخاتمته ليكون مبدأ النهار توحيدا وخاتمته توحيدا.

فالتوحيد العلمي الخبري له ضدان التعطيل والتشبيه والتمثيل فمن نفى صفات الرب عز وجل وعطلها كذب تعطيله توحيده ، ومن شبهه بخلقه ومثله بهم كذب تشبيهه وتمثيله توحيده.

والتوحيد الإرادي العملي له ضدان : الإعراض عن محبته والإنابة إليه والتوكل عليه أوالإشراك به في ذلك واتخاذ أوليائه شفعاء من دونه.

وقد جمع سبحانه وتعالى بين التوحيدين في غير موضع من القرآن فمنها قوله تعالى : (يأأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) – فهنا أقام الله الحجة بربوبيته التي قر بها المشركون علي ألوهيته ووحدانيته في العبادة فقال اعبدوا ربكم لأنه هو الذي رباكم فلا حق لغيره في العبادة البتة - ومنها قوله تعالى : (الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن

صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين هو الحي لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين).

ومنها قوله تعالى : (الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم)**انتهي كلامه** .

- وغالب سور القران تتعلق بتوحيد العبادة ؛ فبيان توحيد العبادة أكثر بكثير من النوعين الآخرين ؛ لأن توحيد العبادة هو المراد من الخلق ، فهو الذي خُلقوا لأجله فوقع بيانه في القران مستفيضا واضحا جليا ، بل لم يذكر توحيد الربوبية والأسماء والصفات فيه إلا ليكون قنطرة إلي الإقرار بالعبودية لأن من أقرَّ بالربوبية والأسماء ولصفات ألزمه أن يقرَّ بتوحيد العبادة ، وإلا فإقراره بالربوبية والأسماء والصفات ناقص بل شركه في العبادة متضمن للشرك فيهما كما سيأتي في مسألة التلازم بين أقسام التوحيد .

- ومشاهد الخلق فيما يتعلق بحق الله من التوحيد من هذه الأقسام الثلاثة علي مراتب :

أولها : مشهد من يشهد ربوبية الله وقدرته ومشيئته فقط.

الثاني : مشهد من يشهد إحسانه وفضله وإنعامه فقط .

الثالث : مشهد من يشهد ربوبيته وفضله ومشيئته مع رحمته وإحسانه وفضله مع إلهيته وعبادته وحده ومحبته وحمده وهذا المشهد الثالث هو المشهد الكامل المأمور به شرعا وهو مشهد أهل العلم والإيمان من أل السنة والجماعة ، وأما المشهدان الآخران فالاقتصار عليهما نقص لقيامهما ببعض حق الله .

- ودليل هذه القسمة الثلاثية الاستقراء وهو حصر النصوص وتتبعها ، وباستقراء النصوص من الكتاب والسنة وجدناها لا تخرج عن كونها إما متعلقة بأفعال الله ، وإما بأفعال العباد ، وإما بأسماء الله وصفاته .

وهذه الأقسام الثلاثة لها دلائل كثيرة في الكتاب والسنة واقوال السلف في مصنفاتهم في العقيدة كما سنمثل من كتبهم لا كما يدعي الجهال أنها تثليث كتثليث النصاري**!!** كما ادعاه ونشره حسن بن علي السقاف قاتله الله كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا .

قال الشيخ سليمان بن عبد الله كما في (تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد) :

النوع الأول : **توحيد الربوبية** والملك وهو توحيد الله بأفعال نفسه ، إقرار بأن الله تعالي رب كل شيء ومالكه ومدبره وخالقه ورازقه إلي غير ذلك من أفعال الله التي يختص بها سبحانه ،وأنه المحيي المميت النافع الضار المتفرد بإجابة الدعاء الاضطرار الذي له الأمر كله وبيده الخير كله القادر علي ما يشاء ليس له في ذلك شريك ويدخل في ذلك الإيمان بالقدر وهذا التوحيد لا يكفي العبد في حصول الاسلام بل لا بد أن يأتي معه بلازمه من توحيد الإلهية لأن الله تعالي حكي عن المشركين أنهم مقرون بهذا التوحيد لله وحده قال تعالي في ذلك وفي تفرده بالربوبية سبحانه (الحمد لله رب العالمين) ،وقال (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) ، وقال (قل من رب السماوات والأرض قل الله) وقوله (قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون)وقوله (ولئن سالتهم من خلقهم ليقولن الله فأني يؤفكون) وقوله (ولئن سالتهم من نزل من السماء ماء فاحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله) وقوله (الله خالق كل شيء وهو علي كل شيء وكيل) وقوله (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) قال مجاهد تلميذ ابن عباس (إيمانهم قولهم الله خالقنا ورازقنا مع شرك عبادتهم غيره) **فهم كانوا يعلمون أن جميع ذلك لله وحده ولم يكونوا بذلك مسلمين** فتبين أن الكفار كانوا يعرفون الله ويعرفون ربوبيته وملكه وقهره وكانوا مع ذلك يعبدونه ويخلصون له أنواعا من العبادات كالحج والصدقة والذبح والنذر والدعاء وقت الاضطرار ونحو ذلك ويدعون أنهم علي ملة ابراهيم عليه الصلاة والسلام فأنزل الله (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين).

إلي غير ذلك من الآيات الكثيرة في بيان هذا النوع من التوحيد

وبعضهم كان يؤمن بالبعث ويؤمن بالحساب والقدر كما قال زهير

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر   ليوم الحساب او يعجل فينقم

وقال عنترة

يا عبل اين من المنية مهرب   اذا كان ربي في السماء قضاها

ومثل هذا يوجد في أشعارهم فيجب علي كل من عقل عن الله تعالي أن ينظر ويبحث عن السبب الذي اوجب سفك دمائهم وسبي نسائهم وإباحة أموالهم مع هذا الإقرار والمعرفة وما ذاك إلا لإشراكهم في توحيد العبادة الذي هو معني لا إله إلا الله .

النوع الثاني : توحيد الأسماء والصفات :

وهو الإقرار بأن الله سبحانه له أسماء حسني وصفات عليا

نثبت لله سبحانه ما أثبته لنفسه في كتابه أو علي لسان رسوله صلي الله عليه وسلم من الأسماء والصفات من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل

وننفي عنه سبحانه ما نفاه عن نفسه ونفاه عنه رسوله صلي الله عليه وسلم مع اعتقاد كمال ضده ، فنفي عن نفسه السنة والنوم لكمال حياته وقيوميته ، ونفي عن نفسه الظلم لكمال عدله سبحانه ، ونفي العجز لكمال قدرته -عز وجل- إلي غير ذلك من الصفات المنفية عنه سبحانه

وسيأتي تفصيل ذلك في بابه إن شاء الله تعالي وانما المراد هنا إيراد أدله أقسام التوحيد الثلاثة ردا علي من ينفونه ويقولون بجهلهم هذا تقسيم مبتدع لا دليل عليه وإنما أحدثه ابن عبد الوهاب وابن تيمية رحمهما الله .

ومن أدلته قوله تعالي (الرحمن الرحيم مالك يوم الدين) وقوله (قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن أيما تدعوا فله الأسماء الحسني) وقوله (ولله الأسماء الحسني فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون)وقوله (هل تعلم له سميا) وقوله (الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسني)

وهذا أيضا لا يكفي في حصول الاسلام بل لا بد مع ذلك من الإتيان بلازمه من توحيد الربوبية والألوهية ، والكفار مقرون بجنس هذا النوع وإن كان بعضهم قد ينكر بعض ذلك إما جهلا وإما عنادا كما قالوا : لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة فأنزل الله فيهم (وهم يكفرون بالرحمن) أي بالاسم لا بالمسمي والمدلول إذ كانوا يعبدون الله تعالي ولكن أشركوا معه آلهتهم .

قال ابن كثير : والظاهر أن إنكارهم إنما هو جحود وعناد وتعنت في كفرهم فإنه قد وجد في بعض أشعار الجاهلية تسمية الله بالرحمن قال شاعرهم

وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق ...

وقال آخر :

ألا قضب الرحمن ربي يمينها

وهما شاعران جاهليان

ولم يعرف عنهم انكار شيء من ذلك التوحيد إلا في اسم الرحمن خاصة ولو كانوا ينكرونه لردوه علي النبي صلي الله عليه وسلم كما ردوا عليه توحيد الألوهية فقالوا (أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب) ، لا سيما السور المكية مملوءة بهذا التوحيد .

القسم الثالث:توحيد العبادة أوالألوهية وهو مصدر أله يأله ألوهة وإلاهة، و الإلهية نسبة للتأله أي التعبد وهو توحيد الله بأفعال عباده من جميع أنواع العبادات وهو مبني علي إخلاص التأله لله وحده من المحبة والرجاء والتوكل والرغبة والرهبة والذبح والنذر وغيرها من العبادات قولا أو عملا او اعتقادا لا يجعل فيها شيء لغير الله الواحد لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل

فخرج بقولنا توحيد العبادة ما كان علي غير وجه التقرب كالعاديات وهي ما يفعله العبد علي سبيل العادة فهذه لا دخل لها بكلامنا ، كالأكل والشرب ونحوها لكن إن حتسبها للتقوِّي علي عبادة الله وحده أجر عليها وقد قال صلي الله عليه وسلم (أحتسب نومتي كما أحتسب قومتي).

وأدلة هذا التوحيد كثيرة

قال تعالي (إياك نعبد وإياك نستعين) أي نخصُّك بالعبادة لتقديم الضمير علي الفعل ، قال ابن عباس في تفسيرها كما ذكره الطبري في التفسير (إياك نوحد ونخاف ونرجو يا ربنا لا غيرك) ، وهذا يفيد الحصر والقصر وقوله (فاعبد الله مخلصا له الدين) و(ألا لله الدين الخالص) و(قل الله أعبد مخلصا له ديني) وكقوله تعالي (قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مئاب) وقوله تعالي (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء) وغيرها من الايات الكثيرة .

بل القران كله في بيان هذا التوحيد ، بل كل آية فهي داعية إلي هذا التوحيد شاهدة به ، متضمنة له ، لأن القران :

- إما خبر عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله وهو توحيد الربوبية وتوحيد الصفات فذاك مستلزم لهذا متضمن له وإما دعاء الى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه أوأمر بانواع من العبادات ونهي عن المخالفات فهذا هو توحيد الالهية والعبادة وهو مستلزم للنوعين الأولين متضمن لهما ايضا .

- وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيده وطاعته وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده .

- وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبى من الوبال فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد وهذا التوحيد هو حقيقة دين الاسلام الذي لا

يقبل الله من أحد سواه كما قال النبي ﷺ بني الاسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت رواه البخاري ومسلم ، فأخبر أن دين الإسلام مبني على هذه الأركان الخمسة وهي الأعمال فدل على أن الاسلام هو عبادة الله وحده لا شريك له بفعل المأمور وترك المحظور والاخلاص في ذلك لله وقد تضمن ذلك جميع أنواع العبادة فيجب إخلاصها لله تعالى فمن أشرك بين الله تعالى وبين غيره في شيء فليس بمسلم) **انتهي كلامه بتصرف .**

- وكل من ابتدع قسما رابعا فهو داخل في هذه الثلاثة لكن أهل البدعة يفردونه لهوي في أنفسهم ، غير أنه يترتب عليه مفاسد فإذا قلت توحيد الحاكمية ظن الظان أن من جاء به فهو موحد وإن أهمل الأقسام السابقة ، مثلهم مثل من يجعل المراد بالتوحيد توحيد الربوبية وأهملوا توحيد العبادة كما عليه الأشاعرة وغيرهم كما سيأتي من كلام أئمتهم ، تشابهت قلوبهم **!** ، والحاكمية سيأتي أن لها تعلقا بجميع أنواع التوحيد الثلاثة فمن جهة تعلقها بصفة من صفاته سبحانه وهو الحكم و كذلك فعله فمن توحيد الربوبية والأسماء والصفات ، ومن جهة تعلقها بالمخلوق من جهة التحاكم والتحكيم فداخل في توحيد العبادة .

- واعلم أن جميع الرسل قد بعثوا بأقسام التوحيد الثلاثة ،ودعوا إليها جميعا ، فمن الغلط أن يقال أن الرسل لم يدعوا إلا إلي توحيد العبادة فقط وهمشوا القسمين الآخرين **!**، وإنما يقال أن الأقوام كان عندهم شيء من توحيد الربوبية وشيء من توحيد الأسماء والصفات ولم يكن عندهم شيء من توحيد العبادة ؛ فدعت الرسل إلي الأقسام الثلاثة إلا أنهم لما وافقت دعوتهم ما عندهم في النوعين الأولين وخالفوا هم في الثالث وقعت الخصومة في توحيد العبادة ، فالنزاع والخصومة بين الرسل وأقوامهم في توحيد العبادة لا في القسمين الآخرين .

وكما تري الأدلة من كتاب الله متوافرة علي هذه الاقسام الثلاثة .

ومن الآيات التي جمعت أقسام التوحيد الثلاثة قول الله تبارك وتعالي في سورة مريم (رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا)

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي في تفسيره :

(اشتملت آية {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} على أصول عظيمة على توحيد الربوبية وأنه تعالى رب كل شيء وخالقه ورازقه ومدبره، وعلى توحيد الألوهية والعبادة وأنه تعالى الإله المعبود وعلى أن ربوبيته موجبة لعبادته وتوحيده ولهذا أتى فيه بالفاء في قوله: {فَاعْبُدْهُ} الدالة على السبب أي فكما أنه رب كل شيء فليكن هو المعبود حقًا فاعبده ومنه: الاصطبار لعبادته تعالى وهو جهاد النفس وتمرينها وحملها على عبادة الله تعالى فيدخل في هذا أعلى أنواع الصبر وهو الصبر على الواجبات والمستحبات والصبر عن المحرمات والمكروهات، بل يدخل في ذلك الصبر على البليات فإن

الصبر عليها وعدم تسخطها والرضى عن الله بها من أعظم العبادات الداخلة في قوله: {وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ}، واشتملت على أن الله تعالى كامل الأسماء والصفات عظيم النعوت جليل القدر وليس له في ذلك شبيه ولا نظير ولا سمي بل قد تفرد بالكمال المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات) **انتهي كلامه.**

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله - في تفسيره (وقد دل استقراء القران العظيم علي أن توحيد الله ينقسم لثلاثة أقسام) ثم أخذ يُعدِّدها بأدلتها السابقة .

وقال الشوكاني في كتابه (إرشاد الثقات علي اتفاق الشرائع علي التوحيد والمعاد والنبوات)

(واعلم أن إيراد الآيات القرانية علي إيراد كل مقصد من هذه المقاصد ، وإثبات اتفاق الشرائع عليها ، لا يحتاج إليه من يقرأ القرآن العظيم ، فإنه إذا أخذ المصحف الكريم وقف علي ذلك في اي موضع شاء ، ومن أي مكان أحب ، وفي أي محل منه أراد ، ووجده مشحونا به من فاتحته إلي خاتمته) .

وقال الشيخ بكر ابو زيد رحمه الله في كتابه التحذير من مختصرات الصابوني :

(هذا التقسيم الاستقرائي لدي متقدمي علماء السلف أشار اليه ابن منده وابن جرير الطبري وغيرهما شيخا الاسلام ابن تيمية وابن القيم وقرره الزبيدي في تاج العروس وشيخنا الشنقيطي في اضواء البيان وهو استقراء تام لنصوص الشرع وهومطرد لدي اهل الفن كما في استقراء النحاة كلام العرب الي اسم وفعل وحرف والعرب لم تفه بهذا ولم يعتب علي النحاة ذلك عاتب وهكذا من انواع الاستقراء) .

واليك من كلام السلف المتقدمين في تقرير هذا التقسيم

قال الإمام أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري المتوفي سنة 387 في كتابه الابانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة :

(وذلك أن أصل الايمان بالله الذي يجب علي الخلق اعتقاده في إثبات الإيمان به ثلاثة اشياء :

أحدها : أن يعتقد العبد ربانيته ليكون بذلك مباينا لمذهب أهل التعطيل الذين لا يثبتون صانعا .

والثاني : أن يعتقد وحدانيته ليكون مباينا بذلك لمذاهب اهل الشرك الذين أقروا بالصانع وأشركوا معه في العبادة غيره .

والثالث : أن يعتقد موصوفا بالصفات التي لا يجوز إلا ان يكون موصوفا بها من العلم والقدرة والحكمة وسائر ما وصف به نفسه في كتابه اذ قد علمنا أن كثيرا ممن يقر به ويوحده بالقول

المطلق قد يلحد في صفاته فيكون الحاده في صفاته قادحا في توحيده ولأنا نجد الله تعالي قد خاطب عباده بدعائهم الي اعتقاد كل واحدة من هذه الثلاث والايمان بها فأما دعاؤه اياهم الي الاقرار بربانيته ووحدانيته فلسنا نذكر هذا هاهنا لطوله وسعة الكلام فيه ولأن الجهمي يدعي لنفسه الإقرار بهما وإن كان جحده للصفات قد أبطل دعواه لهما ......)**انتهي كلامه .**

وقال الطحاوي في عقيدته

(نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله : إن الله واحد لا شريك له، ولا شيء مثله، ولا شيء يعجزه، ولا إله غيره) فقوله أن الله واحد فيه إثبات وحدانية الله في أنواع التوحيد الثلاثة ، وقوله (ولا شيء مثله) فيه إثبات توحيده في اسمائه وصفاته ، وقوله (ولا شيء يعجزه) فيه إثبات توحيده بافعال ربوبيته سبحانه ، وقوله (ولا إله غيره) فيه إثبات توحيده في العبادة) .

وقال ابن أبي زيد القيرواني في عقيدته

(الإيمان بالقلب، والنطق باللسان: أن الله إله واحد لا إله غيره، ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا والد له، ولا صاحبة له، ولا شريك له).

وقال ابن تيمية كما في بيان تلبيس الجهمية (478/1)

(والمقصود هنا أن التوحيد الذي أنزل الله به كتبه وارسل به رسله وهو المذكور في الكتاب والسنة وهو المعلوم بالاضطرار من دين الاسلام ليس هو هذه الأمور الثلاثة التي ذكرها هؤلاء المتكلمون وإن كان فيها ما هو داخل في التوحيد الذي جاء به الرسول فهم مع زعمهم أنهم الموحدون توحيدهم التوحيد الذي ذكر الله ورسوله بل التوحيد الذي يزعمون الاختصاص به باطل في الشرع والعقل واللغة **وذلك أن توحيد الرسل والمؤمنين هو عبادة الله وحده،** فمن عبد الله وحده ولم يشرك به شيئًا فقد وحده، ومن عبد من دونه شيئًا من الأشياء فهو مشرك به ليس بموحد مخلص له الدين وإن كان مع ذلك قائلا بهذه المقالات التي زعموا انها التوحيد حتى لو أقر بأن الله وحده خالق كل شيء، وهو التوحيد في الأفعال، وهذه حال مشركي العرب الذين بعث الرسول إليهم ابتداء، وأنزل القرآن ببيان شركهم، ودعاهم إلى توحيد الله، وإخلاص الدين له، فإنهم كانوا يقرون بأن الله وحده هو الذي خلق السماوات والأرض كما أخبر الله بذلك عنهم في القرآن) .

- بيان حقيقة شرك الجاهلية ومحل النزاع بين الرسل وأقوامهم :**

حقيقة شرك الجاهلية هو عبادة غير الله عز وجل معه، و التوحيد الذي جاءت به الرسل هو إفراد الله بالعبادة ، لا كما يقول الأشعرية القبورية المشركة ممن لم يعلم ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه أنه إفراد الله بالخلق والرزق وأفعال ربوبيته سبحانه فعندهم هذا هو الإسلام فمن اعتقد ذلك صار مسلما وإن أشرك مع الله غيره في العبادات فحصروا التوحيد في توحيد

الربوبية وأخرجوا منه توحيد الألوهية والعبادة وقد سبق أن كفار الجاهلية الذين بعث فيهم النبي صلي الله عليه وسلم كانوا موحدين لله عز وجل في الربوبية في الجملة أصلا ، فإننا في هذا العصر في محنة وهي محنة كل عصر فقد غلط أكثر الناس في مسمي التوحيد وظهرت الفرق التي أخبر بها النبي صلي الله عليه وسلم حتي صار لكل فرقة توحيد ، وكل فرقة تزعم أن توحيدها هو التوحيد الذي جاء به النبي صلي الله عليه وسلم .

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن في رسالته في الرد علي الكشميري

(وقد غلط أكثر الفرق الثلاث والسبعين في مسمي التوحيد ، وكل فرقة لها توحيد تعتقد أنه هو الصواب حتي الأشاعرة القائلين بأن معني الإله : الغني عما سواه المفتقر إليه كل من عداه ويقولون هم أهل السنة وهيهات هيهات ولم يصبر منها علي الحق إلا فرقة واحدة وهم الذين عرفوا التوحيد علي الحقيقة من الآيات المحكمات وصحيح السنة) . **انتهي** .

وقال ابن تيمية في كتابه" اقتضاء الصراط المستقيم مخالفةَ أصحاب الجحيم" :

(وقد غلط في مسمى التوحيد طوائف من أهل النظر والكلام، ومن أهل الإرادة والعبادة، حتى قلبوا حقيقته) .

ولتحقيق المقام اعلم – رحمك الله –

أنه لما فشا الجهل بالتوحيد تجد الكثيرين إذا وجدوا من يتكلم وفي لسانه ذكر لله جل وعلا أو يذكر الله بلسانه ويصلي ويتصدق ويقرأ القرآن يزعمون أنه مسلم ولو أشرك مع الله غيره في عبادته .

وعلي هؤلاء أن يعلموا أن ليس هذا هو المقصود في المقام الأول وإنما هذه الشرائع جاءت بعد التوحيد بعد أن ظل رسول الله - صلي الله عليه وسلم – عشرة أعوام لا يدعوا إلا إليه فإذا لم يقم التوحيد في قلب صاحبه لم تقبل هذه الشرائع .. كما قال الله تعالي (ولقد أوحي إليك وإلي الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين)

وأول شريعة فرضت الصلاة في السنة العاشرة من البعثة ثم الصيام في الرابعة عشرة ثم الحج في التاسعة عشرة أو بعد ذلك ، ففرضت العبادات مؤخرا مما يبين أن العبادات لها أصل تنبني عليه لا تقوم ولا تصح من صاحبها إلا به ألا وهو التوحيد قولا وعملا ونفي الشرك والبراءة منه ومن أهله .

ومشركو العرب الذين بعث فيهم النبي محمد صلي الله عليه وسلم كانوا أهل تعبد وكانوا يصلون ويتصدقون ويصومون ويعتكفون ويَصِلون الأرحام ويحجون علي ما ورثوه من بقايا من ملة إبراهيم عليه وعلي نبينا الصلاة والسلام .

والدليل حديث أبي ذر رضي الله عنه كما عند مسلم (كنت أصلي قبل بعثة النبي بثلاث سنوات)

وحديث عمر (يا رسول الله إني نذرت أن أعتكف ليلة في الجاهلية فقال له الرسول صلي الله عليه وسلم أوف بنذرك) .

وقول خديجة رضي الله عنها بعد ما بعث النبي وفاجأه الوحي قالت (كلا والله لا يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتَقرِي الضيف وتعين الملهوف).

إلي غير ذلك مما يبين أن مشركي العرب كانوا أهل تعبد .

ومع هذا لم يكونوا مسلمين بل بعث الله إليهم محمدا صلي الله عليه وسلم يأمرهم أن يوحدوا الله !

وقاتلهم واستحل دماءهم وأرضهم وغزاهم

فكيف مع كل هذا العبادات عندهم ؟!

فإن قلت لأنهم اعتقدوا أن أصنامهم تخلق وترزق مع الله

فهذا أيضا غير صحيح بل كانوا يعتقدون أن الله هو الرازق الخالق المحيي المميت لا آلهتهم وهذا كثير في القرآن ..قال الله (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأني يؤفكون) ، وقال تعالي (وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون) قال مجاهد تلميذ ابن عباس (ايمانهم قولهم الله خالقنا ورازقنا مع شرك عبادتهم غيره) فهم كانوا يعلمون ان جميع ذلك لله وحده ولم يكونوا بذلك مسلمين فتبين ان الكفار كانوا يعرفون الله ويعرفون ربوبيته وملكه وقهره وكانوا مع ذلك يعبدونه ويخلصون له انواعا من العبادات كالحج والصدقة والذبح والنذر والدعاء وقت الاضطرار ونحو ذلك ويدعون انهم علي ملة ابراهيم عليه الصلاة والسلام فانزل الله مع ذلك قوله (ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين).

فرغم أنهم كانوا أهل تعبد وكانوا مؤمنين بأن الله هو الخالق الرازق .. لم يدخلهم ذلك في الإسلام .

قال ابن تيمية:

((لم يقل احد من الكفار ان احدا بخلق او يرزق او يدبر امرا بل كلهم يقرون ان الفاعل لذلك هو الله وهم يعرفون الله بذلك وهذا الاقرار لم يدخلهم في الاسلام ولا اوجب الكف عن قتالهم وتكفيرهم)) .

قال محمد بن عبدالوهاب في رسالته لبعض علماء المدينة:

((ويكون عندك معلوماً أن لله تعالى أفعالاً وللعبيد أفعالاً، فأفعال الله الخلق والرزق والنفع والضر والتدبير؛ وهذا أمر ما ينازع فيه لا كافر ولا مسلم.

وأفعال العبد: العبادة؛ كونه ما يدعو إلا الله، ولا ينذر إلا لله، ولا يذبح إلا له، ولا يخاف خوف السر إلا منه، ولا يتوكل إلا عليه.

فالمسلم: من وحد الله بأفعاله سبحانه وأفعاله بنفسه.

والمشرك: الذي يوحد الله بأفعاله سبحانه ويشرك بأفعاله بنفسه)) **الرسائل الشخصية .**

بل كانوا أيضا أهل خلق ولهذا قال رسولنا صلي الله عليه وسلم (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) فجاء ليتمم ما وجد فيهم أصلا من مكارم الخلق ولم يقل بعث ليؤسس ، ومع ذلك لم يجعلهم ذلك مسلمين أيضا .

بل كانوا يثبتون لله الأسماء والصفات كما سبق بيانه من أشعارهم وتفسير ابن كثير في آية الفرقان التي تقدم تفسيرها .

ولم يجعلهم ذلك كله مسلمين !

بل كانوا يخلصون الله الدعاء لكن في الشدة دون الرخاء ، ولم يجعلهم ذلك مسلمين أيضا حتي يفردوا الله ويخلصوا له جميع العبادات لا الدعاء فقط ، وفي جميع لحظات الحياة في الشدة والرخاء لا في الشدة فقط ، قال تعالي (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) وقال تعالي وقاتلوهم حتي لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) ، وقال (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلي البر إذا هم يشركون) ونحوها من الايات

إنما السبب الذي كانوا به كفارا ومشركين مع كل ما سبق أنهم أشركوا مع الله تعالي غيره في العبادة ..فقد جعلوا آلهتهم وسائط بينهم وبين الله في طلب الرزق وشفعاء يشفعون لهم عند الله فكانوا يتوجهون بالعبادات لغير الله مع الله فكانوا يذبحون ذبح القربان لله ويذبحون أيضا لآلهتهم مع الله ، و يدعون الله ويدعون آلهتهم مع الله إلي غير ذلك من العبادات فكانوا بذلك مشركين كما يفعله مشركو زماننا يدعون النبي من دون الله ويتوجهون إلي الأموات مع الله بمختلف العبادات ، فلم يكن مشركو العرب بالغباء الذي يجعلهم يصنعون صنما يعبدونه ثم يأكلونه إذا جاعوا ! بل إنما عبدوها ظنا منهم أن أرواح الصالحين تسيح بعد موتهم وتتركب في أصنامهم وتحل فيها فكانوا يسألونها فتجيبهم فظنوا أن الأموات هم الذين يجيبونهم لكن في الحقيقة الشياطين هي التي كانت تجيبهم ولهذا قال تعالي في سورة سبأ (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا

ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ) سبحان الله عما يشركون !

وفي ذلك يقوله الله جل وعلا في سورة يونس مبينا حقيقة شرك الجاهلية (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) ، وقال تعالي في سورة الزمر (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ) .

غير أن أول شرك وقع في العالم شرك قوم نوح وسيأتي في شرح باب (الغلو في الصالحين يصيرها أوثانا تعبد) أنهم كانوا يتوجهون بالعبادات للأموات من الصالحين ، وقد كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم علي التوحيد فلما حصل الشرك في قوم نوح الذي هو أول رسول بعد آدم أرسل الله إليهم نوحا أن لاتعبدوا إلا الله ، يدل علي ذلك ما رواه مسلم في " صحيحه " من حديث عياض بن حمار المجاشعي ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى : " إني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا "

وقال ابن تيمية رحمه الله مجموع الفتاوى167 – 165) :

وهذا كان أول أسباب الشرك في قوم نوح وعبادة الأوثان في الناس ، قال ابن عباس: (كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، ثم ظهر الشرك بسبب تعظيم قبور صالحيهم) انتهى.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين

ودليل ذلك قول الله عز وجل

(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

قال الطبري (إن الله عز وجل أخبر عباده أن الناس كانوا أمة واحدة على دين واحد وملة واحدة)

يعني علي ملة التوحيد فإن الناس إذا انحرفت عقائدهم فلا بد أن يختلفوا ويتقاتلوا ويتناحروا ، ولن يجتمعوا إلا إذا صحت واتحدت عقائدهم .

قال ابن كثير

(كانوا على ملة آدم ، عليه السلام ، حتى عبدوا الأصنام ، فبعث الله إليهم نوحا ، عليه السلام ، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ، ولهذا قال : (وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم)أي : من بعد ما قامت عليهم الحجج وما حملهم على ذلك إلا البغي من بعضهم على بعض ، (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) انتهي .

فإذا علمت هذا علمت أن العبرة بتوحيد الله في العبادات وليس في أنهم يحجون ويصومون وهم مشركون فتكون أعمالهم هباء منثورا مع شركهم بالله في العبادة

وعلمت أن ما يفعله مشركو زماننا من التوجه للأموات وللنبي محمد نفسه في قبره ويتوجهون إليهم ويدعونهم من دون الله أن يشفعوا لهم عند الله ويذبحون لهم ويستغيثون ويستعينون بهم إلي غير ذلك من العبادات

علمت أن هذا من الشرك الذي حذر منه الله ورسوله ويخلد في النار من ارتكبه ..

وعلمت أن إخلاص القلب والعمل وتوجهه لله وحده في العبادات هو زبدة الرسالات الإلهية وهو مدار بعثة الأنبياء والمرسلين وبدونه لا يقبل الله من العبد صرفا ولا عدلا

فعيسي ومريم اتخذهم كثير من الناس إلهين من دون الله وكذلك النبي محمد صلي الله عليه وسلم وكذلك البدوي والجيلاني والحسين وغيرهم فإن قلت كيف اتخذوهم كذلك ؟

فنقول اتخذوا آلهة من دون الله بأن طلبوا منهم ودعوهم أن يشفعوا لهم عند الله وطلبوا منهم المدد من دون الله وتوجهوا إليهم بمختلف أنواع العبادات .

فهذا هو شركهم الذي أحبط عملهم وخلدهم في النار.

وبهذا نعرف أن للإسلام حقيقة مالم يحققها العبد فليس بمسلم بأي حال وإن كان من أعبد الناس ، وهي توحيد الله بالعبادة فلا تصرف لغيره أبدا فهو الأصل الذي قامت لأجله السماوات والأرض وبها يكون المرء مسلما وإن كان من أهل الفترة الذين لم يسمعوا برسالة رسول ، وبمناقضتها يكون مشركا كافرا ولو كان جاهلا أميا ولو لم تبلغه رسالة فهذا حكمه الدنيوي أما في الآخرة فيمتحن يوم القيامة لأن الله لا يعذب أحدا إلا بعد بلوغ الحجة أما حكمه في الدنيا فعلي ظاهر الأمر ..

فتبين بذلك أن مجرد توحيد الربوبية الذي أقر به المسلم والكافر لا يكفي وحده ، بل لا يكفي مع إثبات الاسماء والصفات حتي يقترنا معا بتوحيد الإلهية الذي هو لازم توحيد الربوبية والاسماء والصفات ولهذا حاج الله المشركين في ايات كثيرة بإثباتهم ربوبيته مع شركهم به غيره في التوجه والعبادة ! ، وهذا مناقض للعقل والفطر السليمة فإن الخالق الرازق المدبر وحده هو المستحق للعبادة وحده

ولم يصف أحد من أهل العلم من جاء بتوحيد الربوبية بأنَّه موحد هكذا على الإطلاق، وإنَّما يُوصف بالموحد عندهم من جاء بالتوحيد بأقسامه الثلاثة.

لكن اعلم أن جميع الرسل قد بعثوا بأقسام التوحيد الثلاثة ،ودعوا إليها جميعا ، فمن الغلط أن يقال أن الرسل لم يدعوا إلا إلي توحيد العبادة فقط وهمشوا القسميين الآخرين ، وإنما يقال أن الأقوام كان عندهم شيء من توحيد الربوبية وشيء من توحيد الأسماء والصفات ولم يكن عندهم شيء من توحيد العبادة ؛ فدعت الرسل إلي الأقسام الثلاثة إلا أنهم لما وافقت دعوتهم ما عندهم في النوعيين الأولين وخالفوا في الثالث وقعت الخصومة في توحيد العبادة ، فالنزاع والخصومة بين الرسل وأقوامهم في توحيد العبادة لا في القسمين الآخرين .

وفي ما سبق قال الله تعالى: {فَلاَ تَجْعَلُوا لله أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} .

قال ابن عباس: "أي لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر وأنتم تعلمون أنَّه لا رب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أنَّ الذي يدعوكم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم من توحيده هو الحق الذي لا شك فيه ".

وقال قتادة: "أي تعلمون أنَّ الله خلقكم وخلق السموات والأرض ثم تجعلون له أنداداً".

وقال ابن جرير " ... ولكن الله جل ثناؤه قد أخبر في كتابه عنها أنَّها كانت تقر بالوحدانية غير أنَّها كانت تشرك في عبادته ما كانت تشرك فيها فقال جلَّ ثناؤه: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ} ، وقال: {قُلْ مَن يَّرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَّمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُّخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ}

فروى عن ابن عباس أنَّه قال: "من إيمانهم إذا قيل لهم من خلق السماء، ومن خلق الأرض ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله ، وهم مشركون".

وعن مجاهد قال: "إيمانهم قولهم: الله خالقنا ويرزقنا ويميتنا فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره"

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: "ليس أحد يعبد مع الله غيره إلا وهو مؤمن بالله ويعرف أنَّ الله ربه، وأنَّ الله خالقه ورازقه وهو يشرك به، ألا ترى كيف قال إبراهيم: {أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ الأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ} ، قد عرف أنَّهم يعبدون رب العالمين مع ما يعبدون، قال: فليس أحد يشرك إلا وهو مؤمن به، ألا ترى كيف كانت العرب تلبي تقول لبيك اللهم لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك، المشركون كانوا يقولون هذا"

وقال الصنعاني - رحمه الله - في تطهير الاعتقاد : "ولفظ الشريك يشعر بالإقرار بالله تعالى"

وقال في مقدمة الكتاب : "الحمد لله الذي لا يقبل توحيد ربوبيته من العباد حتى يفردوه بتوحيد العبادة كل الإفراد، فلا يتخذون له نداً ولا يدعون معه أحداً ولا يتوكلون إلا عليه

وقال ابن تيمية في المجموع (1-23) :

("فأمَّا توحيد الربوبية الذي أقرَّ به الخلق وقرَّره أهل الكلام فلا يكفي وحده، بل هو من الحجة عليهم") .

وقال ابن القيم في إغاثة اللهفان(1-47) :

"وأمَّا توحيد الربوبية الذي أقرَّ به المسلم والكافر وقرره أهل الكلام في كتبهم فلا يكفي وحده، بل هو الحجة عليهم كما بين ذلك سبحانه في كتابه في عدة مواضع"

- واعلم بارك الله فيك أنه ليس معني إقرارهم بالربوبية أنهم أقروا بجميع مفردات ربوبية الله وافعاله ، بل من المشركين من اشرك بالله في الربوبية فمنهم من كان يعتقد النفع والضر في معبوداته ومنهم النصاري المثلثون، وكشرك طوائف من اليهود ، وكشرك المجوس القائلين بنسبة حوادث الخير إلي النور وحوادث الشر إلي الظلمة ، وشرك عباد الشمس والكواكب ، وكشرك الفلاسفة القائلين بقدم العالم ، وشرك الجهمية ، وأهل وحدة الوجود ، كابن عربي والتلمساني وابن الفارض وغيرهم من الملحدين من أهل وحدة الوجود والدهريين والطبيعيين ، ويلتحق به من وجه شرك غلاة عباد القبور الذين يعتقدون أن أرواح الأولياء تتصرف بعد الموت فيقضون الحاجات ويفرجون الكربات وينصرون من دعاهم ، ويحفظون من التجأ إليهم ، وكقول بعضهم أن الأقطاب الأربعة يدبرون أمر الكون مع الله ، وينفعون ويضرون ، وكقول بعضهم أن الولي يمكن أن يخلق كما قاله الجفري المشرك .

بل شركهم في الألوهية والعبادة مستلزم للشرك في الربوبية ؛ لأن أنواع التوحيد الثلاثة متلازمة لا يصح الإيمان إلا باجتماعها ، وسبق أن بينا أن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد

الألوهية فإن الخالق وحده هو المستحق للعبادة وحده ، وتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية والأسماء والصفات لأنه لا يعبد الله وحده إلا من أفرده بالخلق والرزق والأسماء الحسني والصفات العلي وحده ، قال شارح الطحاوية" وتوحيد الإلهية متضمن لتوحيد الربوبية دون العكس، فمن لا يقدر على أن يخلق يكون عاجزا، والعاجز لا يصلح أن يكون إلها".انتهي ، وعلي الضد الشرك في العبادة فهو متضمن للشرك في الربوبية والأسماء والصفات ، والشرك في الربوبية مستلزم للشرك في العبادة ، فافهم هذه العلاقة بين أقسام التوحيد الثلاثة فإنها متلازمة تَفْسَدُ جميعها بفسادِ أحدها .

وعلي هذا فتوحيد الربوبية يلزم منه توحيد العبادة وليس متضمنا له بل هو لازمه، ولا يقتضي وجود الملزوم وجود اللازم ، فالمشركون الأولون لم يكفهم إيمانهم بأن الله هو الخالق لا آلهتهم ، لكن يكون متضمنا له باعتبار أنه لا يكون توحيد الربوبية كاملا إلا إذا اقترن بتوحيد العبادة كما ذكرنا في مسألة التلازم فمن وحد الله في الربوبية توحيدا تاما فهو موحد في العبادة والا فالشرك في العبادة شرك في الربوبية أيضا .

قال الشيخ حافظ حكمي في المعارج وأعلام السنة :

(فمن أشرك في نوع منها فهو مشرك في البقية، مثال ذلك دعاء غير الله وسؤاله ما لا يقدر عليه إلا الله، فدعاؤه إياه عبادة بل مخ العبادة، صرفها لغير الله من دون الله، فهذا شرك في الإلهية، وسؤاله إياه تلك الحاجة من جلب خير أو دفع شر معتقدا أنه قادر على قضاء ذلك، هذا شرك في الربوبية حيث اعتقد أنه متصرف مع الله في ملكوته، ثم إنه لم يدعه هذا الدعاء من دون الله إلا مع اعتقاده أنه يسمعه على البعد والقرب في أي وقت كان وفي أي مكان ويصرحون بذلك، وهو شرك في الأسماء والصفات حيث أثبت له سمعا محيطا بجميع المسموعات، لا يحجبه قرب ولا بعد، فاستلزم هذا الشرك في الإلهية الشرك في الربوبية والأسماء والصفات) **انتهي .**

وقد بعثت جميع الرسل بأقسام التوحيد الثلاثة ، ودعوا إليها جميعا ، فمن الغلط أن يقال أن الرسل لم يدعوا إلا إلي توحيد العبادة فقط ، وإنما يقال أن الأقوام كان عندهم شيء من توحيد الربوبية وشيء من توحيد الأسماء والصفات ولم يكن عندهم شيء من توحيد العبادة ؛ فدعت الرسل إلي الأقسام الثلاثة إلا أنهم لما وافقت دعوتهم ما عندهم في النوعيين الأولين وخالفوا هم في الثالث وقعت الخصومة في توحيد العبادة ، فالنزاع والخصومة بين الرسل وأقوامهم في إفراد الله بالعبادات لا في القسمين الآخرين .

وفي هذا رد علي شبهة يثيرها مشركو العصر وهي أن الله كفر مشركي العرب لشركهم به في الربوبية لا الألوهية وحرفوا الآيات المحكمة الصريحة في بيان حال مشركي العرب الذين أرسل الله إليهم محمدا صلي الله عليه وسلم يدعوهم إلي التوحيد وإخلاص العبادة لله بعد

محاجتهم بنسبة أفعال ربوبية الله سبحانه له وحده لا لآلهتم فقالوا بل كفروا لأنهم نافقوا وأظهروا خلاف ما أبطنوه من الشرك في الربوبية !!

وجواب هذه الشبهة التي هي أوهي من بيت العنكبوت أن الشرك في الربوبية لازم لهم من جهة إشراكهم في الإلهية وكذا في الأسماء والصفات، إذ أنواع التوحيد متلازمة لا ينفك نوع منها عن الآخر، وهكذا أضدادها فمن ضاد نوعاً من أنواع التوحيد بشيء من الشرك فقد أشرك في الباقي، مثال ذلك في هذا الزمن عبَّاد القبور إذا قال أحدهم: يا شيخ فلان لذلك المقبور أغثني أو افعل لي كذا ونحو ذلك يناديه من مسافة بعيدة وهو مع ذلك تحت التراب وقد صار تراباً.

فدعاؤه إيَّاه عبادة صرفها له من دون الله لأنَّ الدعاء مخ العبادة، فهذا شرك في الإلهية، وسؤاله إياه تلك الحاجة من جلب خير أو دفع ضر أو رد غائب أو شفاء مريض أو نحو ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله معتقداً أنَّه قادر على ذلك هذا شرك في الربوبية حيث اعتقد أنَّه متصرف مع الله تعالى في ملكوته. ثم إنَّه لم يدعه هذا الدعاء إلا مع اعتقاده أنَّه يسمعه على البعد والقرب في أيّ وقت كان وفي أيّ مكان ويصرحون بذلك، وهذا شرك في الأسماء والصفات حيث أثبت له سمعاً محيطاً بجميع المسموعات لا يحجبه قرب ولا بعد، فاستلزم هذا الشرك في الإلهية الشرك في الربوبية والأسماء والصفات .

ومن شبهات مشركي العصر ايضا إذا نصحتهم بإخلاص العبادة لله وحده وإفراده بطلب المدد والشفاعة وغيرها من المنافع أو دفع المضار قالوا نحن نعلم أن الحسين والنبي صلي الله عليه وسلم لا يملكون المدد فكيف يكون التوسط بهم شركا ! منكرين ! ، وهذا من تلبيس إبليس فإنه شرك في العبادة والتوجه والطلب الذي أخرجوه من اقسام التوحيد ، رغم أن الشرك في العبادة هو أول شرك وقع في الأرض كما سيأتي في باب (الغلو في قبور الصالحين تصيرها اوثانا تعبد) وسيأتي أن قوم نوح صلي الله عليه وسلم وهو أول رسول أرسل كان شركهم في الالتجاء إلي الصالحين المقبورين كود وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، فالعبادة بأنواعها حقٌّ خالصٌ لله لا يجوز صرفها لغيره سواء اعتقد العابدُ في معبوده أنَّه ربٌّ أو لم يعتقد، وهذا أمرٌ معلومٌ من الدين بالضرورة .

قال ابن تيمية في المجموع (3-272) :

"فإنَّ المسلمين متفقون على ما علموه بالاضطرار من دين الإسلام أنَّ العبد لا يجوز أن يعبد ولا يدعو ولا يستغيث ولا يتوكل إلا على الله، وأنَّ من عبد ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلاً أو دعاه أو استغاث به فهو مشرك، فلا يجوز عند أحد من المسلمين أن يقول القائل يا جبرائيل أو يا ميكائيل أو يا إبراهيم أو يا موسى أو يا رسول الله اغفر لي أو ارحمني أو ارزقني أو انصرني أو أغثني أو أجرني من عدوي أو نحو ذلك، بل هذا كله من خصائص الإلهية وهذه

مسألة شريفة معروفة قد بينها العلماء" ، ولم يكن شرك مشركي العرب الذين بعث فيهم رسول الله صلي الله عليه وسلم لأنهم يعتقدون أن آلهتهم تخلق وترزق ، وقد سبق إيراد النصوص في أنهم يفردونه بذلك اصلا ولكن كفروا بسبب عبادتهم مع الله غيره ، قال ابن تيمية "وكانوا [أي: المشركون] معترفين بأنَّ آلهتهم لم تشارك الله في خلق السماوات والأرض، ولا خلق شيء، بل كانوا يتخذونهم شفعاء ووسائط. كما قال تعالى: {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلآءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ}انتهي .

وقال الشيخ عبد اللطيف في تحفة الطالب والجليس (59):

("والشرك جعل شريكٍ لله تعالى فيما يستحقه، ويختص به من العبادة الباطنة والظاهرة، كالحب، والخضوع، والتعظيم، والخوف، والرجاء، والإنابة، والتوكل، والنسك - أي الذبح -، والطاعة، ونحو ذلك من العبادات، فمتى أشرك مع الله غيره في شيء من ذلك فهو مشرك بربه قد عدل به سواه وجعل له نداًّ من خلقه، ولا يشترط في ذلك أن يعتقد له شركة في الربوبية، أو استقلالاً بشيء منها والعجب كل العجب أنَّ مثل هؤلاء يقرؤون كتاب الله، ويتعبدون بتلاوته، وربما عرفوا شيئاً من قواعد العربية، وهم في هذا الباب من أضلِّ خلق الله وأبعدهم عن فهم وحيه وتنزيله") **انتهي** .

ومن شبهاتهم الواهية أيضا زعمهم أن المشركين في عهد رسول الله صلي الله عليه وسلم كفروا بإنكارهم وجود الخالق والبعث ، وهذا يرده القران كله فكم من اية أثبت فيها المشركون أنهم ما عبدوا الهتم إلا ليقربوهم إلي الله ، ومعرفة حال مشركي الجاهلية كما سبق بيانه واضح في إثباتهم وجود الله وإنما كفروا بإشراكهم الهتم معه في العبادة ، فليس كل المشركين ملحدين بل منهم من أنكر وجود الباري سبحانه ، ومنهم من اعتقد وجوده بل وحّده في الخلق والرزق وغيرها من افعال الربوبية كما سبق بيانه وسبقت فيه الايات الكثيرة ، بالإضافة إلي أنه ينبغي أن تعلم أنه لا علاقة بين إنكار البعث وإنكار الخالق فإن من أنكر البعث في عهد رسول الله صلي الله عليه وسلم كانوا مثبتين لوجود الخالق ، وبيان حالهم كما تقدم صريح في ذلك ، بل منهم من كان يؤمن إضافة إلى إيمانه بوجود الله الخالق الرازق بالمعاد وبعث الأبدان والحساب، كما قال زهير وهو جاهلي (يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ... ليوم حساب أو يعجل فينقم) وبعضهم يؤمن إضافة إلى إيمانه بوجود الله الخالق الرازق بالقدر كما قال عنترة: يا عبل أين من المنية مهرب ... إن كان ربي في السماء قضاها ، ولم يكن في الجاهلية قدري كما بينته مفصلا بفضل لله في كتابي (كتاب القضاء والقدر) .

ومن شبهاتهم أيضا تسويتهم بين الرب والإله حتي يثبتوا أنه لا فرق بين توحيد الربوبية والألوهية اكتفاء منهم بالربوبية حتي ينفق شركهم بالله – سبحانه - في العبادة ويأبي الله ذلك ورسوله والمؤمنون

ورد ذلك بأن تعلم أن أسماء الله أعلامٌ وأوصاف ، فهي باعتبار دلالتها على الذات أعلامٌ، وباعتبار دلالتها على المعاني أوصافٌ، وهي بالاعتبار الأول مترادفةٌ؛ لدلالتها على مسمّى واحد وهو الله عز وجل، وبالاعتبار الثاني متباينةٌ؛ لدلالة كل واحد منها على معناه الخاص، فالرب الخالق العليم السميع البصير الأحد الصمد كلها أسماءٌ لمسمّى واحدٍ وهو الله سبحانه وتعالى، لكن معنى الرب غير معنى السميع، ومعنى السميع غير معنى البصير، ومعنى البصير غير معنى الأحد، وهذا أمرٌ ظاهرٌ لا خفاء فيه، وهو خلاف قول المعتزلة القائلين بأنَّ أسماء الله أعلامٌ محضةٌ لا تدل على معانٍ.

واسم الإله واسم الرب من ذلك فكُتب اللغة مطبقةٌ على أنَّ الرب بمعنى المالك الذي له الربوبية على جميع الخلق لا شريك له، وأمَّا الإله فهو المعبود، من التأله وهو التعبد.

قال في القاموس (ورَبُّ كُلِّ شَيْءٍ: مالِكُهُ ومُسْتَحِقُّه، أو صاحِبُهُ، ج: أرْبابٌ ورُبُوبٌ) .

وقال أيضا (إلهُ، كفِعالٍ، بمعنى مَأْلُوهٍ، وكلُّ ما اتُّخِذَ مَعْبُوداً إلهٌ عند مُتَّخِذِهِ،والتَّأَلُّه: التَّنَسُّكُ، والتَّعَبُّدُ).

وقال الزبيدي في تاج العروس (وأَصْلُه إلاهٌ كفِعالٍ بمعْنَى مَأْلُوهٍ) ، لأنَّه مَأْلُوه أَي مَعْبودٌ،)

وقال (الرَّبُّ) هُوَ اللَّهُ عَزَّ وجلَّ، وَهُوَ رَبُّ كلِّ شيءٍ، أَي مالِكُه)

واسم الرب والإله من الأسماء التي إذا افترقت اجتمعت وإذا اجتمعت افترقت كالإسلام والإيمان وقد بينتهما في كتابي (مسألة الإيمان)وكالفقير والمسكين ، فإذا افترق اسم الرب عن اسم الإله شمل كل منهم الآخر وإذا اجتمعا فرقنا بينهما باعتبار ما سبق .

ومع وضوح حقيقة التوحيد الذي أرسلت به الرسل ، قلبت الفرق حقيقته فزعموا أن توحيد الربوبية كاف للنجاة وأخرجوا من مسمي التوحيد توحيد العبادة .

يقول الشهرستاني المبتدع :

"وأمَّا التوحيد فقد قال أهل السنة وجميع الصفاتية: إن الله تعالى واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته الأزلية لا نظير له، وواحد في أفعاله لا شريك له" .

وقال البيجوري وهو من المتكلمين المبتدعة : "ويجب في حقه تعالى الوحدانية في الذات وفي الصفات وفي الأفعال؛ ومعنى الوحدانية في الذات أنها ليست مركبة من أجزاء متعددة، ومعنى الوحدانية في الصفات أنه تعالى ليس له صفتان فأكثر من جنس واحد كقدرتين وهكذا،

وليس لغيره صفة تشابه صفته تعالى، ومعنى الوحدانية في الأفعال أنَّه ليس لغيره فعل من الأفعال، وضدها التعدد"

فظهر إهمالهم في هذا التقسيم لذكر توحيد الألوهية والدعوة إلى إخلاص العبادة لله وإفراده وحده بجميع أنواع العبادة، الذي هو زبدة دعوة الرسل وروحها، فهذا النوع من التوحيد لا ذكر له عندهم البتة ، مع نفيهم الصفات وتحريفها وتعطيلها ومع ذلك يسمونه توحيدا!

- وبهذا تعلم أن المعنى الصحيح لشهادة أن لا إله إلا الله: الاعتقاد والاقرار، أنه لا يستحق العبادة إلا الله، والتزام ذلك والعمل به، (فلا إله) نفي لاستحقاق من سوى الله للعبادة كائناً من كان وما كان ، و(إلا الله) إثبات لاستحقاق الله وحده للعبادات كلها في جميع اللحظات، ومعنى هذه الكلمة إجمالا: لا معبود حق إلا الله، وخبر (لا) يجب تقديره: بـ(حق) ولا يجوز تقديره بموجود؛ لأن هذا خلاف الواقع، فالمعبودات غير الله موجودة بكثرة؛ فيلزم منه أن عبادة هذه الأشياء عبادة لله، وهذا من أبطل الباطل وهو مذهب أهل وحدة الوجود الذين هم أكفر أهل الأرض، وقد دلت لا إله إلا الله علي أقسام التوحيد الثلاثة بدلالة التضمن بحسب ما تقدم من بيان العلاقة بين أقسام التوحيد فدلالتها علي توحيد العبادة متضمن لتوحيده سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله ، وفي هذا رد علي الاشاعرة المهملين لتوحيد العبادة وقولهم أنهم عرفوا بنوع من أنواع التوحيد فلم نقول انهم مشركون فنقول قد فسرتموها بما لا يتضمن سائر أنواع التوحيد لا سيما توحيد العبادة ، غير أن الإله هو المعبود لا القادر علي الاختراع علي ما سياتي بيانه ، فتفسيرهم لها باطل شرعا ولغة .

وقد فُسرت هذه الكلمة بتفسيرات باطلة منها:

(أ) أن معناه: لا معبود إلا الله. وهذا باطل؛ لأن معناه: أن كل معبود بحق أو باطل هو الله، كما سبق بيانه قريباً.

(ب) أن معناها: لا خالق إلا الله. وهذا جزء من معنى هذه الكلمة؛ ولكن ليس هو المقصود؛ لأنه لا يثبت إلا توحيد الربوبية، وهو لا يكفي وهو توحيد المشركين.

(ج) أن معناها: لا حاكمية إلا الله، وهذا أيضاً جزء من معنى هذه الكلمة؛ وليس هو المقصود؛ لأنه لو أفرد الله بالحاكمية فقط ودعا غير الله أو صرف له شيئاً من العبادة لم يكن موحداً، وكل هذه تفاسير باطلة أو ناقصة؛ وإنما نبهنا عليها لأنها توجد في بعض الكتب المتداولة.

وإنما التفسير الصحيح لهذه الكلمة العظيمة عند سلفنا الصالحين من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان :

أن يُقال: (لا معبود بحق إلا الله) كما سبق.

د) كذلك من قال أن معنها لا معبود موجود فقد أخطا لأن المخلوقات المعبودة مع الله كثير كالصالحين والكواكب والنجوم والنار والقبور والحيوانات والشياطين وغيرهم فهي معبودات موجودة لكنها باطلة وما عبدت إلا بالظلم والجور علي حق الله الخالص ألا وهو العبادة ولهذا قال تعالي (فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك) فسماها آلهة لكنها الهة باطلة فتعريف الشهادة بلا اله موجود تعريف باطل

- واعلم - وفقك الله لمرضاته – أن لا إله إلا الله لها ركنان هما: النفي والإثبات:

فالركن الأول: النفي: فقولنا لا إله: يُبطل الشرك بجميع أنواعه، ويُوجب الكفر بكل ما يعبد من دون الله.

الركن الثاني: الإثبات: فقولنا إلا الله: يثبت أنه لا يستحق العبادة إلا الله، ويُوجب علي العبد العمل بذلك.

ولا بد من اعتقاد الركنين معا لأن مجرد النفي إلحاد ، ومجرد الإثبات لا يمنع المشاركة .

فلن يقوم للتوحيد ساق إلا بنفي وإثبات .

وقد جاء معنى هذين الركنين في كثير من الآيات، مثل قوله تعالى: ((فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)) سورة البقرة.

فقوله: ((فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ)) هو معنى الركن الأول (لا إله) وقوله: ((وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ)) هو معنى الركن الثاني (إلا الله).

وكذلك قوله عن إبراهيم عليه السلام: ((إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ)) سورة الزخرف .

فقوله: ((إِنَّنِي بَرَاءٌ)) هو معنى النفي في الركن الأول، وقوله: ((إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي)) هو معنى الإثبات في الركن الثاني.

ولهذا لم يقل لهم الرسول صلي الله عليه وسلم قولوا الله إله لانهم كانوا يعلمون ذلك كما تقدم ولكن قال لهم قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، فكانوا يعبدونه سبحانه لكن لم يعبدوه وحده ، قال تعالي (وإذا ذكرت ربك في القران وحده ولوا علي أدبارهم نفورا) ، وقال (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخر) ، وقال (قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ماكان يعبد آباؤنا) ، وقال (وإذا ذكرت ربك في القران وحده ولوا علي أدبارهم نفورا) .

فمعني الإله هو مما يتعلق به صميم التوحيد ، وهو (المعبود) شرعا ولغة ، وهنا وقع اضطراب وتناقض عند الأشاعرة لأنهم يقولون أن معني الإله شرعا المستغني عما سواه المفتقر إليه كل من عداه أو القادر علي الاختراع فيعرفون الإله بمحض الربوبية وسبق أن

توحيد الربوبية بمجرده لا يدخل أحدا في الإسلام حتي يقرنه بلازمه من توحيد الإلهية توحيد العبادة ، مع أن اللغويين منهم أصحاب القواميس يعرفونه في اللغة بأنه المعبود وقد سبق كلام الزبيدي والفيروز آبادي ، وسبب هذا التناقض هو أنهم يقدمون المعقول علي المنقول في العقيدة فيعتمدون الأدلة العقلية لا الشرعية .

وكلمة (إله) حال تنكيرها تشمل المعبود بحق والمعبود بباطل ، ولهذا لما قال الرسول صلي الله عليه وسلم لقومه (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) قالوا (أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب) .

فقد أقروا بأن كلمة الإله تشمل المعبود بالحق وهو الله سبحانه وتعالي ، والمعبود بالباطل ، واستنكروا أن تكون الآلهة الأخري باطلة ، وفي ذلك يقول تعالي (فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب) فسمي الله سبحانه آلهتهم الباطلة التي أشركوها آلهة

وبهذا تعلم فساد من عرف معني الشهادة بلا إله موجود فهذا قول باطل كما سبق ، غير أنه يلزم منه أن عبادة هذه الأشياء عبادة لله، وهذا من أبطل الباطل وهو مذهب أهل وحدة الوجود الذين هم أكفر أهل الأرض.

فالإله اسم يطلق علي كل معبود بحق أو بباطل ولكنه غلب استعماله بمعني المعبود بحق .

وكلمة إله علي وزن فعال وهي تأتي بمعني فاعل وبمعني مفعول

ومعناها عند الموحدين بمعني مفعول فإله أي مألوه وهو المعبود محبة وتعظيما

وعند المشركين بمعني فاعل أي القادر علي الاختراع والخلق

ولكن قضت نصوص الشريعة كتابا وسنة أنها بمعني مألوه وهو المعبود

فمن اعتقد أن الله وحده هو الخالق الرازق المدبر ولكن طلب المدد من غيره أو الشفاعة من غيره أو صرف أي عبادة لغيره معه كان كافرا ولو اعتقد ان الله لا خالق غيره ولا رازق غيره

ولهذا لما قال النبي صلي الله عليه وسلم لقومه (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)

قالوا (أجعل الآلهة إلها واحدا **!** إن هذا لشيء عجاب)

فافهم ولا يصدنك الأشاعرة المشركون الملبسون علي الناس توحيدهم لا يصدنك عن التوحيد الذي جاءت به الرسل ، بحجة محبة محمد وآل بيت محمد صلي الله عليه وسلم ورضيي الله عنهم جميعا **!!!**

وفي ذلك قال ابن تيمية في المجموع :

((الإله) هو المعبود المطاع، فإن الإله هو المألوه، والمألوه هو الذي يستحق أن يُعبد، وكونه يستحق أن يُعبد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب، المخضوع له غاية الخضوع.. فإن الإله هو المحبوب المعبود الذي تألهه القلوب بحبها، وتخضع له وتذل له، وتخافه وترجوه، وتنيب إليه في شدائدها، وتدعوه في مهماتها، وتتوكل عليه في مصالحها، وتلجأ إليه وتطمئن بذكره، وتسكن إلى حبه، وليس ذلك إلا لله وحده، ولهذا كانت (لا إله إلا الله) أصدق الكلام، وكان أهلها أهل الله وحزبه، والمنكرون لها أعداءه وأهل غضبه ونقمته، فإذا صحت صح بها كل مسألة وحال وذوق، وإذا لم يصححها العبد فالفساد لازم له في علومه وأعمال))." انتهي .

ومما يدل علي أن الإله معناه المعبود مع ما سبق من بيان حقيقة شرك الجاهلية ومحل النزاع بين الرسل وأقوامهم – خلافا للأشاعرة ومن علي شاكلتهم –

1. معرفة حال مشركي العرب وأنهم اعتقدوا توحيد الله في كثير من أفراد ربوبيته سبحانه بل كانوا مقرين بكثير من اسماء الله وصفاته ولم يرد إنكارهم لآحاد أفراد ذلك إلا استكبارا أو عنادا كما سبق .
2. غير أن الآيات في بيان ذلك محكمة كما قال تعالي (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) ، وقوله (وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ) ، وقوله عن قوم عاد لهود عليه السلام (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) ، وقوله عز وجل في ثمود (وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) ، وعن مدين (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ) وكذلك في آيات سورة هود .

وأوامر الله عز وجل في كتابه بعبادته وحده كثيرة كقوله تعالي (قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به) ، وقوله تعالي (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء) ، وقوله تعالي (بل الله فاعبد) وتقديم ما حقه التأخير يفيد القصر والحصر ، وقوله تعالي (وقضي ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) ، وقوله تعالي (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا) ، والايات في هذا كثيرة لا تخفي إلا علي من طمس الله بصيرته وصرف قلبه عن توحيده ، نسأل الله العافية والهداية .

3. وفي اللغة كذلك ، وقد سبق كلام الفيروزآبادي والزبيدي أن الإله هو المعبود لا القادر علي الاختراع ، كما في قراءة ابن عباس رضي الله عنهما (ويذرك وإلاهتك) أي عبادتك .

قال الشيخ سليمان في التيسير

(وهذا التوحيد – يعني توحيد العبادة - هو أول الدين وآخره وباطنه وظاهره وهو اول دعوة الرسل وآخرها وهو معنى قول لا إله إلا الله فإن الإله هو المألوه المعبود بالمحبة والخشية والاجلال والتعظيم وجميع انواع العبادة ولأجل هذا التوحيد خلقت الخليقة وأرسلت الرسل وأنزلت الكتب وبه افترق الناس إلى مؤمنين وكفار وسعداء اهل الجنة وأشقياء أهل النار قال الله تعالى يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون فهذا أول أمر في القرآن وقال تعالى لقد أرسلنا نوحا الى وقومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره فهذا دعوة أول رسول بعد حدوث الشرك وقال هود لقومه اعبدوا الله ما لكم من إله غيره وقال صالح لقومه اعبدوا الله ما لكم من إله غيره وقال شعيب لقومه اعبدوا الله ما لكم من إله غيره وقال ابراهيم عليه السلام لقومه اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين وقال تعالى وما ارسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون وقال تعالى واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون وقال تعالى وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون وقال هرقل لأبي سفيان لما سأله عن النبي ﷺ ما يقول لكم قال يقول اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا واتركوا ما يقول آباؤكم وقال النبي ﷺ لمعاذ انك تأتي قوما أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم اليه شهادة أن لا إله إلا الله وفي رواية ان يوحدوا الله .

وهذا التوحيد هو أول واجب على المكلف لا النظر ولا القصد الى النظر ولا الشك في الله كما هي أقوال لمن لم يدر ما بعث الله به رسوله ﷺ من معاني الكتاب والحكمة فهو أول واجب وآخر واجب وأول ما يدخل به الاسلام وآخر ما يخرج به من الدنيا كما قال ﷺ من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة حديث صحيح وقال أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله متفق عليه وقد أفصح القرآن عن هذا النوع كل الافصاح وأبدأ فيه وأعاد وضرب لذلك الأمثال بحيث أن كل سورة في القرآن ففيها الدلالة على هذا التوحيد .

ويسمى هذا النوع :

- توحيد الإلهية ؛ لأنه مبني على إخلاص التآله وهو أشد المحبة لله وحده وذلك يستلزم إخلاص العبادة .

- وتوحيد العبادة كذلك .

- وتوحيد الإرادة لأنه مبني على إرادة وجه الله بالأعمال .

- وتوحيد القصد ؛ لأنه مبني على إخلاص القصد المستلزم لإخلاص العبادة لله وحده .

- وتوحيد العمل ؛ لأنه مبني على إخلاص العمل لله وحده قال الله تعالى فاعبد الله مخلصا له الدين وقال قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين قل الله اعبد مخلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه الى قوله ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون الى قوله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته الآية إلى قوله اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعا الآية الى قوله وأنيبوا الى ربكم واسلموا له من قبل ان يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون إلى قوله قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين الى آخر السورة .

وهذا التوحيد هو حقيقة دين الاسلام الذي لا يقبل الله من أحد سواه كما قال النبي ﷺ بني الاسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت رواه البخاري ومسلم فأخبر أن دين الإسلام مبني على هذه الأركان الخمسة وهي الأعمال فدل على أن الاسلام هو عبادة الله وحده لا شريك له بفعل المأمور وترك المحظور والاخلاص في ذلك لله وقد تضمن ذلك جميع أنواع العبادة فيجب إخلاصها لله تعالى فمن أشرك بين الله تعالى وبين غيره في شيء فليس بمسلم .

فمنها المحبة فمن أشرك بين الله تعالى وبين غيره في المحبة التي لا تصلح إلا لله فهو مشرك كما قال تعالى ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله الى قوله تعالى وما هم بخارجين من النار

ومنها التوكل فلا يتوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله قال الله تعالى وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين وعلى الله فليتوكل المؤمنون والتوكل على غير الله فيما يقدر عليه شرك أصغر

ومنها الخوف فلا يخاف خوف السر إلا من الله ومعنى خوف السر هو أن يخاف العبد من غير الله تعالى ان يصيبه مكروه بمشيئته و قدرته وإن لم يباشره فهذا شرك أكبر لأنه اعتقاد للنفع والضر في غير الله قال الله تعالى فإياي فارهبون وقال تعالى فلا تخشوا الناس واخشون وقال تعالى وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم ومنها الرجاء فيما لا يقدر عليه إلا الله كمن يدعو الأموات أو غيرهم راجيا حصول مطلوبه من جهتهم فهذا شرك أكبر قال الله تعالى ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله وقال علي رضي الله عنه لا

يرجون عبد إلا ربه ومنها الصلاة والركوع والسجود قال الله تعالى فصل لربك وانحر وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم الاية

ومنها الدعاء فيما لا يقدر عليه إلا الله سواء كان طلبا للشفاعة أو غيرها من المطالب قال الله تعالى والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم وقال تعالى وقال ربكم ادعوني استجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين وقال تعالى ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين وقال تعالى ام اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعا الآية

ومنها الذبح قال الله تعالى قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له الآية والنسك الذبح ومنها النذر قال الله تعالى وليوفوا نذورهم وقال تعالى يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا ومنها الطواف فلا يطاف إلا ببيت الله قال الله تعالى وليطوفوا بالبيت العتيق ومنها التوبة فلا يتاب إلا لله قال الله تعالى ومن يغفر الذنوب الا الله وقال تعالى وتوبوا الى الله جميعا ايها المؤمنون لعلكم تفلحون

ومنها الاستعاذة فيما لا يقدر عليه إلا الله قال الله تعالى قل اعوذ برب الفلق وقال تعالى قل اعوذ برب الناس

ومنها الاستغاثة فيما لا يقدر عليه إلا الله قال الله تعالى اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم) انتهي

وسيأتي إفراد المحبة والخوف والتوكل في ابوابها مع مزيد بيان وتفصيل لمسائلها إن شاء الله تعالي ، وسيدور فلك علي ثلاثة محاور : التدليل علي أن هذا القول أو الفعل أو الاعتقاد عبادة ، ثم دليل ثان خاص أن صرف هذه العبادة لغير الله شرك أكبر ، ثم دليل ثالث عام علي ان صرف العبادات شرك .

ثم قال رحمه الله

(فمن أشرك بين الله تعالى وبين مخلوق فيما يختص بالخالق تعالى من هذه العبادات أو غيرها فهو مشرك وإنما ذكرنا هذه العبادات خاصة لأن عباد القبور صرفوها للأموات من دون الله تعالى أو أشركوا بين الله تعالى وبينهم فيها وإلا فكل نوع من انواع العبادة من صرفه لغير الله أو شرك بين الله تعالى وبين غيره فيه فهو مشرك قال الله تعالى واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وهذا الشرك في العبادة هو الذي كفر الله به المشركين وأباح به دماءهم وأموالهم ونساءهم وإلا فهم يعلمون أن الله هو الخالق الرازق المدبر ليس له شريك في ملكه وانما كانوا يشركون به في هذه العبادات ونحوها وكانوا يقولون في تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك فأتاهم النبي ﷺ بالتوحيد الذي هو معنى لا إله إلا الله الذي مضمونه أن لا يعبد

إلا الله لا ملك مقرب ولا نبي مرسل فضلا عن غيرهما فقالوا أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب .

وكانوا يجعلون من الحرث والأنعام نصيبا لله وللآلهة مثل ذلك فإذا صار شيء من الذي لله الى الذي للآلهة تركوه لها وقالوا الله غني واذا صار شيء من الذي للآلهة الى الذي لله تعالى ردوه وقالوا الله غني والالهة فقيرة فأنزل الله تعالى وجعلوا لله مما ذرا من الحرث والانعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون وهذا بعينه يفعله عباد القبور بل يزيدون على ذلك فيجعلون للأموات نصيبا من الأولاد) **انتهي** .

- وبعد العلم بمعني لا إله إلا الله وأنها قائمة علي ركنين لا بد منهما لصحة التوحيد وهما النفي والإثبات فإن لقول لا إله إلا الله ثمانية شروط لا بد من تحقيقها مجتمعة حتي يتقبلها الله من قائلها فلو سقط شرط منها لكفر إلا أن يحققه ، وقد جمعها سعد بن حمد بن عتيق في قوله :

علم يقين وإخلاص وصدقك ...مع محبة وانقياد والقـــبولِ لهـــا

وزيد ثامنها الكفران منك بما ...سوي الإله من الأشياء قد عُبدا

1) الشرط الأول العلم المنافي للجهل ، يعني العلم بمعناها المستلزم للعمل بمقتضاها من إقامة التوحيد ونفي الشرك والبراءة منه وممن عمله.

والدليل قوله تعالي (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين ولمؤمنات والله يعلم متقلبكم وثواكم) .

قال السعدي في تفسيره:

(وهذا العلم الذي أمر الله به -وهو العلم بتوحيد الله- فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد، كائنا من كان، بل كل مضطر إلى ذلك) .

وقال الله عز وجل (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون)

والشَّهادةَ بالحَقِّ تتضَمَّنُ العِلْم قطعًا، وإلَّا كان الشَّاهِدُ شاهِدًا بما لا عِلْمَ له به .

وقال الطبري في تفسيره (وشَهادتُه بالحَقِّ: هو إقرارُه بتوحيدِ اللهِ، يعني بذلك: إلَّا من آمَنَ باللهِ، وهم يَعلَمونَ حقيقةَ توحيدِه) .

وقال ابنُ كثيرٍ: (لكِنْ من شَهِدَ بالحَقِّ على بصيرةٍ وعِلمٍ، فإنَّه تنفَعُ شَفاعتُه عنده بإذنِه له)

والدليل من السنة قول النبي صلي الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة عند مسلم (من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة) .

والمراد من الشهادة معناها لا مجرد لفظها ، وقد كان بعض اليهود في عهد النبي صلي الله عليه وسلم يقولونها ولم يفرق النبي بينهم وبين غيرهم من الكفار في القتال حتي يلتزموا معناها من إخلاص العبادات كلها لله وحده وترك الشرك وبغضه والبراءة منه وتكفيرمن فعله .

قال الشيخ سليمان في (تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد) :

(أما قول الانسان لا إله إلا الله من غير معرفة لمعناها ولا عمل لمقتضاها ، او دعواه أنه من أهل التوحيد ، وهو لا يعرف التوحيد بل ربما يخلص لغير الله من عبادته من الدعاء والخوف والذبح والنذر والتوبة والانابة ، وغير ذلك من انواع العبادات ، فلا يكفي في التوحيد ، بل لا يكون الا مشركا والحالة هذه ، كما هو شأن عباد القبور)

وقال ص48 وما بعدها

(فلا إله إلا الله اشتملت علي نفي وإثبات ، فنفَتِ الإلهيةَ عن كل ما سوي الله تعالي ، فكل ما سواه من الملائكة والأنبياء فضلا عن غيرهم فليس بإله وليس له من العبادة شيء ، إثبات الالهية لله وحده بمعني أن العبد لا يأله غيره ،أي لا يقصده بشيء من التأله وهو تعلق القلب الذي يوجب قصده بشيء من أنواع العبادة ، كالدعاء والذبح والنذر وغير ذلك ، وبالجملة فلا يأله إلا الله أي لا يعبد إلا هو .

فمن قال هذه الكلمة عارفا لمعناها ، عاملا بمقتضاها ، من نفي الشرك واثبات الوحدانية لله مع الاعتقاد الجازم لما تضمنته من ذلك والعمل به ، فهذا هو المسلم حقا ، فإن عمل به ظاهرا من غير اعتقاد فهو المنافق ، وإن عمل بخلافها من الشرك فهو الكافر ولو قالها ، ألا تري أن المنافقين يعملون بها ظاهرا وهم في الدرك الاسفل من النار واليهود يقولونها وهم علي ما هم عليه من الكفر والشرك فلم تنفعهم وكذلك من ارتدّ عن الإسلام بإنكار شيء من لوازمها وحقوقها فإنها لا تنفعه ولو قالها مئة ألف فكذلك من يقولها ممن يصرف أنواع العبادة لغير الله كعباد القبور والأصنام فلا تنفعهم ولا يدخلون في الحديث الذي جاء في فضلها وما أشبهه من الأحاديث ، وقد بين النبي صلي الله عليه وسلم ذلك بقوله (وحده لا شريك له) تنبيها علي أن الانسان قد يقولها وهو مشرك ، كاليهود والنصاري وعباد القبور ...أما عباد القبور فلم يعرفوا معني هذه الكلمة ولا عرفوا الإلهية المنفية عن غير الله الثابتة له وحده لا شريك له بل لم يعرفوا من معناها إلا ما أقر به المؤمن والكافر واجتمع عليه الخلق كله ، من أن معناها لا قادر علي الاختراع ، أو أن معني الإله هو الغني عن ما سواه الفقير إليه كل ما عداه ونحو ذلك فهذا حق ، وهو من لوازم الإلهية ، ولكن ليس هو المراد بمعني لا إله إلا الله فإن هذا القدر قد عرفه الكفار ، وأقروا به ولم يدّعوا في آلهتهم شيئا من ذلك بل يقرون بفقرهم وحاجتهم الي الله وانما كانوا يعبدونهم علي أنهم وسائط وشفعاء عند الله في تحصيل المطالب ونجاح المآرب وإلا فقد سلموا الخلق والملك والرزق والاحياء والاماتة والأمر كله لله وحده لا

شريك له وقد عرفوا معني لا إله إلا الله فأبوا عن النطق والعمل بها ، فلم ينفعهم توحيد الربوبية مع الشرك في الإلهية كما قال تعالي (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)

وعباد القبور نطقوا بها وجهلوا معناها وأبوا عن الإتيان به ، فصاروا كاليهود الذين يقولونها ولا يعرفون معناها ولا يعملون به ، ولا ريب أنه لو قالها أحد من المشركين ونطق أيضا بشهادة أن محمدا رسول الله ولم يعرف معني الإله ولا معني الرسول وصلي وصام وزكي وحج ولا يدري ما ذلك الا أنه رأي الناس يفعلونه فتابعهم ولم يفعل شيئا من الشرك ، فإنه لا يشكّ أحدٌ في عدم إسلامه ، وقد أفتي بذلك فقهاء المغرب كلهم أول القرن الحادي عشر أو قبله في شخص كان كذلك كما ذكره صاحب الدر الثمين في شرح المرشد المعين من المالكية ، ثم قال شارحه : (وهذا الذي افتوا به جلي غاية الجلاء ، لا يمكن أن يختلف فيه اثنان) ، ولا ريب أن عباد القبور أشد من هذا لأنهم اعتقدوا الإلهية في أرباب متفرقين .. والنطق بلا إله إلا الله دليل العصمة لا هو العصمة أو يقال هو العصمة لكن بشرط العمل) **انتهي كلامه**.

وقال تعالي (فاعلم أنه لا اله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم)، أمر بتعلمها قبل الاستغفار اذ الاستغفار لن ينفع الا علي أساس صحيح وهو شرط صحة كل عمل يأتي به العبد ابتغاء وجه الله ألا وهو التوحيد ، وهو معني لا مجرد كلام كما زعمته المرجئة وهو شرط صحة الأعمال وجوهرها وهو الذي لأجله خلق الخلق ، وكذلك وقوله (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) .

وقال الشيخ عبد اللطيف في الدرر(263 / 12)

(وقد غلط كثير من المشركين في هذه الأعصار، وظنوا أن من كفّر من تلفظ بالشهادتين، فهو من الخوارج وليس كذلك، بل التلفظ بالشهادتين لا يكون مانعا من التكفير إلا لمن عرف معناهما، وعمل بمقتضاهما، وأخلص العبادة لله، ولم يشرك به سواه؛ فهذا تنفعه الشهادتان

وأما من قالهما ولم يحصل منه انقياد لمقتضاهما، بل أشرك بالله، واتخذ الوسائط والشفعاء من دون الله، وطلب منهم ما لا يقدر عليه إلا الله، وقرب لهم القرابين، وفعل لهم ما يفعله أهل الجاهلية من المشركين، فهذا لا تنفعه الشهادتان بل هو كاذب في شهادته كما قال تعالي : إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون " ، ومعني شهادة أن لا إله إلا الله هو عبادة الله وترك عبادة ما سواه ، فمن استكبر عن عبادته ولم يعبده ، فليس ممن يشهد أن لا إله إلا الله ، ومن عبده وعبد معه غيره ، فليس هو ممن يشهد أن لا إله إلا الله) **انتهي كلامه** .

فأفرض الفروض وأوجب الواجبات وأصل الأصول وأول شرط من شروط صحة الشهادة من قائلها وإلا لم تنفعه : العلم بمعني لاإله إلا الله نفيا وإثباتا واعتقادها وقولها باللسان ، كما قال الله تعالي (فاعلم أنه لاإله إلا الله واستغفر لذنبك) ، وقال الرسول - صلي الله عليه وسلم - كما

في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه من حديث عثمان -رضي الله عنه – (من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة) فدل علي أن من مات وهو يجهلها دخل النار ، قول الله سبحانه (ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) أي يعلمون بقلوبهم ما نطقت به ألسنتهم ، قال ابن سعدي (أي: نطق بلسانه، مقرا بقلبه، عالما بما شهد به) .

2) اليقين المنافي للشكّ

والمراد اليقين الجازم الذي لا يعتريه أدني شك ، يقينا بمعني لا إله إلا الله وبجميع ما جاء به الرسول صلي الله عليه وسلم من العقائد القلبية والأحكام العملية ، فمن شك أو تردد في شيء منها فقد كفر كمن يشك في وحدانية الله أو صدق رسول الله أو في البعث أو في الملائكة أو القدر أو في فرضية الصلاة والزكاة وغيرها من العبادات .

وهذ اليقين لا بد أن يكون تاما حتي يتحقق العبد من هذا الشرط فمن قال أعطوني فرصة أفكر أو أنه متيقن بنسب 99 وتسعة من عشرة في المئة لكن أنظر ، نقول هذا ليس بيقين وإذا مات يكون كافرا ، بل لا يكون يقينا حتي يدعو الله أن يميته علي هذه العقيدة ، فالعقيدة بمعني معقودة أي عقد القلب عليها فلا ينفلت من شدة الاستمساك به .

ودليله قول الله عز وجل (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله **ثم لم يرتابوا** وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون)

قال ابن كثير (لم يشكوا ولا تزلزلوا ، بل ثبتوا على حال واحدة ، وهي التصديق المحض)

وقال عن قوله تعالي (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا) هو الشك والتكذيب فكان عندهم هذا وهذا .

وقال الطبري في قوله (في قلوبهم مرض)

(والمرضُ الذي ذكر الله جل ثناؤه أنّه في اعتقاد قلوبهم الذي وصفناه: هو شكُّهم في أمر محمد وما جاء به من عند الله، وتحيُّرُهم فيه، فلا هم به موقنون إيقان إيمان، ولا هم له منكرون إنكارَ إشراك، ولكنهم، كما وصفهم الله عز وجل، مُذَبْذَبُونَ بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء(٤) كما يقال: فلانٌ يمَرِّضُ في هذا الأمر، أي يُضَعِّف العزمَ ولا يصحِّح الروِيَّة فيه.)

قال ابن عثيمين في تفسيره (أي: لم يلحقهم شك في الإيمان بالله ورسوله، فإذا قال قائل: ما هي الطريق التي توجب للإنسان ثبوت الإيمان واستقراره؟ قلنا: أولًا: أن يتفكر في مخلوقات الله سبحانه وتعالى، وأن هذه المخلوقات العظيمة لم تكن وليدة الصدفة، ولم تكن وليدة بنفسها، وأن يتفكر أيضًا في شريعة الله وكمالها، وأن يتفكر في سيرة

النبي ﷺ وآياته، وما إلى ذلك، وكذلك أيضًا يُكثِر من ذكر الله عز وجل، فإن بذكر الله تطمئن القلوب، ويكثر من الطاعات والأعمال الصالحة؛ لأن الطاعات والأعمال الصالحة تزيد في الإيمان كما هو مذهب أهل السنة والجماعة رحمهم الله).

وقال الطبري

(إنما المؤمنون أيها القوم الذين صدّقوا الله ورسوله، ثم لم يرتابوا، يقول: ثم لم يشكوا في وحدانية الله، ولا في نبوّة نبيه ﷺ، وألزم نفسه طاعة الله وطاعة رسوله، والعمل بما وجب عليه من فرائض الله بغير شكّ منه في وجوب ذلك عليه) .

ومن السنة عند البخاري من حديث سلمة رضي الله عنها أن النبي صلي الله عليه وسلم قال

(أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقي اللهَ بهما عبدٌ **غير شاكٍّ فيهما** إلا دخل الجنة)

وقوله لأبي هريرة رضي الله عنه كما في الصحيح (من لقيتَ من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله **مستيقنا بها قلبه** فبشِّره بالجنة).

3) الإخلاص المنافي للشرك

ودليله قول الله تعالي (فاعبد الله مخلصا له الدين ألا لله الدين الخالص)

قال الطبري

(يقول تعالى ذكره: فاخشع لله يا محمد - أيها الرسول الكريم - بالطاعة، وأخلص له الألوهة، وأفرده بالعبادة، ولا تجعل له في عبادتك إياه شريكا، كما فَعَلَتْ عَبَدة الأوثان ألا لله العبادة والطاعة وحده لا شريك له، خالصة لا شرك لأحد معه فيها، فلا ينبغي ذلك لأحد، لأن كل ما دونه ملكه، وعلى المملوك طاعة مالكه لا من لا يملك منه شيئا) .

وقول النبي صلي الله عليه وسلم لأبي هريرة رضي الله عنه كما في الصحيحين لما سأله من أسعد الناس بشفاعتك

قال صلي الله عليه وسلم (أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه)

فمن قالها وهو عاكف القبر يعبد الميت كما هو حال عباد القبور والأوثان فلن تنفعه الشهادة بل قولها منه غير معتبر شرعا ولو قالها آلاف المرات .

4) الصدق المنافي للتكذيب والنفاق فيقولها صدقا من قلبه لا نفاقا ولا تكذيبا

ودليله قول تعالي (فليعلمنَّ اللهُ الذين صدقوا وليعلمنَّ الكاذبين)

قال ابن كثير (أَيِ: الَّذِينَ صَدَقُوا فِي دَعْوَاهُمُ الْإِيمَانَ مِمَّنْ هُوَ كَاذِبٌ فِي قَوْلِهِ وَدَعْوَاهُ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ(٤) . وَهَذَا مُجْمَعٌ عَلَيْهِ عِنْدَ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ؛ وَلِهَذَا يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ فِي مِثْلِ: ﴿إِلا لِنَعْلَمَ﴾ [الْبَقَرَةِ: ١٤٣] : إِلَّا لِنَرَى؛ وَذَلِكَ أَنَّ الرُّؤْيَةَ إِنَّمَا تَتَعَلَّقُ بِالْمَوْجُودِ، وَالْعِلْمُ أَعَمُّ مِنَ الرُّؤْيَةِ، فَإِنَّهُ [يَتَعَلَّقُ] بِالْمَعْدُومِ وَالْمَوْجُودِ) .

وفي التفسير الميسر

(فليعلمنَّ الله علمًا ظاهرًا للخلق صدق الصادقين في إيمانهم، وكذب الكاذبين؛ ليميز كلَّ فريق من الآخر.) .

وقال سبحانه عن المنافقين (ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون)

قال الطبري

(الله عز وجل أنبأ عن المنافقين في أول النبأ عنهم في هذه السورة، بأنهم يَكذِبون بدَعْواهم الإيمانَ، وإظهارهم ذلك بألسنتهم، خِداعًا لله عز وجلّ ولرسوله وللمؤمنين، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بذلك من قيلهم، مع استسرارهم الشكَّ والريبة، ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ بصنيعهم ذلك ﴿إِلا أَنْفُسَهُمْ﴾ دون رسول الله ﷺ والمؤمنين؛ ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بموضع خديعتهم أنفسَهم، واستدراج الله عز وجل إيّاهم بإملائه لهم، ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ شك النفاق وريبَتُه(١٥) والله زائدهم شكًّا وريبة بما كانوا يَكذِبون الله ورسوله والمؤمنين بقَوْلهم بألسنتهم آمنَّا بالله وباليوم الآخر، وهم في قيلهم ذلك كَذَبة، لاستسرارهم الشَّكَّ والمرض في اعتقادات قلوبهم في أمر الله وأمر رسوله ﷺ.) .

وقوله صلي الله عليه وسلم كما عند البخاري من حديث معاذ رضي الله عنه

(ما من أحد يشهد أن لا اله إلا الله صدقا من قلبه إلا حرَّمه الله علي النار)

يقولها مصدقا بها وبحقها لا مكذبا ، وصادقا لا منافقا النفاق الاعتقادي المكفر .

5) المحبة المنافية للبغض

المحبة لما تضمنته من العقائد القلبية والشرائع العملية، فيحب العبد ربه سبحانه وتعالي وجميع رسله عليهم الصلاة والسلام ويحب جميع ما جاء به الرسول صلي الله عليه وسلم ، فإن أبغض وكره شيئا منها فقد كفر بالله سبحانه وتعالي ، والمراد بالبغض المكفر هو البغض الديني ، لأن البغض أو الكره نوعان بغض ديني اعتقادي ، وبغض طبعي ، والبغض أشد من الكره وكثيرا ما يصاحبه مع نفرة النفس عن الشيء عداوة ، والبغض أو الكره المكفر هو البغض الاعتقادي الديني أي بغض التشريع سواء أبغض الدين كله أو حكما شرعيا ولو واحدا

كاللاتي يبغضن تعدد الزوجات بغض تشريع أي تكره حكم الله ، وكالذين يبغضون النقاب ويقولون هو عادة جاهلية و اللحية كذلك فهذا كله من الكفر والردة عن دين الله سبحانه

ودليل ذلك قوله تعالي (والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم)

قال ابن كثير (أيْ: لَا يُرِيدُونَهُ وَلَا يحبونه فأحبط أعمالهم)

وحبوط جميع الأعمال لا يكون إلا بالكفر أو الشرك .

وقال تعالي (لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون) .

وقال أيضا عز من قائل (ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم)

وقال سبحانه (أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون)

وأما الكره الطبعي فهو من جبلة الإنسان لما يلحقه من المشقة فلا يكون كفرا مخرجا من الملة

كما قال تعالي (كتب عليكم القتال وهو كره لكم) ، وقال صلي الله عليه وسلم كما عند مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه (ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات: قالوا: بلى يا رسول الله قال: إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط) .

6) الانقياد المنافي للإعراض والترك

أن ينقاد ويذعن ويستسلم لما دلَّتْ عليه من العقائد القلبية والشرائع العملية قولا وعملا.

ومن لم ينقد فهو كافر كفر إعراض ، وكفر الإعراض ليس هو التكذيب والجحد المنافي للصدق الذي هو الشرط الرابع المتقدم بيانه وإنما هو التقصير في تعلم الفرض العيني والعمل به مما لا يقوم الإسلام إلا به كالتوحيد والصلاة ، وأما الإعراض عن الواجب الذي هو دون ذلك فيوزر عليه صاحبه ولكن لا يخرجه من الإسلام إن كان محققا لأصل الدين وهو التوحيد قولا وعملا وإقامة الصلاة مع البراءة من الشرك وأهله.

فالإعراض عن دين الله - تعالي - ؛ لا يتعلمه ولا يعمل به بل يتولى ويعرض عنه ولا ينقاد له فهذا ناقض لقول الشهادة من الأساس .

والدليل قوله تعالي : ومن أظلم ممن ذكر بايات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون

ودليله قوله تعالي (ومن يسلم وجهه إلي الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقي وإلي الله عقبة الأمور)

قال ابن كثير (يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ، أَيْ: أَخْلَصَ لَهُ الْعَمَلَ وَانْقَادَ لِأَمْرِهِ وَاتَّبَعَ شَرْعَهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أَيْ: فِي عَمَلِهِ، بِاتِّبَاعِ مَا بِهِ أُمِرَ، وَتَرْكِ مَا عَنْهُ زُجِرَ، ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ أَيْ: فَقَدْ أَخَذَ مُوَثِقًا مِنَ اللَّهِ مَتِينًا أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُهُ)

ومثله قوله تعالي (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ)

قال الطبري

(ومن أحسن دينًا" أيها الناس، وأصوبُ طريقًا، وأهدى سبيلا="ممن أسلم وجهه لله"، يقول: ممن استسلم وجهه لله فانقاد له بالطاعة، مصدقًا نبيه محمدًا ﷺ فيما جاء به من عند ربه ="وهو محسن"، يعني: وهو عاملٌ بما أمره به ربه، محرّم حرامه ومحلِّل حلاله" واتَّبع ملة إبراهيم حنيفًا"، يعني بذلك: واتبع الدين الذي كان عليه إبراهيم خليل الرحمن، وأمر به بنيه من بعده وأوصاهم به حنيفًا"، يعني: مستقيمًا على منهاجه وسبيله.) . انتهي .

ودليل ذلك أيضا قوله تعالي (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمي قال رب لم حشرتني أعمي وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسي).

ومثله قوله تعالي (والذين كفروا عما أنذروا معرضون).

وقوله تعالي (بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون).

قال ابن سعدي (أي: وإنما أقاموا على ما هم عليه، تقليدا لأسلافهم يجادلون بغير علم ولا هدى، وليس عدم علمهم بالحق لخفائه وغموضه، وإنما ذلك، لإعراضهم عنه، وإلا فلو التفتوا إليه أدنى التفات، لتبين لهم الحق من الباطل تبينا واضحا جليا ولهذا قال: { فَهُمْ مُعْرِضُونَ }) . انتهي

وقال تعالي (فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) ، وأمره سبحانه يقتضي الوجوب ؛ فلا عذر لأحد تمكن من العلم بمعرفة أمر الله تعالي فقصّر هو عنه.

ووجه كون المعرض عن دين الله كافرا أيضا مع الآيات السابقة سقوط شرطين من شروط الشهادة ألا وهما العلم المُنافي للجهل ، والانقياد المنافي للإعراض والترك .

قال في ذلك الشيخ عبدُ اللَّطيفِ بنُ عبدِ الرَّحمنِ آل الشَّيخ كما في الدرر (472 /10)

(إنَّ أحوالَ النَّاسِ تتفاوَتُ تفاوتًا عظيمًا، وتفاوُتُهم بحَسَبِ دَرَجاتِهم في الإيمانِ إذا كان أصلُ الإيمان موجودًا، والتفريطُ والتَّركُ إنَّما هو فيما دون ذلك من الواجباتِ والمستحَبَّاتِ، وأمَّا إذا عُدِمَ الأصلُ الذي يدخُلُ به في الإسلامِ، وأعرضَ عن هذا بالكليَّةِ، فهذا كُفرُ إعراضٍ، فيه قَولُه

تعالى: وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ، وقَولُه: وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

قال الشيخ سُلَيمان بن سَحمانَ مُعَلِّقًا على هذا الكلامِ

(فتَبَيَّن من كلامِ الشَّيخِ أنَّ الإنسانَ لا يَكفُرُ إلَّا بالإعراضِ عن تعَلُّمِ الأصلِ الذي يدخُلُ به الإنسانُ في الإسلامِ، لا تَرْكِ الواجباتِ والمستحَبَّاتِ).

قال ابن تيمية في كتابه الإيمان(117)

(والتولي هو التولي عن الطاعة، كما قال تعالى: {قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} ، وقال تعالى: {فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى .

فعلم أن التولي ليس هو التكذيب، بل هو التولي عن الطاعة، فإن الناس عليهم أن يصدقوا الرسول فيما أخبر، ويطيعوه فيما أمر، وضد التصديق التكذيب، وضد الطاعة التولي، فلهذا قال: {فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى} و قد قال تعالى: {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ} فنفي الإيمان عمن تولى عن العمل، وإن كان قد أتى بالقول وَقَالَ تَعَالَى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ} وَقَالَ: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ}) انتهي كلامه .

وأفرض الفروض وأوجب الواجبات وأصل الأصول وأول شرط من شروط صحة الشهادة من قائلها وإلا لم تنفعه : العلم بمعني لاإله إلا الله نفيا وإثباتا واعتقادها وقولها باللسان ، كما قال الله تعالي (فاعلم أنه لاإله إلا الله واستغفر لذنبك) ، وقال الرسول - صلي الله عليه وسلم - كما في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه من حديث عثمان -رضي الله عنه – (من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة) فدل علي أن من مات وهو يجهلها دخل النار ، قول الله سبحانه (ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) أي يعلمون بقلوبهم ما نطقت به ألسنتهم ، قال ابن سعدي (أي: نطق بلسانه، مقرا بقلبه، عالما بما شهد به) .

وليس المراد بالانقياد العملي أي عمل صالح ، كلا ، فلا يكفي مجرد الصدق في الحديث ورد الأمانات ونحو ذلك ، وإنما المراد الواجبات التي يختص بإيجابها محمد صلي الله عليه وسلم أركان الإسلام وعلي رأسها شهادة ألا إله إلا الله قولا وعملا والصلاة فإن تاركها بالكلية كافر كفرأكبر مخرجا من الملة علي الصحيح من قولي العلماء .

7) القبول المنافي للرد

أن يقبل ما دلَّت عليه من القول والعمل وأن يعتقد أنه ملتزم بحقها من الأحكام والشرائع ولا يمتنع فان الامتناع مكفر ، وقد بسطت الكلام في كتابي (مسألة الإيمان وما يتعلق بها من أحكام) عن هذه المكفرات الجحد والتكذيب والامتناع وغيرها فراجعه غير مأمور .

وعلي هذا فالفرق بين شرطي الانقياد ولقبول أن الانقياد في الظاهر قولا وعملا ، وأما القبول فهو الالتزام اعتقادا وأن لا يمتنع بقلبه .

وفي ذلك قال الفوزان لما سل عن الفرق بين شرط الانقياد والقبول

(السائل كان يسأل عن الفرق بينهما: الانقياد في الظاهر، والقبول في القلب، الانقياد في الظاهر، ينقاد المسلم والكافر، كلهم ينقادون في الظاهر، ولكن القبول هذا لا يكون إلا للمؤمن، المنافق لا يقبل في قلبه، وإن انقاد في قلبه، نعم) .

فالمنافق لن ينفعه انقياده ظاهرا حتي يقبل ما دلت عليه بقلبه واعتقاده باطنا، والممتنع لن تنفعه شهادته حتي يقبل كل شريعة واعتقاد ارسل الله عز وجل نبيه صلي الله عليه وسلم به ولو التزم بكل الشرائع الأخري إنما مثل هذا كمثل اليهود الذين امنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض.

وبهذا تعلم أن من مناطات تكفير تارك العمل بجانب أنه خال من عمل القلب وتقدم تحقيق ذلك في بيان مسألة التلازم بين الظاهر والباطن عند أهل السنة كما بينته في كتابي مسألة الإيمان، أنه لم يحقق شرط الانقياد الذي هو شرط لقبول الشهادة من صاحبها ولا شرط القبول .

ومن أدلة ذلك قتال أبي بكر رضي الله عنه لأهل الردة الذين يشهدون أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله لكن لم يأتوا بحقها ، فقال له عمر كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلي الله عليه وسلم (أمرت أن أقاتل الناس حتي يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم الا بحقها) قال أبو بكر : إن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها الي رسول الله صلي الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه) حديث متفق عليه.

وقد كفَر مانعوا الزكاة لامتناعهم عن أداء الزكاة وردهم لهذه الشريعة العظيمة، رغم إقرارهم بالشهادتين.

قال أبو عبيد القاسم بن سلَّام في هذه الحادثة :

(والمصدق بهذا جهاد ابي بكر الصديق رضي الله عنه بالمهاجرين والأنصار علي منع العرب الزكاة ، كجهاد رسول الله صلي الله عليه وسلم اهل الشرك سواء لا فرق بينهما في سفك الدماء وسبي الذرية واغتنام المال ، فإنهم كانوا مانعين لها غير جاحدين بها) .

فبين انهم كفروا بامتناعهم عنها وعدم قبولهم لها رغم اقرارهم بالشهادتين ، ولم تنفعهم لأنهم لم يحققوا شرطا من شروطها ألا وهو القبول المنافي للرد ، و ذلك بسبب الامتناع.

ومن الأدلة أيضا قوله تعالي (إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون)

وفي التفسير الميسر (إن أولئك المشركين كانوا في الدنيا إذا قيل لهم: لا إله إلا الله، ودُعوا إليها، وأُمروا بترك ما ينافيها، يستكبرون عنها وعلى من جاء بها) .

وأيضا قال سبحانه (أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون بل قالوا إنا وجدنا آباءنا علي أمة وإنا علي آثارهم مهتدون وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا علي أمة وإنا علي آثارهم مقتدون) .

قال ابن كثير

((يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ غَيْرَ اللَّهِ بِلَا بُرْهَانٍ وَلَا دَلِيلٍ وَلَا حُجَّةٍ: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ أَيْ: مِنْ قَبْلِ شِرْكِهِمْ، ﴿فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ أَيْ: فِيمَا هُمْ فِيهِ، أَيْ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَمْ أَنزلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الرُّومِ: ٣٥] أَيْ: لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ أَيْ: لَيْسَ لَهُمْ مُسْتَنَدٌ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الشِّرْكِ سِوَى تَقْلِيدِ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ، بِأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى أُمَّةٍ، وَالْمُرَادُ بِهَا الدِّينُ هَاهُنَا، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾

وَقَوْلُهُمْ: ﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ﴾ أَيْ: وَرَائِهِمْ ﴿مُهْتَدُونَ﴾ ، دَعْوَى مِنْهُمْ بِلَا دَلِيلٍ.

ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ مَقَالَةَ هَؤُلَاءِ قَدْ سَبَقَهُمْ إِلَيْهَا أَشْبَاهُهُمْ وَنُظَرَاؤُهُمْ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ الْمُكَذِّبَةِ لِلرُّسُلِ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ، فَقَالُوا مِثْلَ مَقَالَتِهِمْ: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذَّارِيَاتِ: ٥٢، ٥٣] ، وَهَكَذَا قَالَ هَاهُنَا: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ أَيْ: يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ أَيْ: وَلَوْ عَلِمُوا وَتَيَقَّنُوا صِحَّةَ مَا جِئْتَهُمْ بِهِ، لَمَا انْقَادُوا لِذَلِكَ بِسُوءِ قَصْدِهِمْ وَمُكَابَرَتِهِمْ لِلْحَقِّ وَأَهْلِهِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أَيْ: مِنَ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابِ، كَمَا فَصَّلَهُ تَعَالَى فِي قَصَصِهِمْ، ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ؟ أَيْ: كَيْفَ بَادوا وهلكوا، وكيف نجى الله المؤمنين؟)) **انتهي كلامه .**

8) الكفر بالطاغوت

والطاغوت في اللغة : من الطغيان أي مجاوزة الحد .

وفي الشرع : قال في التيسير (وقد فسَّره السلف ببعض أفراده. قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: الطاغوت: الشيطان. وقال جابر ـ رضي الله عنه ـ "الطواغيت: كهان كانت تنْزل عليهم الشياطين". رواهما ابن أبي حاتم. وقال مجاهد: "الطاغوت: الشيطان في صورة الإنسان، يتحاكمون إليه وهو صاحب أمرهم". وقال مالك: الطاغوت: كل ما عبد من دون الله).انتهي

ويجمعها قول ابن القيم في اعلام الموقعين (الطاغوت ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم مَن يتحاكمون إلى غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة الله ، فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها، وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم عدلوا عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول صلى الله عليه وسلم إلى التحاكم إلى الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته) .
انتهي .

واشترط بعض العلماء أن يدعو إلي ذلك أو لا يدعو لكن يرضي به أو لا يرضي لكن لا يكره ،وذلك حتي يخرج الأنبياء الذين عبدوا مع الله سبحانه كعيسي ، وموسي ، والعزير، ومحمد عليهم الصلاة والسلام ،والملائكة ، والشمس والقمر وغيرها من المعبودات التي عبدها الناس

وبعضهم فرق بين الطاغوت في حقيقته وبين اتخاذ الناس له طاغوتا ، فمن كره ذلك فليس بطاغوت ، وإنما الطاغوت من عبده ، وإن اتخذه المشركون طاغوتا فهو عندهم طاغوت باعتبار اتخاذهم هم له كذلك وعبادتهم إياه ، أو اتباعه علي خلاف هدي رسول الله ، أوطاعته فيما هو من معصية الله ، أي هو طاغوت باعتبار المتخِذ لا باعتبار المتخَذ، وهذا هو ظاهر كلام ابن القيم السابق ، فمعني كلامه أنه طاغوت باعتبار عابده ، طاغوت باعتبار متبعه ، طاغوت باعتبار مطيعه ، أي هم الذين اتخذوهم طواغيت ، لأنه اشترط مجاوزة العبد حده ، والأنبياء الذين عبدهم الناس مع لله سبحانه نشهد أنهم بلغوا ونصحوا أممهم وحذروهم من هذا الشرك الذي طبق الأرض وستشهد أمة محمد لهم يوم القيامة ، وأما من رضي فهو طاغوت بذاته.

قال الشيخ محمد في الدرر السنية :

(وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرُة، وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ: إِبْلِيسُ لَعَنَهُ الله، وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ - أو لم يرض لكن لم يكره -، وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ، وَمَنْ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ، وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ الله)

قال العصيمي في شرح فتح المجيد :

((ولذلك فأنواع الطواغيت ثلاثة :

طواغيت عبادة ، وطواغيت اتباع ، وطواغيت طاعة ، فإلي هذه الثلاثة تعود طواغيت العالم .

وجماع ما قيل في الطاغوت يعود لأحد أمرين :

الأول : معني خاص وهو الشيطان ، وهو المعني المراد عند إطلاق ذكره في القران .

الثاني : معني عام ، وأحسن ما قيل فيه ما سبق من كلام ابن القيم في إعلام الموقعين أنه كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع))انتهي كلامه .

والطواغيت بذواتهم كفار العابد والمعبود ، أما العابد فلأنه يعبد غير الله ، وأما المعبود فبشرط أن يكون داعيا لذلك أو راضيا به أو غير كاره له فاستحقوا أن يوصفوا بذلك ، فخرج من اتخذه المشركون طاغوتا وليس بطاغوت كمن لم يرض .

فالموحد له عقيدة في الطاغوت العابد والطاغوت المعبود ، فأما الطاغوت العابد غير الله فهو كافر لانه لم يكفر بالطاغوت المعبود ولأنه كافر كفر تكذيب للنصوص ، وأما الطاغوت المعبود مع الله سبحانه فإن كان داعيا الي ذلك بنفسه أو راضيا به أو غير كاره له فهو كافر لأنه منازع لله تعالي في خالص حقه ، وإن لم يكن كذلك كأن يكون ملكا مقربا أو نبيا مرسلا فعقيدة الموحد فيه حتي يحقق هذا الركن من ركني الشهادة أن يعتقد أنه لا حق له من العبادات إطلاقا ، كما قال تعالي (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون)

واعلم أن الطغيان لا ينحصر في عمل الكفر الأكبر المخرج من الملة بل ارتكاب المعاصي والكبائر والبدع غير المخرجة من الملة وأفراد الشرك الأصغر هي من الطغيان أيضا وإن كانت لا تخرج من الملة كما هو معتقد الجماعة خلافا للخوارج .

قال الشيخ محمد رحمه الله كما في الدرر السنية في بيان صفة الكفر بالطاغوت والإيمان بالله:

(اعلم – رحمك الله – أن أول ما فرض الله علي ابن آدم الكفر بالطاغوت والإيمان بالله فأما صفة الكفر بالطاغوت: فأن تعتقد بطلان عبادة غير الله، وتتركها، وتبغضها، وتكفر أهلها، وتعاديهم، وأما معنى الإيمان بالله، فأن تعتقد أن الله هو الإله المعبود وحده، دون من سواه، وتخلص جميع أنواع العبادة كلها لله، وتنفيها عن كل معبود سواه، وتحب أهل الإخلاص، وتواليهم، وتبغض أهل الشرك وتعاديهم، وهذه ملة إبراهيم التي سفه نفسه من رغب عنها، وهذه هي الأسوة التي أخبر الله بها في قول: ه {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده} **انتهي كلامه** .

وقال في (3- 19):

(أصل دين الإسلام وقاعدته أمران: الأول :الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، والتحريض على ذلك، والموالاة فيه، وتكفير من تركه، الثاني: الإنذار عن الشرك في عبادة الله، والتغليظ في ذلك، والمعاداة فيه، وتكفير من فعله)انتهي .

ودليل الكفر بالطاغوت بهذه الصفة وهذه الشعب الخمس قوله تعالي في سورة الممتحنة :

(قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ)

قال الطبري في تفسيره :

(يقول تعالى ذكره للمؤمنين به من أصحاب رسول الله ﷺ: قد كان لكم أيها المؤمنون أُسوة حسنة: يقول: قدوة حسنة في إبراهيم خليل الرحمن، تقتدون به، والذين معه من أنبياء الله ، حين قالوا لقومهم الذين كفروا بالله، وعبدوا الطاغوت: أيها القوم إنا برآء منكم، ومن الذين تعبدون من دون الله من الآلهة والأنداد، يقول جلّ ثناؤه مخبرا عن قيل أنبيائه لقومهم الكفرة: كفرنا بكم، أنكرنا ما كنتم عليه من الكفر بالله وجحدنا عبادتكم ما تعبدون من دون الله أن تكون حقًّا، وظهر بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدًا على كفركم بالله، وعبادتكم ما سواه، ولا صلح بيننا ولا هوادة، حتى تؤمنوا بالله وحده، يقول: حتى تصدّقوا بالله وحده، فتوحدوه، وتفردوه بالعبادة) .

وقال الشيخ الأمين في أضواء البيان :

(فالتَّأَسِّي هُنا في ثَلاثَةِ أُمُورٍ:
أوَّلًا: التَّبَرُّؤُ مِنهم ومِمّا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ.
ثانِيًا: الكُفْرُ بِهِمْ.
ثالِثًا: إبْداءُ العَداوَةِ والبَغْضاءِ وإعْلانُها وإظْهارُها أبَدًا إلى الغايَةِ المَذْكُورَةِ حَتّى يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ

وحْدَهُ، وهَذا غايَةٌ في القَطِيعَةِ بَيْنَهم وبَيْنَ قَوْمِهِمْ، وزِيادَةٌ عَلَيْها إبْداءُ العَداوَةِ والبَغْضاءِ أبَدًا، والسَّبَبُ في ذَلِكَ هو الكُفْرُ، فَإذا آمَنُوا بِاللَّهِ وحْدَهُ انْتَفى كُلُّ ذَلِكَ بَيْنَهم.)انتهي

ودليل السنة قول النبي صلي الله عليه وسلم كما في صحيح مسلم من حديث طارق بن أشيم

(من قال لا اله الا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه علي الله)

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتاب الوحيد في شرح هذا الحديث :

(وهذا من أعظم ما يبين معني لا اله الا الله ، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصما للدم والمال ، بل ولا معرفة معناها مع لفظها ، بل ولا الإقرار بذلك كله ، بل ولا كونه لا يدعو الا الله وحده لا شريك له ، بل لا يحرم ماله ودمه حتي يضيف الي ذلك الكفر بما يعبد من دون الله ، فإن شك أوتردد لم يحرم ماله ودمه ، فيا لها من مسألة ما أجلها ويا له من بيان ما أوضحه ، وحجة ما اقطعها للمنازع) .

فالكفر بالطاغوت وهو ركن من ركني الشهادة مع الإيمان بالله يكون تحقيقه بهذه الأمور الخمسة السابقة ، فتكفر بالوثن وأنه ما عبد إلا بالجورعلي حق الله وأنه لا يستحق من العبادات شيئا ، وتكفربعبادة الوثن وأنها باطلة محبطة لجميع اعمال صاحبها ، وتكفر بمن عبد الوثن وأنه قد كفر وانسلخ من الملة الحنيفية ، مع عداوته وبغضه التام في الله .

وعلي هذا فمن لم يُكفِّر المشركين أو شك في كفرهم أو صحح مذهبهم كفر إجماعا ؛ لأنه لم يكفر بالطاغوت فيكون قد أسقط ركنا من ركني لا إله إلا الله وشرطا من شروط صحتها بل عدة شروط كاليقين والإخلاص والقبول وغيرها من شروط الشهادة التي تقدم بيانها فلن تنفعه الشهادة ، وأيضا لتكذيبه للنصوص الواردة في الكتاب والسنة بكفرهم ، ولأنه لم يكفر بما يعبد من دون الله ، ولم يتبرأ ممن عبد غير الله ولو كان كافرا بالطاغوت لكفرهم ، غير أنه يكون مكذبا لله ورسوله في عدم تكفيره لهم أو تصحيحه لدينهم كما هو حال دعاة وحدة الأديان ، ولأن اليهود والنصاري وعباد القبور وغيرهم من المشركين كفرهم معلوم من الدين بالضرورة فمن لم يكفرهم أو شك في كفرهم أو صحح دينهم كفر كفر تكذيب وإنكار .

- وتكفير من لم يكفر الكافر مجمع عليه بلا خلاف وقد تواترت اقوال لسلف في ذلك ، منها :

- قال الإمام أحمد بن حنبل في رواية عبدوس: والقرآن كلام الله تكلم به، ليس بمخلوق ومن زعم أنّ القرآن مخلوق فهو جهمي كافر، ومن زعم أنّ القرآن كلام الله ووقف ولم يقل ليس بمخلوق فهو أخبث من قول الأول، ومن زعم أنّ ألفاظنا به، وتلاوتنا له مخلوقة، والقرآن كلام الله فهو جهمي، ومن لم يكفر هؤلاء القوم فهو مثلهم ، وقال أيضاً: وما في اللوح المحفوظ وما في المصحف وتلاوة الناس وكيفما وُصف، فهو كلام الله غير مخلوق، فمن قال مخلوق، فهو كافر بالله العظيم، ومن لم يكفره فهو كافر.)

- وقال ابن أبي حاتم كما في شرح أصول الاعتقاد للالكائي : "سألت أبي وأبا زرعة؛ عن مذاهب أهل السنة في أصول الدين، وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار، وما يعتقدان من ذلك؛ فقالا: أدركنا العلماء في جميع الأمصار حجازاً وعراقاً وشاماً ويمناً؛ فكان من مذهبهم: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، والقرآن كلام الله غير مخلوق بجميع جهاته...، ومن زعم أن القرآن مخلوق؛ فهو كافر بالله العظيم كفراً ينقل عن الملة، ومن شك في كفره ممن يفهم فهو كافر"

- وقال الليث بن سعد كما في الانتصار في الرد علي المعتزلة القدرية (من قال القران مخلوق فهو كافر ، ومن لم يقل هو كافر فهو كافر)

- وقال يزيد بن هارون كما في الإبانة (من قال القران مخلوق فهو كافر ، ومن لم يكفره فهو كافر ، ومن شك في كفره فهو كافر)

- وقال القاضي عياض كما في الشفا (الإجماع علي كفر من لم يكفر أحدا من النصاري واليهود ، وكل من فارق دين المسلمين أو وقف في تكفيرهم أو شك ....لأن التوقيف والإجماع اتفقا علي كفرهم ، فمن وقف في ذلك فقد كذب النص والتوقيف ، أو شك فيه ، والتكذيب أوالشك فيه لا يقع إلا من كافر .... ولهذا نكفر من دان بغير ملة المسلمين من الملل، أو وقف فيهم، أو شك، أو صحّح مذهبهم، وإن أظهر مع ذلك الإسلام، واعتقده، واعتقد إبطال كل مذهب سواه، فهو كافر بإظهاره ما أظهر من خلاف ذلك) انتهي كلام القاضي من عدة مواضع من كتابه مع العلم أنه علي طريقة الاشاعرة في بعض مسائل العقيدة فلتحذر.

- وقال ابن تيمية في المجموع (7-463) :

(فمن لم يقر باطنا وظاهرا بأن الله لا يقبل دينًا سوى الإسلام فليس بمسلم، ومن لم يقر بأن بعد مبعث محمد -صلى الله عليه وسلم- لن يكون مسلمًا إلا من آمن به واتبعه باطنًا وظاهرًا فليس بمسلم، ومن لم يحرم التدين بعد مبعثه -صلى الله عليه وسلم- بدين اليهود والنصارى، بل من لم يكفرهم ويبغضهم فليس بمسلم باتفاق المسلمين) انتهي .

- وقال ابن حزم في الفِصَل (فأخبر تعالي أنهم يعرفون صدقه ولا يكذبونه وهم اليهود والنصاري وهم كفار بلا خلاف من أحد من الأمة ، ومن أنكر كفرهم فلا خلاف من أحد من الأمة في كفره وخروجه عن الإسلام) .

لكن كفر من لم يكفر الكافر له شرطان خلافا للخوارج :

الأول : أن يكون كفره واضحا متفقا عليه لا خلاف فيه ، خلافا لترك الصلاة كسلا مع الإقرار بوجوبها فإنه وإن كان الصحابة مجمعين إجماعا صحيحا أن تركها كفر أكبر مخرج من الملة إلا أن الخلاف حاصل بعد اتفاقهم لا ينكره إلا جاحد فلا نكفر من لم يكفر تارك الصلاة كسلا ،

لكن نكفر من لم يكفر تاركها جحودا فهذا اتفقوا أنه كفر ولهذا كفروا من لم يكفر تاركها جحودا لفرضيتها .

الثاني : أن يكون المتهم بالكفر للتوقف أو الشك عالما بكفر من وقع في الكفر ، فإن كان لا يعلم فلا يقال هو كافر لأنه لم يكفر الكافر .

قال في الدرر (119،120 – 2):

(فالله، الله، إخواني: تمسكوا بأصل دينكم أوله وآخره، أُسه ورأسه، وهو: شهادة أن لا إله إلاَّ الله؛ واعرفوا: معناها؛ وأحبوا أهلها، واجعلوهم إخوانكم، ولو كانوا بعيدين؛ واكفروا بالطواغيت، وعادوهم، وابغضوا من أحبهم، أو جادل عنهم، أو لم يكفرهم، أو قال ما عليّ منهم، أو قال ما كلفني الله بهم، فقد كذب هذا على الله، وافترى؛ بل: كلفه الله بهم، وفرض عليه الكفر بهم، والبراءة منهم؛ ولو كانوا: إخوانه، وأولاده؛ فالله، الله، تمسكوا بأصل دينكم، لعلكم تلقون ربكم، لا تشركون به شيئاً؛ اللهم توفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين).

وقال (109/2) :

(وأنت يا من منَّ الله عليه بالإسلام، وعرف أن ما من إله إلاَّ الله؛ لا تظن أنك إذا قلت هذا هو الحق، وأنا تارك ما سِواه، لكن لا أتعرض للمشركين، ولا أقول فيهم شيئاً، لا تظن: أن ذلك يحصل لك به الدخول في الإسلام، بل: لا بُدَّ من بُغضِهم، وبغض من يحبهم، ومسبتهم، ومعاداتهم، كما قال أبوك إبراهيم، والذين معه: {إنَّا بُرءاؤا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده} [وقال تعالى: {فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى} وقال تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} ولو يقول رجل: أنا أتبع النبي صلى الله عليه وسلم وهو على الحق، لكن: لا أتعرض اللاَّت، والعُزى، ولا أتعرض أبا جهل، وأمثاله، ما عليَّ منهم؛ لم يصح إسلامه) .

وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن رحمه الله في مجموع الرسائل (3-224):

(فمقت هؤلاء المشركين وعيبهم وذمهم وتكفيرهم والبراءة منهم هو: حقيقة الدين، والوسيلة العظمى إلى ربّ العالمين، ولا طيب لحياة مسلم وعيشه إلاَّ بجهاد هؤلاء، ومراغمتهم وتكفيرهم والتقرب إلى الله بذلك واحتسابه لديه).انتهي .

وهذا هو معني لا إله إلا الله فإنها تضمنت نفيا وإثباتا ، فالنبي صلي الله عليه وسلم لما أمر الاقوام بالتوحيد لم يقل لهم قولوا الله إله ، فإن الإثبات المحض لا يمنع المشاركة ، غير أنهم لم يكونوا ملحدين بل كانوا عبادا لله ولكنهم كفروا لما سووا بين الله سبحانه وبين خلقه في

العبادات بحجة أنها تقربهم إلي الله بالشفاعة ونحوها ، كما يحصل عند القبور الان من الاستشفاع بالأموات من الأنبياء والأولياء.

بل قال لهم النبي صلي الله عليه وسلم : قولوا لا إله إلا الله ، فتضمنت النفي والإثبات

نفي استحقاق العبادة عن كل ما سوي الله عز وجل سواء كان ملكا مقربا أو نبيا مرسلا ، وأن العبادة باطلة ، وأن من فعل ذلك فقد خرج من الإسلام ، فهذا معني النفي.

والإثبات أن تثبت جميع العبادات – وهي كل ما يحبه الله من الاقوال والأعمال الظاهرة والباطنة – لله وحده ، فهذا الإثبات.

فقول الشهادة إنما ينفع صاحبه اذا اعتقد شرائطها السابقة وحققها قولا وعملا مع العلم بمعناها والعمل بمقتضاها .

- **إذا تبين هذا فاعلم أن الشرك ينقسم ثلاثة أقسام بالنسبة الى أنواع التوحيد وكل منها قد يكون أكبر وأصغر مطلقا وقد يكون أكبر بالنسبة الى ما هو أصغر منه ويكون أصغر بالنسبة إلى ما هو أكبر منه ، والشرك علي الضد من تعريف التوحيد ، فهو التسوية بين الله وبين خلقه في شيء من حقوقه وخصائصه ، وحقوق الله العبادات ، وخصائصه اسماؤه وصفاته ، أو بمعني آخر هو جعل شيء من حق الله أو خصائصه لغيره ، واعلم أن الكفر والشرك من الالفاظ التي اذا افترقت اجتمعت في المعني ، واذا اجتمعت افترقت علي النحو السابق ويكون الكفر أعم من الشرك ، وهذا باعتبار غالب استعمالهما في الشرع بأن لفظ الشرك أكثر ما يستعمل في الكفر بعبادة غير الله ، وغلب لفظ الكفر في ما سوي ذلك ، وهذا باعتبار الاستعمال ، لا باعتبار الحقيقة ؛ ولهذا لم يفرق بينهما أصحاب القواميس فقال الزبيدي في التاج : و الشرك أيضا الكفر ، وقال في القاموس : وأشرك بالله كفر .**

القسم الأول الشرك في الربوبية :

وهو نوعان :

أحدهما شرك التعطيل :

1. **وهو أقبح أنواع الشرك كشرك فرعون إذ قال وما رب العالمين**
2. **ومن هذا شرك الفلاسفة القائلين بقدم العالم وأبديته وأنه لم يكن معدوما أصلا بل لم يزل ولا يزال والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلى اسباب ووسائط اقتضت إيجادها يسمونها العقول والنفوس**

3. ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود كابن عربي وابن سبعين والعفيف التلمساني وابن الفارض ونحوهم من الملاحدة الذين كسوا الإلحاد حلية الاسلام ومزجوه بشيء من الحق حتى راج أمرهم على خفافيش البصائر .

4. ومن هذا شرك من عطل أسماء الرب وأوصافه من غلاة الجهمية والقرامطة

النوع الثاني شرك من جعل معه إلها آخر ولم يعطل أسماءه وصفاته وربوبيته :

كشرك النصارى الذين جعلوه ثالث ثلاثة وشرك المجوس القائلين باسناد حوادث الخير الى النور و حوادث الشر إلى الظلمة ومن هذا شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات ويجعلها مدبرة لأمر هذا العالم كما هو مذهب مشركي الصابئة وغيرهم .

قلت ويلتحق به من و جه شرك غلاة عباد القبور الذين يزعمون أن أرواح الأولياء تتصرف بعد الموت فيقضون الحاجات ويفرجون الكربات وينصرون من دعاهم ويحفظون من التجأ اليهم ولاذ بحماهم فإن هذه من خصائص الربوبية كما ذكره بعضهم في هذا النوع .

القسم الثاني الشرك في توحيد الأسماء والصفات :

وهو أسهل مما قبله وهو نوعان :

أحدهما : تشبيه الخالق بالمخلوق كمن يقول يد كيدي وسمع كسمعي وبصر كبصري واستواء كاستوائي وهو شرك المشبهة .

الثاني : اشتقاق أسماء للآلهة الباطلة من أسماء الإله الحق قال الله تعالى ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون قال ابن عباس يلحدون في أسمائه يشركون وعنه سموا اللات من الاله والعزى من العزيز .

القسم الثالث الشرك في توحيد الإلهية والعبادة :

قال القرطبي أصل الشرك المحرم اعتقاد شريك لله تعالى في الإلهية وهو الشرك الأعظم وهو شرك الجاهلية ويليه في الرتبة اعتقاد شريك لله تعالى في الفعل وهو قول من قال إن موجودا ما غير الله تعالى يستقل بإحداث فعل وإيجاد وإن لم يعتقد كونه الها)

انتهي من كلام القرطبي .

وهو نوعان :

احدهما :

الشرك الأكبر وهو جعل شيء من حق الله لغيره ، أو بمعني آخر هو التسوية بين الله وبين خلقه في شيء من حقوقه وخصائصه سبحانه وحقوق الله العبادات وخصائصه أسماؤه وصفاته وأفعاله ، و التسوية المراد بها التسوية في صرف العبادة وإرادة غير الله بها ، وليس المراد التسوية في عدد العبادات المجعولة لغير الله كما أو كيفا بل صرف عبادة واحدة في لحظة واحدة من اللحظات لغير الله يحبط عمل العبد ولو وحد لله في باقي العبادات الأخرى في باقي لحظات حياته الأخرى وانما المراد بالتسوية ما سبق ، والتعبير بلفظ الجعل في تعريف الشرك أنه جعل شيء من حق الله لغيره أولي من لفظ الصرف ؛ وذلك موافقة لخطاب الشرع ومواطأته فإن اللفظ الوارد فيه بالجعل كما في قوله تعالي (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) ، وكحديث ابن مسعود لما سأل الرسول صلي الله عليه وسلم أي الذنب أعظم فقال (أن تجعل لله ندا وهو خلقك) ، ولأن كلمة الجعل فيها من إقبال القلب وتألهه ما ليس في الصرف لغيره ؛ فإن غاية الصرف تحويل الشيء عن وجهه دون ملاحظة الوجه المحول إليه .

ومثال الشرك الأكبر أعاذنا الله منه أن يجعل لله ندا يدعوه كما يدعو الله ويسأله الشفاعة كما يسأل الله ويرجوه كما يرجو الله ويحبه كما يحب الله ويخشاه كما يخشى الله وهكذا سائر العبادات فيجعلها لله ويجعلها مع ذلك لغير الله - وهو الشرك الاكبر - وبالجملة فهو أن يجعل لله ندا يعبده كما يعبد الله وهذا هو الشرك الأكبر وهو الذي قال الله فيه واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وقال ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت وقال تعالى ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون وقال تعالى الله الذي خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تذكرون والآيات في النهي عن هذا الشرك وبيان بطلانه كثيرة جدا .

الثاني :

الشرك الأصغر قال ابن القيم كيسير الرياء والتصنع للمخلوق وعدم الإخلاص لله تعالى في العبادة بل يعمل لحظ نفسه تارة ولطلب الدنيا تارة ولطلب المنزلة والجاه عند الخلق تارة فلله من عمله نصيب ولغيره منه نصيب ويتبع هذا النوع الشرك بالله في الألفاظ كالحلف بغير الله وقول ما شاء الله وشئت ومالي إلا الله وأنت وأنا في حسب الله وحسبك ونحوه وقد يكون ذلك شركا أكبر بحسب حال قائله ومقصده هذا حاصل كلام ابن القيم وغيره .

وقد مثَّل للشرك الأصغر ببعض أفراده ، و قد عرّفه العلماء بتعريفات عدة فقيل أنه كل ما حكم الله عليه في كتابه وعلي لسان رسوله أنه شرك ولكن ثبت بالأدلة الأخري أنه لا يخرج

صاحبه من الملة وهذا قد ذكرت أدلته وضابطه في كتابي (مسألة الإيمان) فراجعه غير مأمور، وقيل كل ما كان مؤديا للشرك الأكبر وهو قول من قال أن المعاصي من الشرك وفي هذه المسألة تفصيل لا يأتيك هنا ، و التعريف الصحيح والأعم وهو الذي ينضبط أنه ما كان فيه معني التنديد أي التنديد الأصغر بان يُجعل في المخلوق شيء من الندية لكن لا يصل لحد صرف العبادة له كالحلف بغير الله والرياء ونحو ذلك ، فإنها وأشباهها ليست عبادة صرفها لغيرالله فهو لم يصل متوجها بالصلاة للمخلوق لكنه قصد من صلاته التي نواها لله وصرفها له قصد من ورائها شيئا من المخلوق فهذا هو الشرك الأصغر وإن لم يكن صرفها في الأصل له ، وكذلك الحلف بغير الله وغيره من أفراد الشرك الأصغر .

قال الشيخ عبد الرزاق في رسالته (معالم التوحيد) :

ومن نواقص التوحيد التي إذا ذهبت نقص توحيد العبد ونقص إيمانه الشرك الأصغر والألفاظ التي لا يقصد الانسان حقيقتها ، وإنما تقع علي لسانه (لغوا) هذه تُنقِص التوحيد أما إذا اعتقد حقيقتها كانت شركا أكبر) انتهي كلامه .

ومنه ظاهر علي اللسان والجوارح : وهو ألفاظ وأفعال كالحلف بغير الله وما قاله ابن القيم ، ومنه بالفعل كلبس الحلقة أو الخيط والتمائم لرفع البلاء والحسد أو دفعه مما لم يُنزّل الله به سلطانا .

ويدخل فيه شرك الإرادات والنيات كالرياء والسمعة ، كأن يعمل عملا يريد أن يراه الناس عليه أو يسمعه الناس والنبي صلي الله عليه وسلم قال كما في حديث ابن عباس عند مسلم في صحيحه (من راءي راءي الله به ومن سمّع سمّع الله به) .

ومنه العمل لأجل طمع دنيوي كمن يحج ويؤذن او يؤم الناس لأجل المال ، قال ابن القيم (وأما شرك الارادات والنيات فهذا البحر الذي لا ساحل له وقلّ من ينجو منه) .

وبعضهم يقسم الشرك لاكبر واصغر وخفي ، وليس الشرك الخفي قسما ثالثا فإن من الشرك الاكبر ما هو ظاهركدعاء غير الله وخفي كاعتقاد جواز دعاء غير الله وإن لم يدع ، والشرك الاصغر منه ظاهر كالحلف بغير الله ، ومنه خفي كتعلق القلب بالأسباب عن رب الأسباب سبحانه كما سيأتي في الكلام عن أفراد الشرك الأكبر والأصغر في شرح الأبواب إن شاء الله

- وعلي من وقع في الشرك الأصغر أن يتحلل منه ويتوب بأن يقول لا إله إلا الله لما ثبت في الصحيح من قوله صلي الله عليه وسلم (من حلف باللات والعزي فليقل لا إله إلا الله) ولا يختص ذلك بالحلف بغير الله بل هو كذلك في الشرك الأكبر .

- والفرق بين حكم الشرك الأصغر والأكبر :

أن الأكبر يخرج من الملة والاصغر لا يخرجه ولكن ينقص التوحيد ، والمشرك الشرك الاكبر مخلد في النار أما صاحب الشرك الأصغر فلا يُخلّد صاحبه فيها إن دخلها ،والأكبر يحبط جميع الأعمال بخلاف الأصغر لا يحبط إلا العمل الذي خالطه خاصة علي تفاصيل تأتي في باب الرياء ، والشرك الاكبر يبيح الدم والمال بخلاف الأصغر فصاحبه مسلم، أونقول هو مؤمن بإيمانه فاسق بما معه من شرك أصغر ، والشرك الأصغر أكبر من الكبائر كما قال ابن مسعود (لأن أحلف بالله كاذبا أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقا) رواه عبد الرزاق في مصنفه وهناك أدلة أخري لهذا ستاتي أثناء الشرح إن شاء الله .

لكن اتفق الشرك الأكبر والأصغر في أنهما لا يغفران يوم القيامة إن مات العبد دون توبة منهما ودليل عدم مغفرة الشرك الأصغر وأنه ليس كالكبائر التي يكون صاحبها تحت مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه ، أن قوله تعالي في النساء (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افتري إثما عظيما) وقوله (إن الله لا ييغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا) آيات عامة لأن أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر يعم كل شرك أي لا يغفر الإشراك به ، بالإضافة إلي العموم الذي في الحديث القدسي الصحيح (يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة) فشيئا نكرة في سياق النفي تعم كل شرك أيضا ، فالشرك الأصغر لا يغفر إلا في حالة واحدة فقط وهي حالة ما إذا غلبت كفة الحسنات علي كفة السيئات فالشرك الأصغر مع أن الراجح فيه أنه لا يغفر يوم القيامة لعموم الايات والحديث السابق إلا أنه يدخل في الموازنة وهو قول ابن تيمية والسعدي فلا نقول لا بد أن يعذب به ولو غلبت الحسنات علي السيئات بل يغفر في هذه الحالة الوحيدة ، وأما إذا غلبت كفة السيئات علي الحسنات وكان منها شرك اصغر فإنه يؤاخذ به حتي يطهر لأن الراجح أن الشرك الأصغر لا يغفر .

وهل يتوقع أن تغلب كِفةُ السيئات كِفةَ الحسنات مع البراءة من كل شرك ؟ أقول لك لا يكاد يكون العبد مدمنا الكبائر ومصرا علي الصغائر ثم يسلم من الشرك بل يكون في قلبه من رجاء غير الله وخوف غير الله والتعلق بغير الله ما هو معدود من شركه الذي حمله عليه ذنبه الذي ركن إليه وتهاون به والتذّ بمواقعته فصار من آثاره سلب التوحيد الكامل وهذا موجب الخوف من الذنوب فإن العبد الموحد التوحيد الحق يخشي من عاقبة أن يتهاون في ذنبه حتي يسلبه توحيده فإن حفظ التوحيد أدني حصونه اجتناب السيئات ،أما الذي يكثر من المعاصي فإنه ربما يحال بينه وبين الشهادة بسبب ذنوبه ، وهذا من نفيس العلم أن تعلم أن التوحيد أدني حصونه اجتناب السيئات ، ولهذا ذكر ابن القيم في الجواب الكافي نماذج من أناس تهاونوا في ذنوبهم حتي لما ذكر أحدهم بقول الشهادة قال إنها أثقل علي لساني من

الجبال الراسيات لأن ذنوبه قيدت قلبه ، والقلب مغراف اللسان ؛ فإذا كان القلب أسود ثقل علي قول الشهادة ؛ فإن المعاصي وسيلة للشرك والبدع بريد الكفر ، ولهذا قال ابن القيم في النونية :

واحذر كمائن نفسك اللاتي متي : خرجت ليك كسرت كسر مهان

ولهذا قال سفيان لما قيل له تخشي ذنوبك ؟ فقال : والله إنها أهون علي من هذا - وأخذ بيده شيئا من الهشيم - ولكن أخشي أن أسلب التوحيد ، وقال ابن تيمية في كتاب الإيمان الكبير: " الإيمان ليس هو ما يظهر من القول ولا من الحلية الظاهرة ، ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال " وروي الإمام أحمد في فائل الصحابة عن بكر بن عبد الله لمزني أنه قال " ما سبقه أبو بكر بكثرة صلاة ولا كثرة صيام ولكن بشء وقر ف قلبه " ، وذكر ابن رجب في جامع الفوائد ع إسماعيل بن علية أنه قال " الذي كان في قلبه الحب لله عز وجل والنصيحة لخلقه " وهذ من نفيس العلم أن تعلم أن تكميل التوحيد أدني حصونه اجتناب السيئات .

فمن كمل توحيده لا يكاد يقع في محرمات ، وإذا وقع في بعضها لم يحصل منه إصرار عليها بل يسارع بالتوبة ويجد أمر التوبة ميسرا جدا عليه

بل هو نفسه يكره الوقوع في الشهوات والشبهات هو نفسه يبغضها

فيحبب الله إليه الإيمان ويزينه في قلبه ويكره إليه الكفر والفسوق والعصيان فيجعله الله من الراشدين .

فالتوحيد أدني حصونه اجتناب السيئات

فالموحد ليس للشيطان عليه سبيل

الطاعات يتلذذ بها والمعاصي بأشكالها يكرهها ويكره ارتكابها بقدر ما يكره أن يحرق بالنار بل أشد.

ولهذا الموحد هو أقوي الناس فعلا لا تؤثر عليه شهوة ولا تحيره شبهة ولا يتعلق قلبه بمخلوق.

فهو بالله ولله ومع الله

لكن قوة التوحيد وتكميله هذا لا يتأتي إلا بالعلم أعني العلم بالتوحيد وبمسائله ولهذا نشرحه لنفهمه ونعرف كيف نكون من أصحاب التوحيد الكامل.

و إن استرسل في معصية وأصابه الغرور بتوحيده فلا يكاد يسلم من الشرك

فبقدر قوة توحيدك لا تكاد تعصي ، وبقدر استرسالك في المعاصي ينقص توحيدك من حيث شعرت أو لم تشعر.

قال في ذلك ابن القيم في مدارج السالكين في هذه المسألة الخطيرة ما نصه - معقبا علي حديث المغفرة مع قراب الأرض خطايا - :

((فاعلم أن هذا النفي العام للشرك - أن لا يشرك بالله شيئا البتة - لا يصدر من مصر على معصية أبدا ، ولا يمكن مدمن الكبيرة والمصر على الصغيرة أن يصفو له التوحيد ، حتى لا يشرك بالله شيئا ، هذا من أعظم المحال ، ولا يلتفت إلى جدلي لا حظ له من أعمال القلوب ، بل قلبه كالحجر أو أقسى ، يقول : وما المانع ؟ وما وجه الإحالة ؟ ولو فرض ذلك واقعا لم يلزم منه محال لذاته . !

فدع هذا القلب المفتون بجدله وجهله ، واعلم أن الإصرار على المعصية يوجب من خوف القلب من غير الله ، ورجائه لغير الله ، وحبه لغير الله ، وذله لغير الله ، وتوكله على غير الله ما يصير به منغمسا في بحار الشرك ، والحاكم في هذا ما يعلمه الإنسان من نفسه ، إن كان له عقل ، فإن ذل المعصية لا بد أن يقوم بالقلب فيورثه خوفا من غير الله ، وذلك شرك ، ويورثه محبة لغير الله ، واستعانة بغيره في الأسباب التي توصله إلى غرضه ، فيكون عمله لا بالله ولا لله ، وهذا حقيقة الشرك

نعم قد يكون معه توحيد أبي جهل ، وعباد الأصنام ، وهو توحيد الربوبية ، وهو الاعتراف بأنه لا خالق إلا الله ، ولو أنجى هذا التوحيد وحده ، لأنجى عباد الأصنام ، والشأن في توحيد الإلهية الذي هو الفارق بين المشركين والموحدين

والمقصود أن من لم يشرك بالله شيئا يستحيل أن يلقى الله بقراب الأرض خطايا ، مصرا عليها ، غير تائب منها ، مع كمال توحيده الذي هو غاية الحب والخضوع ، والذل والخوف والرجاء للرب تعالى

وأما حديث الدواوين فإنما فيه أن حق الرب تعالى لا يئوده أن يهبه ويسقطه ، ولا يحتفل به ويعتني به كحقوق عباده ، وليس معناه : أنه لا يؤاخذ به البتة ، أو أنه كله صغائر ، وإنما معناه أنه يقع فيه من المسامحة والمساهلة والإسقاط والهبة ما لا يقع مثله في حقوق الآدميين) انتهي كلام ابن القيم من المدارج .

وخلاصته أن أحاديث المغفرة بالشهادة مع الإتيان بقراب الأرض خطايا ليس فيها إلا تحقيق أثر التوحيد في مغفرة الذنوب لا تحقيق الصورة المذكورة فيه لانتفائها شرعا كما قال ابن القيم وهذه الصورة هي إدمان الكبائر والإصرار عليها مع السلامة من الشرك بنوعيه ، وإنما مراد قوله تعالي لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها

مغفرة المراد هو تقريب المعني ، يعني أن ما دام أصل التوحيد موجودا فهو عرضة لأن يغفر الله له ذنبه وإن نقص كمال توحيده ، لكن لا يكون موحدا محققا كمال التوحيد مع كل هذه الذنوب لكن يبقي أصله فيغفر له ذنبه فهذا من بركة التوحيد ، فإن قيل كيف وقد قرر ابن القيم أن لا بد أن يكون متلطخا بشرك أصغر من رجاء غير الله ومحبة غير الله وتعلق القلب بغير الله والشرك الأصغر لا يغفر كما تقدم فأقول لك هذا في حالة إدمان الكبائر والإصرار عليها ، أما ما دون ذلك فالصورة متصورة وهي التي فيها الحديث .

ففي هذا الحديث وأمثاله إعلام بأن التوحيد سبب لمغفرة الذنوب لا أنه يقدر أن يأتي العبد بملء الأرض خطايا مصرا عليها ثم يكون موحدا توحيدا كاملا فإن ذلك لا يوجد إلا في فرض العقل وأما فيي حقائق الإيمان والقلوب فإن الأمر لايكون كذلك وإنما معني الحديث تقريب المعني بتحقيق أثر التوحيد في مغفرة الذنوب لا تحقيق الصورة المذكورة فيه لانتفائها شرعا كما قرر ابن القيم .

وهذا الكلام من ابن القيم مع أهميته وصحته فإنه ليس بحجة لمن يقول في تعريف الشرك الأصغر أنه كل ما كان وسيلة للشرك الأكبر فيدخل فيه المعاصي باختلاف أنواعها ، وليس الأمر كذلك وإنما معني كلامه أن المعاصي وسيلة لنوعي الشرك ولا يلزم من ذلك أن تكون كل معصية لم يستحلها صاحبها شركا أصغر بل الشرك الأصغر هو ما تقدم تعريفه ، وقول بعضهم أن المعاصي من الشرك الأصغر أو من جنس الشرك الأصغر فهذا غير صحيح لعدم الدليل عليه .

ولا يقال أيضا أن ذلك مؤداه تكفير أصحاب الذنوب ؛ فإننا لم نقل أن المعاصي شرك فضلا عن أن تكون من الأصغر لكنها مؤدية لهما حالة الإصرار عليها وإدمانها .

فأهل السنة والجماعة يعتقدون استحالة انتفاء الشرك بنوعيه مع رجحان كفة السيئات في الميزان علي كفة الحسنات ، وتلك هي المسألة الشريفة مسألة الإيمان و التلازم بين الظاهر والباطن التي سيأتي شرحها في حديث عبادة وعتبان رضي الله عنهما ، والمراد استحالة أن يكون العبد مدمنا الكبائر ومصرا علي الصغائر ثم يسلم من الشرك ، وأما مع عدم الإصرر فمتصور كما سبق .

واعلم أن هذه المغفرة تؤيد أن من أنواع الشفاعات شفاعة لعدم دخول النار لمن استحقها وإن قال بعض العلماء كابن القيم أنه لا دليل عليها ، لكن ابن تيمية ذكرها وهو الصحيح وأدخلها تحت عموم قول الرسول صلي الله عليه وسلم شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي ، ويؤيدها أيضا ما سبق من أن التوحيد يغفر الله به جميع الذنوب ولو أتي بقراب الأرض خطايا نعم توحيده لا يكون كاملا كما قررناه لكن هذا في حالة إدمان الكبائر والإصرار عليها ، وفي الحديث إمكان مغفرة الذنوب لمجرد وجود أصل التوحيد .

مع أني أقول أنه لا يمتنع أن يكون عنده كبائر غالبة علي الحسنات مع عدم وجود شرك أكبر ولا أصغر وهذا في حالة ما إذا برئ من الشرك بنوعيه لكن قل عمله الصالح كأن يضيع وقته في المباحات مع وجود كبيرة ما في ميزانه بقيت عليه ولم يتب منها ، أو بمعني آخر لا يكون مدمنا للكبائر فإن إدمانها والإصرار عليها هو الذي يتسلل به الشرك للقلب كما قال ابن القيم أما أن لا يكون مصرا فهذا يتصور في حقه السلامة من الشرك كله مع رجحان كفة السيئات فيغفر ذنبه إن شاء الله لتوحيده فهذا هو المعني المراد من الحديث .

وكل حجة احتج بها المحتجون علي مغفرة الشرك الأصغر فمردودة ؛ فمن ذلك قولهم أن الشرك أكثر ما يطلق في الشرع فالمراد به الشرك الأكبر قلنا وما يدريكم أن الشرك المراد في هذا الأقل المراد به الأصغر ، ومن حججهم أيضا قولهم بوجود الفرق بين الشرك الأكبر والأصغر فنقول نعم الفرق موجود وقد قدمت لك أيها القارئ هذه الفروقات بين نوعي الشرك ، فأقول لهم الفرق نعم موجود في أمور لكن ما يدريك أنه موجود في مسألتنا وهي أنه يغفر بالشفاعة ؟وأنه تحت المشيئة ؟ فهذا يحتاج إلي دليل خاص ، فالصحيح أن الشرك الاصغر لا يغفر وأن السيئات إن غلبت علي الحسنات فصاحبها يعذب ولا شفاعة لأن آية النساء صريحة في أن الشرك كله لا يغفر ، وإن كان لا يغفر وقد غلبت السيئات علي الحسنات فلا بد أن يعذب حتي يطهر غير أن حديث المغفرة مع قراب الأرض خطايا صريح في العموم ؛ فالأصغر لا يغفر لأن شيئا نكرة في سياق النفي فتعم كل شرك وقد اشترط سبحانه عدم الشرك للمغفرة ، لكن إن وجد شرك أصغر لكن لم تغلب السيئات علي الحسنات بل كانت الحسنات غالبة فالصحيح أنه يغفر في هذه الحالة كما تقدم.

ومن الأمثلة علي الشرك الأصغر ما قاله ابن القيم (الشرك الأصغر كيسير الرياء والتصنع للمخلوق وعدم الاخلاص لله تعالي في العبادة بل يعمل لحظ نفسه تارة ولطلب الدنيا تارة ولطلب المنزلة والجاه تارة فله من عمله نصيب ولغيره منه نصيب ويتبع هذا النوع الشرك بالله في الألفاظ كالحلف بغير الله وقول ما شاء الله وشئت وما لي الا الله وأنت وأنا في حسب الله وحسبك وأنا متوكل علي الله وعليك وقد يكون هذا شركا اكبر بحسب حال قائله ومقصده)

ومن الشرك في الاسماء والصفات مع النوعين اللذين ذكرهما :

3. تسمية الله بما لم يسم به نفسه .

4. شرك التعطيل المتقدم في شرك الربوبية .

5. تمثيل الخالق بالمخلوق أو المخلوق بالخالق ، والتمثيل هو المشابهة التامة خلافا للتشبيه

ونفي الصفات عن الله سبحانه شرك من وجوه منها :

1. أن تعطيل صفات الرب سبحانه شرك في الربوبية ؛ لأن كل موجود فلا بد له من صفات ومن لا صفات له فهو معدوم ، كما قال الدارمي في نقضه علي بشر المريسي ، لأنهم لما نفوا صفاته فقد عطلوه في الربوبية وأشركوا به فيها لأنهم بذلك شبهوه بالمعدوم ,

2. غير أنهم يعبدون ربا غير ربنا المتصف بصفات الكمال سبحانه فيعبدون ربا لا يتكلم بنفيهم صفة الكلام عنه سبحانه ، ولا يد له ولا عين ! سبحانه

   كما قال ابن خزيمة في كتابه (التوحيد وإثبات صفات الرب)

   (ومن كان معبوده غير سميع ولا بصير فهو كافر بالله السميع البصير يعبد غير الخالق الباري الذي هو السميع البصير) .

   وقال عبد الله بن أحمد في (السنة)

   (من زعم أن الله لا يتكلم فهو يعبد الأصنام)

3. والتعطيل ونفي صفات الله شرك لأن النافي لم يعطل إلا بعد أن مثّل فرارا منه من شنعة التمثيل ، وليس إثبات أهل السنة الكرام لصفات الله بتمثيل بل هم الممثلة ، لأننا نثبت بغير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف .

4. غير أن النافي لم يحقق ركن الإثبات الذي سبق ذكره فإنهم نفوا دون إثبات فلم يحققوا ركن التوحيد في ذلك فمن أتي بركن واحد من الركنين فقد أشرك لأنه لم يوحد غير أنهم بنفي الصفات شبهوه بالأقطع بنفي صفة اليد وبالأعمي بنفي العين ، تعالي الله عما يقولون .

فأصول الشرك الأكبر أربعة : شرك الدعوة ، وشرك القصد والطلب بسائر أنواع العبادات كالنذر والذبح ، وشرك الطاعة وسيأتي في باب خاص ، وشرك المحبة وستأتي في باب خاص .

• **قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - :**

[كتاب التوحيد]

واسم الكتاب كاملا عند بعض العلماء (كتاب التوحيد الذي هو حق الله علي العبيد) إشارة إلي ما سيأتي قريبا إن شاء الله تعالي من حديث معاذ رضي الله عنه .

الباب الأول باب حكم التوحيد وأهميته وبيان مكانته ، وقد عقد الشيخ هذا الباب لبيان وجوب التوحيد وأنه الغاية من خلق الجن والإنس لا مجرد العبادة ؛ ولهذا

1- قال : وقول الله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ} .

- قال ابن كثير في تفسيره: وَمَعْنَى الْآيَةِ: **أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ الْعِبَادَ لِيَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ**، فَمَنْ أَطَاعَهُ جَازَاهُ أَتَمَّ الْجَزَاءِ، وَمِنْ عَصَاهُ عَذَّبَهُ أَشَدَّ الْعَذَابِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَيْهِمْ، بَلْ هُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ، فَهُوَ خَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ. انتهي كلام ابن كثير.

- وقوله تعالي (إلا ليعبدون) يعني إلا ليوحدون ، وذلك لأمرين :

الأول : أن كل ما ورد في القرآن من العبادة فمعناها التوحيد كما قال ابن عباس - رضي الله عنهما – فيما أخرجه عنه البغوي وغيره ، ولما نقله عنه الطبري في تفسير قوله تعالي (إياك نعبد) قال : إياك نوحد ونخاف ونرجو يا ربنا لا غيرك ، غير أن الله أضاف العبادة إليه سبحانه ، والمراد إلا ليعبدوني وحذف الياء مراعاة لفواصل الآيات ، وقد قال سبحانه (وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) ، وقال (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء) ، وقال (قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مئاب)، وقال (قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين) ، وقال (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين ألا لله الدين الخالص) والقران يفسر بعضه بعضا ، وتفسير العبادة بالتوحيد هو تفسير للشيء ببعض أفراده والغرض منه بيان الشرط الذي لا تصح العبادة الا به فهو روحها وجوهرها وأصلها الذي تنبني عليه لأن العبادة لا تسمي عبادة إلا به ، وليس تفسير العبادة بالتوحيد تفسيرا بالمرادف لأن العبادة قد توجد في الظاهر لكنها فاسدة، والتوحيد شرط لصحتها وقبولها .

والثاني : أن العبادة لا تسمي عبادة إلا مع التوحيد كما أن الصلاة لا تسمي صلاة إلا مع الطهارة فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت كالحدث إذا دخل في الطهارة ، وقد قال تعالي في الحديث القدسي (من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه) فسماه شركا ولم يقل تركته وعبادته ، وكذلك لا يسمي العابد عابدا لله تعالي إلا إذا أخلص لله العبادة وأفرده بها دون ما سواه ، قال تعالي (قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين) فنفي عنهم العبادة ، ونفي كونهم

عبادا لله مع أنهم كانوا يعبدونه سبحانه ويصلون له ويسقون الحجاج ويعمرون المسجد الحرام بالصلاة لكنهم لما سووا بينه وبين غيره في العبادة كفروا ، وكانت عبادتهم الظاهرة حابطة لا عبرة بها .

بل إن اشتراط التوحيد لصحة العبادة أقوي وأوثق وآكد من اشتراط الطهارة لصحة الصلاة ؛ إذ الطهارة شرط في بعض العبادات دون بعض وأما التوحيد فشرط لصحة الأعمال كلها فهو أصلها الذي تنبني عليه ، غير أن شرط الطهارة يسقط في بعض الأحيان كما هو مقرر في علم الفقه ، وأما التوحيد فلا يسع أحدا علم به أو تمكن من العلم أن يجهله أو يقصر في السعي لتعلمه .

ولهذا كان محل النزاع بين الرسل وأقوامهم في عبادة الله وحده لا في مجرد عبادته كما قال تعالي (وإذا ذكر الله **وحده** اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة) ، وقال سبحانه (قالوا أجئتنا لنعبد الله **وحده** ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا) ، وقال عز من قائل (وإذا ذكرت ربك في القران **وحده** ولوا علي أدبارهم نفورا) ، وقال عز وجل (ولقد أوحي إليك وإلي الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل اللهَ فاعبد)

فهم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيره فأرسل الله الرسل ليأمروهم بعبادة الله وحده فهذه هي حقيقة التوحيد وحقيقة دعوة الرسل جميعا ، فما من نبي إلا وأرسل بذلك كما قال تعالي (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) ، فقد اتفقوا في العقيدة وإنما كان اختلافهم في الشرائع والأحكام العملية كما قال صلي الله عليه وسلم كما أخرجه البخاري وأبو داوود (الأنبياءُ إخوَةٌ لعَلَّاتٍ: دِينُهم واحِدٌ، وأُمَّهاتُهم شَتَّى) يعني أنهم إخوة لأب واحد إشارة إلي الدين أي التوحيد والعقيدة ،ومن أمهات وضرات مختلفة إلي الشرائع والأحكام العملية ، بل أول أمر وهو قوله تعالي (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم) أمرنا فيه بتوحيده فإن قوله اعبدوا يعني وحدوا كما تقدم ، والرب هو الذي ربانا بالنعم فهو المستحق إذن للعبادة وحده وقوله الذي خلقكم أي وأنتم تعلمون ذلك ، والذين من قبلكم أي وأنتم تعلمون ذلك لعلكم تتقون **فخلقكم الله لحكمة عظيمة وهي أن تتقوه بالتوحيد .**

وسبق أن علمنا أن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة فما كان كذلك وجب جعله لله وحده ، والكفر بما يعبد من دونه سبحانه جل وعلا ، قال في التيسير (ومعنى الآية: أن الله تعالى أخبر أنه ما خلق الإنس والجن إلا لعبادته، فهذا هو الحكمة في خلقهم، ولم يرد منهم ما تريده السادة من عبيدها من الإعانة لهم بالرزق والإطعام، بل هو الرازق ذو القوة المتين، الذي يطعم ولا يطعم، كما قال تعالى: {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} ... ويدل على هذا قوله: {أَيَحْسَبُ الأِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً}. قال الشافعي: لايؤمر ولا ينهى !.**انتهي** .

- ودلالة الآية علي وجوب التوحيد هي من وجهين : أحدها أن العبادة فسرت بالتوحيد كما تقدم ، وثانيها أن كل ما سواه مخلوق من جن وإنس وقال في آية انحل أفمن يخلق كمن لا يخلق فعلم أن الخالق وحده هو المستحق للعبادة وحده.

- والعبادة في اللغة بمعني الذل والخضوع فيقال طريق مُعبَّد أي مُذلل ، وأما تعريف العبادة في الشرع فهي كل مايحبه الله ويرضاه من الاقوال والاعمال الظاهرة والباطنة ، إلا أن هذا التعريف للعبادة تناول جانبا واحدا هو الفعل المجعول أو المصروف لله دون اعتبار الفاعل ، ولا المفعول له العبادة وهو الله سبحانه ولهذا فالتعريف الأشمل للعبادة الذي يتناول الفعل والفاعل والمفعول له العبادة هو أن نقول (العبادة هي تأله القلب أي تعبده بالحب والخضوع ، لله وحده ، بما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة – أو بعبارة أخري هي امتثال خطاب الشرع المقترن بالحب والخضوع لله وحده بما يحبه ورضه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة) ؛ فقولنا تأله القلب وامتثال خطاب الشرع بالحب والخضوع اعتبرنا به فعل الفاعل العابد وحاله ليخرج المتعبد نفاقا ، وبقولنا لله وحده اعتبرنا به المجعول له العبادة ليخرج المشرك المتوجه بها لغير الله ، وبقولنا خطاب الشرع اعتبرنا ما يحبه الله ويرضاه ليخرج ما سواه من البدع والمعاصي ، وعلي هذا فصرف الفعل لغير الله كدعاء غيره سبحانه لا يسمي عبادة ، وصرفها لله دون تأله وخضوع كفعل المنافقين لا يجعلها عبادة ، وصرفها لله مع الشرك به سبحانه في غيرها لا يجعلها عبادة شرعا ولو صرفها هي لله ؛ ولهذا في سورة الكافرون قال سبحانه ولا أنتم عابدون ما أعبد ، مع أنهم كانوا يعبدون الله علي بقايا وصلتهم من ملة إبراهيم لكن لما صاروا مشركين صارت عبادتهم لله إنما هي حركات جبلية كالقيام والقعود لا روح لها وفاقدة لشرط صحتها فلا تسمي عبادة ، ودليل ذلك قول الله تعالي كما في حديث أبي هريرة عند مسلم (أنا أغْنَى الشُّرَكاءِ عنِ الشِّرْكِ ، مَنْ عمِلَ عملًا أشركَ فيه معِيَ تركتُهُ وشِركَهُ) ولم يقل تركته وعباته .

قال عبد الرحمن بن قاسم في حاشية ثلاثة الأصول:

((عبادة الله: توحيد الله، يعني: اعبدوه وحده دون كل من سواه، وهذا يفيدك: عظم شأن التوحيد، وانه أوجب الواجبات، وأنه أول فرض على المكلف علماً وعملاً، وهو مدلول شهادة (أن لا إله إلا الله)، التي أوجب الواجبات العلم بمعناها، والعمل بما دلت عليه، من إفراد الله بالعبادة والبراءة من الشرك وأهله، وصدور العبادة من غير توحيد لا يسمى عبادة، وليس بعبادة، وإذا صدرت ممن أشرك فيها مع الله غيره فهي بمنزلة الجسد الذي لا روح فيه، وإذا عبد الله تارة، وأشرك معه تارة فليس بعابد لله على الحقيقة، كما سمى الله المشركين مشركين وهم يعبدون الله ويخلصون له العبادة في الشدائد، وعند ركوب البحار وتلاطم الأمواج يهربون ويفزعون ويلجئون إليه تعالى وحده، ويعرفون أن تلك الآلهة ليست شيئاً في الحقيقة، وأنها لا

تنفعهم عند الكروب، ومع ذلك كله سماهم الله مشركين، بل نفى عنهم تلك العبادة بالكلية في غير موضع من كتابه).

وبعضهم عرف العبادة بأنها فعل المأمور وترك المحظور مع التصديق بخبر الشرع لله وحده ، فالعبادة لا تخرج عن كونها إما فعلا وإما تصديقا لان حكم الله نوعان حكم خبري يقع امتثاله بالتصديق ، وحكم طلبي يقع امتثاله بالفعل فعل المأمور وترك المحظور .

- قال العصيمي في شرح فتح المجيد (والخبر عن العبادة بالخدمة مما ينبغي تركه لأن الخدمة هي القيام بما يلزم في حق المخلوق وأما القيام بما يلزم في حق الخالق فسماه الله عبادة ولم يسمه خدمة بل هذا رأي جماعة من أهل التصوف وبعض أهل اسنة استصحابا للمعني العام ، والأصل تجنب هذه الكلمة ، ولشيوع هذا خرج به العجم ألفاظا كخادم الملة وخادم الشريعة

- وأصل العبادة يرجع إلي ثلاثة أمور : أحدها كونه طاعة لله تعالي ؛ فإن من أطاع الله عبده ، وثانيها كون تلك الطاعة تقع بامتثال أمر الله فلا تقع بامثال الرأي والهوي ، وثالثها أن سبيل معرفة المأمور به هو ما جاءت به الرسل) انتهي .

وخلاصتها أن تتعبد لله علي مراد الله ورسوله صلي الله عليه وسلم لا عن جهل وهوي .

- وأما الفرق بين العبادة والعبودية فهو أن العبودية منها عبودية عامة وهي عبودية جميع الخلق لله سبحانه وتعالي فهم جميعا داخلون تحت قهره ولا يفعلون شيئا إلا بإذنه، ومنها عبودية خاصة وهذه هي التي تسمي العبادة وهي ما سبق بيانه أنها تأله القلب بالحب والخضوع لله وحده بما يحبه ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة .

- ومن عَرَّف العبادة بأنها كمال الحب مع كمال الذل فهذا خلاف الأولي لأن لفظ الذل لم يرد في الشرع في هذا الباب باب العبادة لله جل في علاه وإنما الوارد الخضوع كما في الحديث (إذا قضي اللهُ الأمرَ في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله) ، وكذلك ما ورد في قنوت عمر كما أخرجه البيهقي بإسناد الصحيح (ونؤمن بك ونخضع لك) ، غير أن الذل يتضمن الإكراه والعبادة لا تكون كَرها فلا تكون ذلا ، غير أن الذل أيضا يتضمن نقصا من وجهين : أحدها أن قلب الذليل فارغ من الإقبال علي الله الذي هو روح العبادة أصالة ، وثانيها أن الذل يذكر في خطاب الشرع حال الامتهان والإيلام كما قال تعالي (خاشعين من الذل) ، وعليه فأصح تعريف للعبادة هو ما سبق ، وحقيقتها كمال الحب مع كمال الخضوع المقترنين بالرجاء والخوف .

- والآية دالة علي وجوب اختصاص الخالق بالعبادة لأنه سبحانه : هو الذي ابتدأ خلقك والإنعام عليك من غير سبب منك أصلا ولا حاجة منه إليك بل هو الغني عن العالمين بذاته ونحن الفقراء إليه بذواتنا ، ولهذا استحق العبادة دون ما سواه سبحانه ، فمن أظلم الظلم وأعظم الجور

أن تعبد مع ذلك غيره ! ، قال الشيخ ابن عثيمين في القول المفيد (وأما قوله تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَه} فهذا ليس إقراضا لله سبحانه، بل هو غني عنه، لكنه سبحانه شبه معاملة عبده له بالقرض; لأنه لا بد من وفائه، فكأنه التزام من الله سبحانه أن يوفي العامل أجر عمله، كما يوفي المقترض مَنْ أقرضه) وقال السعدي (وتأمل هذا الحث اللطيف على النفقة وإن المنفق قد أقرض الله الملي الكريم ووعده المضاعفة الكثيرة كما قال تعالى**(مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم)** .

- واللام في قوله (إلا ليعبدون) للتعليل وبيان الغاية والحكمة من الخلق وليس المراد التعليل الملازم للمعلول وإلا لصار الناس كلهم عبادا لله مطيعين ، **قال في التيسير** (وكذلك ما خلقهم إلا للعبادة، ثم قد يعبدون - وقد لا يعبدون. وهو سبحانه لم يقل: إنه فعل الأول وهو خلقهم ليفعل بهم كلهم الثاني وهو عبادته، ولكن ذكر الأول ليفعلوا هم الثاني فيكونوا هم الفاعلين له، فيحصل لهم بفعله سعادتهم، ويحصل ما يحبه ويرضاه منهم ولهم). انتهى.

2- قال : وقوله: (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)

ولقد بعثنا في كل أمة سبقَتْ رسولا آمرًا لهم بعبادة الله وطاعته وحده وتَرْكِ عبادة غيره من الشياطين والأوثان والأموات وغير ذلك مما يتخذ من دون الله وليًا، فكان منهم مَن هدى الله، فاتبع المرسلين، ومنهم المعاند الذي اتبع سبيل الغيِّ، فوجبت عليه الضلالة، فلم يوفقه الله فامشوا في الأرض، وأبصروا بأعينكم كيف كان مآل هؤلاء المكذبين، وماذا حلَّ بهم مِن دمار؛ لتعتبروا؟ **(التفسير الميسر)**

والطاغوت في اللغة : من الطغيان أي مجاوزة الحد .

وفي الشرع : قال في التيسير (وقد فسَّره السلف ببعض أفراده. قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: الطاغوت: الشيطان. وقال جابر ـ رضي الله عنه ـ "الطواغيت: كهان كانت تنْزل عليهم الشياطين". رواهما ابن أبي حاتم. وقال مجاهد: "الطاغوت: الشيطان في صورة الإنسان، يتحاكمون إليه وهو صاحب أمرهم". وقال مالك: الطاغوت: كل ما عبد من دون الله).انتهي

ويجمعها قول ابن القيم في اعلام الموقعين (الطاغوت ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم مَن يتحاكمون إلى غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة الله ، فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها، وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم عدلوا عن عبادة الله إلى

عبادة الطاغوت، وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول صلى الله عليه وسلم إلى التحاكم إلى الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته) .
انتهي .

واشترط بعض العلماء أن يدعو إلي ذلك أو لا يدعو لكن يرضي به أو لا يرضي لكن لا يكره ،وذلك حتي يخرج الأنبياء الذين عبدوا مع الله سبحانه كعيسي ، وموسي ، والعزير،ومحمد عليهم الصلاة والسلام ،والملائكة ، والشمس والقمر وغيرها من المعبودات التي عبدها الناس

وبعضهم فرق بين الطاغوت في حقيقته وبين اتخاذ الناس له طاغوتا ، فمن كره ذلك فليس بطاغوت ، وإنما الطاغوت من عبده ، وإن اتخذه المشركون طاغوتا فهو عندهم طاغوت باعتبار اتخاذهم هم له كذلك وعبادتهم إياه ، أو اتباعه علي خلاف هدي رسول الله ، أوطاعته فيما هو من معصية الله ، أي هو طاغوت باعتبار المتخِذ لا باعتبار المتخَذ، وهذا هو ظاهر كلام ابن القيم السابق ، فمعني كلامه أنه طاغوت باعتبار عابده ، طاغوت باعتبار متبعه ، طاغوت باعتبار مطيعه ، أي هم الذين اتخذوهم طواغيت ، لأنه اشترط مجاوزة العبد حده ، والأنبياء الذين عبدهم الناس مع لله سبحانه نشهد أنهم بلغوا ونصحوا أممهم وحذروهم من هذا الشرك الذي طبق الأرض وستشهد أمة محمد لهم يوم القيامة ، وأما من رضي فهو طاغوت بذاته.

قال الشيخ محمد في الدرر السنية :

(وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرُة، وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ: إِبْلِيسُ لَعَنَهُ الله، وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ - أو لم يرض لكن لم يكره -، وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ، وَمَنْ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ، وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ الله)

قال العصيمي في شرح فتح المجيد :

((ولذلك فأنواع الطواغيت ثلاثة :

طواغيت عبادة ، وطواغيت اتباع ، وطواغيت طاعة ، فإلي هذه الثلاثة تعود طواغيت العالم .

وجماع ما قيل في الطاغوت يعود لأحد أمرين :

الأول : معني خاص وهو الشيطان ، وهو المعني المراد عند إطلاق ذكره في القران .

الثاني : معني عام ، وأحسن ما قيل فيه ما سبق من كلام ابن القيم في إعلام الموقعين أنه كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع))انتهي كلامه .

فالموحد له عقيدة في الطاغوت العابد والطاغوت المعبود ، فأما الطاغوت العابد غير الله فهو كافر لانه لم يكفر بالطاغوت المعبود ولأنه كافر كفر تكذيب للنصوص ، وأما الطاغوت المعبود مع الله سبحانه فإن كان داعيا الي ذلك بنفسه أو راضيا به أو غير كاره له فهو كافر

لأنه منازع لله تعالي في خالص حقه ، وإن لم يكن كذلك كأن يكون ملكا مقربا أو نبيا مرسلا فعقيدة الموحد فيه حتي يحقق هذا الركن من ركني الشهادة أن يعتقد أنه لا حق له من العبادات إطلاقا ، كما قال تعالي (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون)

والطواغيت بذواتهم كفار العابد والمعبود ، أما العابد فلأنه يعبد غير الله ، وأما المعبود فبشرط أن يكون داعيا لذلك أو راضيا به أو غير كاره له فاستحقوا أن يوصفوا بذلك ، فخرج من اتخذه المشركون طاغوتا وليس بطاغوت كمن لم يرض ، علي تفصيل في مسألة الحكم تأتي في بابها إن شاء الله تعالي

واعلم أن الطغيان لا ينحصر في عمل الكفر الأكبر المخرج من الملة بل ارتكاب المعاصي والكبائر والبدع غير المخرجة من الملة وأفراد الشرك الأصغر هي من الطغيان أيضا وإن كانت لا تخرج من الملة كما هو معتقد الجماعة خلافا للخوارج .

قال الشيخ محمد رحمه الله كما في الدرر السنية في بيان صفة الكفر بالطاغوت والإيمان بالله:

(اعلم – رحمك الله – أن أول ما فرض الله علي ابن آدم الكفر بالطاغوت والإيمان بالله فأما صفة الكفر بالطاغوت: فأن تعتقد بطلان عبادة غير الله، وتتركها، وتبغضها، وتكفر أهلها، وتعاديهم، وأما معنى الإيمان بالله، فأن تعتقد أن الله هو الإله المعبود وحده، دون من سواه، وتخلص جميع أنواع العبادة كلها لله، وتنفيها عن كل معبود سواه، وتحب أهل الإخلاص، وتواليهم، وتبغض أهل الشرك وتعاديهم، وهذه ملة إبراهيم التي سفه نفسه من رغب عنها، وهذه هي الأسوة التي أخبر الله بها في قول: ه {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده} **انتهي كلامه** .

وقال في (3- 19):

(أصل دين الإسلام وقاعدته أمران: الأول :الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، والتحريض على ذلك، والموالاة فيه، وتكفير من تركه، الثاني: الإنذار عن الشرك في عبادة الله، والتغليظ في ذلك، والمعاداة فيه، وتكفير من فعله)انتهي .

ودليل الكفر بالطاغوت بهذه الصفة وهذه الشعب الخمس قوله تعالي في سورة الممتحنة :

(قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ)

قال الطبري في تفسيره :

(يقول تعالى ذكره للمؤمنين به من أصحاب رسول الله ﷺ: قد كان لكم أيها المؤمنون أُسوة حسنة: يقول: قدوة حسنة في إبراهيم خليل الرحمن، تقتدون به، والذين معه من أنبياء الله ، حين قالوا لقومهم الذين كفروا بالله، وعبدوا الطاغوت: أيها القوم إنا برآء منكم، ومن الذين تعبدون من دون الله من الآلهة والأنداد، يقول جلّ ثناؤه مخبرا عن قيل أنبيائه لقومهم الكفرة: كفرنا بكم، أنكرنا ما كنتم عليه من الكفر بالله وجحدنا عبادتكم ما تعبدون من دون الله أن تكون حقًّا، وظهر بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدًا على كفركم بالله، وعبادتكم ما سواه، ولا صلح بيننا ولا هوادة، حتى تؤمنوا بالله وحده، يقول: حتى تصدّقوا بالله وحده، فتوحدوه، وتفردوه بالعبادة)

وقال الشيخ الأمين في أضواء البيان :

(فالتَّأَسِّي هُنا في ثَلاثَةِ أُمُورٍ:
أوَّلًا: التَّبَرُّؤُ مِنهم ومِمّا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ.
ثانِيًا: الكُفْرُ بِهِمْ.
ثالِثًا: إبْداءُ العَداوَةِ والبَغْضاءِ وإعْلانُها وإظْهارُها أبَدًا إلى الغايَةِ المَذْكُورَةِ حَتّى يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وحْدَهُ، وهَذا غايَةٌ في القَطِيعَةِ بَيْنَهم وبَيْنَ قَوْمِهِمْ، وزِيادَةٌ عَلَيْها إبْداءُ العَداوَةِ والبَغْضاءِ أبَدًا، والسَّبَبُ في ذَلِكَ هو الكُفْرُ، فَإذا آمَنُوا بِاللَّهِ وحْدَهُ انْتَفى كُلُّ ذَلِكَ بَيْنَهم.)انتهي

ودليل السنة قول النبي صلي الله عليه وسلم كما في صحيح مسلم من حديث طارق بن أشيم

(من قال لا اله الا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه علي الله)

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتاب الوحيد في شرح هذا الحديث :

(وهذا من أعظم ما يبين معني لا إله إلا الله ، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصما للدم والمال ، بل ولا معرفة معناها مع لفظها ، بل ولا الإقرار بذلك كله ، بل ولا كونه لا يدعو الا الله وحده لا شريك له ، بل لا يحرم ماله ودمه حتي يضيف الي ذلك الكفر بما يعبد من دون الله ، فإن شك أوتردد لم يحرم ماله ودمه ، فيا لها من مسألة ما أجلها ويا له من بيان ما أوضحه ، وحجة ما اقطعها للمنازع) .

فالكفر بالطاغوت وهو ركن من ركني الشهادة مع الإيمان بالله يكون تحقيقه بهذه الأمور الخمسة السابقة ، فتكفر بالوثن وأنه ما عبد إلا بالجورعلي حق الله وأنه لا يستحق من العبادات شيئا ، وتكفر بعبادة الوثن وأنها باطلة محبطة لجميع اعمال صاحبها ، وتكفر بمن عبد الوثن وأنه قد كفر وانسلخ من الملة الحنيفية ، مع عداوته وبغضه التام في الله .

وعلي هذا فمن لم يُكفِّر المشركين أو شك في كفرهم أو صحح مذهبهم كفر إجماعا ؛ لأنه لم يكفر بالطاغوت فيكون قد أسقط ركنا من ركني لا إله إلا الله وشرطا من شروط صحتها بل عدة شروط كاليقين والإخلاص والقبول وغيرها من شروط الشهادة التي تقدم بيانها فلن تنفعه الشهادة ، وأيضا لتكذيبه للنصوص الواردة في الكتاب والسنة بكفرهم ، ولأنه لم يكفر بما يعبد من دون الله ، ولم يتبرأ ممن عبد غير الله ولو كان كافرا بالطاغوت لكفَّرهم ، غير أنه يكون مكذبا لله ورسوله في عدم تكفيره لهم أو تصحيحه لدينهم كما هو حال دعاة وحدة الأديان ، ولأن اليهود والنصاري وعباد القبور وغيرهم من المشركين كفرهم معلوم من الدين بالضرورة فمن لم يكفرهم أو شك في كفرهم أو صحح دينهم كفر كفر تكذيب وإنكار .

وتكفير من لم يكفر الكافر مجمع عليه بلا خلاف وقد تواترت اقوال لسلف في ذلك ، منها :

- قال الإمام أحمد بن حنبل في رواية عبدوس: والقرآن كلام الله تكلم به، ليس بمخلوق ومن زعم أنّ القرآن مخلوق فهو جهمي كافر، ومن زعم أنّ القرآن كلام الله ووقف ولم يقل ليس بمخلوق فهو أخبث من قول الأول، ومن زعم أنّ ألفاظنا به، وتلاوتنا له مخلوقة، والقرآن كلام الله فهو جهمي، ومن لم يكفر هؤلاء القوم فهو مثلهم ، وقال أيضاً: وما في اللوح المحفوظ وما في المصحف وتلاوة الناس وكيفما وُصف، فهو كلام الله غير مخلوق، فمن قال مخلوق، فهو كافر بالله العظيم، ومن لم يكفره فهو كافر.)

- وقال ابن أبي حاتم كما في شرح أصول الاعتقاد للالكائي : "سألت أبي وأبا زرعة؛ عن مذاهب أهل السنة في أصول الدين، وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار، وما يعتقدان من ذلك؛ فقالا: أدركنا العلماء في جميع الأمصار حجازاً وعراقاً وشاماً ويمناً؛ فكان من مذهبهم: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، والقرآن كلام الله غير مخلوق بجميع جهاته...، ومن زعم أن القرآن مخلوق؛ فهو كافر بالله العظيم كفراً ينقل عن الملة، ومن شك في كفره ممن يفهم فهو كافر"

- وقال الليث بن سعد كما في الانتصار في الرد علي المعتزلة القدرية (من قال القران مخلوق فهو كافر ، ومن لم يقل هو كافر فهو كافر)

- وقال يزيد بن هارون كما في الإبانة (من قال القران مخلوق فهو كافر ، ومن لم يكفره فهو كافر ، ومن شك في كفره فهو كافر)

- وقال القاضي عياض كما في الشفا (الإجماع علي كفر من لم يكفر أحدا من النصاري واليهود ، وكل من فارق دين المسلمين أو وقف في تكفيرهم أو شك ....لأن التوقيف والإجماع اتفقا علي كفرهم ، فمن وقف فيي ذلك فقد كذب النص والتوقيف ، أو شك فيه ، والتكذيب أوالشك فيه لا يقع إلا من كافر .... ولهذا نكفر من دان بغير ملة المسلمين من الملل، أو وقف فيهم، أو شك، أو صحّح مذهبهم، وإن أظهر مع ذلك الإسلام، واعتقده، واعتقد إبطال كل

مذهب سواه، فهو كافر بإظهاره ما أظهر من خلاف ذلك) انتهي كلام القاضي من عدة مواضع من كتابه مع العلم أنه علي طريقة الاشاعرة في بعض مسائل العقيدة فلتحذر.

- وقال ابن تيمية في المجموع (7-463) :

(فمن لم يقر باطنا وظاهرا بأن الله لا يقبل دينًا سوى الإسلام فليس بمسلم، ومن لم يقر بأن بعد مبعث محمد -صلى الله عليه وسلم- لن يكون مسلمًا إلا من آمن به واتبعه باطنًا وظاهرًا فليس بمسلم، ومن لم يحرم التدين بعد مبعثه -صلى الله عليه وسلم- بدين اليهود والنصارى، بل من لم يكفرهم ويبغضهم فليس بمسلم باتفاق المسلمين) انتهي .

- وقال ابن حزم في الفِصَل (فأخبر تعالي أنهم يعرفون صدقه ولا يكذبونه وهم اليهود والنصاري وهم كفار بلا خلاف من أحد من الأمة ، ومن أنكر كفرهم فلا خلاف من أحد من الأمة في كفره وخروجه عن الإسلام) .

لكن كفر من لم يكفر الكافر له شرطان خلافا للخوارج :

الأول : أن يكون كفره واضحا متفقا عليه لا خلاف فيه ، خلافا لترك الصلاة كسلا مع الإقرار بوجوبها فإنه وإن كان الصحابة مجمعون إجماعا صحيحا أن تركها كفر أكبر مخرج من الملة إلا أن الخلاف حاصل بعد اتفاقهم لا ينكره إلا جاحد فلا نكفر من لم يكفر تارك الصلاة كسلا ، لكن نكفر من لم يكفر تاركها جحودا فهذا اتفقوا أنه كفر ولهذا كفروا من لم يكفر تاركها جحودا لفرضيتها .

الثاني : أن يكون المتهم بالكفر للتوقف أو الشك عالما بكفر من وقع في الكفر ، فإن كان لا يعلم فلا يقال هو كافر لأنه لم يكفر الكافر .

3- قال : وقوله: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً}الآية

أي وأَمَر ربك وألزم وأوجب ، فالقضاء هنا شرعي لا كوني فقد يطيع الإنسان وقد يعصي ولو كان كونيا لما عصي الله تعالي ، والفرق بين القضائين بينته مفصلا - بتوفيق الله تعالي – في كتاب القضاء والقدر فراجعه ، أمر أن يفرد سبحانه وتعالى وحده بالعبادة، وأمر بالإحسان إلى الأب والأم ، ويكون الإحسان إليهما ببذل المعروف لهما ، وكف الأذي عنهما كما في قوله تعالي (ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما) ، وإدخال السرور عليهما كما في قوله تعالي (وقل لهما قولا كريما) ، والدعاء لهما (كما في قوله تعالي (وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا) ، والتواضع لهما كما في قوله تعالي (واخفض لهما جمال الذل من الرحمة) والقران يفسر بعضه بعضا .

4- قال : وقوله: (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا) الآية

أي واعبدوا الله وانقادوا له وحده بالعمل الصالح حتي يصدق القولَ قولَ الشهادة العملُ بمقتضاها من إقامة التوحيد والبراءة من الشرك ومن المشركين ، ولا تجعلوا له شريكًا في الربوبية والعبادة والأسماء والصفات ، وكلمة شيء نكرة في سياق النفي فتعم كل أنواع الشرك وإن دقت في نظر الناظر فمن وقف وقوف السارية ليلا ونهارا يصلي لله وحده لكن اشرك مع الله غيره في عبادة واحدة من العبادات لحظة واحدة من لحظات عمره فلن ينفعه عمله الصالح وإن كان أصلح الصلحاء لأن الشرك محبط للعمل جميعه ولا يدخل الجنة مشرك أبدا ، هذا صراط مستقيم .

قال ابن كثيرفي تفسيره ((يَأْمُرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ فَإِنَّهُ هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ عَلَى خَلْقِهِ فِي جَمِيعِ الْآنَاتِ وَالْحَالَاتِ، فَهُوَ الْمُسْتَحِقُّ مِنْهُمْ أَنْ يُوَحِّدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمُعَاذٍ: "أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟ " قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: "أَنْ يَعْبُدُوهُ ولا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا"، ثُمَّ قَالَ: "أَتَدْري مَا حَقُّ العبادِ عَلَى اللهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟ أَلَّا يُعَذِّبَهُم"ثُمَّ أَوْصَى بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ، فَإِنَّ اللَّهَ، سُبْحَانَهُ، جَعَلَهُمَا سَبَبًا لِخُرُوجِكَ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ، وَكَثِيرًا مَا يقرنُ اللَّهُ، سُبْحَانَهُ، بَيْنَ عِبَادَتِهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لُقْمَانَ:١٤] وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾)) .**انتهي .**

قال في التيسير (ابتدأ تعالي هذه الآيات المحكمات بتحريم الشرك والنهي عنه فحرم علينا أن نشرك به شيئا ؛ فشمل ذلك كل مشرك به – يعني من المخلوقات ولوكان ملكا مقربا أو نبيا مرسلا وذلك لعموم النفي أي لا إشراك – وكل مشرك فيه من أنواع العبادة فإن شيئا من النكرات فيعم جميع الأشياء ؛ ففي هذه الآية وأشباهها من الآيات نفي للشرك بحذافيره ن كل مشرك به وكل مشرك فيه ، وما أباح تعالي لعباده أن يشركوا به شيئا ، فإن ذلك أظلم الظلم أقبح القبح ، ولفظ الشرك يدل عي أن المشركين كانوا يعبدون الله ولكن يشركون به غيره من الأوثان والصالحين والأصنام فكانت الدعوة واقعة علي ترك عباد ما سوي الله ، وإفراد الله بالعبادة وكانت (لا إله إلا الله) متضمنة لهذا المعني ، فدعام النبي إلي الإقرار بها نطقا وعملا واعتقادا ، ولهذا إذا سئلوا عما يقول لهم قالوا يقل (اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا) واتركوا ما يقول آباؤكم كما قال أبو سفيان " البخاري ")).

3- قال : وقوله: (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا) الآيات

قل -أيها الرسول الكريم- لهم: تعالوا أتل ما حَرَّم ربكم عليكم: أن لا تشركوا معه شيئًا من مخلوقاته في عبادته، بل اصرفوا جميع أنواع العبادة له وحده، كالخوف والرجاء والدعاء، وغير ذلك.

4- قال : قال ابن مسعود: "من أراد أن ينظر إلى وصية محمد صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ} إلى قوله {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً} الآية .

والمراد من كلام ابن مسعود أن النبي صلي الله عليه وسلم لو كان كاتبا وصية لكانت وصيته هذه الآية لما فيها من جماع الخير فهي وصية الله للثقلين ، قال ابن كثير : يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد - لهؤلاء المشركين الذين أشركوا وعبدوا غير الله ، وحرموا ما رزقهم الله ، وقتلوا أولادهم وكل ذلك فعلوه بآرائهم وتسويل الشياطين لهم ، (قل) لهم (تعالوا) أي : هلموا وأقبلوا : (أتل ما حرم ربكم عليكم) أي : أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقا لا تخرصا ، ولا ظنا ، بل وحيا منه وأمرا من عنده : (ألا تشركوا به شيئا) وكأن في الكلام محذوفا دل عليه السياق ، وتقديره : وأوصاكم (ألا تشركوا به شيئا) ؛ ولهذا قال في آخر الآية : (ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون) .

وقوله تعالى : (وبالوالدين إحسانا) أي : وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحسانا ، أي : أن تحسنوا إليهم ، كما قال تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) وقرأ بعضهم : " ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا "والله تعالى كثيرا ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين ، كما قال : (أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) فأمر بالإحسان إليهما ، وإن كانا مشركين بحسبهما ، وقال تعالى : (وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا) الآية ، والآيات في هذا كثيرة . وفي الصحيحين عن ابن مسعود ، رضي الله عنه ، قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي العمل أحب إلى الله؟ قال : " الصلاة على وقتها " قلت : ثم أي ؟ قال : " بر الوالدين " قلت : ثم أي ؟ قال : " الجهاد في سبيل الله " قال ابن مسعود : حدثني بهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو استزدته لزادني .انتهي .

وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال (قلت يا رَسولُ اللَّهِ: أيُّ الذَّنْبِ عِنْدَ اللَّهِ أكْبَرُ؟ قالَ: أنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وهو خَلَقَكَ. قُلتُ: ثُمَّ أيٌّ؟ قالَ: ثُمَّ أنْ تَقْتُلَ ولَدَكَ خَشْيَةَ أنْ يَطْعَمَ معكَ. قُلتُ: ثُمَّ أيٌّ؟ قالَ: أنْ تُزَانِيَ بحَلِيلَةِ جَارِكَ. قالَ: ونَزَلَتْ هذه الآيَةُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ رَسولِ اللَّهِ

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ} .

(ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها ولا بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون) وبدأ في هذه الآية برزق الوالدين، وأما في سورة الإسراء فبدأ برزق الأولاد فقال (نحن نرزقهم وغياكم ، والحكمة في ذلك أنه قال هنا: {من إملاق} فالإملاق حاصل، فبدأ بذكر الوالدين اللذين أملقا ، وفي الإسراء قال: {خَشْيَةَ إِمْلاقٍ} فهما غنيان، لكن يخشيان الفقر، فبدأ برزق الأولاد قبل رزق الوالدين، ولا تقربوا ما كان ظاهرًا من كبير الآثام، وما كان خفيًّا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق، وذلك في حال القصاص من القاتل أو الزنى بعد الإحصان أو الردة عن الإسلام، ذلكم المذكور مما نهاكم الله عنه، وعهد إليكم باجتنابه، ومما أمركم به، وصَّاكم به ربكم؛ لعلكم تعقلون أوامره ونواهيه.

ومعني قوله تعالي (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) : ولا تقربوا أيها الأوصياء مال اليتيم إلا بالحال التي تصلح بها أمواله ويَنْتَفِع بها، حتى يصل إلى سن البلوغ ويكون راشدًا، فإذا بلغ ذلك فسلموا إليه ماله، وأوفوا الكيل والوزن بالعدل الذي يكون به تمام الوفاء. وإذا بذلتم جهدكم فلا حرج عليكم فيما قد يكون من نقص، لا نكلف نفسًا إلا وسعها. وإذا قلتم فتحرَّوا في قولكم العدل دون ميل عن الحق في خبر أو شهادة أو حكم أو شفاعة، ولو كان الذي تعلق به القول ذا قرابة منكم، فلا تميلوا معه بغير حق، وأوفوا بما عهد الله به إليكم من الالتزام بشريعته. ذلكم المتلوُّ عليكم من الأحكام، وصَّاكم به ربكم؛ رجاء أن تتذكروا عاقبة أمركم.

ومما وصاكم الله به أن هذا الإسلام هو طريق الله تعالى المستقيم فاسلكوه، ولا تسلكوا سبل الضلال، فتفرقكم، وتبعدكم عن سبيل الله المستقيم. ذلكم التوجه نحو الطريق المستقيم هو الذي وصَّاكم الله به؛ لتتقوا عذابه بفعل أوامره، واجتناب نواهيه. انتهي من التفسير الميسر

5- وقال المصنف رحمه الله : وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: "كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار فقال لي: يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئا. قلت: يا رسول الله، أفلا أبشر الناس؟ قال لا تبشِّرهم فيتكلوا" أخرجاه في الصحيحين.

- وجاءالحديث بصيغة الاستفهام ؛ للفت الأذهان وشحذ الانتباه ولأنه أدعي للحفظ والفهم ،

- وهذا الحق الذي علي الله أوجبه الله علي نفسه ولم يوجبه عليه أحد سبحانه وتعالي فهو الغني ، قال ابن تيمية كما في التيسير (كون المطيع يستحق الجزاء هو استحقاق إنعام وفضل، ليس هو استحقاق مقابلة كما يستحق المخلوق على المخلوق .. أهل السنة يقولون: هو الذي كتب على نفسه الرحمة وأوجب على نفسه الحق لم يوجبه عليه مخلوق.

والمعتزلة يدعون أنه واجب عليه بالقياس على المخلوق، وأن العباد هم الذين أطاعوه بدون أن يجعلهم مطيعين له، وأنهم يستحقون الجزاء بدون أن يكون هو الموجب، وغلطوا في ذلك، وهذا الباب غلطت فيه الجبرية والقدرية أتباع جهم ، والقدرية النافية].

قلت في كتابي (كتاب القضاء والقدر) في الرد علي من زعم أنه استحقاق مقابلة ما نصه :

(قالوا أن الإنسان خالق فعل نفسه ولا فضل من الله عليه ولا منة ! ولهذا يجعلون الباء في مثله قوله تعالي ({ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) باء عوض وهذا من باطلهم فإن الباء التي تأتي في الإثبات غير الباء التي تأتي في النفي، فالباء التي تكون في الإثبات، هي باء السببية، والباء التي تكون في الجملة المنفية، هي باء العوض، فباء العوض في الجملة المنفية، كما في الحديث: (لن يدخل أحدكم الجنة بعمله) هذه باء العوض؛ لأنها في جملة منفية، والمعنى: لن يدخل أحدكم الجنة عوضا عن عمله، فيستحق الجنة، كما يستحق الأجير أجره، بل الدخول برحمة الله، وأما الباء التي تكون في الجملة المثبتة، فهي باء السبب، قوله سبحانه: {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } يعني: بسبب ما كنتم تعملون، فيكون دخول الجنة برحمة الله، ولكن له سبب، وهو العمل، فمن جاء بالسبب نال الرحمة، ومن لم يأت بالسبب لم ينل الرحمة.

فالنصوص يضم بعضها إلى بعض فقوله: {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } هذه دعوى السببية، هذه بسبب عملكم، لكن الدخول لا يكون بالسبب، دخول الجنة لا يكون إلا برحمة الله، لكن هذه الرحمة لها سبب، وهو العمل .

غير أن الله لم يأمر العباد بما أمرهم به حاجة إليه، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلا به، ولكن أمرهم بما فيه صلاحهم، ونهاهم عما فيه فسادهم، وهو سبحانه كما قال: «ياعبادي، إنكم لن تبلغوا ضُرِّي فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني»، فالملك إذا أمر مملوكيه بأمر أمرهم لحاجته إليهم وهم فعلوه بقوتهم التي لم يخلقها لهم، فيطالبون بجزاء ذلك، والله تعالى غني عن العالمين، فإن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم، وإن أساؤوا فلها، لهم ما كسبوا وعليهم ما اكتسبوا {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}) **انتهي .**

- وقول معاذ : الله ورسوله اعلم هذا جائز بعد وفاة الرسول إذا كان المسؤول عنه من أمور الدين لأن النبي صلي الله عليه وسلم كان بينهم يتلقي الوحي من ربه عز وجل فهو أعلم منهم ، غير أنه أمر شرعي فيقال فيه أن الرسول يعلمه ولوبعد وفاته إلا مسائل النوازل كطفل

الأنابيب وغيرها من المسائل المستجدة فلا يقال أن الرسول بعد وفاته يعلمها ، وأما ما يتعلق بالأمور الدنيوية فبعد وفاته لا يقال إلا الله أعلم .

- وقوله لا تبشرهم فيتكلوا فيه الحث علي المسارعة والتنافس في عمل الخير والحذر من الأماني والأمن من مكر الله ، ولمثل هذا فليعمل العاملون .

قال : فيه مسائل، الأولى: الحكمة في خلق الجن والإنس.

الثانية: أن العبادة هي التوحيد، لأن الخصومة فيه. ولا بد من التجرد من الشرك والمشركين وهو ركن الكفر بالطاغوت وإلا فلا يكون العبد آتيا بعبادة الله بل مشرك .

الثالثة: أن من لم يأت به لم يعبد الله. ففيه معنى قوله: {وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ} وقد سبق بيان ذلك في بيان معني العبادة .

الرابعة:الحكمة في إرسال الرسل، وهو دعوة الناس إلي إفراد الله بالعبادات .

الخامسة: أن الرسالة عمت كل أمة، أخذا من آية النحل ونحوها كقوله سبحانه (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير)وأما الفترة فباعتبار الأفراد .

السادسة: أن دين الأنبياء واحد، وقد سبقت أدلة ذلك .

السابعة: المسألة الكبيرة: أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت ففيه معنى قوله: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى}.

الثامنة: أن الطاغوت عام في كل ما عُبد من دون الله.

التاسعة: عظم شأن ثلاث الآيات المحكمات في سورة الأنعام عند السلف، وفيها عشر مسائل. أولها: النهي عن الشرك.

العاشرة: الآيات المحكمات في سورة الإسراء، وفيها ثمانية عشر مسألة، بدأها الله بقوله: {لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً} وختمها بقوله: {وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً} ونبهنا الله سبحانه على عظم شأن هذه المسائل بقوله: {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ}.

الحادية عشرة. آية سورة النساء التي تسمى: آية الحقوق العشرة، بدأها الله تعالى بقوله: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً}.

الثانية عشرة. التنبيه على وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته.

الثالثة عشرة. معرفة حق الله علينا ، كما في حديث معاذ

الرابعة عشرة. معرفة حق العباد عليه إذا أدوا حقه، وهو حق أوجبه علي نفسه تفضلا لا يوجب عليه أحد شيئا ، وفيما رواه أبو داوود وغيره وصحَّحَهُ بعض العلماء قال صلى الله عليه وسلم «لو أن الله عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم» ، يعني أنَّ أهل السموات والأرض لو عَذَّبَهُمْ الله - عز وجل - لعذبهم وهو غير ظالمٍ لهم، لأن ما من لحظة وسكون تمر بالعبد إلا ولله سبحانه فيها علي العبد نعم لا تعد ولا تحصي ، ومع ذلك يعرض الخلق ويذنبون ، كما قال - عز وجل - {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ} ، قال صالح ال الشيخ في شرح الطحاوية: فمِنْ حَقِّهِ - عز وجل - على هذا العبد المكلف الذي لا ترمش عينه إلا بنعمة، ولا يأكل إلا بنعمة، ولا يتنفس إلا بنعمة، ولا يتعلم إلا بنعمة، ولا يخطو خطوة إلا بنعمة، ولا ينظر إلا بنعمة، ولا يسمع إلا بنعمة، ولا يتكلم إلا بنعمة، ولا يفرح إلا بنعمة، إلى آخر نِعم الله - عز وجل - التي لا تُحْصَى ولا تُعَد، من حقه - عز وجل - أن يُقَابَلَ مع كل نعمة بشكر يقابل تلك النعمة.

فإذاً سيمضي حياته في شكر الله - عز وجل - على الصغير والكبير، فهل تسع حياة المكلفين ذلك؟

لا تسع ذلك.

ولهذا تأمل مع هذا قول الله - عز وجل - لنبيه {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ}.

وتأمَّلْ قول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة لما قام حتى ورمت قدماه صلى الله عليه وسلم «أفلا أكون عبداً شكوراً» ولن يَبْلُغْ جميعَ ما يَسْتَحِقْ الله - عز وجل - من الشكر بالعمل؛ بل لابد من الاستغفار والإنابة حتى يكْمُلَ شكر العبد لربه - عز وجل - .

وتأمل أيضاً ما عَلَّمَهُ - صلى الله عليه وسلم - الصدّيق الذي هو أفضل هذه الأمة أن يقول في آخر صلاته: «اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك» كيف عَبَّرَ هنا بالظلم، «ظلمت نفسي ظلما كثيرا» لم؟ هل ظلم أبو بكر بارتكاب الكبائر؟

حاشا وكلا.

هل ظَلَمَ بِظُلْمِ العباد؟

حاشا وكلا.

هل ظلم أبو بكر رضي الله عنه بالتقصير في حق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفي الاستجابة لله ولرسوله الظلم الكثير؟

حاشا وكلا.

ولكن ينظر العبد إلى ما يُفَاضُ عليه من النِّعَمِ في كل لحظة، فيشعر بأنه مُقَصِّرٌ والله - عز وجل - وصف القليل من الإعراض في حق العبد بأنه من الظلم، ووَصَفَ الكثير بأنه من الظلم، فلهذا يشعر المؤمن بأنَّهُ ظلم نفسه ظلماً كثيراً؛ لأنه لا يمكن أن يشكر حقيقة الشكر .

فلو حاسَبْ الله - عز وجل -العباد، حاسب أهل السموات وأهل الأرض وأهل الأرض على حقيقة شكر ما أنعم الله به عليهم وأعظم ذلك أن جعلهم مُتَّصِلِينَ منه بسبب ومرفوعين إليه - عز وجل - وأنهم من المنيبين وأنهم من المهتدين لما قامت حيلة العبد ولما قام إيمانه ولما قام له شيء؛ ولكن ما ثَمَّ إلا رحمة الله - عز وجل - «لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضلا».

فإذاً ننظر إلى قوله «لو عذب الله أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم» لأنَّ الشكر لن يكون في تمامه، فإذاً هم لن يُعْدَمُوا؛ بل لن يكونوا إلا مُقَصِّرِين، لم يُوَفُّوا مقام الشكر حقه.

بل حتى التوبة والإنابة إذا العبد كَمَّلَ الشكر بتوبته وإنابته دائماً واستغفاره فإن قَبُول التوبة وحصول المغفرة وقبول الإنابة من العبد أليست هذه نعمة تستحق شكرا مجددا؟

فإذاً لو عَذَّبَ الله أهل سمواته وأهل أرضه لَعَذَّبَهُم وهو غير ظالم لهم، فلا يبرح العبد أن يرى نعمة الله - عز وجل - تُفِيْضَ عليه في أمر دينه وفي أمر دنياه وليس ثَمَّ أمامه سبيل إلا أن يشعر بالتقصير.

وهذا المؤمن الحق دائماً يقول مُحَقِّراً نفسه، عسى الله أن يتغمدنا برحمة منه وفضل ولو كان يصوم النهار ويقوم الليل، وانظر إلى كلام أبي بكر رضي الله عنه في دعائه.

فكيف حال المغرورين الجهلة والمذنبين من هذه الأمة الذين لا يرون أثراً لذنوبهم ولا لإعراضهم؛ بل إذا فعلوا القليل مَنُّوا وأدْلَوا على الله - عز وجل - به وهذه حال من لم يُوَفَّقْ.

أسأل الله - عز وجل - أن يوفقنا جميعا إلى ما يحب ويرضى.) انتهي .

الخامسة عشرة. أن هذه المسألة لا يعرفها أكثر الصحابة.

السادسة عشرة. جواز كتمان العلم للمصلحة.

السابعة عشرة. استحباب بشارة المسلم بما يسره.

الثامنة عشرة. الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله.

التاسعة عشرة. قول المسؤول عما لا يعلم " الله ورسوله أعلم "

العشرون. جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض.

الحادي والعشرون. تواضعه صلى الله عليه وسلم لركوب الحمار، مع الإرداف عليه.

الثاني والعشرون. جواز الإرداف على الدابة.

الثالث والعشرون. فضيلة معاذ بن جبل.

الرابع والعشرون. عظم شأن هذه المسألة .

2) **باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب -** أي بيان فضل التوحيد وتكفيره جميع الذنوب –

- **مناسبة الباب لما قبله : بعد أن علمنا وجوب التوحيد في الباب السابق وأنه الحكمة من خلق الجن والإنس ، ناسب أن نذكر هنا فضله لأن النفوس إنما تقبل علي الشيء إذا علمت فضله وحسنه .**
- **وعطفه تكفير الذنوب بالتوحيد علي فضله هو من باب عطف الخاص علي العام إذ للتوحيد فضائل كثيرة غير مغفرة الذنوب وإنما خصَّ من الفضائل تكفير الذنوب لأن كل الفضائل الأخري مبنية عليه فهو سببها ، وقد يقال أنه من عطف المُفسِّر علي الُمفسَّر إذا قلنا أن كل هذه الفضائل منها ما هو فضيلة مستقلة عن الأخريات ومنها ما هو مسبب عنها أيضا ، ولا مانع من أن يكون المراد كلا الأمرين والحمد لله .**
- **ومن فضائل التوحيد الكثيرة غير مغفرة الذنوب ما ذكره ابن سعدي في القول السديد فقال :**

((ومن فضائله :أنه السبب الأعظم لتفريج كربات الدنيا والآخرة ودفع عقوبتهما.

ومن أجل فوائده أنه يمنع الخلود في النار. إذا كان في القلب منه أذى مثقال حبة خردل.

وأنه إذا كمل في القلب يمنع دخول النار بالكلية.

***ومنها :أنه يحصل لصاحبه الهدى الكامل والأمن التام في الدنيا والآخرة.**

***ومنها :أنه السبب الوحيد لنيل رضا الله وثوابه، وأن أسعد الناس بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه.**

***ومن أعظم فضائله :أن جميع الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة متوقفة في قبولها وفي كمالها وفي ترتب الثواب عليها على التوحيد، فكلما قوي التوحيد والإخلاص لله كملت هذه الأمور وتمت.**

***ومن فضائله :أنه يسهل على العبد فعل الخير وترك المنكرات ويسليه عن المصبيات، فالمخلص لله في إيمانه وتوحيده تخف عليه الطاعات لما يرجو من ثواب ربه ورضوانه، ويهون عليه ترك ما تهواه النفس من المعاصي، لما يخشى من سخطه وعقابه.**

***ومنها :أن التوحيد إذا كمل في القلب حب الله لصاحبه الإيمان وزينه في قلبه، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، وجعله من الراشدين.**

***ومنها :أنه يخفف عن العبد المكاره ويهون عليه الآلام. فبحسب تكميل العبد للتوحيد والإيمان، وتلقيه المكاره والآلام بقلب منشرح ونفس مطمئنة وتسليم ورضا بأقدار الله المؤلمة.**

***ومن أعظم فضائله :أنه يحرر العبد من رق المخلوقين والتعلق بهم وخوفهم ورجائهم والعمل لأجلهم، وهذا هو العز الحقيقي والشرف العالي.**

ويكون مع ذلك متألها متعبدا لله، لا يرجو سواه ولا يخشى إلا إياه، ولا ينيب إلا إليه، وبذلك يتم فلاحه ويتحقق نجاحه.

***ومن فضائله التي لا يلحقه فيها شيء :أن التوحيد إذا تم وكمل في القلب وتحقق تحققا كاملا بالإخلاص التام فإنه يصير القليل من عمله كثيرا، وتضاعف أعماله وأقواله بغير حصر ولا حساب، ورجحت كلمة الإخلاص في ميزان العبد بحيث لا تقابلها السماوات والأرض وعمارها من جميع خلق الله كما في حديث أبي سعيد المذكور في الترجمة، وفي حديث البطاقة التي فيها لا إله إلا الله التي وزنت تسعة وتسعين سجلا من الذنوب، كل سجل يبلغ مد البصر. وذلك لكمال إخلاص قائلها، وكم ممن يقولها لا تبلغ هذا المبلغ، لأنه لم يكن في قلبه من التوحيد والإخلاص الكامل مثل ولا قريب مما قام بقلب هذا العبد.**

***ومن فضائل التوحيد :أن الله تكفل لأهله بالفتح والنصر في الدنيا والعز والشرف وحصول الهداية والتيسير لليسرى وإصلاح الأحوال والتسديد في الأقوال والأفعال.**

***ومنها :أن الله يدافع عن الموحدين أهل الإيمان شرور الدنيا والآخرة، ويمن عليهم بالحياة الطيبة والطمأنينة إليه والطمأنينة بذكره، وشواهد هذه الجمل من الكتاب والسنة كثيرة معروفة والله أعلم.) انتهي كلامه .**

- والتوحيد هو أعظم حسنة يمكن أن يعملها العبد ، فمن حقق التوحيد تحقيقا كاملا فلم يتلطخ بشرك أكبر ولا أصغر فهذا جزاؤه الجنة أولا أو مآلا ، أولا أي دون حساب ولا عذاب وسيأتي بيان صفاتهم في الباب القادم إن شاء الله ، أو مآلا إن غلبت سيئاتُه حسناتِه فهذا توحيده فيه نقص فيكون تحريم دخول النار عليه فيه نقص لكن إن دخل النار فسيكون مآله إلي الجنة ؛ فإن

أهل السنة والجماعة من عقيدتهم أن عصاة الموحدين الذين غلبت كفة سيئاتهم علي حسناتهم إن لم تنلهم شفاعة من أنواع الشفاعات الآتي بيانها في باب الشفاعة فإنهم إن أدخلوا النار دخلوا ليطهروا بها من ذنوبهم الراجحة علي حسناتهم ثم يكون مآلهم أخيرا إلي الجنة كما في الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم أو قال بخطاياهم فأماتهم إماتة حتى إذا كانوا فحما أذن بالشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل) وأحاديث الشفاعة في الصحيحين وغيرهما متواترة في ذلك

وهذا واضح في بيان فضل التوحيد ؛ فإنه لولا التوحيد لما خرج عصاة الموحدين الذين غلبت سيئاتهم علي حسناتهم من النار إلي الجنة ، ولولا كفر المشركين به لما خلد المشركون في نار جهنم أبدا.

1- وقول الله تعالي (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون)

- قال تعالي عن إبراهيم - عليه السلام - قبل هذه الآية

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ، وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾

في التفسير الميسر:

(وجادله قومه في توحيد الله تعالى قال: أتجادلونني في توحيدي لله بالعبادة، وقد وفقني إلى معرفة وحدانيته، فإن كنتم تخوفونني بآلهتكم أن توقع بي ضررًا فإنني لا أرهبها فلن تضرني، إلا أن يشاء ربي شيئًا. وسع ربي كل شيء علمًا. أفلا تتذكرون فتعلموا أنه وحده المعبود المستحق للعبودية؟

وكيف أخاف أوثانكم وأنتم لا تخافون ربي الذي خلقكم، وخلق أوثانكم التي أشركتموها معه في العبادة، من غير حجة لكم على ذلك؟ فأي الفريقين: فريق المشركين وفريق الموحدين أحق بالطمأنينة والسلامة والأمن من عذاب الله؟ إن كنتم تعلمون صدق ما أقول فأخبروني.

الذين صَدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه ولم يخلطوا إيمانهم بشرك، أولئك لهم الطمأنينة والسلامة، وهم الموفقون إلى طريق الحق). **انتهي** .

- وعند البخاري من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أنه لما نزلت هذه الآية شَقَّ ذلكَ علَى أصْحابِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقالوا: أيُّنا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟! فقالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ليسَ كما تَظُنُّونَ؛ إنَّما هو كما قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ: {يَا بُنَيَّ لَاتُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}

فالظلم المعني في هذه الآية هو الشرك بنوعيه الأكبر والأصغر ، فمن سلم منه ولم يلبس أي لم يخلط إيمانه بشيء منهما فهؤلاء هم الذين لهم الأمن التام والاهتداء التام في الدنيا والآخرة ، أمن تام في الدنيا من الوقوع في المعاصي بأنواعها سواء كانت كبائر أو صغائر أو بدعا فإنهم لا تطيب أنفسهم بها بل يبغضونها ويكرهون الشهوات والشبهات أشد من كراهيتهم أن يلقوا في النار ، فيذوقون حلاوة الإيمان بتوحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ، فهؤلاء من ثمرة توحيدهم في الدنيا قبل الآخرة أن الله يؤمنهم فيها من الوقوع في العصيان وإن زل أحدهم فيها سارع بالانسلاخ منها بالتوبة حتي لا يبقي عليهم شيء فهم موفقون للطاعة والتوبة فهذا أمنهم التام في الدنيا ؛ فإن حفظ التوحيد وتكميله أدني حصونه اجتناب السيئات وقد تقدم توضيح ذلك في مقدمة الكتاب، وأما أمنهم التام في الآخرة فمن عذاب الله ، وأما الاهتداء التام في الدنيا فإلي ما يرضي الله من الطاعات وتجنب السيئات ، واهتداء تام في الآخرة إلي ما يرضيهم به الله من أنواع النعيم في جنة الخلد.

فظهر بذلك مقصود الآية في بيان فضل التوحيد العظيم.

- واعلم وفقك الله أن أنواع المخالفات علي خمسة أقسام بهذا الترتيب من الأعلي للأدني : شرك أكبر ، ثم شرك أصغر ، ثم بدع ، ثم كبائر ، ثم صغائر

وعباد الله الموحدون ليسوا علي درجة واحدة في تكميل التوحيد وتحقيقه بل هم علي أقسام أربعة باعتبار كمال توحيدهم ونقصانه بارتكاب شيئا من هذه المحرمات إلا الشرك الأكبر فإن من تلبس بشيء منه فليس من عداد المسلمين أصلا.

فالطائفة الأولي منهم وهي أعلاهم وأكملهم توحيدا فهم الذين لم يقع منهم شرك أكبر ولا أصغر ولا كبائر ولا صغائر وإن وقع منهم شيء من ذلك سارعوا بالانسلاخ منها بالتوبة ، فيجددون التوبة باستمرارحتي لا يبقي عليهم شيء وهذه هي منزلة المراقبة والإحسان التي قال فيها الرسول صلي الله عليه وسلم (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) وهؤلاء جزاؤهم يوم القيامة دخول الجنة بغير حساب ولا عذاب ، فظهر بذلك مطابقة الآية لمقصود الباب وبيان فضل التوحيد.

يليهم في الدرجة والقسم الثاني من لم يتلبس بشرك أكبر ولا أصغر ولا بدع ولا كبائر ، لكن صدر منه الصغائر وهذه الصغائر تكفر باجتناب الكبائر كما قال تعالي في آية سورتي النساء

والنجم حيث قال سبحانه (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما) ، وقال جل وعلا (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا الأمم إن ربك واسع المغفرة)

ثم يليهم في الدرجة الثالثة من صدر منه الكبائر والبدع غير المكفرة فهؤلاء تحت المشيئة إن شاء الله عذبهم وإن شاء عفا عنهم كما هي عقيدة أهل السنة والجماعة في عصاة الموحدين الذين ماتوا دون توبة منها مع عدم استحلال لها

كما قررته في كتابي مسألة الإيمان فراجعه ، فهؤلاء إن لم تنلهم شفاعة عذبوا في النار حتي يطهرهم الله من ذنوبهم ثم يكون مآلهم إلي الجنة كما تقدم أول الباب.

والطبقة الرابعة من تلبس بشرك أصغر فهذا لا يغفر في حقه الشرك الأصغر لأن الله لا يغفر الإشراك به فإن رجحت كفة حسناته علي سيئاته فقد نجا وإلا فسوف يؤاخذ بشركه الأصغر كما بينته لك في مقدمة الكتاب التي لا بد منها بين يدي دراسة كتاب التوحيد ، فهؤلاء أمنهم واهتداؤهم جزئي غير تام أي لهم مطلق أمن ومطلق اهتداء لا أمن واهتداء مطلقان تامان ، وأمنهم هذا هو الأمن من الخلود في النار لوجود أصل التوحيد .

فظهر بذلك مطابقة الآية لبيان فضل التوحيد وتكفيره الذنوب لأن من أتى به تامًا فله الأمن التام والاهتداء التام، ودخل الجنة بلا عذاب، ومَن أتى به ناقصًا بالذنوب التي لم يتب منها، فإن كانت صغائر كفرت باجتناب الكبائر، لآية (النّساء: ٣١) ، و (النّجم: ٣٢) وإن كانت كبائر فهو في حكم المشيئة، إن شاء الله غفر له، وإن شاء عذبه، ومآله إلى الجنة،وما ذلك إلا لتوحيده والحمد لله رب العالمين ونسأله الثبات في الدين وزيادة في الإيمان والعمل الصالح .

٢ - وفي الصحيحين عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

" من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله {وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ} ، والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل " وفي رواية للبخاري ((أدخله الله الجنة من أي أبواب الجنة الثمانية شاء))

-قال - صلي الله عليه وسلم - من شهد ولم يقل من نطق ؛ ذلك لأن الشهادة إخبار باللسان مع التيقن من معناها بالقلب مع العمل بمقتضاها من إقامة التوحيد لله وحده والبراءة من الشرك وأهله ؛ فمجرد قولها باللسان غير نافع حتي يقترن القول بالعمل الذي يصدقه ، وقد تقدم أن للا إله إلا الله ثمانية شروط يجب تحقيقها كلها حتي تقبل الشهادة من قائلها وكان منها العلم المنافي للجهل ، والصدق في قولها المنافي للنفاق ، والانقياد بالعمل المنافي للترك ، فمن اكتفي بمجرد نطقها باللسان دون اعتقاد معناها فهو نفاق ، ومن اعتقد معناها وصدق دون نطقها مع القدرة فهو جحود واستكبار كحال فرعون وجنوده ، ومن قالها بلسانها وزعم أنه مصدق لما تضمنته

من الأحكام والعقائد لكن لم يعمل بمقتضاها فهو نفاق أيضا ، وسيأتي أن الإيمان عند أهل السنة والجماعة قول باللسان ، واعتقاد بالجنان أي القلب ، وعمل بالجوارح لا بد من تحقيقها مجتمعة.

- وقد تقدم المعني الصحيح للشهادة و رد ما فسرت به من التفسيرات الناقصة.

-وقوله وحده لا شريك له هذا تأكيد بعد تأكيد لبيان عظم مقام التوحيد من إفراد الله بالعبادات كلها بلا استثناء وفي كل لحظة من لحظات الحياة بلا استثناء أيضا ، مع البراءة من الشرك وتكفير من فعله.

- وقوله (و أن محمدا عبده ورسوله) هذا شق الشهادة الثاني فلا بد من توحيد الله واتباع رسوله لا يكفي أحد الشقين عن الآخر ، قال تعالي (قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين) ، وقال سبحانه (من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولي فما أرسلناك عليهم حفيظا).

- وقوله (وأن محمدا عبده ورسوله) فيه أن محمدا - عليه الصلاة والسلام - عبد لا يعبد ورسول لا يكذب ، وهذا رد علي طائفتين من الناس : الغلاة الذين ألهوه وعبدوه كما يعبد الحي الذي لا يموت سبحانه ، والجفاة الذين كفروا به كاليهود والنصاري وكل من دان بدين غير دين الإسلام العظيم .

وقد تبرأ النبي صلي الله عليه وسلم من أن يعبده أحد من الخلق وأمر أمته بإفراد الله بالعبادات ،

نشهد أنه بلغ ونصح ؛ ففي الصحيحين أنه لما نزل عليه قوله تعالي (وأنذر عشيرتك الأقربين) قال : يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئا ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا يا صفية عمت رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت - يعني أن هذا ما يقدر عليه - لا أغني عنك من الله شيئا . فليس له حظ من العبادة إطلاقا.

وقد قال كما في الصحيح لما أثني عليه بعض الصحابة قائلين أنت خيرنا وابن خيرنا (لا تطروني كما أطرت النصاري ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله ولا يستجرينكم الشيطان)

فسد كل ذريعة توصل للشرك كما سيأتي معنا أثناء الكتاب غير أن فيه بابين مخصوصين بهذا الأمر العظيم وهما باب ما جاء في حماية المصطفي صلي الله عليه وسلم جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلي الشرك ، وكذلك باب حماية المصطفي صلي الله عليه وسلم حمي التوحيد وسده طرق الشرك - عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم –

والان تري الجاهل بالتوحيد منتكس الفطرة إذا قيل له أن الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم وآل البيت لا حق لهم في عبادة أبدا قالوا أنتم متنقصون من الأولياء والصالحين ، وليس هذا تنقصا بل هذا هو عين توقيرهم بطاعتهم بإنزالهم منزلتهم التي أنزلهم الله إياها فهم عباد مكرمون ورسل موقرون مصدقون والكلام إذا كان في توحيد الباري جل وعلا فكل ما سواه سبحانه يتلاشي عند تجريد توحيده

قال ابن تيمية في الاستغاثة والرد علي البكري :

(إن الكلام إذا كان في سياق توحيد الرب ونفي خصائصه عما سواه؛ لم يجز أن يقال هذا سوء عبارة في حق من دون الله من الأنبياء والملائكة، فإن المقام أجلّ من ذلك، وكل ما سوى الله يتلاشى عند تجريد توحيده، والنبي صلى الله عليه وسلم - كان من أعظم الناس تقريراً لما يقال على هذا الوجه، وإن كان نفسه المسلوب، وهذا كما في الصحيحين من حديث الإفك لما نزلت براءة عائشة من السماء وأخبرها النبي - صلى الله عليه وسلم - بذلك، فقالت لها أمها :قومي إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم- ، فقالت" :والله لا أقوم إليه ولا أحمده ولا إياكما، لقد سمعتم فلا أنكرتم ولا غيرتم، ولا أحمد إلا الله الذي أنزل براءتي ، وفي رواية قالت" :نحمد الله لا نحمد أحداً"، وفي رواية" :نحمد الله لا نحمدك ، فأقرها النبي - صلى الله عليه وسلم -، وأبوها على مثل هذا الكلام، الذي نفت فيه أن يحمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأن يحمد أحد إلا الله، لأن الله -تعالى- هو الذي أنزل براءتها بغير فعل أحد، ولم يقل أحد هذا سوء أدب عليه، وسوء الأدب عليه كفر.

قال البيهقي :ثنا (أبو عبد الله الحافظ قال: سمعت علي بن]حمشاذ العدل سمعت أحمد بن مسلمة، يقول: سمعت محمد بن مسلم يقول: سمعت حبان صاحب ابن المبارك يقول: قلت لعبد الله بن لمبارك: قول عائشة للنبي - صلى الله عليه وسلم - حين نزلت براءتها من السماء) :بحمد الله لا بحمدك ، إني لأستعظم هذا القول؟ فقال عبد الله" :ولَّت الحمد أهله. "

وكذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده، حدثنا محمد بن مصعب، ثنا سلام بن مسكين والمبارك عن الحسن عن الأسود بن سريع أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أتي بأسير، فقال :اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلي محمد، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم- " :عرف الحق لأهله) "رواه أبو عبيد في كتاب الأموال عن عبد الرحمن بن مهدي عن سلام.

وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يُعلم أصحابه تجريد التوحيد فقال" :لا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا :ما شاء الله ثم شاء محمد"، وقال له رجل :ما شاء الله وشئت فقال" :أجعلتني لله ندّاً، بل)٤ (ما شاء الله وحده"، وما أحدثه الله -عز وجل- بغير فعل منه أضافه إلى الله وحده، كما في الصحيحين لما تاب الله على الثلاثة الذين خلفوا وآذن النبي -

صلى الله عليه وسلم - الناس بتوبتهم، فجاء كعب إليه فقال" :يا كعب أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك"، فقال :يا رسول الله أمن عند الله أم من عندك؟ قال" :بل من عند الله ")،
ومعلوم أنه لو كان من عند النبي - صلى الله عليه وسلم - لكان من عند الله، بمعنى أن الله خلقه وأحدثه ، بتوسط فعل النبي - صلى الله عليه وسلم -، فجميع الحادثات من عنده بهذا الاعتبار، ولكن المقصود أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يصدر منه فعل في هذه التوبة، إلا أنه بلغ)١ (رسالة الله -تعالى- بالتوبة، كما قال في مثل ذلك} :وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

وما يتكلم به الإنسان من تلقاء نفسه وإن كان الله خالقه؛ هو من عند الله باعتبار خلقه وتقديره، فليس هذا المعنى هو ذاك، فإنه هناك مبلّغ لكلام مرسله والله يجعله مبلغاً له لا يجعله قائلاً من تلقاء نفسه، ولهذا توعد الله من جعل القرآن قول البشر، بقوله} :سَأُصْلِيهِ سَقَرَ] {المدثر: ٢٦[، وقد قال تعالى} :إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ)وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ)وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ) فجعله قول رسول من البشر، كما جعله قول رسول من الملائكة؛ في قوله} :إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيم ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِين لأن لفظ الرسول يستلزم المرسل ويدل على أنه مبلغ له عن مرسله لا يتكلم به من تلقاء نفسه، بخلاف من جعله قولاً لمخلوق بشر أو ملك أو جني، أو جعل شيئاً منه قوله، فإن هذا هو الذي توعده الله -عز وجل.-

وأيما أبلغ قول عائشة -رضي الله عنها" :-لا أحمد الرسول ولا أحمد إلا الله"، وقول الأسير" :أتوب إلى الله لا إلى محمد"، وقول القائل :لا يستغاث بالرسول بل بالله، أو لا يدعى الرسول وإنما يدعى الله ونحو ذلك؟!! وهو - صلى الله عليه وسلم - قد بلغ براءتها وكان يحبها ويحب براءتها ....) **انتهي** .

ثم قال ابن تيمية في الرد علي البكري مبينا المقارنة بين موقف الموحدين وبين موقف المشركين من الأولياء والصالحين وأن هؤلاء هم المتنقصون للرسل في الحقيقة لا الموحدون الكرام النبلاء الذين يدعون الناس إلي عبادة الله وحده وينهون عن عبادة ما ومن سواه ، فقال :

((الغلاة المشركون هم في الحقيقة بخسوا الرسل ما يستحقونه من التعظيم؛ دون الأمة الوسط أهل التوحيد المتبعين لشريعة الرسل ، وبيان ذلك بأمور منها :

أولا : أن النصارى يقولون: إنهم يعظمون المسيح، وكذلك الغالية في علي والأئمة أو الشيوخ أو غيرهم، وهم في الحقيقة متنقصون لهم فإن المسيح -عليه السلام- أمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له؛ وأخبرهم أنه عبد الله، فهم إذا اتبعوه كان له من الأجر مثل أجورهم من غير أن

ينقص من أجورهم شيء كما ثبت في الصحيح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال" :من دعى إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، من غير أن ينقص]من أجورهم شيئاً،]ويكونون سعداء أولياء لله من أهل الجنة وإذا غلوا فيه واتخذوه ربا انقطع العمل الصالح الذي كان يحصل بتوحيدهم وطاعتهم، وحصل لهم مع ذلك عذاب أليم، وإن كان هو سليماً من العذاب؛ لكن فَوَّتوه الأجر الذي كان يحصل له بتوحيدهم وطاعتهم.

وأما أهل الاستقامة فهم إذا وحَّدوا الله وعبدوه كما شرعته لهم الرسل ، وأطاعوهم صاروا أولياء لله مستيقنين لثوابه، وحصل للرسول بالذي دعاهم مثل أجورهم، وكان في هذا من التعظيم للرسل ما ليس في طريق الغلاة.

الأمر الثاني :إن أهل التوحيد والسنة يدعون لهم دائماً فينتفعون بذلك الدعاء، وأهل الشرك والبدعة يكلفونهم حوائجهم وأين من يحصل بسعيه منفعة لهم؟ إلى من يكلفهم ويؤذيهم بسؤاله؟ واعتبر هذا بحال الصديق الذي كان يعاون الرسول بماله ونفسه ولا يسأله شيئاً، أين منزلته من منزلة من يسأله ويكلفه ولا يعاونه؟.

الأمر الثالث :إن أهل التوحيد والسنة يصدقونهم فيما أخبروا، ويطيعونهم فيما أمروا، ويحفظون ما قالوا؛ ويفهمونه ويعملون به؛ وينفون عنه تحريف الغالين وانتحال]المبطلين وتأويل الجاهلين؛ ويجاهدون من خالفهم؛ ويفعلون ذلك تقرباً إلى الله طلباً للجزاء منه لا منهم، وأهل الجهل والغلو لا يميزون بين ما أمروا به ونهوا عنه، ولا بين ما صح عنهم وما كُذِبَ عليهم، ولا يفهمون حقيقة مرادهم؛ ولا يتحرون طاعتهم ومتابعتهم، بل هم جهال بما أتوا به معظمون لأغراضهم؛ إما لينالوا)٤ (منهم منفعة، أو ليدفعوا بهم عن أنفسهم مضرة.

فالسدنة الذين عند القبور ونحوهم غرضهم يأكلون أموال الناس بهم، وأتباعهم غرضهم تعظيم أنفسهم عند الناس وأخذ أموالهم لهم، والصادق المحض المتدين منهم غرضه)أنه إذا سألهم واستغاث بهم في دفع شدة أو طلب حاجة قضوها له، فأي الفريقين أشد تعظيماً أولئك أو هؤلاء؟.

الأمر الرابع : أن أولئك الغلاة المشركين إذا حصل لأحدهم مطلوبه ولو من كافر لم يقبل على الرسول، بل يطلب حاجته من حيث ظن أنها تقضى؛ فتارة يذهب إلى ما يظنه قبر رجل صالح؛ أو يكون فيه قبر أو منافق، وتارة يعلم أنه كافر ومنافق ويذهب إليه، كما يذهب قوم إلى الكنيسة، وإلى مواضع يقال لهم إنها تقبل النذر، فهذا يقع فيه عامتهم.وأما الأول فيقع فيه خاصتهم) **انتهى** .

- وأما الجفاة الكافرون بسيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام فقد جاءت صفته في التوراة ردا علي اليهود والنصاري الذين كفروا به حسدا من عند أنفسهم لأنه لم يكن من بني إسرائيل بل من

العرب ، ففي الحديث الحسن المخرج عند الدارمي في السنن عن عبد الله بن سلام الذي كان يهوديا قبل أن يسلم قال

إنا لنجد صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين - أي حصنا - أنت عبدي ورسولي سميته المتوكل ليس بفظ -أي ليس بقاس - ولا غليظ – أي لا بشديد - ولا صخاب بالأسواق ولا يجزي بالسيئة مثلها ولكن يعفو ويتجاوز ولن أقبضه حتى نقيم الملة المتعوجة بأن تشهد أن لا إله إلا الله يفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا)

وأصل الحديث عند البخاري في الصحيح من حديث عبد الله بن عمرو قال

(لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بنَ عَمْرِو بنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عنْهمَا، قُلتُ: أخْبِرْنِي عن صِفَةِ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في التَّوْرَاةِ، قالَ: أجَلْ؛ واللَّهِ إنَّه لَمَوْصُوفٌ في التَّوْرَاةِ ببَعْضِ صِفَتِهِ في القُرْآنِ: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} [الأحزاب: 45]، وحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أنْتَ عَبْدِي ورَسولِي، سَمَّيْتُكَ المتَوَكِّلَ، ليسَ بفَظٍّ ولَا غَلِيظٍ، ولَا سَخَّابٍ في الأسْوَاقِ، ولَا يَدْفَعُ بالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، ولَكِنْ يَعْفُو ويَغْفِرُ، ولَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حتَّى يُقِيمَ به المِلَّةَ العَوْجَاءَ، بأَنْ يَقولوا: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، ويَفْتَحُ بهَا أعْيُنًا عُمْيًا، وآذَانًا صُمًّا، وقُلُوبًا غُلْفًا) .

- وقوله - صلي الله عليه وسلم - وأن عيسي عبد الله ورسوله أيضا هو عبد لا يعبد ورسول لا يكذب ، وفيه الرد علي الغلاة الذين ألّهوه وعبدوه وهم النصاري وهم في أربعة طوائف فمنهم من زعم أنه الله - تعالي الله عما يقولون علوا كبيرا - وقد قال الله سبحانه في هؤلاء

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ)

وقال أيضا

(لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

ومنهم طائفة تزعم أنه ابن الله - سبحانه وتعالي عما يشركون - وقد رد الله عليهم بقوله سبحانه

(قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد)

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ

وقالت طائفة ثالثة هو ثالث ثلاثة ، وقال تعالي

(يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا علي الله إلا الحق إنما المسيح عيسي بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلي مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفي بالله وكيلا لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا)

وطائفة رابعة لا تزعم ذلك كله لكنها تعبده وتصرف له أنواعا من العبادات كالصيام وغيره

وقد قال سبحانه في الرد عليهم

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

وقال جل وعلا

(لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ).

وقال تعالي (إن مثل عيسي عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين)

وأما الجفاة فهم الذين كفروا برمي المسيح عليه السلام وأمه بما لا يجوز والعياذ بالله وهم اليهود قاتلهم الله.

- وكلمته ألقاها إلي مريم وروح منه

فيه أن عيسي كلمة الله: ومعني أنه كلمة الله أن الله قال كن فكان عيسي ، قال تعالي (إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) ، فخلق عيسي بقول الله كن وهي كلمة ولهذا كان عيسي بكلمة من الله ، فلم تصر الكلمة عيسي وإنما صار عيسي وخلق بالكلمة ، لكن بكن كان فكن من الله كلمة وكلام الله صفة من صفاته غير مخلوق وعيسي مخلوق ، فمن صفات

الله تعالي الكلام فهو سبحانه يتكلم بصوت وحرف بصوت لا يشبه صوت عباده وبحرف يفهمه المخاطب وكلامه صفة كسائر صفاته ليس مخلوقا ، ولهذا صار عيسي بكلمة كن من الله سبحانه ، ولم تصر الكلمة هي عيسي والعياذ بالله فإن كلام الله صفة من صفاته ليس بمخلوق ومن ادعي أن صفات الله بالعلم والقدرة والكلام وغيرها مخلوقة فقد زعم أن ربه مخلوق وهو كافر بالله تعالي ، ومن الأخطاء العقدية قول بعض الناس يا من أمره بين الكاف والنون ، والصحيح أن أمره بعد الكاف والنون ، فالله سبحانه يقول للشيء إذا أراده كن ، فيكون هذا الشيء والكاف حرف والنون وحدها حرف لا معني له ، ومن الأخطاء كذلك ظن بعضهم أن الله سبحانه يقول فيكون بعد كن ، بل يقول سبحانه كن فإذا بالشيء يكون .

وكونه روحا من الله أي روحا من أرواحه المخلوقة مثل قوله تعالي (وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه) ، فبأمره كان الروح فيه ، فمن هنا ابتدائية أي أن الله هو الذي ابتدأ خلقه هكذا لا شريك له في شيء من ذلك وليست من (تبعيضية) والعياذ بالله ، وفي ذلك تعظيم لقدرة الله وتشريف لعيسي عليه السلام.

- فجبريل روح أرسل بروح هي روح عيسي إلي روح هي مريم فنفخ فيها فدخلها وكان عيسي.

قال أبي بن كعب كما أخرجه عنه ابن أبي حاتم وابن جرير وغيرهما بسند حسن

(عيسي روح من الأرواح التي خلقها الله تعالي واستنطقها بقوله ألست بربكم قالوا بلي بعثه الله إلي مريم فدخل فيها).

وقوله رضي الله عنه أن جبريل أرسل بروح عيسي فدخلها المراد أنه دخلها بعد أن نفخ في درعها.

قال "ابن كثير": "فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا أَيْ: بِوَاسِطَةِ الْمَلَك، وَهُوَ جِبْرِيلُ، فَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَهُ إِلَيْهَا فَتَمَثَّلَ لَهَا فِي صُورَةِ بَشَرٍ سَوِي، وَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَنْفُخَ بِفِيهِ فِي جَيْبِ دِرْعِهَا، فَنَزَلَتِ النَّفْخَةُ فَوَلَجَتْ فِي فَرْجِهَا، فَكَانَ مِنْهُ الْحَمْلُ بِعِيسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَلِهَذَا قَالَ: فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ أَيْ: بِقَدَرِهِ وَشَرْعِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ"، انتهى من"تفسير ابن كثير.(8/173) "

قال الإمام أحمد في كتابه (الرد علي الزنادقة والجهمية) :

((المعنى من قول الله جل ثناؤه: إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ـ فالكلمة التي ألقاها إلى مريم حين، قال له: كن، فكان عيسى بكن، وليس عيسى هو الكُن، ولَكِنْ بالكُن كَانَ، فالكُنُّ من الله قول، وليس الكن مخلوقًا، وكذبت النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى، وذلك أن الجهمية قالوا: عيسى روح الله وكلمته، لأن الكلمة مخلوقة،

وقالت النصارى: عيسى روح الله من ذات الله، وكلمته من ذات الله، كما يقال: إن هذه الخرقة من هذا الثوب، وقلنا نحن: إن عيسى بالكلمة كان، وليس عيسى هو الكلمة، وأما قول الله: وَرُوحٌ مِنْهُ - يقول: من أمره كان الروح فيه كقوله: وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ {الجاثية: 13} يقول: من أمره، وتفسير روح الله إنما معناها أنها روح بكلمة الله، خلقها الله، كما يقال: عبد الله، وسماء الله، وأرض الله) .

- فإن سألت لماذ أضاف الله عيسي إليه مع أن جميع أرواحنا خلقها سبحانه ، فاقول لك أن كل ما يضاف إلي اسم من أسماء الله فهو نوعان:

الأول:

إضافة معان مما لا يقوم بنفسه ولا بغيره من المخلوقات فليست ذاتا ولا شيئا محسوسا وإنما معني من المعاني كقوة الله ورحمة الله ونحوها فهي بذلك دليل علي أن المضاف صفة لله قائمة به.

الثاني:

إضافة أعيان أي أجسام أوذوات وهي ما قام بنفسه ؛ فيمتنع أن يكون صفة لله ؛ لأن ما قام بنفسه يمتنع أن يكون صفة لغيره ، وهذا قسمان : أولهما ما يضاف لله إضافة عامة كسماء الله وأرض الله ، وثانيهما إضافة خاصة تتضمن شرفا المضاف وتعظيما لقدرة الله ومن ذلك إضافة عيسي وكونه روحا من الله وكلمة الله فهي إضافة تشريف وتكريم كبيت الله وناقة الله.

- وأن الجنة حق وأن النار حق : فيه دليل أن الجنة والنار مخلوقتان الآن كما هو معتقد الجماعة ، قال سبحانه (فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت الكافرين) ، وقوله عز وجل (وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين)

- ومن السنة ما حصل للنبي صلي الله عليه وسلم في المعراج فإنه قد رأي فيها ما في الجنة من أنواع النعيم ، وما في النار من أشكال العذاب ، وقد كان المعراج بروحه وجسده ولهذا كذبه المشركون.

- وقوله أدخله الله الجنة علي ما كان من العمل أي علي أي شيء كان عليه من العمل صالحا كان أو فاسدا ، أو أن درجته في الجنة علي ما وجد من العمل فإن كان من المجتهدين في تحقيق العقيدة الصحيحة مكثرا من الأعمال الصالحة ارتفعت درجته في الجنة وإلا قلّت.

- وهذا دليل علي اشتراط العمل الصالح لصحة الإيمان فإن من عقيدة أهل السنة والجماعة أن الإيمان قول وعمل واعتقاد ؛ قول القلب والسان وعمل القلب واللسان والجوارح لا يجزئ واحد منها إلا بالآخر ، ويزيد بالطاعة وينقص بالمعصية .

فأما قول القلب فهو تصديقه وإيقانه وايمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر والقدر خيره وشره وبكل ما جاء به الرسول صلي الله عليه وسلم و أدلة كونه ركنا في الإيمان وأن الإيمان لا يصح إلا به أدلة كثيرة نقتصر علي بعضها لأن المقام مقام اختصار ومن أراد التفصيل فليرجع لكتابي (مسألة الإيمان وما يتعلق بها من أحكام والرد علي المرجئة والخوارج) ، فمن هذه الأدلة قوله تعالي (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هما الصادقون) ، وقوله صلي الله عليه وسلم في حديث جبريل (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر والقدر خيره وشره)

و يجب أن يقترن مع التصديق بقية أعمال القلوب ، فإن التصديق وحده غير نافع وغالب من كفر بالرسل إنما كفر بإبائه واستكباره مع اعتقاده صدق دعوة الرسل كفرعون وإبليس ، فلن ينفع التصديق وحده حتي يقترن معه عمل القلب ، واعلم أن تصديق المؤمن ليس كتصديق الكافر المستكبر الجاحد ، فإن التصديق يتفاضل وتفاصيل ذلك في مسألة الزيادة والنقصان .

وأما قول اللسان وهو النطق بالشهادتين شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله والإقرار بلوازمها ومن أدلة ذلك قوله في سورة الزخرف (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون).

وقوله صلي الله عليه وسلم كما في الصحيح (أمرت أن أقاتل الناس حتي يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله)

وأما عمل القلب وهو النية والإخلاص والعلم والانقياد والقبول والمحبة ، وغيرها من شروط صحة الشهادة التي منها شروط لا إله إلا الله وهي مفصلة كما سبق في مقدمة الكتاب وكذلك غيرها من أعمال القلوب كالتوكل والاستعانة والرغبة والرهبة والإنابة والخشوع وغيرها من عبادات وأعمال القلوب ولوازم ذلك وتوابعه .

وأما عمل اللسان وهو العمل الذي لايؤدي إلا به كتلاوة القران وسائر الأذكار والتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير وغير ذلك

وأما عمل الجوارح فكذلك هو ركن في الإيمان لا يصح إيمان إلا به .

- وإليك أدلة كون عمل الجوارح إيمانا وتسميته إيمانا وأن من ترك عمل الجوارح مطلقاً فهو كافر بالإجماع :

منها أن الصلاة من أعظم اعمال الجوارح وقد سماها الله إيمانا فقال سبحانه

(وما كان الله ليضيع إيمانكم) أي صلاتكم الي بيت المقدس كما هو معلوم من من سبب نزول الآية. فإنها أنزلت في حادثة تحويل القبلة ، وسبب نزول الآية أن النبي صلي الله عليه وسلم لما

هاجر من مكة إلي المدينة وجّه المسلمين ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا إلي بيت المقدس ، ثم وجهت القبلة من بيت المقدس إلي الكعبة فتوجه المسلمون إلي الكعبة ، حتي إن أهل قباء لم يبلغهم تحويل القبلة إلا في صلاة الفجر ، وكانت قد حُولت القبلة في صلاة العصر ، فذهب ذاهب ومرّ علي أهل قباء ووجدهم يصلون لبيت المقدس ، فقال أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله صلي الله عليه وسلم، وقد حُولت القبلة إلي الكعبة ، فاستداروا وهم في الصلاة إلي الكعبة وصارت النساء مكان الرجال والرجال مكان النساء أثناء الصلاة ، وهذا من كمال طاعتهم لله ورسوله وقد مات بعض الصحابة قبل أن يتحولوا للكعبة فلما سئل الرسل عنهم ومصيرهم فانزل الله هذه الاية .

ومن أدلة السنة حديث وفد عبد القيس في الصحيحين وغيرهما قال (آمركم بالإيمان بالله وحده أتدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ فقالوا الله ورسوله أعلم فقال صلي الله عليه وسلم (شهادة أن لا إله إلا الله وان محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وأن تؤدوا من (المغنم الخمس

ففسّر الايمان بالعمل

وليس في القران آية فيها أمر بالإيمان أو نداء للمؤمنين إلا وقرنه بالعمل وهو من عطف الخاص علي العام لزيادة الاهتمام بالعمل وانه لا إيمان إلا بالعمل ولا عمل إلا بالإيمان.

إلي غير ذلك من الأدلة علي أن أعمال الجوارح تسمي إيمانا ، وأنها ركن فيه ، وأن الإيمان لا ينحصر في التصديق ، وليس المراد بالعمل أي عمل صالح ، فلا يكفي مجرد الصدق في الحديث ورد الأمانات ونحوها من الأعمال ، وإنما المراد بالعمل أركان الإسلام التي يختص بإيجابها محمد صلي الله عليه وسلم ، وأولها وأهمها الصلاة .

وعلي ما سبق بيانه إجماعات سلفية لا تحصي قد نقلت كثيرا منها عن السلف من كتبهم في كتابي الإيمان فراجعه ، منها قول الشافعي -كما في شرح أصول اعتقاد أهل السنة- وكان الإجماع من الصحابة، والتابعين من بعدهم ممن أدركنا: أن الإيمان: قول، وعمل، ونية، لا يجزئ واحد من الثلاثة عن الآخر، ومنها قول البخاري (لقيتُ أكثر من ألف رجل من أهل العلم، فما رأيتُ أحدًا منهم يختلف في هذه الأشياء: وذكر منها أن الدين قول وعمل .

فالإيمان قول وعمل واعتقاد من ترك واحدة منها فهو كافر بالاجماع .

قال ابن القيم في (عِدة الصابرين) في بيان هذه الأركان السابقة : القول والعمل والاعتقاد ، وأنه لا يلزم من وجود أحدها وجود الإيمان حتي يأتي العبد بها مجتمعة ، وأنه يلزم من عدم أحدها عدمُ الإيمان:

(الإيمان قول وعمل والقول قول القلب واللسان والعمل عمل القلب والجوارح وبيان ذلك أن من عرف الله بقلبه ولم يقرّ بلسانه لم يكن مؤمناً، كما قال عن قوم فرعون (وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا) وكما قال عن قوم عاد وقوم صالح (وعاداً وثمودا وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين) وقال موسي لفرعون(قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبورا) فهؤلاء حصل لهم قول القلب وهو المعرفة والعلم ولم يكونوا بذلك مؤمنين ، وكذلك من قال بلسانه ما ليس في قلبه لم يكن بذلك مؤمناً بل كان من المنافقين ، وكذلك من عرف بقلبه وأقر بلسانه لم يكن بمجرد ذلك مؤمناً حتي يأتي بعمل القلب من الحب والبغض والموالاة والمعاداة ويوالي أولياء الله ويعادي أعداءه ويستسلم بقلبه لله وحده وينقاد لمتابعة رسوله وطاعته والتزام شريعته ظاهراً وباطناً)انتهي كلامه .

- ومعني أن الإيمان قول وعمل واعتقاد أن الإيمان لا ينعقد إلا باجتماعها قولا باللسان واعتقادا لمعني الشهادة بمقتضياتها وعملا بالجوارح ، وأن الإيمان يزول بارتكاب ناقض من نواقض الإسلام بواحد منها ، فمثال النواقض القولية سب الدين أو الرسول والعياذ بالله ونحو ذلك من الكفريات القولية ، ومثال النواقض القلبية الشك المنافي لليقين ، ومثال النواقض العملية السجود لغير الله أو الذبح لغير الله ونحو ذلك من العبادات فمتي ما صرفت لغير الله فقد كفر صاحبها .

- فعندنا انعقاد إيمان وزوال إيمان ، فلا ينعقد إيمان عبد ولا يصح إلا باجتماعها ، وعلي الجانب المعاكس عندنا زوال إيمان ويكون بارتكاب ناقض بأي منها ، فالكفر قد يقع بالقول وإن لم يصاحبه كفر اعتقاد ولا كفر عمل ، ويقع بالعمل وإن لم يصاحبه كفر قولي ولا كفر اعتقادي ، ويقع بالاعتقاد وإن لم يصاحبه كفر قول ولا كفر عمل ، لكن لا بد مع ذلك أن كل كفر أكبر ظاهر فهو مصحوب بكفر أكبر باطن إلا أن أهل السنة لا يحصرون كفر الباطن بالتكذيب بل منه استخفاف وكبر وجحود وغيرها من المكفرات القلبية .

واعلم – وفقك الله – أن أهل السنة يعتقدون أن العمل الظاهر لازم لعمل الباطن حتما ، ويقصدون بالعمل الظاهر عمل الجوارح ، وبعمل الباطن عمل القلوب ، والمخالفة في ذلك هي سبب ضلال أهل الإرجاء والتجهم.

فأهل السنة من عقيدتهم وجود هذا التلازم بين أعمال القلوب وعمل الجوارح ، فيعتقدون كفر تارك عمل الجوارح لدلالة انتفاء الملزوم وهو عمل القلب بانتفاء اللازم وهو عمل الجوارح ، وهذا ما خالف فيه المرجئة والجهمية ، فاعتقدوا وجود أصل الإيمان الباطن المنجّي مع عدم وجود شيء من الأعمال الظاهرة ، سواء قالوا بكمال الإيمان الباطن ، أو نقصانه مع وجود أصله، فأخرجوا العمل من الإيمان واعتقدوا نجاة تاركه ، وهذه كله بناء علي أن الإيمان عندهم تصديق مجرد .

وإليك الأدلة من الكتاب والسنة في ثبوت التلازم ذكرها ابن تيمية في كتاب الايمان في مسالة التلازم بين الظاهر والباطن وأن عمل الجوارح لازم لعمل القلب ، وأن انتفاءه دالّ لا محالة علي انتفاء عمل القلب وكفر العبد لأن الملزوم ينتفي بانتفاء اللازم ، وأن ثبوت عمل القلب يلزم منه بالضرورة ظهور عمل الجوارح .

1) قال ان تيمية في الإيمان (لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت، فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب.

وقال أبو هريرة: القلب ملك والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده ، وقول أبي هريرة تقريب ، وقول النبي صلي الله عليه وسلم أحسن بيانا ، فإن الملك وإن كان صالحا فإن الجند لهم اختيار قد يعصون به ملكهم وبالعكس فيكون فيهم صلاح مع فساده ، أو فساد مع صلاحه ، بخلاف القلب فإن الجسد تابع له لا يخرج عن إرادته قط كما قال النبي صلي الله عليه وسلم " إذا صلحت صلح لها سائل الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد

فإذا كان القلب صالحاً بما فيه من الإيمان علماً وعملاً قلبياً لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالإيمان المطلق، كما قال أئمة أهل الحديث: قول وعمل، قول باطن وظاهر، وعمل باطن وظاهر، والظاهر تابع للباطن لازم له، متى صلح الباطن صلح الظاهر، وإذا فسد فسد ، ولهذا قال من قال من الصحابة عن المصلي العابث " لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه ....فيمتنع أن يكون الإنسان محبا لله ورسوله ، مريدا لما يحبه الله ورسوله إرادة جازمة مع قدرته علي ذلك وهو لا يفعله ، فإذا لم يتكلم الإنسان بالإيمان مع قدرته عليه دل علي أنه ليس في قلبه الإيمان الواجب الذي فرضه الله عليه) .

2) وقال (7 / 542):

(ولما كانت الأقوال والأعمال الظاهرة لازمة ومستلزمة للأقوال والأعمال الباطنة، كان يستدل بها عليها، كما في قوله تعالى: لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آَبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ فأخبر أن من كان مؤمنا بالله واليوم الآخر لا يوجدون موادين لأعداء الله ورسوله، بل نفس الإيمان ينافي مودتهم، فإذا حصلت الموادة دل ذلك على خلل الإيمان وكذلك قوله: تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ).

3)وقال (7 / 541) :

(وإذا قام بالقلب التصديق به والمحبة له لزم ضرورة أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الأقوال الظاهرة والأعمال الظاهرة فما يظهر علي البدن من الأقوال والأعمال هو موجَب ما في القلب ولا زمه ودليله ومعلوله كما أن ما يقوم بالبدن من الأقوال والأعمال له ايضا تأثير فيما في القلب فكل منهما يؤثر في الآخر).

- وأهل السنة كما يرون تلازم الظاهر مع الباطن في انعقاد الايمان كما سبق من نصوص كلام الله ورسوله - صلي الله عليه وسلم - وكلام ابن تيمية المؤيد لذلك ، فكذلك يرون تلازم الظاهر مع الباطن في الكفر ؛ فمن ارتكب مكفرا بجارحته فلا بد أن يصاحبه كفر باطن أكبر

اما المرجئة فلا يقولون بتلازم الظاهر مع الباطن في الكفر ، لانهم كما لم يروا التلازم في الايمان بين الظاهر والباطن في الايمان وقالوا يكون مؤمنا كامل الايمان وان لم يعمل قط مع القدرة وأخّروا العمل عن مسمي الايمان ، ويقول جهميّهم لو ارتكب كل كفر ظاهرا فهو كافر في الظاهر وإن كان في حقيقة الأمر قد يكون مؤمنا كامل الإيمان في الباطن !!

فكذلك في الكفر لا يقولون بتلازم الكفر الظاهر مع الباطن

بل يقولون كفر الظاهر دال علي كفر الباطن الذي هو التكذيب عندهم فقط فان لم يكن مكذبا ولكن مستخفا أو حاسدا فلا يكفر وعلي هذا فهم لا يقولون بالتلازم بين الظاهر والباطن في الكفر كما لم يروه في الايمان.

وأما أهل السنة فيرون تلازم كفر الظاهر مع الباطن ، ولكنه لا ينحصر في التكذيب كما سبق

فكفر الباطن لا يكون بالضرورة تكذيبا كما حصرته المرجئة بل قد يكون استكبارا ، أو جحودا ، أو حسدا ، أو بغضا ، أو استخفافا علي أقل تقدير.

قال ابن تيمية(12 / 335) :

(الكفر عدم الإيمان بالله ورسوله سواء كان معه تكذيب أو لم يكن معه تكذيب ، بل شك وريب أو إعراض عن هذا حسدا أو كبرا أو اتباعا لبعض الأهواء الصارفة عن اتباع الرسالة) .

وقال:(7/ 557)

(وأما الثاني فالقلب إذا كان معتقدا صدق الرسول وأنه رسول الله وكان محبا لرسول الله معظما له امتنع مع هذا أن يلعنه ويسبه فلا يتصور ذلك منه إلا مع نوع من الإستخفاف به وبحرمته فعلم بذلك أن مجرد إعتقاد أنه صادق لا يكون إيمانا إلا مع محبته وتعظيمه بالقلب) فحكم بامتناع صدور كفر أكبر ظاهر دون وجود كفر باطن .

فهذا ما يتعلق باختصار بمعتقد الجماعة في الإيمان وقد ذكرت لك مجمله حتي تفهم شرح قوله صلي الله عليه وسلم (علي ما كان من العمل) وكذلك حديث عتبان القادم ، والمسألة مبينة مفصلة – بفضل الله وتوفيقه – بأكثر من ذلك في كتابي (مسألة الإيمان) فراجعه ، لأن المقام هنا مقام اختصار .

3- ولهما في حديث عتبان: "فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله" .

- ليس المراد من الشهادة مجرد قولها باللسان كما سبق مرارا بل المراد قولها واعتقادها والعمل بمقتضاها ، وقد سبق بيان شروطها الثمانية بالأدلة من الكتاب والسنة .

- وقوله يبتغي بذلك وجه الله فيه إشارة لاشتراط العمل بالجوارح المصدق للقول بها ، واشتراط الصدق المنافي للتكذيب والنفاق ، وشرط الإخلاص المنافي للشرك أيضا وسائر شروط الشهادة الثمانية .

- وليس في الحديث أن من قال الشهادة لا يدخل النار أبدا ، بل تحريم التوحيد أهله علي النار نوعان :

الأول : تحريم دخول : وهو في حق من كمل توحيده ولم يكن مصرا علي ذنب ، أو كانت له ذنوب رجحت حسناته بها .

الثاني : تحريم خلود : وهذا لمن مات علي التوحيد وكانت له ذنوب غلبت حسناته فأوجبت دخوله النار .

كما أن إدخال الشرك العبد النار علي نوعين:

إدخال تأميد ثم يخرج منها ، وهذا يقع لمن تلبس بالشرك الأصغر إذا لم يكن له ما يرجح حسناته.

وإدخال تأبيد ، وهذا في حق من تلبس بالشرك الأكبر .

وأحاديث الشفاعة متواترة في دخول عصاة الموحدين النار ممن غلبت سيئاتهم علي حسناتهم ليتطهروا منها ثم يكون مآلهم إلي الجنة .

- وليس في الحديث أيضا أن مجرد قول لا إله إلا الله نافع ولو لم يحقق القائل شرطها من العلم والعمل فهذا محال ،وهو قول المرجئة وهي فرقة من الفرق الضالة المنحرفة عن السنة ، فإن أهل السنة لا ينظرون بعين الأعور إلي النصوص وإنما يجمعون بين الأدلة ويحملون المطلق علي المقيد ويسلكون بطريقتهم خير ملة ، ولا يتبع المتشابه إلا أهل الزيغ

، وقد سبق شرح شروط الشهادة الثمانية بأدلتها من الكتاب والسنة وهي شروط متفق عليها فراجعها .

قلت في كتابي مسألة الإيمان في الرد علي هذه الشبهة ما نصه :

((8)من شبهات المرجئة ايضا التي يستدلون بها علي اخراج العمل من مسمي الايمان ، وحصره في القول او القول والاعتقاد دون عمل ، استدلالهم بأحاديث النبي صلي الله عليه وسلم التي فيها تحريم النار علي من قال لا اله الا الله ، أو غيرها من اعمال البر مثل:

- قوله صلي الله عليه وسلم في الصحيحين من حديث انس رضي الله عنه أن النبي صلي الله عليه وسلم قال لمعاذ : ما من أحد يشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله صدقا من قلبه الا حرمه الله علي النار.

يقولون الايمان الذي به ينجو العبد هو مجرد النطق بالشهادة!!

- وقوله صلي الله عليه وسلم في الصحيحين من حديث عتبان بن مالك الأنصاري ان رسول الله صلي الله عليه وسلم قال (ان الله حرم علي النار من قال لا اله الا الله يبتغي بذلك وجه الله)

-وقوله صلي الله عليه وسلم كما عند البخاري أن النبي صلي الله عليه وسلم قال (من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله علي النار)

و بجمع هذه الأحاديث مع أحاديث الشفاعة وأن قوما تمسهم النار بقدر ذنوبهم ثم يخرجون منها بعد أن صاروا حمما فيهريق عليهم أهل الجنة من ماء الجنة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل ، تعلم الآتي :

أنه لا تعارض بين الأحاديث التي نصت علي تحريم النار علي من أتي ببعض الطاعات ، والأحاديث التي نصت علي خروج عصاة الموحدين من النار بعد أن صاروا فحما.

فللعلماء في ذلك أربعة أقوال:

قال الشيخ حافظ الحكمي في معارج القبول ص 428:

((لا تناقض بين الأحاديث التي فيها تحريم أهل هاتين الشهادتين علي النار وبين الأحاديث التي فيها اخراجهم منها بعد ان صاروا حمما لإمكان الجمع بأن تحريم من يدخلها بذنبه من أهل التوحيد .

1) أو بأن تحريمه عليها يكون بعد خروجه منها برحمة الله ثم بشفاعة الشافعين ثم يغتسلون في نهر الحياة و يدخلون الجنة فحينئذ قد حرموا عليها فلا تمسهم بعد ذلك

2) أو يكون المراد أنهم يحرمون مطلقا علي النار التي أعدت للكافرين التي لا يخرج منها من دخلها وهي ما عدا الطبقة العليا من النار التي يدخلها بعض عصاة اهل التوحيد ممن شاء الله تعالي عقابه وتطهيره بها علي قدر ذنبه ثم يخرجون فلا يبقي فيها أحد)

قال ابن القيم في الوابل الصيب ص26:

(ولما كان الناس ثلاث طبقات طيب لا يشوبه خبث ، وخبث لا طيب فيه ، واخرون فيهم خبث وطيب – كانت دورهم ثلاثة : دار الطيب المحض ، ودار الخبيث المحض –وهاتان الداران لا تفنيان – ودار لمن معه خبث وطيب وهي الدار التي تفني وهي دار العصاة ، فانه لا يبقي في جهنم من عصاة الموحدين أحد فإنهم ان عذبوا بقدر ذنوبهم أخرجوا من النار فأدخلوا الجنة ولا يبقي الا دار الطيب المحض ودار الخبيث المحض)

وفي ذلك ما رواه البزار في مسنده بسند حسن ان النبي صلي الله عليه وسلم قال (من قال لا اله الا الله نفعته يوما من الدهر يصيبه قبل ذلك ما أصابه) انتهي كلام حافظ حكمي وابن القيم .

وخروج عصاة أهل التوحيد من النار هذا مما لا شك فيه لصحة أحاديث الشفاعة في ذلك ، ولم يخالف في ذلك الا الخوارج والمعتزلة ، وأما فناء نار الموحدين فقد ذكر في حديث فيه ضعف عن عمر بن الخطاب انه قال (ان أهل النار لو لبثوا فيها كقدر رمل عالج لكان لهم يوم يخرجون منها ، وليأتين عليهم يوم تصطفق أبوابها ليس فيها أحد)

3) والقول الثالث

أن التحريم انما هو تحريم تأبيد ، بخلاف أهل الكفر فانهم خالدين في النار أبد الآباد.

4) أو يَحرُمون علي النار إذا حافظوا مع ذلك علي باقي شروط النجاة من النار.

9) الشبهة التاسعة من شبهات المرجئة أيضا ليؤيدوا ما هم عليه من الضلال من أن الايمان قول او قول وتصديق دون عمل ، الأحاديث التي صحت عن النبي صلي الله عليه وسلم (من قال لا اله الا الله دخل الجنة) ، وكما في الصحيحين (ان الله تعالي يقول : وعزتي وجلالي لأخرجن من النار من قال لا اله الا الله)

والجواب

من أربعة أوجه:

1) أن لا اله الا الله ضمت اليها شرائط لا تنفع الا بها مجتمعة ، وهذه الشرائط ثابتة بأحاديث كلها صحاح ، فالمراد ان لا اله الا الله سبب لدخول الجنة والنجاة من النار ومقتض لذلك ولكن المقتضي لا يعمل الا باستجماع شروطه وانتفاء موانعه ، وهذا قول الحسن ووهب بن منبه ذكر ذلك حافظ حكمي في المعارج.

قال الحسن للفرزدق وهو يدفن امرأته ما اعددت لهذا اليوم ؟ قال شهادة أن لا اله الا الله منذ سبعين سنة ، فقال الحسن ونعم العدة ، لكن للا إله إلا الله شروطا فإياك وقذف المحصنات.

وقيل للحسن أن ناسا يقولون من قال لا إله إلا الله دخل الجنة فقال : من قال لا إله إلا الله وأدي حقها وفرضها دخل الجنة.

وقال وهب بن منبه بن منبه لمن سأله أليس مفتاح الجنة لا اله الا الله ، قال بلي ، ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان فإن أتيت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح.

وشروط لا اله الا الله ثمانية جمعها الناظم في قوله

علم يقين واخلاص وصدقك ...مع محبة وانقياد والقبول لها

وزيد ثامنها الكفران منك بما ...سوي الإله من الأشياء قد عُبدا

1)الشرط الأول العلم بمعناها والعمل بمقتضاها من اقامة التوحيد ونفي الشرك والبراءة منه وممن عمله.

والدليل قول النبي صلي الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة عند مسلم (من مات وهو يعلم ان لا اله الا الله دخل الجنة)

قال الشيخ سليمان في (تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد)

(أما قول الانسان لا اله الا الله من غير معرفة لمعناها ولا عمل لمقتضاها ، او دعواه أنه من أهل التوحيد ، وهو لا يعرف التوحيد بل ربما يخلص لغير الله من عبادته من الدعاء والخوف والذبح والنذر والتوبة والانابة ، وغير ذلك من انواع العبادات ، فلا يكفي في التوحيد ، بل لا يكون الا مشركا والحالة هذه ، كما هو شأن عباد القبور).

وقال ص48 وما بعدها

(فلا إله إلا الله اشتملت علي نفي وإثبات ، فنفت الإلهية عن كل ما سوي الله تعالي ، فكل ما سواه من الملائكة والأنبياء فضلا عن غيرهم فليس بإله وليس له من العبادة شيء ، إثبات الالهية لله وحده بمعني أن العبد لا يأله غيره ،أي لا يقصده بشيء من التأله وهو تعلق القلب الذي يوجب قصده بشيء من أنواع العبادة ، كالدعاء والذبح والنذر وغير ذلك ، وبالجملة فلا يأله الا الله أي لا يعبد الا هو.

فمن قال هذه الكلمة عارفا لمعناها ، عاملا بمقتضاها ، من نفي الشرك واثبات الوحدانية لله مع الاعتقاد الجازم لما تضمنته من ذلك والعمل به ، فهذا هو المسلم حقا ، فإن عمل به ظاهرا من غير اعتقاد فهو المنافق ، وإن عمل بخلافها من الشرك فهو الكافر ولو قالها ، ألا تري أن المنافقين يعملون بها ظاهرا وهم في الدرك الاسفل من النار واليهود يقولونها وهم علي ما هم عليه من الكفر والشرك فلم تنفعهم وكذلك من ارتدّ عن الإسلام بإنكار شيء من لوازمها وحقوقها فإنها لا تنفعه ولو قالها مئة ألف فكذلك من يقولها ممن يصرف أنواع العبادة لغير الله كعباد القبور والأصنام فلا تنفعهم ولا يدخلون في الحديث الذي جاء في فضلها وما أشبهه من الأحاديث ، وقد بين النبي صلي الله عليه وسلم ذلك بقوله (وحده لا شريك له) تنبيها علي أن الانسان قد يقولها وهو مشرك ، كاليهود والنصاري وعباد القبور ...أما عباد القبور فلم يعرفوا معني هذه الكلمة ولا عرفوا الالهية المنفية عن غير الله الثابتة له وحده لا شريك له بل لم يعرفوا من معناها الا ما أقر به المؤمن والكافر واجتمع عليه الخلق كله ، من أن معناها لا قادر علي الاختراع ، أو أن معني الاله هو الغني عن ما سواه الفقير اليه كل ما عداه ونحو ذلك فهذا حق ، وهو من لوازم الالهية ، ولكن ليس هو المراد بمعني لا اله الا الله فإن هذا القدر قد عرفه الكفار ، وأقروا به ولم يدّعوا في آلهتهم شيئا من ذلك بل يقرون بفقرهم وحاجتهم الي الله وانما كانوا يعبدونهم علي انهم وسائط وشفعاء عند الله في تحصيل المطالب ونجاح المآرب وإلا فقد سلموا الخلق والملك والرزق والاحياء والاماتة ، والأمر كله لله وحده لا شريك له وقد عرفوا معني لا اله الا الله أابوا عن النطق والعمل بها ، فلم ينفعهم توحيد الربوبية مع الشرك في الالهية كما قال تعالي (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون).

وعباد القبور نطقوا بها وجهلوا معناها وأبوا عن الاتيان به ، فصاروا كاليهود الذين يقولونها ولا يعرفون معناها ولا يعملون به ، ولا ريب أنه لو قالها أحد من المشركين ونطق أيضا بشهادة أن محمدا رسول الله ولم يعرف معني الإله ولا معني الرسول وصلي وصام وزكي وحج ولا يدري ما ذلك الا أنه رأي الناس يفعلونه فتابعهم ولم يفعل شيئا من الشرك ، فانه لا يشك أحد في عدم اسلامه ، وقد أفتي بذلك فقهاء المغرب كلهم أول القرن الحادي عشر أو قبله في شخص كان كذلك كما ذكره صاحب الدر الثمين في شرح المرشد المعين من المالكية ، ثم قال شارحه : (وهذا الذي افتوا به جلي غاية الجلاء ، لا يمكن أن

يختلف فيه اثنان) ، ولا ريب أن عباد القبور أشد من هذا لأنهم اعتقدوا الإلهية في أرباب متفرقين .. والنطق بلا إله إلا الله دليل العصمة لا هو العصمة أو يقال هو العصمة لكن بشرط العمل) انتهي كلامه.

وقال تعالي (فاعلم أنه لا اله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم)، أمر بتعلمها قبل الاستغفار اذ الاستغفار لن ينفع الا علي أساس صحيح وهو شرط صحة كل عمل ياتي به العبد ابتغاء وجه الله ألا وهو التوحيد ، وهو معني لا مجرد كلام كما زعمته المرجئة وهو شرط صحة الاعمال وجوهرها وهو الذي لأجله خلق الخلق , وقوله (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون)

وقال الشيخ عبد اللطيف في الدرر(263 / 12)

(وقد غلط كثير من المشركين في هذه الأعصار، وظنوا أن من كفّر من تلفظ بالشهادتين، فهو من الخوارج وليس كذلك، بل التلفظ بالشهادتين لا يكون مانعا من التكفيرإلا لمن عرف معناهما، وعمل بمقتضاهما، وأخلص العبادة لله، ولم يشرك به سواه؛ فهذا تنفعه الشهادتان .

وأما من قالهما ولم يحصل منه انقياد لمقتضاهما، بل أشرك بالله، واتخذ الوسائط والشفعاء من دون الله، وطلب منهم ما لا يقدر عليه إلا الله، وقرب لهم القرابين، وفعل لهم ما يفعله أهل الجاهلية من المشركين، فهذا لا تنفعه الشهادتان بل هو كاذب في شهادته كما قال تعالي : إذا جاءك المنافقون قالوا نشهم إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون " ، ومعني شهادة أن لا إله إلا الله هو عبادة الله وترك عبادة ما سواه ، فمن استكبر عن عبادته ولم يعبده ، فليس ممن يشهد أن لا إله إلا الله ، ومن عبده وعبد معه غيره ، فليس هو ممن يشهد أن لا إله إلا الله).

وسيأتي زيادة تفصيل في مسألة العذر بالجهل.

2)اليقين المنافي للشك

ودليله قول الله عز وجل (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون)

وكما عند البخاري من حديث سلمة رضي الله عنه

(أشهد أن لا اله الا الله وأني رسول الله لا يلقي الله بهما عبد غير شاك فيهما الا دخل الجنة)

وقوله لابي هريرة (من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا اله الا الله مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة)

3) الاخلاص المنافي للشرك

ودليله قول الله تعالي (ألا لله الدين الخالص)

وقول النبي لأبي هريرة رضي الله عنه لما سأله من أسعد الناس بشفاعتك

قال صلي الله عليه وسلم (أسعد الناس بشفاعتي من قال لا اله الا الله خالصا من قلبه)

فمن قالها وهو عاكف القبر يعبد الميت كما هو حال عباد القبور والأوثان فلن تنفعه الشهادة بل قولها منه غير معتبر شرعا.

4) الصدق المنافي للتكذيب

ودليله قول تعالي (فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين)

وقوله صلي الله عليه وسلم (ما من أحد يشهد أن لا اله الا الله صادقا من قلبه الا حرمه الله علي النار)

يقولها مصدقا بها وبحقها صادقا لا منافقا النفاق الاعتقادي الذي سبق الكلام عنه في أسماء الدين واحكامها

5) المحبة المنافية للبغض

المحبة لما تضمنته من الأحكام والشرائع

ودليله (ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم)

6) الانقياد المنافي للترك

ان ينقاد لما دلت عليه من الاحكام والشرائع قولا وعملا.

ودليله قوله تعالي (ومن يسلم وجهه الي الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقي والي الله عقبة الامور)

وقوله صلي الله عليه وسلم (لا يؤمن أحدكم حتي يكون هواه تبعا لما جئت به)

7) القبول المنافي للرد

أن يقبل ما دلت عليه من القول والعمل وأن يعتقد أنه ملتزم بحقها من الأحكام والشرائع ولا يمتنع فان الامتناع مكفر ، وسيأتي في باب الاستحلال الكلام عن هذه المكفرات الجحد والتكذيب والامتناع وغيرها.

وعلي هذا فالانقياد في الظاهر قولا وعملا ، وأما القبول فهو الالتزام اعتقادا وأن لا يمتنع بقلبه

وفي ذلك قال الفوزان لما سئل عن الفرق بين شرط الانقياد والقبول

(السائل كان يسأل عن الفرق بينهما: الانقياد في الظاهر، والقبول في القلب، الانقياد في الظاهر، ينقاد المسلم والكافر، كلهم ينقادون في الظاهر، ولكن القبول هذا لا يكون إلا للمؤمن، المنافق لا يقبل في قلبه، وإن انقاد في قلبه، نعم")

فالمنافق لن ينفعه انقياده ظاهرا حتي يقبل ما دلت عليه بقلبه واعتقاده باطنا، والممتنع لن تنفعه شهادته حتي يقبل كل شريعة واعتقاد ارسل الله عز وجل نبيه صلي الله عليه وسلم بها ولو التزم بكل الشرائع الأخري إنما مثل هذا كمثل اليهود الذين امنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض.

وبهذا تعلم أن من مناطات تكفير تارك العمل بجانب أنه خال من عمل القلب وتقدم تحقيق ذلك في بيان مسألة التلازم ، أنه لم يحقق شرط الانقياد الذي هو شرط لقبول الشهادة من صاحبها.

ومن ادلة ذلك قتال أبي بكر رضي الله عنه لأهل الردة الذين يشهدون أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، فقال له عمر كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلي الله عليه وسلم (أمرت أن أقاتل الناس حتي يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم الا بحقها) قال أبو بكر : إن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها الي رسول الله صلي الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه) حديث متفق عليه.

وقد كفَر مانعو الزكاة لامتناعهم عن أداء الزكاة وردهم لهذه الشعيرة العظيمة، رغم اقرارهم بالشهادتين.

قال أبو عبيد القاسم في هذه الحادثة :

(والمصدق بهذا جهاد ابي بكر الصديق رضي الله عنه بالمهاجرين والأنصار علي منع العرب الزكاة ، كجهاد رسول الله صلي الله عليه وسلم اهل الشرك سواء لا فرق بينهما في سفك الدماء وسبي الذرية واغتنام المال ، فإنهم كانوا مانعين لها غير جاحدين بها)

فبين انهم كفروا بامتناعهم عنها وعدم قبولهم لها رغم اقرارهم بالشهادتين ، ولم تنفعهم لأنهم لم يحققوا شرطا من شروطها الا وهو القبول المانفي للرد ، و ذلك بسبب الامتناع.

8) الكفر بالطاغوت

ودليله قوله تعالي (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقي لا انفصام لها والله سميع عليم)

وقوله (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)

وقوله (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا الي الله لهم البشري فبشر عباد)

وقول النبي صلي الله عليه وسلم

(من قال لا اله الا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه علي الله)

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتاب الوحيد :

(وهذا من أعظم ما ما يبين معني لا إله إلا الله ، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصما للدم والمال ، بل ولا معرفة معناها مع لفظها ، بل ولا الإقرار بذلك كله ، بل ولا كونه لا يدعو الا الله وحده لا شريك له ، بل لا يحرم ماله ودمه حتي يضيف الي ذلك الكفر بما يعبد من دون الله ، فإن شك أوتردد لم يحرم ماله ودمه ، فيا لها من مسألة ما أجلها ويا له من بيان ما أوضحه ، وحجة ما اقطعها للمنازع)

والكفر بالطاغوت ثلاثة أمور:

ان يكفر بالوثن ، وبعبادة الوثن ، وبمن عبد الوثن ويشهد عليهم بالانسلاخ من الملة الحنيفية ودخوله في ملة كفار الجاهلية.

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب

(اعلم – رحمك الله تعالي – أن أول ما فرض الله علي ابن ادم الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ....فأما صفة الكفر بالطاغوت فأن تعتقد بطلان عبادة غير الله تعالي ، وتتركها ، وتبغضها وتُكفّر أهلها وتعاديهم) .

وهذا هو معني لا إله إلا الله فإنها تضمنت نفيا وإثباتا ، فالنبي صلي الله عليه وسلم لما أمر الاقوام بالتوحيد لم يقل لهم قولوا الله إله ، فإن الإثبات المحض لا يمنع المشاركة ، غير أنهم لم يكونوا ملحدين بل كانوا عبادا لله ولكنهم كفروا لما سووا بين الله سبحانه وبين خلقه في العبادات بحجة أنها تقربهم إلي الله بالشفاعة ونحوها ، كما يحصل عند القبور الان من الاستشفاع بالأموات من الأنبياء والأولياء.

بل قال لهم النبي صلي الله عليه وسلم : قولوا لا إله إلا الله ، فتضمنت النفي والإثبات

نفي استحقاق العبادة عن كل ما سوي الله عز وجل سواء كان ملكا مقربا أو نبيا مرسلا ، وأن العبادة باطلة ، وأن من فعل ذلك فقد خرج من الإسلام ، فهذا معني النفي.

والإثبات أن تثبت جميع العبادات – وهي كل ما يحبه الله من الاقوال والأعمال الظاهرة والباطنة – لله وحده ، فهذا الإثبات.

وبعد بيان شروط الشهادة بأدلتها من الكتاب والسنة ، هل يستسيغ احد من المرجئة أن يعتقد أن الايمان انما هو قول أو قول وتصديق دون عمل**!!!**

انما قول الشهادة ينفع صاحبه اذا اعتقد شرائطها وحققها قولا وعملا و يعلم معناها ويعمل بمقتضاها.

وهذا هو الرد الاول علي المرجئة في هذه الشبهة.

2) الرد الثاني لنقض شبهة المرجئة في أحاديث (من قال لا اله الا الله دخل الجنة) علي أن الايمان كلام **!!**، فقالوا كانوا مؤمنين في أول البعثة بمجرد القول

فنقول كان هذا قبل قبل نزول الفرائض والحدود وهذا كلام الزهري وسفيان الثوري وغيرهما.

فان النبي صلي الله عليه وسلم ظل في مكة عشر سنين لا يدعوا فيها الا الي التوحيد ، حتي يستقر في قلوبهم التوحيد الذي هو الاساس الذي تنبني عليه الأعمال فهو جوهرها وشرط صحتها ، والذي بدونه تصير الأعمال هباء لا قيمة لها ، كما قال الله تعالي (ولقد أوحي اليك والي الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) ، وحتي لا تنفر الناس من دين الاسلام فقد كانوا حديثي عهد بجاهلية ، فلما رسخ التوحيد الذي خلقوا لأجله في قلوبهم ،أنزل الله عليه بقية الشرائع ففرضت الصلاة في السنة العاشرة من البعثة ، ثم الصيام والزكاة في السنة الثانية من الهجرة ، ثم الحج في السنة التاسعة من الهجرة.

قال الآجري في الشريعة في باب (الرد علي المرجئة ، باب تفريع معرفة الايمان والاسلام وشرائع الدين)

(اعلموا - رحمنا الله تعالي واياكم – أن الله تعالي بعث نبيه محمدا الي الناس كافة ، ليقروا بتوحيده فيقولوا : لا اله الا الله محمد رسول الله ، فكان من قال هذا موقنا من قلبه ، ناطقا بلسانه أجزأه ، ومن مات علي هذا فالي الجنة ، فلما امنوا بذلك ، وأخلصول توحيدهم ، فرض عليهم الصلاة بمكة ، فصدقوا بذلك وامنوا وصلوا.

ثم فرض عليهم الهجرة فهاجروا وفارقوا الأهل والوطن.

ثم فرض عليهم بالمدينة الصيام فامنوا وصدقوا وصاموا شهر رمضان.

ثم فرض عليهم الجهاد فجاهدوا البعيد والقريب ، وصبروا وصدقوا.

ثم فرض عليهم الحج ، فحجوا وآمنوا به.

فلما آمنوا بهذه الفرائض وعملوا بها تصديقا بقلوبهم ، وقولا بألسنتهم ، وعملا بجوارحهم ، قال الله (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا) ، ثم أعلمهم أنه لا يقبل في الاخرة الا دين الاسلام ، فقال تعالي (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) ، وقال تعالي (إن الدين عند الله الإسلام).

وقال النبي صلي الله عليه وسلم (بني الاسلام علي خمس ، شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلا).

فان احتج محتج بالأحاديث التي رويت (من قال لا اله الا الله دخل الجنة)

قيل له هذه كانت قبل نزول الفرائض ، علي ما تقدم ذكرنا له وهذا قول علماء المسلمين ممن نفعهم الله تعالي بالعلم ، وكانوا أئمة يقتدي بهم ، سوي المرجئة الذين خرجوا من جملة ما عليه الصحابة ، والتابعون لهم باحسان ، وقول الائمة الذين لا يستوحش من ذكرهم في كل بلد) .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلّام

(أقام النبي صلي الله عليه وسلم بمكة بعد النبوة عشر سنين أو بضع عشرة سنة يدعوا الي هذه الشهادة خاصة ، وليس الايمان المفترض علي العباد يومئذ سواها ، فمن أجاب إليها كان مؤمنا ، لا يلزمه اسم في الدين غيره ، وليس يجب عليهم زكاة ولا صيام ، ولا غير ذلك من شرائع الدين ، وانما كان هذا التخفيف عن الناس يومئذ – فيما يرويه العلماء – رحمة من الله بعباده ورفقا بهم ، لأنهم كانوا حديثي عهد بجاهلية وجفائها ، ولو حملهم الفرائض كلها لنفرت منه قلوبهم ، وثقلت علي أبدانهم ،فجعل ذلك الإقرار بالألسن وحدها هو الإيمان المفترض علي الناس يومئذ ، فكانوا علي ذلك اقامتهم بمكة كلها ، وبضعة عشر شهرا بالمدينة وبعد الهجرة.

فلما أثاب الناس الي الإسلام وحسنت فيه رغبتهم ، زادهم الله في إيمانهم أن صرف الصلاة الي الكعبة ، بعد أن كانت الي بيت المقدس ، فقال قد نري تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) ، ثم خاطبهم وهم بالمدينة باسم الايمان المتقدم ....وانما سماهم الله بهذا الاسم بهذا الاقرار وحده

، اذ لم يكن هناك فرض غيره ، فلما نزلت عليهم الشرائع وجبت عليهم وجوب الأول سواء لا فرق بينها ، لأنها جميعا من عند الله ، وبأمره وايجابه.

فلو أنهم عند تحويل القبلة الي الكعبة أبوا أن يصلوا اليها ، وتمسكوا بهذا الايمان الذي لزمهم اسمه ، والقبلة التي كانوا عليها لم يكن ذلك مغنيا عنهم شيئا ، ولكان فيه نقض لاقرارهم لأن الطاعة الأولي ليست بأحق باسم الايمان من الطاعة الثانية ، فلما أجابوا الله ورسوله الي قبول الصلاة كإجابتهم إلي الإقرار صارا جميعا معاً هما يومئذ الايمان ، إذ أضيفت الصلاة الي الإقرار ، فلبثوا بذلك برهة من دهرهم ، فلما أن داروا الي الصلاة مسارعة ، وانشرحت لها صدورهم ، أنزل الله فرض الزكاة في إيمانهم إلي ما قبلها فقال (أقيموا الصلاة واتوا الزكاة) ...فلو أنهم امتنعوا عن الزكاة عند الإقرار وأعطوه ذلك بالألسنة ، وأقاموا الصلاة غير أنهم ممتنعون عن الزكاة كان ذلك مزيلا لما قبله وناقضا للاقرار بالصلاة ....ثم كذلك شرائع الاسلام كلها ، كلما نزلت شريعة صارت مضافة الي ما قبلها لاحقة بها ويشملها جميعا اسم الايمان ، فيقال لأهلها مؤمنون ، وهذا الموضع الذي غلط فيه من قال إن الإيمان قول ، لما سموا تسمية الله إياهم مؤمنين ، أوجبوا لهم الايمان كله بكماله**!!**)

وقال الخلال في السنة (باب ذكر الإيمان كيف كان ؟ والرد علي المرجئة ، لأنه نزلت الفرائض بعد قول لا إله إلا الله)

(عن أبي الحارث قال : سألت أحمد بن محمد بن حنبل قلت : إذا قال الرجل (لا إله إلا الله) فهو مؤمن ؟

قال : كذا كان بدء الإيمان ، ثم أنزلت الفرائض الصلاة ، والزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت)

وقال ابن تيمية(7/ 197) :

(ان قلتم انهم خوطبوا به قبل أن تجب تلك الأعمال ، فقبل وجوبها لم تكن من الايمان ، وكانوا مؤمنين الإيمان الواجب عليهم قبل أن يفرض عليهم ما خوطبوا بفرضه ، فلما نزل إن لم يقروا بوجوبه لم يكونوا مؤمنين .... وكذلك قولهم : من آمن ومات قبل وجوب العمل مات مؤمنا فصحيح لأنه أتي بالايمان الواجب عليه ، والعمل لم يكن وجب عليه بعد ، فهذا مما يجب أن يعرف ، فإنه تزول به شبهة حصلت للطائفتين)

3) الرد الثالث لمن استدل بأحاديث (من قال لا اله الا الله دخل الجنة) علي ان الايمان هو التصديق او تصديق وقول دون عمل

قول ابن خزيمة في كتاب (التوحيد) ، أن هذه الأحاديث لبيان فضيلة هذه الاعمال وأنها من أسباب دخول الجنة ، ولا يراد منها حصر الايمان فيها ، وأن من عملها رجونا له الجنة إن كان ممن انقاد لما دلّت عليه الشهادة وقبلها.

كما قال ابن رجب (في جامع العلوم والحكم) : فهذه الأعمال مقتضية لدخول الجنة ، وقد يكون ارتكاب المحرمات موانع .

قال ابن خزيمة - رحمه الله :-

(معني هذه الأخبار ليس كما يتوهمه المرجئة ، وبيقين يعلم كل عالم من أهل الاسلام أن النبي صلي الله عليه وسلم لم يرد من هذه الأخبار أن من قال لا اله الا الله ، أو زاد مع لا إله إلا الله شهادة أن محمدا رسول الله ، ولم يؤمن بأحد من الانبياء غير محمد ، ولا آمن بشيء من كتاب الله ، ولا بجنة ولا نار ولا بعث ولا حساب ، أنه من أهل الجنة لا يعذب بالنار ، ولئن جاز للمرجئة الاحتجاج بهذه الأخبار ، وان كانت هذه الأخبار ظاهرها خلاف أصلهم ، وخلاف كتاب الله وخلاف سنن النبي صلي الله عليه وسلم ، جاز للجهمية الاحتجاج بأخبار رويت عن النبي صلي الله عليه وسلم ، إذا تؤولت علي ظاهرها ، استحق من يعلم بأن الله ربه ، وأن محمدا - صلي الله عليه وسلم - نبيه الجنة ، وان لم ينطق ذلك بلسانه.

ولا يزال يسمع من اهل الجهل والعناد احتجاجهم بأخبار مختصرة غير مُتقصّاة ، وبأخبار مجملة غير مفسرة ، ولا يفهمون أصول العلم ويستدلون بالمتقصي من الأخبار علي مختصرها وبالمفسر منها علي مجملها ، قد ثبتت الأخبار عن النبي صلي الله عليه وسلم بلفظة ، لو حملت علي ظاهرها كما حملت المرجئة الأخبار التي ذكرنا في شهادة أن لا إله إلا الله علي ظاهرها ، لكان العالم بقلبه أن لا إله إلا الله مستحقا للجنة - وإن لم يقر ذلك بلسانه ، ولا أقر بشيء أمر الله تعالي بالاقرار به ، ولا آمن بقلبه بشيء أمر الله بالايمان به ، ولا عمل بجوارحه شيئا أمر الله به ، ولا انزجر عن شيء حرمه الله ، من سفك دماء المسلمين ، وسبي ذراريهم ، وأخذ أموالهم واستحلال دمائهم فاسمع الخبر الذي ذكرت : أنه غير جائز أن يحمل علي ظاهره ، كما حملت المرجئة الاخبار التي ذكرناها علي ظاهرها).

ثم ذكر أحاديث شروط الشهادة التي سبقت :

ثم قال (لئن جاز للجهمي الاحتجاج بهذه الأخبار أن المرء يستحق الجنة بتصديق القلب بأن لا اله الا الله وبأن الله حق وأن الساعة قائمة وأن الله يبعث من في القبور ، ويترك الاستدلال بما سنبينه بعد ان شاء الله من معني هذه الأخبار لم يؤمَن أن يحتج جاهل لا يعرف الدين ولا أحكام الاسلام بخبر عثمان رضي الله عنه عن النبي صلي الله عليه وسلم

(من علم أن الصلاة عليه حق واجب دخل الجنة) فيدعي أن جميع الإيمان هو العلم بأن الصلاة عليه حق واجب ، وإن لم يقر بلسانه ، مما أمر الله بالاقرار به ، ولا صدق بقلبه بشيء مما أمر الله بالتصديق به ، ولا أطاع في شيء أمر الله به ، ولا انزجر عن شيء حرمه الله ، إذ النبي صلي الله عليه وسلم قد اخبر أن من علم أن الصلاة عليه حق واجب دخل الجنة ، كما أخبر أن من شهد ان لا اله الا الله دخل الجنة !!)

ثم قال (وهذا الجنس من فضائل الاعمال يطول بتقصيه الكتاب ، وفيما ذكرنا غنية وكفاية ، لما له قصدنا ان النبي صلي الله عليه وسلم انما اخبر بفضائل هذه الاعمال التي ذكرناها وما هو مثلها لا أن النبي صلي الله عليه وسلم اراد أن كل عمل ذكره ، أعلم أن عامله يستوجب بفعله الجنة ، أو يعاذ من النار : أنه جميع الايمان ،وليس كذلك ، انما اراد النبي صلي الله عليه وسلم بقوله (من قال لا اله الا الله دخل الجنة) ، أو (حرم علي النار) فضيلة لهذا القول ، لا أنه جميع الايمان ، كما ادعي من لا يفهم العلم ويعاند) انتهي كلامه.

4) الرد الرابع علي استدلال المرجئة بأحاديث (من قال لا إله إلا الله دخل الجنة)

أن المراد سيدخلها مآلا وستكون مصيره إن التزم شروطها ، وإن عُذِّب في الأول ليتطهر من سيئاته التي غلبت حسناته.

وهذا ثابت من أحاديث الشفاعة في إخراج عصاة الموحدين بشفاعة الأنبياء والصديقين والملائكة ممن يشفع لأهل الكبائر الموحدين لإخراجهم من النار.

كما عند البخاري من حديث أنس رضي الله عنه ان النبي صلي الله عليه وسلم قال

(ليصيبن قوما سفعة من النار ، بذنوب عملوها ، ثم يدخلهم الله الجنة ، يقال لهم : الجهنميون)

وكذلك قوله صلي الله عليه وسلم ، من حديث حذيفة رضي الله عنه

(خرج الله من النار قوما منتنين ، قد غشيتهم النار بشفاعة الشافعين فيدخلون الجنة ، فيسمون الجهنميين) .

ومن هذه الأحاديث ، قال أهل السنة أن دخول الجنة منه دخول أولي او مالي ، وكذلك دخول النار –أعاذنا الله منها – منه خلود أبدي أو أمدي ، أبدي لأهل الكفر والنفاق ، وأمدي لأهل التوحيد من العصاة ومن غلبت سيئاته حسناته منهم.

هذه هي طريقة اهل السنة الذين يفسرون المتشابهات بالمحكمات ، ويجمعون بين الأدلة ، ولا ينظرون الي النصوص بعين الهوي وتسويل الشيطان ، والحمد لله الذي هدانا لما اختلف فيه من الحق بإذنه ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) انتهي من كتابي " مسألة الإيمان وما يتعلق بها من أحكام والرد علي المرجئة والخوارج ".

- قال في التيسير :

(حقيقة التوحيد انجذاب الروح إلى الله جملة، فمن شهد أن لا إله إلا الله خالصًا من قلبه، دخل الجنة، لأن الإخلاص هو انجذاب القلب إلى الله تعالى بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحًا، فإذا مات على تلك الحال نال ذلك؛ فإنه قد تواترت الأحاديث بأنه يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، وما يزن خردلة، وما يزن ذرة، وتواترت بأن كثيرا ممن يقول: لا إله إلا الله يدخل النار ثم يخرج منها، وتواترت بأن الله حرم على النار أن تأكل أثر السجود من ابن آدم، **فهؤلاء كانوا يصلون ويسجدون لله، وتواترت بأنه يحرم على النار من قال: لا إله إلا الله، ومن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، لكن جاءت مقيدة بالقيود الثقال - يعني شروطها الثمانية التي تجمعها أران الإيمان التي تقدم بيانها وهي القول والعمل والاعتقاد -** ، وأكثر من يقولها لا يعرف الإخلاص ولا اليقين، ومن لا يعرف ذلك يخشى عليه أن يفتن عنها عند الموت فيحال بينه وبينها، وأكثر من يقولها إنما يقولها تقليدًا أو عادة، ولم يخالط الإيمان بشاشة قلبه، وغالب من يفتن عند الموت وفي القبور أمثال هؤلاء كما في الحديث: - سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته. وغالب أعمال هؤلاء إنما هو تقليد واقتداء بأمثالهم وهم أقرب الناس من قوله تعالى: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ} ١. وحينئذ فلا منافاة بين الأحاديث، فإنه إذا قالها بإخلاص ويقين تام، لم يكن في هذه الحال مصرًا على ذنب أصلاً، فإنه كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء، فإذًا لا يبقى في قلبه إرادة لما حرم الله ولا كراهية لما أمر الله، وهذا هو الذي يحرم من النار، وإن كانت له ذنوب قبل ذلك، فإن هذا الإيمان، وهذه التوبة، وهذا الإخلاص، وهذه المحبة وهذا اليقين، لا يتركون له ذنبًا إلا يُمحى كما يُمحى الليل بالنهار، فإذا قالها على وجه الكمال المانع من الشرك الأكبر والأصغر، فهذا غير مصر على ذنب أصلاً، فيغفر له ويحرم على النار، وإن قالها على وجه خلص به .

على الشرك الأكبر دون الأصغر، ولم يأت بعدها بما يناقض ذلك، فهذه الحسنة لا يقاومها شيء من السيئات، فيرجح بها ميزان الحسنات، كما في حديث البطاقة، فيحرم على النار ولكن تنقص درجته في الجنة بقدر ذنوبه، وهذا بخلاف من رجحت سيئاته على حسناته ومات مصرًا على ذلك، فإنه يستوجب النار، وإن قال: لا إله إلا الله، وخلص بها من الشرك الأكبر، لكنه لم يمت على ذلك، بل أتى بعد ذلك بسيئات رجحت على حسنة توحيده، فإنه في حال قولها كان مخلصًا، لكنه أتى بذنوب أوهنت ذلك التوحيد والإخلاص فأضعفته، وقويت نار الذنوب حتى

أحرقت ذلك، بخلاف المخلص المستيقن، فإن حسناته لا تكون إلا راجحة على سيئاته، ولا يكون مصرًا على سيئة، فإن مات على ذلك دخل الجنة، وإنما يخاف على المخلص أن يأتي بسيئات راجحة يضعف إيمانه، فلا يقولها بإخلاص ويقين مانع من جميع السيئات، ويخشى عليه من الشرك الأكبر والأصغر، فإن سلم من الأكبر بقي معه من الأصغر، فيضيف إلى ذلك سيئات تنضم إلى هذا الشرك، فيرجح جانب السيئات، فإن السيئات تضعف الإيمان واليقين، فيضعف بذلك قول: لا إله إلا الله، فيمتنع الإخلاص في القلب، فيصير المتكلم بها كالهاذي أو النائم، أو من يحسن صوته بآية من القرآن من غير ذوق طعم ولا حلاوة، فهؤلاء لم يقولوها بكمال الصدق واليقين، بل يأتون بعدها بسيئات تنقص ذلك الصدق واليقين، بل يقولونها من غير يقين وصدق، ويموتون على ذلك ولهم سيئات كثيرة تمنعهم من دخول الجنة، وإذا كثرت الذنوب ثقل على اللسان قولها، وقسا القلب عن قولها، وكره العمل الصالح، وثقل عليه سماع القرآن، واستبشر بذكر غيره، واطمأن إلى الباطل واستحلى الرفث ومخالطة أهل الغفلة، وكره مخالطة أهل الحق، فمثل هذا إذا قالها قال بلسانه ما ليس في قلبه، وبفيه ما لا يصدق عمله، كما قال الحسن: ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال، فمن قال خيرا وعمل خيرًا قبل منه، ومن قال شرًا وعمل شرًا لم يقبل منه.

وقال بكر بن عبد الله المزني: ما سبقهم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في قلبه. فمن قال: لا إله إلا الله ولم يقم بموجبها، بل اكتسب مع ذلك ذنوبًا وسيئات، وكان صادقًا في قولها موقنًا بها، لكن ذنوبه أضعاف أضعاف صدقه ويقينه، وانضاف إلى ذلك الشرك الأصغر العملي، رجحت هذه الأشياء على هذه الحسنة، ومات مصرًا على الذنوب، بخلاف من يقولها بيقين وصدق تام، فإنه لا يموت مصرًا على الذنوب، إما أن لا يكون مصرًا على سيئة أصلاً أو يكون توحيده المتضمن لصدقه ويقينه رجح حسناته.

والذين يدخلون النار ممن يقولها قد فاتهم أحد هذين الشرطين: إما أنهم لم يقولوها بالصدق واليقين التامين المنافيين للسيئات، أو لرجحان السيئات، أو قالوها واكتسبوا بعد ذلك سيئات رجحت على حسناتهم، ثم ضعف لذلك صدقهم ويقينهم، ثم لم يقولوها بعد ذلك بصدق ويقين تام، لأن الذنوب قد أضعفت ذلك الصدق واليقين من قلوبهم، فَقَوْلُها من مثل هؤلاء لا يقوى على محو السيئات بل ترجح سيئاتهم على حسناتهم. انتهى ملخصًا.

وقد ذكر معناه غيره كابن القيم، وابن رجب، والمنذري، والقاضي عياض، وغيرهم.

وحاصله: أن لا إله إلا الله سبب لدخول الجنة، والنجاة من النار، ومقتض لذلك، ولكن المقتضي لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه، وانتفاء موانعه، فقد يتخلف عنه مقتضاه لفوات شرط من شروطه، أو لوجود مانع.

ولهذا قيل للحسن إن ناسًا يقولون: من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة، فقال: من قال: لا إله إلا الله فأدى حقها وفرضها دخل الجنة

وقال وهب بن منبه، لمن سأله: أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ قال: بلى، ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح.

ويدل على ذلك أن الله رتب دخول الجنة على الإيمان والأعمال الصالحة، وكذلك النبي صلى الله عليه وسلم كما في "الصحيحين" عن أبي أيوب: "أن رجلاً قال: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة. فقال: "تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم" وفي " المسند " عن بشير بن معبد بن الخصاصية قال: "أتيت النبي صلى الله عليه وسلم لأبايعه، فاشترط علي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن أقيم الصلاة، وأن أوتي الزكاة، وأن أحج حجة الإسلام، وأن أصوم رمضان، وأن أجاهد في سبيل الله. فقلت: يا رسول الله، أما اثنتين، فوالله ما أطيقهما: الجهاد والصدقة، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم يده ثم حركها وقال: "فلا جهاد ولا صدقة، فبم تدخل الجنة إذًا؟**!** "قلت: يا رسول الله أبايعك عليهن كلهن" ففي الحديث: أن الجهاد والصدقة شرط في دخول الجنة مع حصول التوحيد، والصلاة، والحج، والصيام. والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

وفي الحديث دليل على أنه لا يكفي في الإيمان النطق من غير اعتقاد، وبالعكس.

وفيه تحريم النار على أهل التوحيد الكامل، وفيه أن العمل لا ينفع إلا إذا كان خالصًا لله تعالى.

- فإن سألت وكيف يمكن أن يحقق شرط الإخلاص المنافي للشرك بنوعيه ويكون عنده كبائر غلبت كفتها كفة الحسنات يوم القيامة فيستحق دخول النار ، أو بمعنيي آخر كيف يسلم من الشرك بنوعيه مع إصراره علي كبائر، أجبتك بالجواب الآتي في الحديث القادم إن شاء الله لأن نفس السؤال وارد فيه.

4 - وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "قال موسى: يارب علمني شيئًا أذكرك وأدعوك به قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله قال: كل عبادك يقولون هذا. قال: يا موسى لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري، والأرضون السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله" رواه ابن حبان، والحاكم وصححه .

- قال موسي عليه السلام لربه سبحانه علمني شيئا أذكرك وأدعوك به فقال له قل لا إله إلا الله ، مع أنها لم تتضمن دعاء أو طلبا ، وبيان ذلك أن الدعاء نوعان باعتبار تضمنه سؤال جلب النفع و دفع الضر أو عدم تضمنه

فالأول دعاء المسألة وهو أن تدعو الله بأسمائه الحسني وصفاته العلا بما يناسب سؤالك فتقول يا رحيم ارحمني ويا غفور اغفر لي ونحو ذلك من سؤال جلب النفع أو دفع الضر.

والثاني دعاء العبادة وهو نالعبادة نفسها ، أن تدعو الله بمقتضي أسمائه فتعلم أنه شديد العقاب فتأتمر بأمره وتنتهي عما نهاك عنه ، أمرك بالصلاة فتسمع وتطيع فتصلي وهكذا

فدعاء العبادة هو العبادة نفسها لأنك بلسان حالك أو مقالك تدعو الله أن يتقبل منك ويدخلك جنته ويبعدك عن ناره.

ولهذا كان من دعائه عند الكرب ما أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو عند الكرب يقول: لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب السموات والأرض ورب العرش العظيم.

مع أنه ليس فيه طلب ظاهر.

وكذلك ما أخرج أحمد وأبو داود وابن ماجه عن أسماء بنت عميس قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا أعلمك كلمات تقولينهن عند الكرب، أو في الكرب: الله الله ربي لا أشرك به شيئاً.

وهذا أيضا ليس فيه طلب صريح.

ولهذا قال بعض العلماء أن كل واحد من الدعاء والذكر متضمن للآخر وداخل فيه ؛ وعلي هذا إن أريد بالدعاء دعاء العبادة فهو حينئذ مرادف للذكر ، وإذا أريد به دعاء المسألة فيكون حينئذ أخص مطلقا من الذكر ويكون الذكر أعم مطلقا منه لأن الدعاء لا ينفك عن كونه ذكرا وأما الذكر فيكون سؤالا وغير سؤال فتكون العلاقة بينهما التلازم؛ لأن دعاء المسألة ذكر وتضرع وافتقار كما أن في الذكر طلب النفع ودفع الضر وفيه رجاء الثواب وخوف العقاب ، فخلاصة المسألة أن العلاقة بين الدعاء والذكر إما ترادف واتحاد وهذا بين دعاء العبادة والذكر ، وإما عموم وخصوص مطلق وهذا بين دعاء المسألة والذكر ، وإما تلازم ، ولا يمكن تصور انفكاك أحدهما عن الآخر.

- وأعظم الأذكار أجرا علي الإطلاق هو قول لا إله إلا الله ؛ لما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ رواه البخاري (3293) ، ومسلم.(2691)

وقال أيضا صلي الله عليه وسلم كما في الصحيحين :

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَيُّمَا امْرِئٍ مُسْلِمٍ أَعْتَقَ امْرَأً مُسْلِمًا، اسْتَنْقَذَ اللَّهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ)).

فكأن قائل هذا الذكر أُعتق بجسده كله عشر مرات من النار لأن قوله ذلك مئة مرة هو بعدل عشر رقاب ، فالله أكبر.

وأما قول سبحان الله وبحمده مائة مرة لمغفرة الذنوب ولو كانت مثل زبد البحر فهذه مغفرة لا تعادل العتق من النار عشر مرات غير الأجور الأخرى من محو السيئات ورفعة الدرجات.

وكذلك ما في الصحيح من قوله صلي الله عليه وسلم

((وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو علي كل شيء قدير)).

- وهذا الحديث يشبه الحديث المروي عند أحمد والطبراني بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو أن النبي صلي الله قال (إنَّ نَبيَّ اللهِ نوحًا عليه السَّلامُ لمَّا حضَرتْه الوَفاةُ قال لابنِه: إنِّي قاصٌّ عليكَ الوَصيَّةَ، آمُرُكَ باثنتَينِ، وأنهاكَ عن اثنتَينِ، آمُرُكَ بـ: لا إلهَ إلَّا اللهُ؛ فإنَّ السَّمَواتِ السَّبعَ والأَرَضينَ السَّبعَ لو وُضِعتْ في كِفَّةٍ، ووُضِعتْ لا إلهَ إلَّا اللهُ في كِفَّةٍ، رجَحَتْ بهنَّ لا إلهَ إلَّا اللهُ، ولو أنَّ السَّمَواتِ السَّبعَ والأَرَضينَ السَّبعَ كُنَّ حَلقةً مُبهَمةً، قصَمَتْهنَّ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وسُبحانَ اللهِ وبحَمدِه، فإنَّ بها صلاةَ كلِّ شيءٍ، وبها يُرزَقُ الخَلقُ، وأنهاكَ عن الشِّركِ والكِبرِ).

- وهذا الحديث نص في بيان كيفية ذكر الله ، وأما ما يفعله الصوفية من ذكرهم الله سبحانه بقول (الله الله) فالجواب عن ذلك أن هذه الرواية في قول الرسول صلي الله عليه وسلم (لن تقوم الساعة حتي لا يقال في الأرض الله الله) وقعت بالمعني أو اختصارا ، ولهذا جاء في رواية أحمد عن عفان عن حماد عن ثابت عن أنس أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال (لا تقوم الساعة حتي لا يقال لا إله إلا الله) .

ولهذا من القواعد النافعة في الرد علي أهل البدع وإبطال قولهم النظر في الدليل الذي استدل به هؤلاء المبطلون ، فإنه ما استدل مبتدع علي بدعته بدليل إلا وكان في نفس هذا الدليل ما يبطل دعواه لأن أهل البدع ساء قصدهم وعملهم فخفّت عقولهم .

- وحديث موسي دال علي ان الاذكار توقيفية فلا يذكر الله الا بما شرع في كتابه وعلي لسان رسوله خلافا للأوراد الصوفية المبتدعة التي يتبعون فيها غير هدي الرسول صلي الله عليه وسلم ، والواجب إفراد الرسول صلي الله عليه وسلم بالمتابعة كما نفرد الله سبحانه

بالعبادة ؛ فكما أنه لا معبود حق إلا الله فلا متبوع حق إلا محمد عليه الصلاة والسلام ، وقد سبق أن من مقتضيات شهادة أن محمدا رسول الله طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر والانتهاء عما نهي عنه وزجر وألا يعبد الله إلا بما شرع والتحاكم إليه في حياته وإلي سنته بعد مماته.

- وقوله سبحانه (لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري) عامر الشيء هو الساكن فيه لأنه يعمر بوجوده ، فالله عامر السماء وكذلك الملائكة من عمار السماء لكن ليس وجود الله في السماء كوجود الملائكة فإن الله سبحانه ليس كمثله شيء ، والملائكة محتاجون إليها وأما الله سبحانه فهو الغني بذاته عن كل شيء وكل ما سواه فمن مخلوقاته المفتقرة إليه افتقارا ذاتيا فيها ، فالله في السماء أي في العلو ولا يظله شيء ولا يقله ولا يحيط به بل هو المحيط بكل شيء وهو مستو علي عرشه فوق السماء السابعة بائن من خلقه فليس في خلقه شيء منه ولا فيه شيء منهم سبحانه ، هذا معتقد أهل السنة في صفة علو الله في السماء واستوائه عرشه ، ولا نقول أنه ليس فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال كحال الأشاعرة ، ولا نقول أنه ليس في السماء ، ولا أنه في كل مكان والعياذ بالله ، ولا أن كل الأمكنة بالنسبة إليه سواء إلي غير ذلك من مقالات أهل البدع المنكرة ، وإنما هو بذاته مستو علي عرشه فوق السماء السابعة وعلمه في كل مكان ، فليس مختلطا بخلقه سبحانه.

وصفة العلو له سبحانه نوعان : علو صفات وقهر وغلبة ؛ فله من الصفات أكملها لا يشبهه أحد في شيء منها أبدا ، والنوع الثاني علو الذات الذي سبق بيانه أنه بذاته في السماء مستو علي عرشه استواء يليقب ليس مثله استواء ، فنحن علي عقيدتنا التي تقدمت في توحيد الله بأسمائه وصفاته نثبت ما أثبت لنفسه لكن لا نشبه به أحدا ولا نمثل ولا نتكلم في كيفها ولا نحرفها فننفيها.

وعلو الصفات الأول هذا متفق عليه بين أهل السنة وغيرهم ، لكن خالف المبتدعة في علو الذات فنفوه وقالوا المقالات المنكرة السابقة

ونحن نرد عليهم بالدليل ، فأدلة علو الذات ثابتة في الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة السليمة والحس أيضا

فأما الكتاب والسنة فإنهما مملوءان بما هو صريح، أو ظاهر في إثبات علو الله - تعالى - بذاته فوق خلقه.

وقد تنوعت دلالتهما على ذلك:

فتارة بذكر العلو، والفوقية، والاستواء على العرش، وكونه في السماء، مثل قوله تعالى: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} ، {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى} {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ}وقوله {الرَّحْمَنُ عَلَى

الْعَرْشِ اسْتَوَى} {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ} ، وقوله صلّى الله عليه وسلّم: "والعرش فوق ذلك، والله فوق العرش" ، وقوله: "ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء".

وتارة بصعود الأشياء، وعروجها، ورفعها إليه، مثل قوله تعالى: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} ، وقوله تعالى: {تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ} ، وقوله تعالى: {بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ} وقوله صلّى الله عليه وسلّم: "ولا يصعد إلى الله إلا الطيّب"، وقوله صلّى الله عليه وسلّم: "ثم يعرج الذين باتوا فيكم إلى ربهم"، وقوله صلّى الله عليه وسلّم: "يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل" رواه أحمد.

وتارة بنزول الأشياء منه، ونحو ذلك، مثل قوله تعالى: {تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} ، وقوله تعالى: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ} ، وقوله صلّى الله عليه وسلّم: "ينزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر"

إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي تواترت عن النبي صلّى الله عليه وسلّم، في علو الله تعالى على خلقه، تواتراً يوجب علماً ضروريًّا بأن النبي صلّى الله عليه وسلّم قالها عن ربه، وتلقتها أمته عنه.

وأما الإجماع: فقد أجمع الصحابة، والتابعون لهم بإحسان، وأئمة أهل السنة على أن الله تعالى فوق سماواته على عرشه، وكلامهم مملوء بذلك نصًّا وظاهراً. قال الأوزاعي: "كنّا والتابعون متوافرون. نقول: إن الله تعالى ذكره فوق عرشه، ونؤمن بما جاءت به السنة من الصفات". قال الأوزاعي هذا بعد ظهور مذهب جهم النافي لصفات الله وعلوه؛ ليعرف الناس أن مذهب السلف كان يُخالف مذهب جَهْم.

ولم يقل أحد من السلف قطّ: إن الله ليس في السماء، ولا إنه بذاته في كل مكان، ولا إن جميع الأمكنة بالنسبة إليه سواء، ولا إنه لا داخل العالم ولا خارجه، ولا متصل، ولا منفصل، ولا إنه لا تجوز الإشارة الحسية إليه، بل قد أشار إليه أعلم الخلق به في حجة الوداع يوم عرفة في ذلك المجمع العظيم، حينما رفع إصبعه إلى السماء، يقول: "اللهم اشهد"، يُشهد ربه على إقرار أمته بإبلاغه الرسالة، صلوات الله وسلامه عليه.

وأما العقل: فإن كل عقل صريح يدل على وجوب علو الله بذاته فوق خلقه، من وجهين:

الأول - أن العلو صفة كمال، والله تعالى قد وجب له الكمال المطلق من جميع الوجوه، فلزم ثبوت العلو له تبارك وتعالى.

الثاني - أن العلو ضده السفل، والسفل صفة نقص، والله تعالى مُنزّه عن جميع صفات النقص، فلزم تنزيهه عن السفل، وثبوت ضده له، وهو العلو.

وأما الفطرة: فإن الله تعالى فطر الخلق كلهم: العرب، والعجم حتى البهائم على الإيمان به وبعلوّه، فما من عبد يتوجه إلى ربه بدعاء أو عبادة إلا وجد من نفسه ضرورة بطلب العلو، وارتفاع قلبه إلى السماء لا يلتفت إلى غيره يميناً، ولا شمالاً، ولا ينصرف عن مقتضى هذه الفطرة إلا من اجتالته الشياطين والأهواء ، فهذه الأدلة الخمسة كلها تطابقت على إثبات علو الله بذاته فوق خلقه.

فأما قوله تعالى: {وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُم} ، وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ} فليس معناهما أن الله في الأرض كما أنه في السماء، ومن توهّم هذا، أو نقله عن أحد من السلف فهو مخطئ في وهمه، وكاذب في نقله.

وإنما معنى الآية الأولى: أن الله مألوه في السماوات وفي الأرض، كل من فيهما فإنه يتألَّه إليه ويعبده. وقيل معناها: أن الله في السماوات ثم ابتدأ فقال: {وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ} ؛ أي: إن الله يعلم سركم وجهركم في الأرض، فليس علوه فوق السماوات بمانع من علمه سركم وجهركم في الأرض.

وأما الآية الثانية فمعناها: أن الله معبود في السماء أي يعبده أهل السماء ويعبده أهل الأرض لأن الإله هو المعبود كما سبق في مقدمة الكتاب ، فألوهيته وعبوديته ثابتة فيهما، وإن كان هو في السماء؛ ونظير ذلك قول القائل: فلان أمير في مكة، وأمير في المدينة؛ أي: أن إمارته ثابتة في البلدين، وإن كان هو في أحدهما، وهذا تعبير صحيح، لغة وعرفاً .

- والحديث صريح في فضل لا إله إلا الله وأنها لو وضعت في كفة ميزان له كفتان ، ووضع في الكفة الأخرى ذنوب عبد بلغت ثقل السماوات السبع وثقل ما فيها من العباد والملائكة وثقل الأرض لكانت الشهادة لفضلها مائلة بذلك الثقل من الذنوب ، لكن هذا في حق من حقق شروط الشهادة الثمانية المتضمنة للقول والعمل والاعتقاد كما سبق بيانه في حديث عتبان .

5) وللترمذي وحسنه عن أنس: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "قال الله تعالى: يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة"

- والقراب بكسر القاف وضمها والضم أشهر ، والمراد ملؤها أو ما يقارب ملئها أو ثقلها وحجمها ، ومعني الحديث أنه لو أتي العبد بذنوب كعظم وقدر الأرض ولكنه لقي الله لا يشرك به شيئا ، لأتي الله ذلك العبد بمقدار تلك الخطايا مغفرة ؛ وهذا لأجل فضل التوحيد وعظم فضل الله جل وعلا بأن هداهم إليه ثم أثابهم عليه سبحانه واسع لمغفرة **!**

فإن سألت وكيف يمكن أن يحقق شرط الإخلاص المنافي للشرك بنوعيه ويكون عنده كبائر غلبت كفتها كفة الحسنات يوم القيامة فيستحق دخول النار

وإليك جواب هذا السؤال المطروح في آخر شرح حديث عتبان وقد وعدتك بالجواب عليه هنا فالجواب :

أقول لك لا يكاد يكون العبد مدمنا الكبائر ومصرا علي الصغائر ثم يسلم من الشرك بل يكون في قلبه من رجاء غير الله وخوف غير الله والتعلق بغير الله ما هو معدود من شركه الذي حمله عليه ذنبه الذي ركن إليه وتهاون به والتذّ بمواقعته فصار من آثاره سلب التوحيد الكامل وهذا موجب الخوف من الذنوب فإن العبد الموحد التوحيد الحق يخشي من عاقبة أن يتهاون في ذنبه حتي يسلبه توحيده فإن حفظ التوحيد أدني حصونه اجتناب السيئات ،أما الذي يكثر من المعاصي فإنه ربما يحال بينه وبين الشهادة بسبب ذنوبه ، وهذ من نفيس العلم أن تعلم أن تكميل التوحيد أدني حصونه اجتناب السيئات ، ولهذا ذكر ابن القيم في الجواب الكافي نماذج من أناس تهاونوا في ذنوبهم حتي لما ذُكِّر أحدهم بقول الشهادة قال إنها أثقل علي لساني من الجبال الراسيات ؛ لأن ذنوبه قيدت قلبه ، والقلب مغراف اللسان فإن كان القلب أسود ثقل عليه الشهادة ، فإن المعاصي وسيلة للشرك والبدع بريد الكفر ، قال ابن القيم في النونية :

واحذر كمائن نفسك اللاتي متي : خرجت عليك كُسِرتَ كسرمُهان

ولهذا لما قيل لسفيان عند احتضاره تخش ذنوبك قال (والله إنها أهون علي من هذا وأخذ بيده شيئا من الهشيم ، ولكن أخشي أن أُسلبَ التوحيد) ، ولهذا قال ابن تيمية في الإيمان الكبير

(ليس هو ما ظهر من القول والحلية الظاهرة ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال)

وقال بكر بن عبد الله المزني (ما سبقهم أبو بكر بكثرة صلاة ولا كثرة صيام ولكن بشيء وقر في قلبه) وهذا الأثر أخرجه الإمام أحمد بأثر صحيح في فضائل الصحابة ، وذكر ابن رجب في جامع البيان (قال إسماعيل بن علية الذي كان في قلبه الحب لله عز وجل والنصيحة لخلقه)

وهذ من نفيس العلم أن تعلم أن حفظ التوحيد أدني حصونه اجتناب السيئات .

فمن كمل توحيده لا يكاد يقع في محرمات ، وإذا وقع في بعضها سارع بالتوبة ووجد أمر التوبة ميسرا جدا عليه

بل هو نفسه يكره الوقوع في الشهوات والشبهات هو نفسه يبغضها

فيحبب الله إليه الإيمان ويزينه في قلبه ويكره إليه الكفر والفسوق والعصيان فيجعله الله من الراشدين

فالتوحيد أدني حصونه اجتناب السيئات

فالموحد ليس للشيطان عليه سبيل

الطاعات يتلذذ بها والمعاصي بأشكالها يكرهها ويكره ارتكابها بقدر ما يكره أن يحرق بالنار بل أشد

ولهذا الموحد هو أقوي الناس فعلا لا تؤثر عليه شهوة ولا تحيره شبهة ولا يتعلق قلبه بمخلوق

فهو بالله ولله ومع الله

لكن قوة التوحيد وتكميله هذا لا يتأتي إلا بالعلم أعني العلم بالتوحيد وبمسائله ولهذا نشرحه لنفهمه ونعرف كيف نكون من أصحاب التوحيد الكامل

إن استرسل في معصية وأصابه الغرور بتوحيده فلا يكاد يسلم من الشرك

فبقدر قوة توحيدك لا تكاد تعصي ، وبقدر استرسالك في المعاصي ينقص توحيدك من حيث شعرت أو لم تشعر.

قال في ذلك ابن القيم في مدارج السالكين في هذه المسألة الخطيرة ما نصه - معقبا علي حديث المغفرة مع قراب الأرض خطايا: -

((فاعلم أن هذا النفي العام للشرك - أن لا يشرك بالله شيئا البتة - لا يصدر من مصر على معصية أبدا ، ولا يمكن مدمن الكبيرة والمصر على الصغيرة أن يصفو له التوحيد ، حتى لا يشرك بالله شيئا ، هذا من أعظم المحال ، ولا يلتفت إلى جدلي لا حظ له من أعمال القلوب ، بل قلبه كالحجر أو أقسى ، يقول : وما المانع ؟ وما وجه الإحالة ؟ ولو فرض ذلك واقعا لم يلزم منه محال لذاته ! .

فدع هذا القلب المفتون بجدله وجهله ، واعلم أن الإصرار على المعصية يوجب من خوف القلب من غير الله ، ورجائه لغير الله ، وحبه لغير الله ، وذله لغير الله ، وتوكله على غير الله ما يصير به منغمسا في بحار الشرك ، والحاكم في هذا ما يعلمه الإنسان من نفسه ، إن كان له عقل ، فإن ذل المعصية لا بد أن يقوم بالقلب فيورثه خوفا من غير الله ، وذلك شرك ، ويورثه محبة لغير الله ، واستعانة بغيره في الأسباب التي توصله إلى غرضه ، فيكون عمله لا بالله ولا لله ، وهذا حقيقة الشرك.

نعم قد يكون معه توحيد أبي جهل ، وعباد الأصنام ، وهو توحيد الربوبية ، وهو الاعتراف بأنه لا خالق إلا الله ، ولو أنجى هذا التوحيد وحده ، لأنجى عباد الأصنام ، والشأن في توحيد الإلهية الذي هو الفارق بين المشركين والموحدين.

والمقصود أن من لم يشرك بالله شيئا يستحيل أن يلقى الله بقراب الأرض خطايا ، مصرا عليها ، غير تائب منها ، مع كمال توحيده الذي هو غاية الحب والخضوع ، والذل والخوف والرجاء للرب تعالى.

وأما حديث الدواوين فإنما فيه أن حق الرب تعالى لا يئوده أن يهبه ويسقطه ، ولا يحتفل به ويعتني به كحقوق عباده ، وليس معناه : أنه لا يؤاخذ به البتة ، أو أنه كله صغائر ، وإنما معناه أنه يقع فيه من المسامحة والمساهلة والإسقاط والهبة ما لا يقع مثله في حقوق الآدميين) انتهي كلام ابن القيم من المدارج.

وخلاصته أن أحاديث المغفرة بالشهادة مع الإتيان بقراب الأرض خطايا ليس فيها إلا تحقيق لأثر التوحيد في مغفرة الذنوب لا تحقيق الصورة المذكورة فيه لانتفائها شرعا كما قال ابن القيم ، وإنما مراد قوله تعالي لو أتييتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة المراد هو تقريب المعني ، يعني أن ما دام أصل التوحيد موجودا فهو عرضة لأن يغفر الله له ذنبه وإن نقص كمال توحيده ، لكن لا يكون موحدا محققا كمال التوحيد مع كل هذه الذنوب لكن يبقي أصله فيغفر له ذنبه فهذا من بركة التوحيد .

- ومن الأحاديث المبينة أيضا لفضل الشهادة حديث البطاقة

فقد روي الامام احمد وابن ماجة حديث عبد الله بن عمرو: يصاح برجل من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلاً كل سجل مد البصر. ثم يقال: أتنكر من هذا شيئًا؟ فيقول: لا يارب. فيقال: ألك عذر أو حسنة؟ فيهاب الرجل ويقول: لا. فيقال: بلى إن لك عندنا حسنة (وفي رواية صحيحة حسنات)، وإنه لا ظلم عليك اليوم فيخرج له بطاقة ـ وهي الورقة الصغيرة ـ فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. فيقول: يا رب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تظلم. فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة .

لكن ليس في الحديث أن الدين والإيمان والتوحيد يكفي فيهم مجرد قول الشهادة باللسان دون اعتقاد معناها والعمل بمقتضاها ، قلت في كتابي (مسألة الإيمان) عن جواب ذلك :

((وجواب ذلك من وجوه :

1) هذه الشبهة من جنس استدلالهم باحاديث (من قال لا اله الا الله دخل الجنة) ، وتقدم الرد عليها من كلام الاجري والزهري وابن سلام وسفيان الثوري أنها قبل نزول الفرائض .

فليرجع لرد تلك الشبهة .

2) لا يستقيم استدلال المرجئة من هذه الاحاديث علي مذهبهم ووجه ذلك : أن مذهب الارجاء يقول ان من اتي بقول اللسان وقول القلب وعمل القلب لا يخلد في االنار وليس في الحديث الا قول اللسان فقط فمن أين جاء المرجئة بقول القلب وعمل القلب .

سيجيبون قائلين من الادلة الاخري ، فنقول وكذلك الأدلة الأخري والاجماع قائم علي انه لا يصح ايمان إلا بعمل ، فهلا أخذتم بهذ الأدلة الأخري كذلك ..

3) يقال ان هذا الرجل قد اتي بالقول المجرد عن التصديق والاخلاص واليقين ، وهذا باطل اذ هو خلاف المعلوم بالضروة من الدين ووجه البطلان في هذا الاحتمال : ان الله تعالي قبلها ووضعت في الميزان فدل ذلك علي انه قالها باخلاص ويقين وصدق وانقياد والا لم تقبل ، واما أن يكون أتي بالنطق مع الاخلاص والصدق واليقين وهذه كلها من أعمال القلوب وحينئذ يمتنع ان يترك العمل الظاهر كله لثبوت التلازم بين الظاهر والباطن .

4) أن الجزم بأن هذا الرجل لم يأت بصلاة ولا زكاة ولا صيام وحج لا يصح وليس في الحديث ما يصرح بذلك بل في بعض الفاظ الحديث ما يشعر بوجود العمل ففي رواية ابن ماجة بسند صحيح فيقال (بلي ان لك عندنا حسنات) ، وهذه الرواية تشعر بوجود العمل ولكن لعظم جنايات الرجل وكثرة سجلاته وضعف عمله يتهيب أن يجيب ربه بنعم حين يساله (ألك حسنة) فيقول لا يارب.

5) أنه رجل مصلي لم يترك عمل الجوارح بالكلية لكن لعله ممن لم يحسن صلاته ، فلم يذكرها في هذا المقام العظيم حياء من ربه ويدل علي ذلك أمران :

الأول : الروايات الصحيحة التي فيها (ان لك عندنا حسنات)

الثاني: دلت النصوص علي ان ترك الصلاة كفر وأن كلمة الشهادة لا تنفع مع الكفر فلما نفعته كلمة الشهادة دلت علي أنه من أهل الصلاة .

والثالث : انها حالة خاصة بمن قالها عند الموت باخلاص وصدق دون أن يتوب من ذنبه .

وقال ابن تيمية - رحمه الله:-

((ليس كل من تكلم بالشهادتين كان بهذه المثابة، لأن العبد صاحب البطاقة كان في قلبه من التوحيد واليقين والإخلاص ما أوجب أن عظم قدره حتى صار راجحًا على هذه السيئات)).

وقال ابن القيم - رحمه الله - في مدارج السالكين :

((الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب، فتكون صورة العملين واحدة، وبينهما من التفاضل كما بين السماء والأرض) انتهي .

ومعلوم أن كل موحد له هذه البطاقة والكثير منهم يدخل النار بذنوبه، بل اليهود أكثر من يقولونها، والذي يقولها ويخالفها أعظم كفرًا ممن يجحدها أصلاً، فإن الكافر الأصلي أهون كفرًا من المرتد.

3) باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

- مناسبة الباب لما قبله : بعد أن ذكر فضيلة التوحيد وأنه سبب لدخول الجنة ، وأن فواته علي المشركين سبب لتخليدهم في النار ، ذكر هنا فضيلة زائدة للتوحيد وهو أن تحقيقه علي الوجه الأكمل سبب لدخول الجنة بغير حساب ولا عذاب .
- وتحقيق التوحيد يعني تصفيته وتخليصه من الشرك والبدع **والإصرار** علي الذنوب والمعاصي فمن كان كذلك فقد حقق توحيده.

قال في قرة عيون الموحدين :

(وتحقيق التوحيد عزيز في الأمة لا يوجد إلا في أهل الإيمان الخلص الذين أخلصهم الله واصطفاهم من خلقه كما قال تعالى في يوسف عليه السلام: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ} وفي قراءة: المخلِصين " وهم في صدر الأمة كثيرون وفي آخرها هم الغرباء وقد قلوا، وهم الأعظمون قدرا عند الله) **انتهي .**

- **وتحقيق التوحيد الذي جزاؤه دخول الجنة بغير حساب ولا عذاب قدر زائد علي مجرد التوحيد ، ومتعلق هذه المرتبة العليا علي درجتين:**

الأولي : درجة واجبة مدارها علي اجتناب ما حرمه الله من الشرك صغيره وكبيره والبدع و الكبائر والصغائر ، وإن زل في شيء منها سارع بالانسلاخ منها بالتوبة حتي لا يبقي عليه شيء.

الثانية : مدارها علي امتلاء القلب بإجلال الله وتعظيمه وانجذاب الروح إليه انجذابا كليا بالإقبال عليه وحده ، ليس فيه التفات إلي غير الله ، فيكون نطقه لله وفعله وعمله لله ، بل حركة قلبه لله جل وعلا ، ويترك المكروهات بل يترك ما لا بأس به خوفا مما به البأس ، ويتورع صاحبها فيترك ما يخشي ضرره في الآخرة ، فيكون عمره دائرا فيما هو لله وبالله ومع الله، ويكون عمره عامرا بطاعة الله فلا يضيع وقته في المكروهات فضلا عن المباحات ، فالمكروهات وإن لم يؤزر فاعلها إلا أن فعلها يفوت علي العبد أعلي الدرجات ، فانتبه .

وخلاصتها ألا يبقي في قلب العبد شيء لغير الله أصلا .

وعلي هذا يكون تحقيق التوحيد راجعا إلي إقامة الشهادتين ؛ فإن شهادة أن لا إله إلا الله شهادة مقرونة بالعمل بلوازمها ومقتضياتها توجب الإتيان بالتوحيد والبعد عن الشرك بنوعيه ، وشهادة أن محمدا رسول الله والعمل بمقتضاها تنفي البدع والذنوب والمعاصي بأنواعها لأنها توجب تصديق الرسول صلي الله عليه وسلم فيما أخبر وطاعته في أمر والانتهاء عما نهي عنه وزجر وألا يعبد الله إلا بما شرع والتحكم إليه في حياته وإلي سنته بعد مماته .

- قال في التيسير :

((وتحقيق التوحيد: هو معرفته، والاطلاع على حقيقته، والقيام بها علمًا وعملاً، وحقيقة ذلك **هو انجذاب الروح إلى الله** محبة وخوفًا، وإنابة وتوكلاً، ودعاء وإخلاصًا وإجلالاً وهيبة، وتعظيمًا وعبادة. وبالجملة فلا يكون في قلبه شيء لغير الله، ولا إرادة لما حرم الله، ولا كراهة لما أمر الله؟ وذلك هو حقيقة لا إله إلا الله، فإن الإله هو المألوه المعبود.

وما أحسن ما قال ابن القيم:

فلِواحِدٍ كن واحدًا في واحد ... أعني سبيل الحق والإيمان

وذلك هو حقيقة الشهادتين، فمن قام بهما على هذا الوجه فهو من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب)) **انتهي .**

- وقال بعض العلماء بتقسيم الموحدين باعتبار تحقيقهم للتوحيد ألي أربع درجات أوردها لك الآن مرتبة مرتبة من الأعلي إلي الأدني :

الأولي : مرتبة كمال تحقيق التوحيد

وهؤلاء هم الذين أتوا بأصل التوحيد وبكماله ، وبأركان الإيمان التي سبق شرحها وهي قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح ، واجتهدوا لاجتناب جميع المحرمات والمكروهات ، والإتيان بجميع المستحبات قدر الإمكان ، فإن وقع منهم الزلل سارعوا بالتوبة حتي لا يبقي عليهم شيء.

وخلصوا قبل ذلك من الشرك بنوعيه الأصغر والأكبر.

الثانية : مرتبة تحقيق التوحيد

وهم علي الصفة السابقة إلا أنهم ارتكبوا بعض المكروهات

وتركوا بعض المستحبات.

الثالثة : العمل بالتوحيد

وهؤلاء بقي عليهم صغائر وكبائر لم يتوبوا منها لكنهم أتوا اجتنبوا الشرك الأصغر والأكبر ، وقد ذكرنا سابقا كلام ابن القيم في أنه لا يكاد يسلم من الشرك الاصغر مع ثقل ميزانه بالكبائر ، لكن ذكرت أيضا أنه يمكن ذلك إن كان عمله الصالح قليلا بحيث يثقل الميزان ولو بسيئات قليلة بقيت عليه.

الرابعة : العمل بأصل التوحيد باجتناب الشرك الأكبر فقط ، مع التلبس بالاصغر والكبائر.

وأصحاب المرتبة الاولي هم الذين نتكلم عنهم في هذا الباب فيدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب.

وهذا يحتاج إلي مزيد من الصبر والمجاهدة ، والموفق من وفقه الله تعالي .

- قال ابن القيم في مدارج السالكين في تفاوت الموحدين في توحيدهم وأنهم ليسوا علي درجة واحدة في تحقيق التوحيد :

(لا ريب أن أهل التوحيد يتفاوتون في توحيدهم - علما ومعرفة وحالا - تفاوتا لا يحصيه إلا الله ، فأكمل الناس توحيدا : الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، والمرسلون منهم أكمل في ذلك ، وأولو العزم من الرسل أكمل توحيدا ، وهم نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.
وأكملهم توحيدا : الخليلان محمد وإبراهيم صلوات الله وسلامه عليهما ، فإنهما قاما من التوحيد بما لم يقم به غيرهما - علما ومعرفة وحالا ، ودعوة للخلق وجهادا - فلا توحيد أكمل من الذي قامت به الرسل ، ودعوا إليه ، وجاهدوا الأمم عليه ، ولهذا أمر الله سبحانه نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يقتدي بهم فيه ، كما قال سبحانه - بعد ذكر إبراهيم ومناظرته أباه وقومه في بطلان الشرك وصحة التوحيد ، وذكر الأنبياء من ذريته - ثم قال أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده فلا أكمل من توحيد من أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يقتدي بهم.
ولما قاموا بحقيقته - علما وعملا ودعوة وجهادا - جعلهم الله أئمة للخلائق ، يهدون بأمره ، ويدعون إليه ، وجعل الخلائق تبعا لهم ، يأتمون بأمرهم ، وينتهون إلى ما وقفوا بهم عنده ، وخص بالسعادة والفلاح والهدى أتباعهم ، وبالشقاء والضلال مخالفيهم ، وقال لإمامهم وشيخهم إبراهيم خليله إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين أي لا ينال عهدي بالإمامة مشرك ، ولهذا أوصى نبيه محمدا -صلى الله عليه وسلم - أن يتبع ملة إبراهيم ، وكان يعلم أصحابه ، إذا أصبحوا أن يقولوا : " أصبحنا على فطرة الإسلام ، وكلمة الإخلاص ، ودين نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم - ، وملة أبينا إبراهيم ، حنيفا مسلما

، وما كان من المشركين " ، فملة إبراهيم :التوحيد ، ودين محمد :ما جاء به من عند الله قولا وعملا واعتقادا ، وكلمة الإخلاص : هي شهادة أن لا إله إلا الله ، وفطرة الإسلام : هي ما فطر الله عليه عباده من محبته وعبادته وحده لا شريك له ، والاستسلام له عبودية وذلا ، وانقيادا وإنابة.

فهذا هو توحيد خاصة الخاصة الذي من رغب عنه فهو من أسفه السفهاء ، قال تعالى ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين) انتهي كلامه رحمه الله .

وحتي تعلم كفية الوصول لهذه المرتبة السامية مرتبة تحقيق التوحيد اعلم أنه قائم علي عبودية لله سبحانه كما قال ابن القيم في الوابل الصيب، وذكر أن العبودية قائمة علي أصلين : كمال الحب مع كمال الخضوع لله وحده المقرونين بالرجاء والخوف اللذين هما كجناحي الطير في سير العبد لربه جل وعلا ، وهذا قائم علي مشاهدة منة الله علي العبد مع مطالعة عيب النفس والعمل ، وهذه هي منزلة الإحسان والمحاسبة ، فقيام العبد بالتوحيد من باب التحلية ، والتوبة من الوقوع في الزلل من باب التخلية

وقال (فمن أراد الله به خيراً فتح له باب الذل والانكسار، ودوام اللجأ إلى الله تعالى والافتقار إليه، ورؤية عيوب نفسه وجهلها وعدوانها، ومشاهدة فضل ربه وإحسانه ورحمته وجوده وبره وغناه وحمده.

فالعارف سائر إلى الله تعالى بين هذين الجناحين، لا يمكنه أن يسير إلا بهما، فمتى فاته واحد منهما فهو كالطير الذي فقد أحد جناحيه.

قال شيخ الإسلام :العارف يسير إلى الله بين مشاهدة المنة ومطالعة عيب النفس والعمل.

وهذا معنى قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصحيح من حديث بريدة رضي الله تعالى عنه : سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء بنعمتك علي وأبوء بذنبي، فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فجمع في قوله صلي الله عليه وسلم أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي مشاهدة المنة ومطالعة عيب النفس والعمل.

فمشاهدة المنة توجب له المحبة والحمد والشكر لولي النعم والإحسان، ومطالعة عيب النفس والعمل توجب له الذل والانكسار والافتقار والتوبة في كل وقت، وأن لا يرى نفسه إلا مفلساً، وأقرب باب دخل منه العبد على الله تعالى هو الإفلاس فلا يرى لنفسه حالاً ولا مقاماً ولا سبباً يتعلق به ولا وسيلة منه يمن بها، بل يدخل على الله تعالى من باب الافتقار الصرف، والافلاس المحض، دخول من كسر الفقر والمسكنة قلبه حتى وصلت تلك الكسرة إلى سويدائه فانصدع وشملته الكسرة من كل جهاته، وشهد ضرورته إلى ربه عز وجل، وكمال فاقته وفقره إليه،

وأن في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة، وضرورة كاملة إلى ربه تبارك وتعالى، وأنه إن تخلى عنه طرفة عين هلك وخسر خسارة لا تجبر، إلا أن يعود الله تعالى عليه ويتداركه برحمته.

ولا طريق إلى الله أقرب من العبودية، ولا حجاب أغلظ من الدعوى.

والعبودية مدارها على قاعدتين هما أصلها :حب كامل، وذل تام.

ومنشأ هذين الأصلين عن ذينك الأصلي المتقدمين وهما مشاهدة المنة التي تورث المحبة، ومطالعة عيب النفس والعمل التي تورث الذل التام، وإذا كان العبد قد بنى سلوكه إلى الله تعالى على هذين الأصلين لم يظفر عدوه به إلا على غره وغيلة، وما أسرع ما ينعشه الله عز وجل ويجبره ويتداركه برحمته) انتهي ، مع التحفظ علي لفظ الذل الذي ذكرنا سابقا أن الأصح منه لفظ الخضوع كما سبق بيانه في باب وجوب الوحيد .

وذكر في المدارج كيفية تحقيق ذلك بعشرة أمور :

((فصل في الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها وهي عشرة:

1- قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به، كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه، ليتفهم مراد صاحبه منه.

2- التقرب الى الله بالنوافل بعد الفرائض فإنها توصله الى درجة المحبوبية بعد المحبة.

3- دوام ذكر الله على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

4- إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى، والتسنم إلى محابه وإن صعب المرتقى.

5- مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها، وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومباديها، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله احبه لا محالة، ولهذا كانت المعطلة والفرعونية والجهمية قطاع الطريق على القلوب بينها وبين الوصول الى المحبوب.

6- مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة فإنها داعية الى محبته.

7- وهو من أعجبها، انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى، وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الاسماء والعبارات.

8- الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

9- مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط اطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى اطايب الثمر، ولا تتكلم الا اذا ترجحت مصلحة الكلام وعلمت ان فيه مزيدا لحالك ومنفعة لغيرك.

10- مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عزّ وجلّ.

١ - وقول الله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} وقال: {وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ}) انتهي.

- قال الطبري:

(يقول تعالى ذكره: إن إبراهيم خليل الله كان مُعَلِّم خَيْر، يأتمّ به أهل الهدى قانتا، يقول: مطيعًا لله حنيفا: يقول: مستقيما على دين الإسلام ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يقول: ولم يك يُشرك بالله شيئا، فيكون من أولياء أهل الشرك به، وهذا إعلام من الله تعالى أهلَ الشرك به من قريش أن إبراهيم منهم بريء وأنهم منه برآء ، ﴿شَاكِرًا لأنْعُمِهِ﴾ يقول: كان يخلص الشكر لله فيما أنعم عليه، ولا يجعل معه في شكره في نعمه عليه شريكا من الآلهة والأنداد وغير ذلك، كما يفعل مشركو قريش ﴿اجْتَبَاهُ﴾ يقول: اصطفاه واختاره لخُلته ﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يقول: وأرشده إلى الطريق المستقيم، وذلك دين الإسلام لا اليهودية ولا النصرانية) .

- فالأمة هو مُعلِّم الناس الخير ، القدوة المُقتدَي به.

قال العصيمي في شرح فتح المجيد :

(الأمة يفارق الإمام من وجهين : أن الإمام اسم لكل من يؤتم به سواء كان في الخير أو الشر ، وسواء كان بقصده أم بغير قصد كما في قوله تعالي عن فرعون وجنوده : وجعلناهم أئمة يدعون إلي النار ويوم القيامة لا ينصرون .

وأما الأمة فهو من جمع صفات الكمال والفضل ولا يشترط وجود ذلك المعني في الإمام ، وإذا كمَّل العبد مرتبة الصبر واليقين حصلت له الإمامة في الدين ؛ لأن الصبر يدفع عنه غائلة الشهوات ، واليقين يدفع غائلة الشبهات ، فإذا تنزه القلب عنهما كان من القلب السليم أي سالم من كل شهوة وشبهة كما قال تعالي - في السجدة - (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) .

قال سفيان بن عيينة : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

وفي تفسيرٍ آخر لكون إبراهيم أمة أنه لم يكن أحد علي الإسلام غيره ، وجاء عن مجاهد أن أبراهيم كان أمة لأن إبراهيم كان مسلما وحده وكان غيره من الكفار ، ويصدقه ما رواه

الشيخان عن أبي هريرة أن إبراهيم قال لزوجته سارة (ليس علي وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك) .

والقنوت دوام الطاعة ، قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة " تفسر بأشياء ترجع إلي دوام الطاعة " وله ١٤ معني نظمها العراقي في شرح الترمذي وزاد عليها بعدها ابن طيب الفاسي

قال العراقي :

ولفظُ القُنوتِ اعدُد مَعانيَهُ تَجِد

مزيداً على عَشرٍ معانِيَ مرضيَه

دعاءٌ خشوعٌ والعبادةُ طاعةُ

إقامتها إقرارهُ بالعبوديه

سكوتٌ صلاةٌ والقيامُ وطولُهُ

كذاكَ دوامُ الطاعةِ الرابحُ النِيه

ذكرها في شرح الترمذي ، ونقله عنه تلميذه ابن حجر في الفتح.

وزاد الفاسي قائلا:

دوامٌ لحجِّ طولُ غَزوٍ تواضُعٌ

إلى اللهِ خُذها ستّةً وثمانيَه

نقلها عنه تلميذه الزبيدي في التاج.

والحنيف المقبل علي الله المعرض عن كل ما سواه ، فحقيقة الحنيفية ترجع إلي الإقبال لا الميل ، يقال أحنف القدمين إذا أقبلت إحداهما إلي الأخري ، فيكون الإقبال هو حقيقة الوضع اللغوي للحنيف والميل لازمه ، ذكره ابن القيم في المفتاح.

والكلمة العربية تفسر بما وضعت له في كلام العرب لا بلازمها ؛ لأن أفراد اللوازم لا تتناهي لأنها متعددة بخلاف أصل الكلمة عندهم فإنها ترجع إلي معني أو معنيين وترد إلي هذا المعني سائر تصرفاتها.

والحنيفية في الشرع لها معنيان : أحدهما عام وهو دين الإسلام ، والثاني خاص وهو الإقبال علي الله والتوحيد ، ولازمه الميل عن الشرك.

ومن اللطائف في التصرفات القرآنية أن الحنيف ذكر في القران لفظا منصوبا ، فلم يأت فيه بالكسر ولا الرفع ، فجاء منصوبا حنيفا علي الإغراء به أي حث النفوس علي الاتصاف به لأن عُظمَ باب النصب هو المفعولية فتقديره : الزموا الحنيفية.

وقال تأكيدا علي تحقيقه التوحيد وما كان من المشركين ، وحذف المفعول به للعموم أي لم يشرك به شيئا)) انتهي كلام العصيمي.

- وقال تعالي:

(قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ)

في التفسير الميسر:

(قد كانت لكم -أيها المؤمنون- قدوة حسنة في إبراهيم عليه السلام والذين معه من المؤمنين، حين قالوا لقومهم الكافرين بالله: إنا بريئون منكم وممّا تعبدون من دون الله من الآلهة والأنداد، كفرنا بكم، وأنكرنا ما أنتم عليه من الكفر، وظهر بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدًا ما دمتم على كفركم، حتى تؤمنوا بالله وحده، لكن لا يدخل في الاقتداء استغفار إبراهيم لأبيه؛ فإن ذلك إنما كان قبل أن يتبين لإبراهيم أن أباه عدو لله، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه، ربنا عليك اعتمدنا، وإليك رجعنا بالتوبة، وإليك المرجع يوم القيامة) انتهي.

وقال الطبري :

((يقول تعالى ذكره للمؤمنين به من أصحاب رسول الله ﷺ: قد كان لكم أيها المؤمنون أُسوة حسنة: يقول: قدوة حسنة في إبراهيم خليل الرحمن، تقتدون به، والذين معه من أنبياء الله ، يقول: حين قالوا لقومهم الذين كفروا بالله، وعبدوا الطاغوت: أيها القوم إنا برآء منكم، ومن الذين تعبدون من دون الله من الآلهة والأنداد.

وقوله: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾

((يقول جلّ ثناؤه مخبرا عن قيل أنبيائه لقومهم الكفرة: كفرنا بكم، أنكرنا ما كنتم عليه من الكفر بالله وجحدنا عبادتكم ما تعبدون من دون الله أن تكون حقًّا، وظهر بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدًا على كفركم بالله، وعبادتكم ما سواه، ولا صلح بيننا ولا هوادة، حتى تؤمنوا بالله وحده، يقول: حتى تصدّقوا بالله وحده، فتوحدوه، وتفردوه بالعبادة)) .انتهي.

وقال عبد الرحمن بن حسن في الفتح :

((فهذا هو تحقيق التوحيد وهو البراءة من الشرك وأهله ، واعتزالهم ، والكفر بهم وعداوتهم وبغضهم والله المستعان)) .انتهي.

قال العصيمي (لأن الركون إليهم يجر إلي الكون معهم فإن من وافق المشركين أوشك أن يكون معهم علي الشرك لذلك شرعت الهجرة لئلا يكون منهم ، قلت :ولو في ظاهر الحال .

- قال ابن كثير: (({وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ} **أي لا يعبدون مع الله غيره،** بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحد صمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا وأنه لا نظير له)) انتهي .

ففسرها بإقامة التوحيد بأقسامه الثلاثة.

٢- عن حصين بن عبد الرحمن قال: " كنت عند سعيد بن جبير فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقضَّ البارحة؟ فقلت: أنا، ثم قلت: أما إني لم أكن في صلاة، ولكني لدغت، قال: فما صنعت؟ قلت: ارتقيت، قال: فما حملك على ذلك؟ قلت: حديث حدثناه الشعبي، قال: وما حدثكم؟ قلت حدثنا عن بريدة بن الخصيب أنه قال: **"**لا رقية إلا من عين أو حمة**"**، قال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **"**عُرِضت عليّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد. إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب. ثم نهض فدخل منْزله، فخاض الناس في أولئك؛ فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئا، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه، فقال: هم الذين لا يَسْتَرقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون. فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: أنت منهم. ثم قام جل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: سبقك بها عكاشة. متفق عليه واللفظ لمسلم .

- حصين بن عبد الرحمن وسعيد بن جبير تابعيان ومن علماء الحديث ، فكان حصين عند سعيد فسأل سعيد أيهم رأي الكوكب الذي انقض أي سقط البارحة وهي أقرب ليلة مضت ، فأجاب حصين بأنه رآه ثم خشي من أن يظن أنه كان يقيم الليل ،وكان سلفنا الصالحون من أبعد الناس عن الرياء وحب الظهور ، وأحرصهم علي البعد عن حب المحمدة فكره حصين أن يُحمد بما ليس فيه فقال أنه لم يكن في صلاة خلافا لكثير من المغرورين المراءين الذين يعملون الأعمال

متطلعين إلي مدح الناس وثنائهم وهذا من الشرك الأصغر المحبط للعمل الذي خالطه ، فما كان أحرصه علي الإخلاص ! رحمه الله.

- وحقيقة الإخلاص هو التصفية تصفية العمل من شوائب الشرك الأكبر والأصغر ، فيجعل العبد عمله لله وحده ابتداء فيتوجه به إليه دون غيره و لا يصرفه لغيره حتي يَخلُص من الشرك الأكبر الذي حقيقته صرف العبادة لغير الله ، فإذا خلص من الشرك الأكبر ، جاهد ثانيا لئلا يخالطه شرك أصغر كالرياء فلا يريد من وراء عمله الذي صرفه لله سبحانه جزاء ولا شكورا ولا شيئا من أمور الدنيا.

فأوصي نفسي وإياكم بالإخلاص العمل لله وحده سبحانه وتعالي .

وقد علمنا مرارا وتكرارا أن الإخلاص هو تصفية العمل من شوائب الشرك الأصغر والأكبر

فالإخلاص هو التصفية ، وإن كان الناس الآن يريدون بالإخلاص الإتقان فيقولون الإخلاص في العمل أي الاتقان في عملك دون تقصير ، فهل هذا المعني صحيح ؟

نقول لا ، ليس بصحيح ؛ فإتقان العمل شيء ، وإخلاصه لله شيء آخر زائد عليه.

ولهذا ذكرنا إن الاجتهاد في العبادة لا يدخل صاحبه الاسلام حتي تكون عباداته كلها قولا وعملا بلا استثناء لله وحده لا لأحد معه.

وحتي يتبرأ من الشرك وأهله ، فالدين كفر بالطاغوت وإيمان بالله.

وهذا المعني أيضا كرَّرناه كثيرا.

وكثير من العلماء يعرفون الإخلاص من جهة أخري وهو من أجود ما عرفوا به الإخلاص وإن كان متناولا لجانب واحد من الشرك وهو الأصغر ، فيقولون

(الإخلاص هو أنك إذا نزع من قلوب الناس كل مقام هو لك لم يؤثر ذلك فيك شيئا ولو شعرة ! لا بإقبال ولا بإدبار بل تمضي في طريقك كأن الناس من أهل القبور).

ثم قال حصين ولكني لدغت ، واللدغ هو قرصة ذوات السموم كالعقرب والثعبان ونحوها ، فسأله سعيد وما صنعت ، فقال حصين ارتقيت وفي رواية استرقيت ، وارتقي واسترقي علي وزن افتعل واستفعل تأتيأن بمعني طلب الشيء من غيرك ، وهنا معناه أنه طلب الرقيا من غيره فلم يرق نفسه بنفسه ، وسواء كان ذلك بالسؤال أو أن يُفعل به باختياره ، فسأله سعيد مستنكرا ومستفهما وما حملك علي هذا ؟ أي لم طلبتها من غيرك ، وهذا من حسن الخلق لأنه لم يبادره بالإنكار بل سأله ليعلم ما عنده من علم قد يؤيد فعله ، فقال حصين حديث حدثناه الشعبي لا رقية إلا من عين أو حمة - بضم الحاء وفتح الميم مخففة أو مشددة - وهي أيضا اللدغ ، والعين هي إصابة العائن أخاه بعينه التي أعجبت بشيء في يد أخيه ولم يدع له بالبركة

وهي سبب لكثير من الشرور بل قال الرسول صلي الله عليه وسلم " الْعَيْنُ حَقٌّ ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ " ومعناه كما قال القرطبي في المفهوم شرح مسلم " هذا تحقيق لإصابة العين ، ومبالغة فيه تجري مجرى التمثيل ، لا أنه يمكن أن يرد القدر شيء ، فإن القدر عبارة عن سابق علم الله تعالى ونفوذ مشيئته ، ولا راد لأمره ، ولا معقب لحكمه ، وإنما هذا خرج مخرج قولهم : لأطلبنك ولو تحت الثرى . أو : لو صعدت إلى السماء ، ونحوه مما يجري هذا المجرى ، وهو كثير " ، وقال ابن عبد البر في التمهيد:

"وفي قوله صلى الله عليه وسلم : (لو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين) دليل على أن المرء لا يصيبه إلا ما قدر له ، وأن العين لا تسبق القدر ، ولكنها من القدر"

وورد عنه صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي صححه الألباني أنه قال: (العين تدخل الرجل القبر ، وتدخل الجمل القدر) ، أي تقتله فيدفن في القبر ، وتدخل الجمل القدر أي ينحره صاحبه فيأكله.

وقد جاء في القرآن الكريم ما يشير إلى تأثير العين ، فقال تعالى: وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ.

قال ابن كثير:

"أَيْ: لَيَعِينُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ، بِمَعْنَى: يَحْسُدُونَكَ؛ لِبُغْضِهِمْ إِيَّاكَ، لَوْلَا وِقَايَةُ اللَّهِ لَكَ، وَحِمَايَتُهُ إِيَّاكَ مِنْهُمْ ،وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ: دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْعَيْنَ إِصَابَتُهَا وَتَأْثِيرُهَا حَقٌّ، بِأَمْرِ اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا وَرَدَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الْمَرْوِيَّةُ مِنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ كَثِيرَةٍ" انتهى من "تفسيره. "

وقال أيضا صلي الله عليه وسلم :

((علام يقتل أحدكم أخاه ، وإذا رأى شيئا منه يعجبه ، فليدع له بالبركة)) ، وفي صحيح النسائي : كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ يتعوَّذُ من عينِ الجانِّ ، وعينِ الإنسِ ، فلما نزلتِ المُعوِّذتانِ ، أخذ بهما ، وترك ما سوى ذلك.

وهذه هي الطرق المسنونة لدفع العين أو الحسد فالتبريك لدفعهما قبل النزول ، والرقَي لرفعهما إذا نزلا.

والحسد له ثلاث تعريفات باعتبار دوافعه: الأول : كراهية كون النعمة مع أحد من الناس ، الثاني : تمني زوالها عن فلان ، الثالث : أن ينظر إلي فلان وما فيه من خير فيحب أن يكون مثله أو أحسن منه ، وهذا شر من النوعين السابقين لأنه جمع بين العين والنظر فيما عند الناس ومحبة أن يسبقهم فيه ويتأخروا هم عنه ، وإنما الواجب أن يحب أن يكون من السباقين إلي الخيرات دون النظر لما في أيدي الناس.

قال ابن تيمية في المجموع :

((والتحقيق أن الحسد هو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود وهو نوعان : (أحدهما كراهة للنعمة عليه مطلقا فهذا هو الحسد المذموم وإذا أبغض ذلك فإنه يتألم ويتأذى بوجود ما يبغضه فيكون ذلك مرضا في قلبه ، ويلتذ بزوال النعمة عنه وإن لم يحصل له نفع بزوالها ، لكن نفعه زوال الألم الذي كان في نفسه ولكن ذلك الألم لم يزل إلا بمباشرة منه وهو راحة ، وأشده كالمريض الذي عولج بما يسكن وجعه والمرض باق ، فإنّ بغضه لنعمة الله على عبده مرض فإن تلك النعمة قد تعود على المحسود وأعظم منها وقد يحصل نظير تلك النعمة لنظير ذلك المحسود . والحاسد ليس له غرض في شيء معين ; لكن نفسه تكره ما أنعم به على النوع ، ولهذا قال من قال : إنه تمني زوال النعمة فإن من كره النعمة على غيره تمنى زوالها بقلبه.

و (النوع الثاني : أن يكره فضل ذلك الشخص عليه فيحب أن يكون مثله أو أفضل منه فهذا حسد وهو الذي سموه الغبطة وقد سماه النبي صلى الله عليه وسلم حسدا في الحديث المتفق عليه من حديث ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : { لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها ورجل آتاه الله مالا وسلطه على هلكته في الحق } هذا لفظ ابن مسعود.

ولفظ ابن عمر { رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار ورجل آتاه الله مالا فهو ينفق منه في الحق آناء الليل والنهار } رواه البخاري من حديث أبي هريرة ولفظه : { لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه الليل والنهار فسمعه رجل فقال : يا ليتني أوتيت مثل ما أوتي هذا ، فعملت فيه مثل ما يعمل هذا ورجل آتاه الله مالا فهو يهلكه في الحق فقال رجل : يا ليتني أوتيت مثل ما أوتي هذا فعملت فيه مثل ما يعمل هذا } فهذا الحسد الذي نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم إلا في موضعين هو الذي سماه أولئك الغبطة وهو أن يحب مثل حال الغير ويكره أن يفضل عليه، **فإن قيل : إذا لم سمي حسدا وإنما أحب أن ينعم الله عليه ؟**

قيل مبدأ هذا الحب هو نظره إلى إنعامه على الغير وكراهته أن يتفضل عليه ولولا وجود ذلك الغير لم يحب ذلك فلما كان مبدأ ذلك كراهته أن يتفضل عليه الغير كان حسدا ؛ لأنه كراهة تتبعها محبة وأما من أحب أن ينعم الله عليه مع عدم التفاته إلى أحوال الناس فهذا ليس عنده من الحسد شيء ، ولهذا يبتلى غالب الناس بهذا القسم الثاني وقد تسمى المنافسة فيتنافس الاثنان في الأمر المحبوب المطلوب كلاهما يطلب أن يأخذه وذلك لكراهية أحدهما أن يتفضل عليه الآخر كما يكره المستبقان كل منهما أن يسبقه الآخر والتنافس ليس مذموما مطلقا بل هو محمود في الخير ، قال تعالي وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ، فأمر المنافس أن ينافس في هذا النعيم لا ينافس في نعيم الزائل وهذا موافق لحديث النبي صلى الله عليه وسلم فإنه نهى عن الحسد إلا فيمن أوتي العلم فهو يعمل به ويعلمه ومن أوتي المال فهو ينفقه فأما من أوتي علما

ولم يعمل به ولم يعلمه أو أوتي مالا ولم ينفقه في طاعة الله فهذا لا يحسد ولا يتمنى مثل حاله فإنه ليس في خير يرغب فيه بل هو معرض للعذاب ومن ولي ولاية فيأتيها بعلم وعدل أدى الأمانات إلى أهلها وحكم بين الناس بالكتاب والسنة فهذا درجته عظيمة ; لكن هذا في جهاد عظيم كذلك المجاهد في سبيل الله . والنفوس لا تحسد من هو في تعب عظيم فلهذا لم يذكره وإن كان المجاهد في سبيل الله أفضل من الذي ينفق المال ، بخلاف المنفق والمعلم فإن هذين ليس لهم في العادة عدو من خارج فإن قدر أنهما لهما عدو يجاهدانه ، فذلك أفضل لدرجتهما وكذلك لم يذكر النبي صلى الله عليه وسلم المصلي والصائم والحاج ، لأن هذه الأعمال لا يحصل منها في العادة من نفع الناس الذي يعظمون به الشخص ويسودونه ما يحصل بالتعليم والإنفاق . والحسد في الأصل إنما يقع لما يحصل للغير من السؤدد والرياسة وإلا فالعامل لا يحسد في العادة ولو كان تنعمه بالأكل والشرب والنكاح أكثر من غيره بخلاف هذين النوعين فإنهما يحسدان كثيرا ولهذا يوجد بين أهل ، العلم الذين لهم أتباع من الحسد ما لا يوجد فيمن ليس كذلك وكذلك فيمن له أتباع بسبب إنفاق ماله فهذا ينفع الناس بقوت القلوب وهذا ينفعهم بقوت الأبدان والناس كلهم محتاجون إلى ما يصلحهم من هذا وهذا) **انتهي كلامه**.

والفرق بين العين والحسد أن الحسد في القلب وأما العين فبالنظر ، والحسد قد يكون مع النظر وقد يكون بمجرد العلم بالنعمة مع غيره وإن لم يرها ؛ نعوذ بالله من مرضي القلوب .

والحديث الذي ذكره حصين ، ليس معناه أن الرقيا لا تسن أولا تجوز إلا في حالتي العين والحمة وإنما هذا حصر إضافي كما هو مقرر في علوم البلاغة والمقصود أن الرقيا أنفع ما تكون في هاتين الحالتين مع استحبابها في جميع الأحوال غير هاتين الحالتين ، و ليس في الحديث أيضا ما ذهب إليه حصين من طلب الرقيا من غيرك ، لكنه ظن ذلك ، فسأله سعيد ليري ما مستنده ، فلما ذكره قال سعيد قد أحسن من انتهي إلي ما سمع يعني من بلغه علم فأتبعه بعمل فهو محسن لأن العلم العمل ، فعلم لا عمل معه ليس بنافع وعمل لا علم معه ليس بنافع بل هو ضار بصاحبه ولو كان ينفع علم بلا عمل لما ذم الله أحبار أهل الكتاب ، وقديما قال سلفنا هتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل .

قال في التيسير ((أي: من أخذ بما بلغه من العلم وعمل به فقد أحسن، لأنه أدى ما وجب وعمل بما بلغه من العلم، بخلاف من يعمل بجهل أو لا يعمل بما يعلم فإنه مسيء آثم وفيه فضيلة علم السلف وحسن أدبهم وهديهم وتلطفهم في تبليغ العلم، وإرشادهم من أخذ بشيء - إن كان مشروعًا - إلى ما هو أفضل منه، وأن من عمل بما بلغه عن الله وعن رسوله فقد أحسن، ولا يتوقف العمل به على معرفة كلام أهل المذاهب أو غيرهم)) انتهي.

فقال سعيد لكن حدثنا بريدة بن الحصيب وذكر الحديث وهوحديث صحيح أيضا.

وعرض الأمم علي النبي صلي الله عليه وسلم هو عرض عليه كحالهم يوم القيامة ، وقيل كان هذا العرض في الإسراء ولم يحدث أصحابه بذلك ، فلما كان في المدينة رأي العرض في المنام ثم عرض عليه مناما بعد ذلك فأخبرهم به ، وهذا جمعا بين الأحاديث الواردة في ذلك ،والأسلم التوقف في ذلك ما قال بعض العلماء لعدم ورود الدليل الصريح فيه .

فرأي صلي الله عليه وسلم النبي ومع الرهط وهو العدد من ثلاثة إلي تسعة ، والنبي ومع الواحد والاثنان والنبي وليس معه أحد وهذا صريح في أن العبرة ليست بالكثرة بل العبرة باتباع الحق ولو كنت وحدك كما كان إبراهيم وسارة وحدهما علي التوحيد ، وأن الكثرة لم تذكر في القران إلا ذما كما قال تعالي (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) وقال أيضا (وإن كثيرا من الناس لفاسقون) وقال تعالي عن الصالحين (وقليل ما هم) ، وقال صلي الله عليه وسلم (بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبي للغرباء)

وفي هذا تنبيه لئلا تستوحش من قلة السالكين ، وهذه مسألة مهمة ، يجب ألا يتساهل بها الإنسان، كونه يرى أكثر الناس على عمل من الأعمال فيقتدي بكثرة الناس، فهذا يخشي عليه، يقول كيف لا أفعل شيئاً يفعله الناس؟! فأصبحت حجة، وهذه الحجة توارثها العالم كله من أوله إلى آخره، كما قالت الأمم لرسلها: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ} ، وفرعون يقول لموسى: {فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى} يعني: لماذا عملت الشيء الذي تنهانا أنت عنه، وقد كانت مشركة فما بالها؟ فإذا قال له: إنهم ضالون قال: كيف يضلون وتبقى أنت وحدك؟! فيصعب على الكثير من الناس اتباع الحق؛ لأن تابعه قليل، فهذا الذي يشير إليه ما ذكره الله جل وعلا عن الخليل: {رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ} ، فالناس ينظرون إلى الكثرة غالباً ويتبعونها، وما يميزون بين هذا الأمر وذاك ، كما هو فعل أهل الحق، ولهذا يقول العلماء: لا تستوحش من الحق لقلة السالكين، ولا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين .

قال في قرة عيون الموحدين :

((وفيه دليل على أن الناجي من الأمم هم القليل – قديما وحديثا - ، والأكثر غلبت عليهم الطباع البشرية، فعصوا الرسل فهلكوا كما قال تعالى: {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} ٤ وقال: {وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لفاسقيين } وقال: {قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ} وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير. والناجون - وإن كانوا أقل القليل - فهم السواد الأعظم، فإنهم الأعظمون قدرا عند الله وإن قلوا فليحذر المسلم أن يغتر بالكثرة، وقد اغتر بهم كثيرون، حتى

بعض من يدعي العلم اعتقدوا في دينهم ما يعتقده الجهال الضلال، ولم يلتفتوا إلى ما قاله الله ورسوله)انتهي .

قال ابن القيم في المدارج:

(وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحاق بهم، وغَضّ الطرف عمن سواهم، فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك فلا تلتفت إليهم، فإنك متى التفت إليهم أخذوك وأعاقوك) انتهي كلامه.

ثم رفع للنبي صلي الله عليه وسلم سواد عظيم أي أعداد كبيرة من بني آدم لأن الإنسان من بعيد يسمي في اللغة سوادا ، فظن أنهم أمته فقيل هذا موسي وقومه ، وهذا يدل علي أن أمة موسي كثيرة العدد ففي ذلك فضيلة لأصحاب موسي ، ثم نظر فإذا سواد أعظم من السواد الأول كما في بعض الروايات فأمة محمد صلي الله عليه وسلم هي أكثر الأمم ، وفي رواية قيل انظر إلي الأفق فإذا سواد قد ملأ الأفق فقيل هذه أمتك و(معهم) سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، ولم يقل و (منهم) ، وفي رواية البخاري (ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفا)

ففي رواية مسلم (سواد عظيم) وفي البخاري (سواد ملأ الأفق ومعهم سبعون) فهل السبعون ألفا كانوا غائبين حتي يقال ومعهم أم كانوا منهم كما في الرواية ؟

الجواب ما جاء تصريحا عند البخاري (فنظرت فإذا سواد كثير قال هؤلاء أمتك وهؤلاء سبعون ألفا قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب) فالسبعون ألفا كانوا قدام السواد أي أمامهم.

وهؤلاء السبعون لا يحاسبون لا بعرض ولا بنقاش ، ومن لا يحاسب لا يعذب ، ولا عذاب عليهم أيضا لا في القبر ولا في العرض ولا يدخلون النار ، حتي المرور علي جسر الصراط الذي قال الله سبحانه فيه (وإن منكم إلا واردها) يكون مرور رحمة وسلامة لا مرور عذاب ، فلا تتخطفهم النار ولا كلاليبها التي هي مثل شوك السعيدان كما أخبر الرسول صلي الله عليه وسلم.

ثم نهض رسول الله صلي الله عليه وسلم أي قام فدخل منزله ولم يكن قد بين لهم صفات هؤلاء السبعين ولا عقيدتهم ، والصحابة لشدة حرصهم علي الخير والسبق خاضوا في صفات هؤلاء السبعين فقالوا لعلهم الذين صحبوا رسول الله صلي الله عليه وسلم وهذا لعظم مقام صحبة الرسول صلي الله عليهم الذي قال فيه (لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه) فعظم مقام الصحبة بعظم مقام المصحوب صلي الله عليه وسلم وصحابة الرسول صلي الله عليه وسلم أفضل من حواريي عيسي وأصحاب أي نبي آخر ، والصحابة رضي الله عنهم أفضل الخلق بعد الأنبياء والرسل.

وقال بعضهم لعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئا.

وهذا يبين لك عمق علم الصحابة رضي الله عنهم بمعرفتهم أنهم لن ينالوا ذلك إلا بعمل ، وقد تقدم معنا أن الإيمان لا بد فيه من عمل وليس أي عمل بل العمل الذي يختص بإيجابه محمد صلي الله عليه سلم وهي أركان الإسلام وأولها الصلاة فهي التي يكفر العبد بتركها فبين الرجل وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة كما أخبر صلي الله عليه وسلم .

فخرج إليهم الرسول صلي الله عليه وسلم فقال هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلي ربهم يتوكلون.

- وقبل بيان صفات هؤلاء السبعين وعقيدتهم التي بلغتهم هذه المرتبة العلية اعلم أولا أن الموحدين ليسوا علي درجة واحدة في تحقيق التوحيد بل هم متفاوتون علي أربعة درجات باعتبار قوة تحقيقهم للتوحيد وضعفه

- فالدرجة الأولي هم هؤلاء السبعون وهؤلاء لا يقع منهم شرك أكبر ولا أصغر ولا كبائر ولا صغائر وإن تلبسوا بشيء منها سارعوا بالانخلاع منها بالتوبة فهم أهل مرتبة الإحسان والمراقبة فيعبدون الله كأنهم يرونه فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم.

-الثانية : المتلبسون بالصغائر دون توبة.

-الثالثة : المتلبسون بالكبائر.

-الرابعة : المتلبسون بالشرك الأصغر.

وأهل المرتبة الأولي فقط هم من يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب.

وصفات هؤلاء السبعين و عقيدتهم هي أنهم حققوا التوحيد ، وقد تقدم أول هذا الباب كيفية تحقيقه علي مرتبتين.

تجمعهم فيها ثلاثة أمور :

أولا أنهم لا يعلقون قلوبهم بمخلوق كائنا من كان وما كان ، ولا يعتمدون علي الأسباب أشد من اعتمادهم علي الله ، فهم في جميع أحوالهم قلوبهم ممتلئة بالتوكل والاعتماد علي الله وحده..

وثانيا أنهم مستغنون عن الناس فلا يسألون الناس شيئا .

وقد كان مما أخذ عليه رسولنا صلي الله عليه وسلم البيعة من أصحابه رضي الله عنهم ما ذكرفي حديث عوف بن مالك الأشجعي كما عند مسلم قال :((كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة ، فقال: ألا تبايعون رسول الله؟ ، وكنا حديث عهد ببيعة ، فقلنا : قد بايعناك يا رسول الله ، ثم قال : ألا تبايعون رسول الله ؟، فقلنا : قد بايعناك يا رسول الله ، ثم قال:

ألا تبايعون رسول الله؟ ، قال : فبسطنا أيدينا وقلنا : قد بايعناك يا رسول الله فعلام نبايعك؟ قال: على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، والصلوات الخمس ، وتطيعوا وأسر كلمة خفية : **ولا تسألوا الناس شيئاً** ، فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه)) .

وظاهر هذا الحديث أنه عام في كل مسؤول ، لأن قوله صلى الله عليه وسلم : (شيئا) غير محدد ولا مخصص ، بل هو نكرة ، ومن المقرر في علم الأصول : أن النكرة في سياق النهي تفيد العموم.

وما روى أبو ذر كما عند البخاري عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال (مَنْ يَكْفُلُ لِي أَنْ لَا يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا وَأَتَكَفَّلُ لَهُ بِالْجَنَّةِ).

وقد أثني الله في كتابه علي أبي بكر الصديق رضي الله عنه في سورة الليل بقوله (وما لأحد عنده من نعمة تجزي إلا ابتغاء وجه ربه الأعلي) حتي يخلو قلبه من كل منة إلا لله وحده فلا تتزاحم في قلبه حقوق الله وحقوق العباد بل ليس لأحد عنده من نعمة تحتاج جزاء إلا عبادة الله وحده لا شريك له.

وفي عيون الأخبار ("دخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم، فقال له: أتيتك في حاجةٍ رفعتها إلى الله قبلك، فإن تقضها حمدنا الله وشكرناك، وإن لم تقضها حمدنا الله وعذرناك، فأمر له بحاجته") ، فإن اضطررت لسؤال الناس شيئا من الأشياء فالجأ إلي الله أولا سبحانه .

ويستثني من ذلك ما كان من سؤال الدين فهذا لا حرج فيه مطلقا لأمر الله عز وجل به في عدة آيات منها قوله تعالي " فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) ، وإنما المراد السؤال في أمور الدنيا المقرون باستعطاف وتذلل فهذا هو المذموم المخرج من هذه الطائفة ، وصورة الاستعطاف والتذلل أن يشعر السائل أنه أقل من المسؤول ، وأما ما لم يكن كذلك كأن يكون مثله أو أعلي منه بحيث لا يستعطف المسؤول ولا يسأله بذل أو يكون المسؤول الوالدين فاستعطافهما وخفض الجناح والذل لهما واجب شرعي فالسؤال في هذه الصور لا بأس به ولا يخرج من السبعين ألفا إلا سؤالهما الرقية فهذا مكروه مطلقا كما تقدم لا سيما والمريض حال مرضه يتشبث بما هو أهون من خيط العنكبوت ، وسواء كانت الرقية بعوض أو كانت مجانا فطلبها مطلقا قادح في التوكل لعموم الحديث .

وثالثا : لا يأخذون بالأسباب المكروهة مع شدة الحاجة إليها ، وإنما يقدح في التوكل أحد أمرين :مباشرة الأسباب المكروهة لأن كمال التوحيد يقتضي إسقاطها ، أو رفع السبب فوق القدر المأذون فيه شرعا وهو الاطمئنان والاستبشار به فقط والمراد بالاطمئنان سكون القلب لا كمال ركونه بحيث يكون اعتماده وتشبثه بالسبب أشد من اعتماده وتوكله علي خالقه وخالق السبب والواجب أن يكون دائما مستحضرا أن الأمركله لله أولا وآخرا إن شاء الله أنفذه وجعل له تاثيرا

وإن شاء عطله ،علي أنه سيأتي معنا قول آخر فسر به الحديث وهو ترك الأسباب المكروهة إلا إذا اشتدت الحاجة فأخذها حينئذ جائز وليس من ضعف التوكل ولا يخرج صاحبه من السبعين ألفا ، ومن أمثلة الركون للسبب الذي يؤدي إليه وهن التوكل في القلب التعلق بالدواء ونحوه مع نسيان سؤال الله الشفاء ، وعدم التأكيد علي أنه مجرد سبب إن شاء الله أمضاه وإن شاء حبسه عنك ، ومن الأمثلة أيضا من جنس ذلك تعلق القلوب في الأرزاق بما يعلق علي الوظائف لأن هذا من ضعف التوكل فيقولون إن تركت هذا العمل فلن تجد عملا !! وهذا يخبرك بلطف التوحيد وسموه وأنك محتاج إلي دوام التفقه فيه .

والأصل الجامع الذي تفرعت عنه هذه الأمورالثلاثة هو التوكل .

قال في التيسير :

((الأصل الجامع الذي تفرعت عنه هذه الأفعال هو التوكل على الله، وصدق الالتجاء إليه، والاعتماد بالقلب عليه الذي هو خلاصة التفريد، ونهاية تحقيق التوحيد الذي يثمر كل مقام شريف من المحبة والخوف والرجاء، والرضى به ربًا وإلهًا، والرضى بقضائه، بل ربما أوصل العبد إلى التلذذ بالبلاء، وعده من النعماء، فسبحان من يتفضل على من يشاء بما يشاء، {وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ})) .انتهي

ومن ذلك أنهم لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلي ربهم يتوكلون ، أما الطيرة فمن الشرك كما سيأتي في بابها ، وأما الاكتواء والاسترقاء فمكروهان.

والأمر لا يقتصر علي هذه الثلاثة ، بل هذا ما مثل به الرسول صلي الله عليه وسلم ، والمراد من اجتمع فيهم العقيدة السابقة مع تحقيق التوحيد بدرجتيه علي المعني الذي سبق.

فأولا : أنهم لا يسترقون أي لا يطلبون الرقية من غيرهم بل يرقون أنفسهم بأنفسهم متوكلين علي الله سائلين القبول .

وأما أن يرقيك أحد دون سؤال ، أو ترقي أنت غيرك دون أن يسألك فقد قال صلى الله عليه وسلم ـ وقد سئل عن الرقى ـ : "من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه" فالراقي محسن إلي أخيه مأجور علي فعله .

وقال أيضا : "لا بأس بالرقى ما لم تكن شركًا" وأيضا فقد "رقى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم " كما عند مسلم ، "ورقى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه"ولا يجوز أن يقال إنه عليه الصلاة والسلام لم يكن متوكلا في تلك الحال!

فالفرق بين الراقي والمسترقي حتي يكون الأول مستحبا مأجورا عليه والثاني مكروها منقصا لكمال التوحيد، أن المسترقي سائل مستعط ملتفت إلى غير الله بقلبه وكفي بذلك قدحا في التوحيد

، وأما الراقي فمحسن، وإنما المراد وصف السبعين ألفًا بتمام التوكل فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم ولا يكويهم ولا يتطيرون، فلا يقاس من سأل وطلب علي من لم يسأل.

وثانيا أنهم لا يكتوون ، وذلك لأن الكي وإن كان علاجا إلي يومنا هذا إلا أنه لما ثبتت كراهته شرعا تركوه توكلا علي الله استسلاما للقضاء وتلذذا بالبلاء ، ولم يتركوه إلا لأنه مكروه ، لا لعدم مباشرة الأسباب ولا لكراهة التداوي ، كلا

قال في التيسير:

((واعلم أن الحديث لا يدل على أنهم لا يباشرون الأسباب أصلاً كما يظنه الجهلة، فإن مباشرة الأسباب في الجملة أمر فطري ضروري لا انفكاك لأحد عنه حتى الحيوان البهيم، بل نفس التوكل مباشرة لأعظم الأسباب كما قال تعالى: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} ، أي: كافيه إنما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم إليها توكلاً على الله، كالاسترقاء والاكتواء فتركهم له ليس لكونه سببا لكن لكونه سببا مكروهًا، لاسيما والمريض ـ يتشبث بما يظنه سببًا لشفائه ـ بخيط العنكبوت أما نفس مباشرة الأسباب، والتداوي على وجه لا كراهية فيه، فغير قادح في التوكل، فلا يكون تركه مشروعًا؟ في " الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعًا: "ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء. "

وعن أسامة بن شريك قال: "كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم وجاءت الأعراب، فقالوا يا رسول الله! أنتداوى؟ فقال: نعم يا عباد الله تَدَاوَوا، فإن الله عز وجل لم يضع داءً إلا وضع له شفاء، غير داء واحد قالوا: ما هو؟ قال: الهرم". رواه أحمد.

قال ابن القيم: فقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات، وإبطال قول من أنكرها والأمر بالتداوي، وأنه لا ينافي التوكل، كما لا ينافيه دفع داء الجوع والعطشى والحر والبرد بأضدادها، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدرًا وشرعًا، وأن تعطيلها يقدح بمباشرته في نفس التوكل، كما يقدح في الأمر والحكمة، ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى من التوكل، فإن تركها عجز ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه. ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب، وإلا كان معطلاً للأمر والحكمة والشرع، فلا يجعل العبد عجزه توكلاً ولا توكله عجزًا)) **انتهي من التيسير.**

قال ابن عثيمين في الشرح الممتع عن حكم التداوي وذكر له ثلاثة أحوال :

١ -أن ما عُلم، أو غلب على الظن نفعه مع احتمال الهلاك بعدمه، فهو واجب.

٢ ـ أن ما غلب على الظن نفعه، ولكن ليس هناك هلاك محقق بتركه فهو أفضل.

٣ ـ أن ما تساوى فيه الأمران فتركه أفضل؛ لئلا يلقي الإنسان بنفسه إلى التهلكة من حيث لا يشعر)انتهي .

فالتداوي لا يطلق القول في حكمه بالوجوب ولا الاستحباب ولا الكراهة ، بل بحسب القرائن ، والوسائل لها أحكام المقاصد كما هو مقرر أصوليا ؛ فتارة يكون واجبا وذلك إذا أشرف العبد علي الهلكة والموت أو التقصير في القيام بالواجبات علي الصفة المأمور به شرعا مع معرفة دوائه ، وتارة يكون مستحبا وذلك في حالة أن يكون الداء متعبا للعبد لكن لا يعيقه عن القيام بالواجبات بل عن الكمال المستحب لها فقط ، وتارة يكون التداوي مباحا إذا لم يكن المرض متعبا للعبد عن كمال أداء واجبه وإنما هو مجرد ألم .

قال ابن القيم عن حكم الكي :

((فقد تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع.

أحدها: فعله -لما وروى الترمذي وغيره عن أنس: "أن النبي صلى الله عليه وسلم كوى أسعد بن زرارة من الشوكة وفي " الصحيح " عن جابر بن عبد الله: "أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث إلي أبي بن كعب طبيبًا، فقطع له عرقًا وكواه" . وفي " صحيح البخاري " عن أنس: "أنه كوي من ذات الجنب والنبي صلى الله عليه وسلم حي. "

والثاني: عدم محبته له ـ للحديث "وما أحب أن أكتوي-"

والثالث: الثناء على من تركه ودليله حديث عمران الذي معنا.

والرابع: النهي عنه ـ لما في " صحيح البخاري "عن ابن عباس مرفوعًا: "الشفاء في ثلاث: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار وأنا أنهى عن الكي. ـ "

ولا تعارض بينها بحمد الله، فإن فعله له يدل على جوازه، وعدم محبته له لا يدل على المنع منه. وأما الثناء على تاركيه، فيدل على أن تركه أولى وأفضل، وأما النهي عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهية)) **انتهي.**

- والمراد بلا يكتوون ترك الكي مطلقا سواء طلبه ، أو كوي نفسه بنفسه ويدل علي ذلك ما بوب به البخاري بقوله (باب من اكتوي أو كوي غيره وفضل من لم يكتو) فقوله باب من اكتوي شامل لمن كوي نفسه بنفسه و من طلب من يكويه ، ولم نخص الاكتواء بما خصصنا به الاسترقاء والارتقاء بالطلب من غيرك لأن صيغة افتعل لا تأتي في جميع أحوالها بمعني استفعل وهو الطلب من آخر بل تشمل الفعل بنفسك والطلب من غيرك أيضا ، وإنما تأتي افتعل بمعني الطلب من غيرك إذا وجدت قرينة ، وقد وجدت القرينة

في ارتقي واسترقي وهو عموم النصوص باستحباب الرقي ولهذا أنكر سعيد علي عمران فعله حيث طلب الرقية من غيره ، وأما الاكتواء الذي هو علي وزن افتعل فيظل علي عموم معناه الشامل للكي بنفسك أوطلبه من آخر غير أن الأحاديث الأخري جاءت بالنهي عنه عموما ، فصار من صفات هؤلاء السبعين ترك العلاج بالكي مطلقا لأنه مكروه توكلا علي الله فهذا ما رفع درجاتهم عند ربهم ، وأما الاسترقاء فذكرنا أن المراد عدم سؤال الخلق شيئا، والحمد لله رب العالمين .

وقد اختلف العلماء في تفسير ترك الكي والاسترقاء علي عدة أقوال أقواها اثنان متقابلان فقيل يتركون الأخذ بالأسباب المكروهة مع شدة الحاجة إليها ، وقيل يتركون الأسباب المكروهة إلا إذا اشتدت الحاجة وهذا أقوي الأقوال ويؤيده حديث أسماء بنت عميس عند الترمذي وغيره بسند صححه الألباني لما قالت للنبي صلي الله عليه وسلم إن أولاد جعفر تسرع إليهم العين أفأسترقي لهم فقال نعم .

فائدة:

يستوي في الكراهة طلب الاسترقاء لنفسك أو لغيرك لوجود نفس علة الكراهة وهي التفات القلب لغير الله والتعلق بالمخلوق مما هو مسبب عن ضعف التوكل ، وقيل لا يستويان ، وقيل بالتفصيل إن كان سائل الرقية لغيره له فيه حظ كأن يكون هو متألما لمرض فلان فيطلب من يرقيه فيكون مكروها كما لو طلبها لنفسه ، وإن كان غير ذلك كأن يكون سؤاله الرقية لنفع فلان المريض حتي يقوي علي نشر العلم كما كان في حال صحته ونحو ذلك فيجوز علي هذا القول الثالث بالتفصيل .

- ثم قام عكاشة بن محصن فقال يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال أنت منهم ، وهذا علم من أعلام النبوة لأن عكاشة عاش موحدا ومات شهيدا ، فإن قيل كيف علم الرسول صلي الله عليه وسلم أنه منهم قلنا ما ينطق عن الهوي إن هو إلا وحي يوحي ، وفي رواية عند البخاري اللهم اجعله منهم .

ثم قام رجل آخر فسأل نفس سؤال عكاشة فقال له الرسول صلي الله عليه وسلم سبقك بها عكاشة وهذا من حسن خلقه صلي الله عليه وسلم فإنه لم ينف أنه منهم ولم يثبت لكن أجاب بجواب حسن حتي لا يفتح الباب لمن ليس أهلا لذلك ، وقد أخطأ من قال لأنه كان منافقا لأن الأصل أن الصحابة كلهم عدول غير أنه يبعد أن يصدق الرجل بحديث النبي صلي الله عليه وسلم ثم يسأل هذا السؤال الصريح في رغبته الصادقة أن يكون من هؤلاء الكمل ، وهذا الجواب من النبي صلي الله عليه وسلم فيه جواز استعمال المعاريض وهي أن تعبر عن المقصود بلفظ قد يفهم منه شيء آخر وقد صح عن عمر رضي الله عنه أنه قال (إن في

المعاريض كفاية للمسلم عن الكذب) ، وصح في الأدب المفرد عن عمران بن حصين (في المعاريض مندوحة عن الكذب) لكن بشرط ألا يضيع بها حق لأحد .

قال العصيمي في شرح فتح المجيد :

((وفي سؤال عكاشة بذلك جواز طلب الدعاء من فاضل ، والأكمل تركه فلم يكن الصحابة يفعلونه ، وإنما يسوغ علي وجه الندرة من رجل صالح ، أما أن يكون شعارا يلهج به كل واحد من الخلق مع غيرهم قائلين لا تنسنا من دعائك فهذا لم يرد عن السلف كما صح عن إبراهيم النخعي أنه قال (ولم يكونوا إذا قاموا من مجلسهم يقولون ادع لنا ادع لنا) يريد بقوله لم يكووا أصحابَ ابن مسعود لأنه تلميذه ، وقال رجل لعمر ادع لي فقال : أنحن أنبياء ، وقال رجل لطاووس بن كيسان ادع لي ، فقال له : ادع من يجيب المضطر إذا دعاه ، وإذا سألك غيرك فإن كمال السؤال إن تريد بذلك نفعه – يعني نفع لمسؤول – فيكون من كمال تعلقه بالله ، كما قال الرسول صلي الله عليه وسلم " ثم سلوا الله لي الوسيلة افمن سال الله لي الوسيلة حلت له شفاعتي) انتهي .

- وليس سؤال عكاشة النبي صلي الله عليه وسلم أن يدعو له من السؤال المرجوح ولا ينافي قوله صلي الله عليه وسلم لا يسترقون من عدم سؤال الناس لأن المسؤول هو الرسول صلي الله عليه وسلم والأصل في دعوته الإجابة صلي الله عليه وسلم ، وإن أمكن أن يرد كما هو متقرر في مواضع.

وليس غيرالنبي صلي الله عليه وسلم مثله في الاستعطاف لطلب الدعاء وإنما يطلب منه هو لأنه نبي رسول ، ولهذا لم يرد أن أحدا سأل أبا بكر وعمر وعثمان وعليا الدعاء مع كونهم من سادات الأولياء ، ومن ذلك سؤال أم سليم النبي صلي الله عليه وسلم ليدعو لابنها أنس ، وسؤال المرأة التي كانت تصرع لئلا تتكشف وغير ذلك من الأمثلة ، وأما ما ورد في سؤال الدعاء من آخر كقصة أويس القرني وكقول النبي صلي الله عليه وسلم لعمر لا تنسنا من صالح دعائك فهذا علي وجه الندرة وليس النبي محتاجا لدعاء عمر وانما ساله ذلك لينتفع بذلك عمر فإن من دعا لأخيه بظهرِ الغيبِ قال الملكُ الموكلُ به : آمينَ , ولك بِمثْلٍ ، فمن سال الدعاء من صالح نوي هذه النية ، ولم يكثر من هذا السؤال بل يكون علي وجه الندرة ، والتنزه عنه أكمل ، فإن النبي صلي الله عليه وسلم لم يرد ذلك عنه ولا عن أصحابه إلا مرة أو مرتين والقاعدة أن ما أجازه النبي صلي الله عليه وسلم ولم يواظب عليه ولم يفهم الصحابة منه العموم فلا يفيد إلا الإباحة لا الاستحباب ، وعلي وجه الندرة لا الكثرة ، فافهم هذا .

وأما كونهم لا يتطيرون فالتطير أو الطيرة هي التشاؤم بمرئي أو مسموع أو معلوم وهذا من الشرك ، لما سيأتي بيانه في بابها إن شاء الله

- وهل هم سبعون ألفا فقط أم يزيدون ؟؟

والجواب أنهم أكثر بكثير بل لا حصر لهم بعدد محدد ، وهذا من كرم الله تعالي حتي لا ييأس الموحد من أن يكون منهم بل الباب مفتوح لكن بشرط تحقيق التوحيد بدرجتيه و علي الصفة التي ذكرنا.

فبيان النبي صلي الله عليه وسلم عام لجميع أمته فينبغي علي كل مسلم أن يسعي لذلك سعيا حثيثا مستغينا بالله مجتهدا لإدراك هذه الدرجة العليا والمرتبة العظمي.

ودليل أنهم أكثر من سبعين ما في صحيح الترمذي أن النبي صلي الله عليه وسلم قال

((وعدَني ربِّي أن يُدْخِلَ الجنَّةَ مِن أمَّتي سبعينَ ألفًا لا حسابَ علَيهِم ولا عذابَ ، معَ كلِّ ألفٍ سبعونَ ألفًا ، وثلاثُ حثَياتٍ مِن حَثَياتِه) والحثو أو الحثي هو الأخذ بمجمع الكفين وفي رواية عند أحمد والبيهقي أنه قال (فاستزدت ربي فزادني مع كل ألف سبعين ألفا) فالله أكبر ، فإذا ضربنا سبعين ألفا في سبعين لفا يكون الناتج أربعة ملايين وتسعمائة ألف ، زد عليهم السبعين الأولين فيكون مجموعهم أربعة ملايين وتسعمائة وسبعون ألفا ، بالإضافة إلي ثلاث حثيات من حثيات ربنا وهذا لا يعلم قدره إلا الله جل وعلا .

وفي هذا بيان لفضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية ، أما الكمية فهي اكثر الأمم يوم القيامة ولا تدانيها إلا أمة موسي عليه السلام ، وأمة محمد صلي الله عليه وسلم أكثرمنها بكثير لأنها سدت الأفق عن اليمين وعن الشمال كما في الحديث ، وأما بالكيفية فلأن منهم أعدادا كثيرة يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب ، وعن بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أهل الجنة عشرون ومائة صف، ثمانون منها من هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم) رواه ابن ماجه وصححه الألباني، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنّة؟ قلنا: نعم، قال: أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنّة؟ قلنا: نعم، قال: أترضون أن تكونوا شطر أهل الجنّة؟ قلنا: نعم، قال: والّذي نفس محمّد بيده إنّي لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنّة، وذلك أنّ الجنّة لا يدخلها إلّا نفس مسلمة، وما أنتم في أهل الشّرك إلّا كالشّعرة البيضاء في جلد الثّور الأسود، أو كالشّعرة السّوداء في جلد الثّور الأحمر) رواه البخاري. وفي رواية مسلم: (أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ قال: فكبَّرنا، ثم قال: أما ترضونَ أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ قال: فكبَّرنا، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة، وسأخبرُكم عن ذلك، ما المسلمونَ في الكفار إلا كشعرةٍ بيضاءَ في ثورٍ أسود، أو كشعرةٍ سوداء في ثورٍ أبيض)

وقد جاء كما عند البخاري في الصحيح أن الرسول صلي الله عليه وسلم قال في صفة هؤلاء السبعين ((يدخل الجنة من أمتي زمرة هم سبعون ألفا تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر)) .

وقد صح عنه صلي الله عليه وسلم أنه قال

((قلتُ : فأينَ أُمَّتي ؟ فقيلَ : انظرْ عن يمينِكَ . فنظرتُ فإذا الظِّرابُ - وهي التلال الصغيرة - قد سُدَّ بوجوهِ الرِّجالِ ثمَّ قيلَ لي انظرْ عن يسارِكَ فنظرتُ فإذا الأُفقُ قد سُدَّ بوجوهِ الرِّجالِ فقيلَ لي : أرَضيتَ فقلتُ رَضيتُ يا ربِّ ، رَضيتُ يا ربِّ قالَ : فقيلَ لي : إنَّ معَ هؤلاءِ سبعينَ ألفًا يدخلونَ الجنَّةَ بغَيرِ حسابٍ . فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ : فِداكُم أبي وأمِّي إنِ استطعتُمْ أن تَكونوا مِن السَّبعينَ ألفًا فافعلوا فإن قصَّرتُمْ فَكونوا مِن أَهْلِ الظِّرابِ فإن قصَّرتُمْ فَكونوا مِن أَهْلِ الأفقِ ، فإنِّي قد رأيتُ ثَمَّ أُناسًا يتَهاوشونَ - وفي رواية يتهارشون أي يتقاتلون لتحصيل دنيا لا قيمة تاركين وراءهم هذا الدرجات العلا)) .

وهذا الحديث من الاحاديث الدالة علي أن الموحدين ليسوا علي درجة واحدة بل متفاوتون ، فأعلاهم هؤلاء السبعون ، ومنهم من يعرض عليه الحساب وهم الذين قال فيهم الرسول صلي الله عليه وسلم :

((انَّ اللَّهَ سبحانَهُ يخلو يومَ القيامةِ بعبدِهِ المؤمنِ ويقرِّرُهُ بذنوبِهِ فيقولُ قد سترتُها عليكَ في الدُّنيا وأنا أغفِرُها لَكَ اليومَ))

ومنهم من يناقش الحساب ومن نوقش الحساب عذب كما أخبر صلي الله عليه وسلم لكن مآلهم أخيرا إلي الجنة بعد أن يطهرهم الله من ذنوبهم بالنار نسأل الله العفو والعافية .

إذن أهل التوحيد كما أنهم مراتب في الدنيا باعتبار تحقيقهم التوحيد قوة وضعفا فكذلك هم مراتب في الآخرة في دخولهم الجنة ، فنحن في سباق ومسارعة وكل منا ينبغي أن يحرص علي أن يكون من المسارعين السباقين إلي الخيرات ، ولا تيأس أبدا يا عبد الله بل اجتهد و توكل علي الله وأحسن ظنك بالله واجعل رجاءك في الله وأذل الجسد لله واجتهد في الطاعات ما استطعت حتي تكون لك الدرجات العلا ، والله المستعان .

4 - باب الخوف من الشرك

- **أي باب وجوب الخوف من الشرك** ؛ فإنه لا يأمنه إلا مفتون ؛ وقد كان سيد الموحدين يكثر من سؤال الله الثبات علي الدين ولما سئلت أمِّ سلمةَ ما كانَ أَكْثرُ دعائه صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ إذا كانَ عندَكِ ؟ قالَت : كانَ أَكْثرُ دعائِهِ : يا مُقلِّبَ القلوبِ ثبِّت قلبي على دينِكَ قالَت : فسألته : يا رسولَ اللَّهِ ما أكثرُ دعاءكَ يا مقلِّبَ القلوبِ ثبِّت قلبي على دينِكَ ؟ قالَ : يا أمَّ سلمةَ إنَّهُ لَيسَ آدميٌّ إلَّا وقلبُهُ بينَ أصبُعَيْنِ من أصابعِ اللَّهِ ، فمَن شاءَ أقامَ ، ومن شاءَ أزاغَ . فتلا معاذٌ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ، فمن يأمن البلاء بعد رسول الله صلي الله عليه وسلم **؟!!**

ولم يقل المصنف باب ترك الشرك ؛ لأن الخوف أول منازل البعد عن الشرك ، فإن من خاف شيئا تركه ، ومثل ذلك قوله لا تقربوا الزني فنهي عن كل ما يؤدي إليه فتناول النهي عن الزني من باب أولي ، ولأن كل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب كما هو مقرر أصوليا ، والشرك لا يتم البعد عنه إلا بعد الخوف منه ولهذا كان هذا الباب ، غير أن النهي عن الشيء أمر بضده فالنهي عن الزني أمر بالعفة والزواج والانشغال بما ينفع ونحو ذلك ، فتضمن واجب الخوف من الشرك إقامة التوحيد .

- ومناسبة الباب لما قبله : بعد أن علمنا في البابين السابقين فضل التوحيد وأنه أعظم نعمة أنعم الله بها علينا ، اقتضي ذلك منا أن نحبه ونسارع في تحقيقه ، ونحب أهله ، ونبغض ضده من الشرك ونبغض أهله ،ونجتنبه ونخشي الوقوع فيه ، فذكر المصنف هذا الباب ، واعلم أنك لن تحقق التوحيد حقا وتبعد عن الشرك إلا بفضل الله وتوفيقه لا بحولك وقوتك.

وهذا الخوف يثمر الحرص الشديد علي تعلم التوحيد بأنواعه حتي يحققه العبد تحقيقا تاما ، والشرك بأنواعه حتي يحذره فلا يقع فيه أبدا ، ومنها أن الخائف من الشرك يكون قلبه دائم الاستقامة على طاعة الله مبتغيا مرضاة الله فإن عصى، أو غفل كان استغفاره استغفار من يعلم عظم شأن الاستغفار وعظم حاجته للاستغفار؛ لأن الناس في الاستغفار أنواع، لكن من علم منهم حق الله - جل وعلا - وسعى في تحقيق التوحيد وتعلم ذلك، وسعى في الهرب من الشرك :فإنه إذا غفل وجد أنه أشد ما يكون حاجة إلى الاستغفار، ولأجل صلاح هذا بوب الشيخ - رحمه الله - هذا الباب الذي عنوانه (باب الخوف من الشرك) ، فكأنه يقول لك :إذا كنت تخاف من الشرك كما خاف منه إبراهيم - عليه السلام - وعرفتَ ما توعد الله به أهل الشرك من أنه لا يغفر لهم شركهم، فينبغي لك أن تعلم وأن تتعلم ما سيأتي في هذا الكتاب، فإن هذا الكتاب موضوع لتحقيق التوحيد، وللخوف من الشرك والبعد عنه، فما بعد هذين البابين) :باب من حقق التوحيد وباب الخوف من الشرك تفصيل لهاتين المسألتين العظيمتين اللتين هما: تحقيق التوحيد، والخوف من الشرك؛ بيان معناه وبيان أنواعه وافراده.

قال في التيسير :

((لما كان الشرك أعظم ذنب عُصِيَ الله به، ولهذا رتب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه، من إباحة دماء أهله وأموالهم، وسبي نسائهم وأولادهم، وعدم مغفرته من بين الذنوب إلا بالتوبة منه; نبه المصنف بهذه الترجمة على أنه ينبغي للمؤمن أن يخاف منه ويحذره ويعرف أسبابه ومبادئه وأنواعه لئلا يقع فيه، ولهذا قال حذيفة: "كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير، وكنت أساله عن الشر مخافة أن أقع فيه". رواه البخاري. وذلك أن من لم يعرف إلا الخير قد يأتيه الشر ولا يعرف أنه شر فإما أن يقع فيه، وإما أن لا ينكره كما ينكره الذي عرفه، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية."

قال شيخ الإسلام: وهو كما قال عمر، فإن كمال الإسلام هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتمام ذلك بالجهاد في سبيل الله، ومن نشأ في المعروف، فلم يعرف غيره، فقد لا يكون عنده من العلم بالمنكر وضرره ما عند مَنْ عَلِمَهُ، ولا يكون عنده من الجهاد لأهله ما عند الخبير بهم; ولهذا يوجد [في] الخبير بالشر وأسبابه إذا كان حسن القصد عنده من الاحتراز ، عنه والجهاد لهم ما ليس عند غيره، ولهذا كان الصحابة أعظم إيمانًا وجهادًا ممن بعدهم لكمال معرفتهم بالخير والشر، وكمال محبتهم للخير وبغضهم للشر لما علموه من حسن حال الإيمان والعمل الصالح، وقُبْح حال الكفر والمعاصي))انتهي .

1- قال تعالي في آيتين في سورة النساء (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افتري إثما عظيما) ، وقال سبحانه (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا)

- والآية واضحة في بيان أن الشرك أعظم الظلم لأنه لا يغفر بخلاف غيره مما هو أدني منه من الذنوب ، وهذا يوجب علي العبد أن يخشي من الوقوع فيه ؛ فإن ربنا الرؤوف الرحيم الذي كتب علي نفسه الرحمة لا يغفره بل يخلد صاحبه في نار جهنم .

- قال العصيمي في شرح فتح المجيد : ومن وجوه كون الشرك أعظم ذنب عصي الله به وأعظم ذنب رتب عليه عقوبة:

أ. أنه لا يغفر يوم القيامة سواء منه الأكبر والأصغر لعموم الآيتين ؛ فأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر أي لا يغفر الإشراك به ، وقوله تعالي في الحديث القدسي الصحيح (يا ابن آدم إذا أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة) فهذا أيضا عام لأن النكرة في سياق النفي تعم كل شرك ، وقد رددنا في المقدمة حجج من ذهب الي أنه يغفر فراجعها.

ب- أن غيره من الذنوب مما هو دونه علي رجاء المغفرة.

ج- أنه أقبح القبائح ؛ إذ مضمونه تنقيص رب العالمين، وصرف خالص حقه لغيره، وعدل غيره به وتسويته كما قال تعالى: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} ، فالله ينعم عليك ويحسن إليك بنعم لا تعد ولا تحصي فمقابلتك لذلك بسؤال غيره وعبادته من أقبح القبيح لأنه إساءة في مقابلة إحسان.

د- ولأنه مناقض للمقصود بالخلق والأمر وهو عبادته وحده لا شريك له ، والشرك منافٍ له من كل وجه ، وذلك غاية المعاندة لرب العالمين، والاستكبار عن طاعته والذل له، والانقياد لأوامره الذي لا صلاح للعالم إلا بذلك، فمتى خلا منه خرب وقامت القيامة، كما قال صلى الله عليه وسلم كما عند مسلم"لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله"

ه- ولأن الشرك صرف خالص حقه لغيره فكأن العبد سلب الله سبحانه حقه.

و- ولأن الشرك تشبيه للمخلوق بالخالق.

- والآيتان رد علي الخوارج والمعتزلة لأن قوله جل وعلا (ويغفر ما دون ذلك) يدخل فيه الكبائر ، وأما الخوارج قاتلهم الله فيكفرونهم في الدنيا ويعتقدون تخليدهم في النار في الآخرة نعوذ بالله من بدعتهم ، والمعتزلة مثلهم في تكفيرهم في أحكام الآخرة وأما في الدنيا فهم عندهم في منزلة بين المنزلتين ، **وقد أطلت في نقض شبههم في كتابي (مسالة الإيمان) فراجعه ، وكان مما ذكرت ما يلي :**

((قال ابن تيمية (7 / 222):

(ينبغي أن يعرف أن القول الذي لم يوافق الخوارج والمعتزلة عليه أحد من أهل السنة هو القول بتخليد أهل الكبائر في النار، فإن هذا القول من البدع المشهورة، وقد اتفق الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين على أنه لا يخلد في النار أحد ممن في قلبه مثقال ذرة من إيمان، واتفقوا أيضا على أن نبينا صلى الله عليه وسلم يشفع فيمن يأذن الله له بالشفاعة فيه من أهل الكبائر من أمته، ففي الصحيحين عنه أنه قال صلى الله عليه وسلم)) :لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

وقال ابن تيمية (7 / 257)

(والمعتزلة ينفون عن الفاسق اسم الايمان بالكلية واسم الإسلام أيضا ، ويقولون : ليس معه شيء من الأيمان والأسلام ، ويقولون : ننزله منزلة بين المنزلتين ، فهم يقولون :إنه يخلد في النار لا يخرج منها بالشفاعة وهذا الذي أنكر عليهم ، وإلا لو نفوا مطلق الاسم وأثبتوا معه شيئا من الإيمان يخرج به من النار لم يكونوا مبتدعة ، وكان اهل السنة متفقون علي سلب كما الإيمان الواجب فزال بعض إيمانه الواجب لكنه من أهل الوعيد ، وإنهما ينازع في ذلك من يقول : إن الإيمان : إن الإيمان لا يتبعض من الجهمية والمرجئة فيقولون : إنه كامل الإيمان ، فالذي ينفي إطلاق الاسم يقول : الاسم المطلق مقرون بالمدح واستحقاق الثواب ، كقولنا : متّقٍ وبَرٍّ ، وعلي الصراط المستقيم ، فإذا كان الفاسق لا يطلق عليه بهذ الأسماء فكذلك اسم الايمان ، وأما دخوله في الخطاب ، فلأن المخاطب باسم الإيمان كل من معه شيء منه ،لأنه أمر لهم ، فمعاصيهم لا تسقط عنهم الأمر)

فالمعتزلة ينزلون المسلم صاحب الكبيرة منزلة بين المنزلتين لا يسمونه باسم الإسلام ولا الكفر في الدنيا، أما الآخرة فاتفقوا مع الخوارج في اعتقاد تخليدهم في النار ، بخلاف الخوارج فإنهم سموهم كفارا وأنزلوا عليهم أحكام الكفر في الدنيا والاخرة ، واتفقت المعتزلة معهم علي حكم

الآخرة وأنهم مخلدون في النار ، الفرق أن المعتزلة قالوا لا يعذبون كعذاب الكافرين بخلاف الخوارج ، قاتل الله الجميع .

وسبب ضلال المعتزلة والخوارج شبهتهم أن الإيمان إذا ذهب بعضه ذهب سائره ، وقالوا لا يقبل التبعيض ولا التجزئة ، وقد بسطت للكلام في نقض ذلك في كتابي المذكور آنفا ، لكن يهمك الآن أن تعرف أن منهجهم الفاسد بتخليد أصحاب الكبائر التي دون الشرك في النار منقوض بصريح الكتاب وصحيح السنة وإجماع أهل السنة .

قلت في (مسألة الإيمان) :

((وقد رتب الله تعالي علي بعض هذه الذنوب والكبائر مثل السرقة والزني والقتل وشرب الخمر والعدوان وقطع الطريق رتب عليها حدودا ولو كان مرتكبوها كفارا لما اقيمت عليهم الحدود ولقتلوا مرتدين ؛ فإقامة الحد عليها دليل علي أنها ليست كفرا وإنما هي كبائر ومعاص ينقص ايمان العبد بقدرها ، ولكن لا يكفر بها وتقام بحقها الحدود وهذه الحدود مكفرات فيقام علي مرتكبها الحد في الدنيا ولا يقام عليه مرة اخري في الاخرة

ومن الأدلة علي ذلك من السنة الصحيحة مع آيتي سورة النساء السابقتين :

الحديث في الصحيحين عن عبادة بن الصامت قال النبي صلي الله عليه وسلم وحوله عصابة من أصحابه

1) " بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا ، وَلا تَسْرِقُوا ، وَلا تَزْنُوا ، وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ ، وَلا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ ، وَلا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ ، فَمَنْ وَفَّى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا ، فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَفَا عنه ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ " فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ.

2) وعند البخاري رحمه الله عن أبي ذرّ أن النبي صلي الله عليه وسلم قال

(ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات علي ذلك إلا دخل الجنة قلت وإن زني وإن سرق قال وإن زني وإن سرق قلت وإن زني وإن سرق قال وإن زني وإن سرق قلت وإن زني وإن سرق وإن رغم أنف أبي ذر وكان أبو ذر إذا حدث به قال وان رغم أنف أبي ذر)

3)وفي حديث اخر باسناد صحيح عند ابن خزيمة (ان النبي صلي الله عليه وسلم قرا ولمن خاف مقام ربه جنتان فقال ابو الدرداء وان سرق وان زني يا رسول الله فقال وان رغم انف ابي الدرداء)

4)وقد قال الله عز وجل (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وهذه الاية في حق من لم يتب ومات علي التوحيد وهذه الاية تعم كل شرك أصغر او أكبر

فالشرك كله لا يغفر، أما المعاصي والكبائر فصاحبها تحت مشيئة الله ان شاء عذبه وان شاء عفا عنه كما تقدم في الحديث السايق

4)ولابن أبي حاتم عن جابر رضي الله عنهما قال النبي صلي الله عليه وسلم (ما من نفس تموت لا تشرك بالله شيئا الا حلت لها المغفرة من الله تعالي ان شاء عذبها وإن شاء غفر لها)

5) هذا غير أحاديث الشفاعة المتواترة في إخراج عصاة الموحدين من النار بما معهم من توحيد .

كما قال صلي الله عليه وسلم كما عند أبي داوود والترمذي بالسند الصحيح

(شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)

6) و في المسند بسند صحيح عن أم حبيبة عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال

(أرأيت ما تلقي أمتي بعدي وسفك بعضهم دماء بعض وسبق ذلك من الله كما سبق علي الأمم قبلهم فسالته ان يوليني شفاعة يوم القيامة فيهم ففعل)

وهذا دليل علي أن القتل كبيرة لا تصل لحد الكفر وسيأتي تفصيل مسألة القتل .

ولكن هذه الشفاعة لأهل الكبائر مقيدة بمن مات علي التوحيد

كما قال صلي الله عليه وسلم

7) (إني اختبات دعوتي شفاعة لأمتي وهي نائلة إن شاء الله لمن مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا) .

فهذه أحاديث تبين ان اصحاب الكبائر تحت الوعيد ومن عذب منهم في النار سيخرج منها بشفاعة النبي صلي الله عليه وسلم فبأي حق يكفر الخوارج اصحاب الكبائر ، وإذا كانوا كاملي الإيمان كما زعمته المرجئة فلم عذبهم الله ؟؟!!!! ولكنهم فساق مسلمون رجحت سيئاتهم علي حسناتهم فدخلوا النار ليطهروا منها ثم مآلهم الي الجنة .

8) وقوله كما عند مسلم (وأما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكنها تصيب أقواما بذنوبهم وخطاياهم حتي إذا صاروا فحما أذن في الشفاعة فيخرجون ضبائر فيلقون علي أنهار الجنة فيقال لأهل الجنة يا أهل الجنة أهريقوا عليهم من الماء فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل)

وقوله (ليخرجن قوم من النار بالشفاعة يسمون الجهنميين)

انتهي من كتابي (مسألة الإيمان وما يتعلق بها من أحكام والرد علي المرجئة والوارج)

- وقوله تعالي في سورة الزمر (إن الله يغفر الذنوب جميعا) لا يخالف قوله تعالي (إن لله لا يغفر أن يشرك به) ؛ وذلك لأن مغفرة الذنوب جميعا هذا في حق من تاب ، وعدم مغفرة الشرك هي في من مات ولم يتب منه.

2- وقال الخليل عليه السلام: {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ}

- دعا إبراهيم الخليل عليه السلام ربه جل وعلا أن يعصمه ويحفظه من الشرك ويجنبه إياه ، ومعني الاجتناب أن يكون في جانب وهو في جانب وهذا أبلغ من مجرد الترك ، ودعا أيضا بذلك لبنيه الذين هم من صلبه وقيل لأمته جمعاء لكن الظاهر أنه لبنيه الذين هم من صلبه لأن الشرك واقع في أمته وفي أمة محمد صلي الله عليه وسلم لا ينكره إلا جاهل بحقيقة التوحيد وحقيقة الشرك ولا يصح إسلام قائل ذلك لأنه لم يكفر بالطاغوت ولم يبرأ من الشرك بل صححه وجوزه نسأل الله العافية ، وسيأتي رد ذلك في باب خاص هو (باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان) إن شاء الله .

- وإذا كان إبراهيم الذي شهد الله له بكمال التوحيد بل أوحي إلي نبينا عليه الصلاة والسلام باتباع ملته التي هي ملة الرسل أجمعين فقال سبحانه (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين) كان ييخاف من الشرك فنحن أحق بالخوف منه والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، ولهذا قال إبراهيم التيمي (ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم !).

قال العصيمي في شرح فتح المجيد :

((الشرك أظلم الظلم وأقبح القبائح ، ومن عقل شر الشرك وسوء عاقبته ووجه ضرره في الدنيا والآخرة أدرك أن الخوف منه أجل الخوف ؛ فإن السلامة في الدارين موقوفة علي سلامة الخلوص من الشرك ، ومن أشرك بالله سبحانه وتلطخ بالشرك صار من جثي جهنم ؛ فلا نجاة من النار الحارقة والعذاب الأليم إلا بسلامته من الشرك وبراءته وتنزهه عنه ، ولا يتحرز منه إلا من خافه ؛ فإن الخوف يولد في القلب الحذر منه ،فمن خاف من شيء اجتنبه وإلا ساكنه وركن إليه)) .انتهي.

-والفرق بين الصنم والوثن أن الصنم ما عبد من دون الله و كان علي صورة ولو بدون وجه ، وأما الوثن فهو ما عبد من دون الله سواء كان له صورة أو لم يكن كالقبر ، ولهذا فالوثن أعم من الصنم.

- قال العصيمي في شرح فتح المجيد عن من لم يخف من الشرك

((الآمنون من الوقوع في الشرك نوعان:

الجاهلون بالشرك ، والجاهلون بالتوحيد المُخلّص من الشرك ؛ فلا نجاة للعبد إلا بتعلم التوحيد والشرك ، والفرق بينهما أن تعلم التوحيد يكون إجمالا وتفصيلا فيحيط العبد بمعاقد أصوله

وتفاصيل فصوله ، أما تعلم الشرك فيكفي فيه معرفة أصوله الكلية لأن تفاصيله ليست مطلوبة من العبد ولا تتناهي أفرادها بحسب ما يستجد من أحوال الناس ، ومن عرف أصول الشرك عرف تفاصيله إذا حدثت ، ولا يصرفك عن الشرك إلا رحمة الله وتوفيقه لا بحولك وقوتك))

٣ - وفي الحديث: "أخوف ما أخاف عليكم: الشرك الأصغر، فسئل عنه، فقال: الرياء" رواه أحمد والطبراني والبيهقي.

- وفي صحيح الترغيب من حديث محمود بن لبيد أن النبي صلي الله عليه وسلم قال

((أخوَفَ ما أخافُ عليكُمُ الشِّركُ الأصغرُ: الرِّياءُ، يقولُ اللهُ يومَ القيامةِ إذا جَزَى النَّاسَ بأعمالِهم: اذهَبوا إلى الذينَ كنتم تُراؤونَ في الدُّنيا، فانظُروا هل تَجِدونَ عِندَهم جزاء))

وذكر النبي صلي الله عليه وسلم الرياء من باب التمثيل علي الشرك الأصغر لا الحصر ، وقد ذكرت لك في المقدمة تعريفه وأمثلة كثيرة عليه قولا وعملا واعتقادا ، وسيأتي ذلك كله في أبواب خاصة في هذا الكتاب إن شاء الله .

قال في التيسير:

((الشرك الأصغر، كيسير الرياء والتصنع للمخلوق، وعدم الإخلاص لله تعالى في العبادة، بل يعمل لحظ نفسه تارة، ولطلب الدنيا تارة، ولطلب المنْزلة والْجاه عند الخلق تارة، فله من عمله نصيب، ولغيره منه نصيب، ويتبع هذا النوعَ الشركُ بالله في الألفاظ، كالْحلفِ بغير الله وقول: ما شاء الله وشئت، ومالي إلا الله وأنت، وأنا في حسب الله وحسبك، ونحوه. وقد يكون ذلك شركا أكبر بحسب حال قائله ومقصده. هذا حاصل كلام ابن القيم وغيره)) .

والرياء اسم مصدر من راءي يراءي رياء أو مراءة وهو إظهار العبد ما يعمله من عمل صالح حتي يحمده الناس .

ومثله التسميع وهو أن يقول العبد القول الصالح حتي يسمعه الناس فيحمدوه ويثنوا عليه ، وفعل الشيء حبا للمحمدة والظهور أو طلبا للجاه والمال هو من الشرك الأصغر لا الاكبر لأن المراءي توجه بالعمل لله لا لغيره فليس بشرك أكبر لأنه ليس عبادة صرفها لغير الله ، لكن لما أراد من ورائه الثناء لم يكن عمله خالصا لله بل هو مخلوط بشيء من التنديد فانطبق عليه حد الأصغر.

وقد أجمع الصحابة علي أن الرياء شرك أصغر لا أكبر فقد روي بسند صحيح عن شداد بن أوس (كنا نعد الرياء علي عهد النبي صلي الله عليه وسلم من الشرك الأصغر).

- وأما قول ابن القيم عن الشرك الأصغر (مثل يسير الرياء والتصنع للمخلوق) فمفهومه أن كثير الرياء شرك أكبر ووجه ذلك ملاحظة تعلق الرياء بالفاعل ؛ لأن الذي يتصور منه يسير الرياء هو المسلم ، والذي يتصور منه كثير الرياء فهو الكافر، لكن الأحكام إنما تعلق بالفعل لا بالفاعل .

ومثل الحديث السابق ما أخرجه ابن خزيمة بإسناد قوي (إن أخوف ما أخاف عليكم شرك السرائر).

قال ابن القيم في الجواب الكافي:

((وأما الشرك في الإرادات والنيات ، فذلك البحر الذي لا ساحل له ، وقل من ينجو منه ، من أراد بعمله غير وجه الله ، ونوى شيئا غير التقرب إليه ، وطلب الجزاء منه ، فقد أشرك في نيته وإرادته.

والإخلاص : أن يخلص لله في أفعاله وأقواله وإرادته ونيته ، وهذه هي الحنيفية ملة إبراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم ، ولا يقبل من أحد غيرها ، وهي حقيقة الإسلام.

ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين.

وهي ملة إبراهيم التي من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء)) .**انتهي كلامه**.

ويسمي أيضا الشرك الخفي لأنه يتسلل للقلب دون شعور إلا الموحد كامل التوحيد المُراقِب فهذا لا يدع للرياء سبيلا إليه.

ويسمي شرك السرائر كما في الحديث الذي حسنه الألباني عند ابن خزيمة بلفظ (يا أيها الناس إياكم وشرك السرائر قالوا وما شرك السرائر يا رسول الله ، قال : يقوم الرجل فيزين صلاته جاهدا لما يري من نظر الناس إليه)

والرياء من أمثلة الشرك الأصغر ولا ينحصر الشرك الأصغر فيه .

وقد قال عبد الله بن عباس رضي الله عنه كما عند ابن أبي حاتم في تفسير قوله تعالى: (فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) قال: الأنداد هو: الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة - حجارة - سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتك يافلانة، وحياتي. وتقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلان (أي لا تجعل في هذه الكلمة فلان، فتقول: لولا الله وفلان، بل قل: لولا الله وحده). هذا كله به شرك .

- والرياء محبط للعمل الذي خالطه ، قال ابن عثيمين في القول المفيد :

((حكم العبادة إذا خالطها الرياء، وهو على ثلاثة أوجه:

الأول:

أن يكون الباعث على العبادة مراءاة الناس من الأصل، كمن قام يصلي من أجل مراءاة الناس ولم يقصد وجه الله; فهذا شرك والعبادة باطلة.

الثاني :

أن يكون مشاركا للعبادة في أثنائها، بمعنى أن يكون الحامل له في أول أمره الإخلاص لله ثم يطرأ الرياء في أثناء العبادة.

فإن كانت العبادة لا ينبني آخرها على أولها، فأولها صحيح بكل حال، والباطل آخرها، مثال ذلك: رجل عنده مئة ريال قد أعدها للصدقة فتصدق بخمسين مخلصا وراءى في الخمسين الباقية; فالأولى حكمها صحيح، والثانية باطلة.

أما إذا كانت العبادة ينبني آخرها على أولها; فهي على حالين:

أ- أن يدافع الرياء ولا يسكن إليه، بل يعرض عنه ويكرهه; فإنه لا يؤثر عليه شيئا; لقول النبي ((إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم ، مثال ذلك: رجل قام يصلي ركعتين مخلصا لله، وفي الركعة الثانية أحس بالرياء، فصار يدافعه; فإن ذلك لا يضره ولا يؤثر على صلاته شيئا.

ب- أن يطمئن إلى هذا الرياء ولا يدافعه; فحينئذ تبطل جميع العبادة; لأن آخرها مبني على أولها ومرتبط به. مثال ذلك: رجل قام يصلي ركعتين مخلصا لله، وفي الركعة الثانية طرأ عليه الرياء لإحساسه بشخص ينظر إليه، فاطمأن لذلك ونزع إليه; فتبطل صلاته كلها لارتباط بعضها ببعض.

الثالث :

ما يطرأ بعد انتهاء العبادة; فإنه لا يؤثر عليها شيئا، اللهم إلا أن يكون فيه عدوان; كالمن والأذى بالصدقة، فإن هذا العدوان يكون إثمه مقابلا لأجر الصدقة فيبطلها; لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى}.

وليس من الرياء أن يفرح الإنسان بعلم الناس بعبادته، لأن هذا إنما طرأ بعد الفراغ من العبادة.

وليس من الرياء أيضا أن يفرح الإنسان بفعل الطاعة في نفسه، بل ذلك دليل على إيمانه، قال النبي (: (من سرته حسناته وساءته سيئاته فذلك المؤمن)، وقد سئل النبي - صلي الله عليه وسلم - عن ذلك، فقال: (تلك عاجل بشرى المؤمن)**انتهي كلامه**.

-ومن أعظم ما يتقي به الشرك الأصغر:

الاستعانة بالله تعالي ، والمواظبة علي الدعاء أن يرزقك الله التوحيد الخالص ، والاستعاذة به سبحانه أن يعيذك من الشرك ، ومراقبة النفس ، والعلم بأن الناس لن ينفعوك بشيء بل اجعل كلامهم ذما ومدحا علي السواء دبر أذنك وخلف ظهرك ما دمت علي الحق ، مع العلم أن الشرك محبط للعمل وعاقبته وخيمة في الدنيا والآخرة ، وبمجاهدة النفس وترك الاسترسال ، وبتعلم أسماء الله وصفاته فبذلك تحبه وتخلص العمل له دون غيره .

ومن الأدعية التي أخبر بها الرسول صلي الله عليه وسلم لتجنب الشرك الخفي ما جاء في الأدب المفرد بسند صححه الالباني من حديث معقل بن يسار أن الرسول صلي الله عليه وسلم قال:

((يا أبا بكرٍ ، لَلشِّرْكُ فيكم أخْفى من دبيبِ النَّملِ والذي نفسي بيدِه ، لَلشِّرْكُ أخْفى من دَبيبِ النَّملِ ، ألا أدُلُّك على شيءٍ إذا فعلتَه ذهب عنك قليلهُ و كثيرهُ ؟ قل : اللهم إني أعوذُ بك أن أشرِكَ بك و أنا أعلمُ ، و أستغفِرُك لما لا أَعلم)). انتهي .

وقد عرفنا الإخلاص سابقا أنه التصفية تصفية العمل من شوائب الشرك الاصغر والأكبر ، وكثير من العلماء يعرفون الإخلاص من جهة أخري وهو من أجود ما عرفوا الإخلاص به وإن كان متناولا لجانب واحد من الشرك وهو الأصغر ،لكنه من أجود ما عرفوه به فيقولون:

الإخلاص هو أنك إذا نزع من قلوب الناس كل مقام هو لك لم يؤثر ذلك فيك شيئا ولو شعرة ! لا بإقبال ولا بإدبار بل تمضي في طريقك كأن الناس من أهل القبور.

فراقب نفسك فإن وجدت من نفسك زيادة في العمل لثناء الناس أو نقصا فيه لذمهم فاعلم أنك مرائي ، وإن وجدت من نفس التطلع لاحترام الناس وتوقيرهم وتبجيلهم لما عندك من علم تدعيه فاعلم أنك مرائي .

- وكيفية معرفة ما إذا كان القول أو الفعل من الشرك الأصغر أم الأكبر يكون بأمور ، منها :

معرفة الحدود الجامعة وقد سبق أن ميزت لك بين الشرك الأكبر والأصغر باعتبار الحد أوالتعريف ، وباعتبار الحكم فراجعه ، وما كان منطبقا علي حد أحدهما فهو منه ، وكذلك يعرف بالتنصيص عليه كما في الرياء ، وبفهم الصحابة كذلك كما في حديث شداد بن أوس المتقدم ، أو أن ينهي عنه النبي صلي الله عليه وسلم ولا يأمر مرتكبها بالدخول في الإسلام كما سيأتي معنا في التمائم وأن النبي صلي الله عليه وسلم لم يبايع صاحب التميمة لأنها في يده ولو

كان اتخاذها شركا اكبر لعلل عدم المبايعة بكفره وشركه لا للتميمة ، وهناك قواعد أخري ذكرتها في كتاب (مسألة الإيمان) فراجعه إن أردت.

٣ -وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من مات وهو يدعو من دون الله ندا دخل النار" رواه البخاري .

ولمسلم عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئا دخل النار" .

- في هذين الحديثين بشارة ونذارة فأما البشارة فهي ان من مات موحدا دخل الجنة أولا إن غلبت كفة الحسنة علي كفة السيئات أو مآلا إن كان العكس ولم تنله شفاعة ، لأن إدخال الشرك العبد النارعلي نوعين:

إدخال تأميد ثم يخرج منها ، وهذا يقع لمن تلبس بالشرك الأصغر إذا لم يكن له ما يرجح حسناته.

وإدخال تأبيد ، وهذا في حق من تلبس بالشرك الأكبر.

وأما النذارة فهي أن من مات مشركا الشرك الأكبر دون توبة فهو خالد مخلد في النار أبدا والعياذ بالله .

- والند النظير أوالمثيل والمساوي، والتنديد منه تنديد أصغر وتنديد أكبر ، والتنديد مصدر من ندد يندد تنديدا ، والند النظير أو المثيل والمساوي ، فالتنديد جعل شريك لله سبحانه ، وندد بربه أي أشرك به سبحانه، فالتنديد هو الشرك ومنه أصغر وأكبر ، فالتنديد الأكبر هو اتخاذ ند لله سبحانه ويجعل له شيء من حقه يزول به أصل الإيمان ، والتنديد الأصغر فهو اتخاذ ند لله سبحانه يجعل له شيء من حقه يزول به كمال الإيمان أو بمعني آخر هو أن يجعل في المخلوق شيء من الندية لله سبحانه لكن لا يصل لحد صرف العبادة له كالحلف بغيره وتعليق التمائم بقصد جلب النفع أودفع الضر كما سيأتي في باب ما جاء في الرقي والتمائم ، وكالرياء ونحوه مما تقدم التمثيل به .

5- باب الدعاء إلي شهادة أن لا إله إلا الله (أي طلب الخلق إليها)

- مناسبة الباب :

((لما بين المصنف رحمه الله الأمر الذي خلقت له الخليقة وفضله وهو التوحيد، وذكر الخوف من ضده الذي هو الشرك، وأنه يوجب لصاحبه الخلود في النار، نبّه بهذه الترجمة على أنه لا ينبغي لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه كما يظن الجهال، ويقولون: اعمل بالحق واترك الناس وما يعنيك من الناس، بل يدعو إلى الله {بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ} والمجادلة {بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} ، كما كان ذلك شأن المرسلين وأتباعهم إلى يوم الدين، وكما جرى للمصنف وأشباهه من أهل العلم والدين والصبر واليقين.

وإذا أراد الدعوة إلى الله تعالي - والإسلام الذي رضيه لخلقه دينا - ، فليبدأ بالدعوة إلى التوحيد الذي هو معنى شهادة أن: لا إله إلا الله، إذ لا تصح الأعمال إلا به، فهو أصلها الذي تبنى عليه، ومتى لم يوجد، لم ينفع العمل، بل هو حابط، إذ لا تصح العبادة مع الشرك، كما قال تعالى: {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ} ١. ولأن معرفة معنى هذه الشهادة هو أول واجب على العباد، فكان أول ما يبدأ به في الدعوة)) انتهي من التيسير بتصرف.

وقال ابن سعدي في القول السديد :

((وهذا الترتيب الذي صنعه المؤلف في هذه الأبواب في غاية المناسبة، فإنه ذكر في الأبواب السابقة وجوب التوحيد وفضله، والحث عليه وعلى تكميله، والتحقق به ظاهرا وباطنا، والخوف من ضده، وبذلك يكمل العبد نفسه.

ثم ذكر في هذا الباب تكميله لغيره بالدعوة إلى شهادة (أن لا إله إلا الله) ، فإنه لا يتم التوحيد حتى يكمل العبد جميع مراتبه، ثم يسعى في تكميل غيره- وهذا هو طريق جميع الأنبياء-؛ فإنهم أول ما يدعون قومهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وهي طريقة سيدهم وإمامهم صلى الله عليه وسلم؛ لأنه قام بهذه الدعوة أعظم قيام، ودعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، لم يفتر ولم يضعف حتى أقام الله به الدين، وهدى به الخلق العظيم، ووصل دينه ببركة دعوته إلى مشارق الأرض ومغاربها، وكان يدعو بنفسه ويأمر رسله وأتباعه أن يدعوا إلى الله وإلى توحيده قبل كل شيء; لأن جميع الأعمال متوقفة في صحتها وقبولها على التوحيد.

فكما أن على العبد أن يقوم بتوحيد الله، فعليه أن يدعو العباد إلى الله بالتي هي أحسن، وكل من اهتدى على يديه فله مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء.

وإذا كانت الدعوة إلى الله، وإلى شهادة أن لا إله إلا الله فرضا على كل أحد، كان الواجب على كل أحد بحسب مقدوره.

فعلى العالم من بيان ذلك، والدعوة والإرشاد والهداية أعظم مما على غيره ممن ليس بعالم.

وعلى القادر ببدنه ويده أو ماله أو جاهه وقوله أعظم مما على من ليست له تلك القدرة.

قال تعالى: **{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} ورحم الله من أعان على الدين ولو بشطر كلمة**، وإنما الهلاك في ترك ما يقدر عليه العبد من الدعوة إلى هذا الدين.)).

وقال ابن عثيمين في القول المفيد :

((هذا الترتيب الذي ذكره المؤلف من أحسن ما يكون; لأنه لما ذكر توحيد الإنسان بنفسه ذكر دعوة غيره إلى ذلك; لأنه لا يتم الإيمان إلا إذا دعا إلى التوحيد، قال تعالى: {وَالْعَصْرِ إِنَّ الأِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} **فلا بد مع التوحيد من الدعوة إليه، وإلا كان ناقصا**، ولا ريب أن هذا الذي سلك سبيل التوحيد لم يسلكه إلا وهو يرى أنه أفضل سبيل، وإذا كان صادقا في اعتقاده; فلا بد أن يكون داعيا إليه، والدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله من تمام التوحيد، ولا يتم التوحيد إلا به)) .

- ولأن الإنسان السوي حاله إما أن يسعي إلي تكميل نفسه بالعلم والعمل ، وإما أن يسعي إلي تكميل غيره بدعوة الناس إلي ذلك ، وهذا الباب عقده المصنف للأمر الثاني.

- وهذا يبين أن أول ما يُدعي إليه هو توحيد الله تعالي الذي هو الأصل الذي ينبني عليه كل شيء فإذا صح صح ما سواه وإذا فسد فالفساد لازم لما سواه ، فهو الأصل الذي قامت لأجله السماوات والأرض وخلقت الخليقة ووضعت الموازين و جردت السيوف ونصب الولاء والعداء ، ولهذا كانت أول كلمة تقرع آذان جميع الأقوام من أنبيائهم هي اعبدوا الله وحده وهذا مقرر كثيرا في القران ، وقد ظل رسولنا صلي الله عليه وسلم يدعو إلي هذا التوحيد العظيم ولم تفرض أركان الإسلام إلا بعد استقرار هذا الأصل العظيم ثم فرضت الصلاة بعده في السنة العاشرة من البعثة ثم الصيام والزكاة في السنة الخامسة عشرة ثم الحج في التاسعة من الهجرة

- ولهذا فالمجاهد في هداية الناس إلي دين ربهم ينبغي أن يكون أكثر جهاده ومعظم كلامه في بيان حق الله من التوحيد ، فمن رأيتموه يدعو إلي غيره ولا يبدأ به فاعلموا أنه لم يفقه رسالة الله .

١- قال: وقوله تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين}

- قال ابن كثير

((يقول الله تعالى لعبده وَرَسُولِهِ إِلَى الثَّقَلَيْنِ: الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، آمِرًا لَهُ أَنْ يُخْبِرَ النَّاسَ: أَنَّ هَذِهِ سَبِيلُهُ، أَيْ طَرِيقُهُ وَمَسْلَكُهُ وَسُنَّتُهُ، وَهِيَ الدَّعْوَةُ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، يَدْعُو إِلَى اللَّهِ بِهَا عَلَى بَصِيرة مِنْ ذَلِكَ، وَيَقِينٍ وَبُرْهَانٍ، هُوَ وَكُلُّ مَنِ اتَّبَعَهُ، يَدْعُو إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ على بَصِيرَةٍ وَيَقِينٍ وَبُرْهَانٍ شَرْعِيٍّ وَعَقْلِيٍّ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أَيْ: وَأُنَزِّهُ اللَّهَ وَأُجِلُّهُ وَأُعَظِّمُهُ وَأُقَدِّسُهُ، عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ أَوْ نَظِيرٌ، أَوْ عَدِيلٌ أَوْ نَدِيدٌ، أَوْ وَلَدٌ أَوْ وَالِدٌ أَوْ صَاحِبَةٌ، أَوْ وَزِيرٌ أَوْ مُشِيرٌ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ عُلُوًّا كَبِيرًا، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ انتهي.

- فمعالم الدعوة إلي الله تعالي : الدعوة إلي توحيد الله - سبحانه وتعالي - أولا وآخرا إبداء وإعادة ، وأن تكون الدعوة علي بصيرة وعلم لا عن جهل ، مع تنزيه الله سبحانه من كل عيب ونقص ومشابهة للمخلوقين ، والبراءة من الشرك ومن المشركين بتكفيرهم وعداوتهم.

- وكفي بهذه الدعوة شرفا أنها دعوة سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام من توحيد الله وإفراد المتابعة لرسول الله فكما أنه لا معبود حق إلا الله فكذلك شق الشهادة الثاني لا متبوع حق إلا محمد عليه الصلاة والسلام ، تدعو الي دينه وسبيله وسنته ، ففي هذه الآية خبر عن سبيل الرسول صلي الله عليه وسلم ودينه وطريقته وهي الدعوة إلي توحيد الله تعالي ، مع تنزيهه سبحانه عما يخالف هذا السبيل ، وبراءته من الشرك ومن المشركين فهذه الثلاثة هي دعوة الرسول صلي الله عليه وسلم وهي تبين لك مضمون دعوته وهي توحيد الله والبراءة من المشركين ، كما قال تعالي عن التوراة التي أنزلها علي موسي (وآتينا موسي الكتاب - أي التوراة - وجعلناه هدي - أي هاديا- لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلا) فمضمونها إفراد الله بالعبادة وهكذا دعوة جميع الرسل اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .

قال العصيمي في شرح فتح المجيد في بيان معني البصيرة التي هي شرط اساسي من شروط الداعي إلي الله خلافا لمن يدعو علي جهل فيفسد أكثر مما يصلح إن أصلح شيئا ، فالواجب علي الجاهل أن يتعلم لا أن يعلم :

((البصيرة من البصر وأصل هذه المادة يرجع للمشاهدة والاطلاع ، وهي مشاهدة كائنة بعين القلب لا البصر ، وحقيقتها معرفة الحق بالقلب كأنه رأي عين فهي استيعاب العلم وقربه من القلب كقرب القريب من العين ، فهي تشارك العلم في أصلها وتزيد عنه في قدرها ، وأصل

البصيرة علم خاص يكون علم الحق فيه مستقرا ، وهي ثلاثة أنواع : بصيرة بالأسماء والصفات ، وبصيرة بالأمر والنهي وبصيرة بالوعد والوعيد ، وإلي هذه الثلاثة يرجع العلم المأمور به شرعا مما حواه القران والسنة

قال ابن القيم:

والعلم أقسام ثلاث ما لها ... من رابع والحق ذو تبيان

علم بأوصاف الإله وفعله ... وكذلك الأسماء للرحمن

والأمر والنهي الذي هو دينه ... وجزاؤه يوم المعاد الثاني

والكل في القرآن والسنن التي.جاءت عن المبعوث بالفرقان

والله ما قال امرؤ متحذلق ... بسواهما إلا من الهذيان)) انتهي.

- وفي الآية أيضا التنبيه على الإخلاص، لأن كثيرًا ولو دعا إلى الحق، فهو يدعو إلى نفسه مرائيا محبا للظهور أو يدعو إلي حزبه وجماعته.
- وفيه أيضا أن البصيرة من الفرائض، ووجه ذلك أن اتباعه صلى الله عليه وسلم واجب، ولا يتبعه اتباعا حقًا إلا أهل البصيرة، فمن لم يكن منهم فليس من أتباعه، فتعين أن البصيرة من الفرائض ، والداعي الي الله علي غير بصيرة إما ان يضل في نفسه او يضل غيره او يبعد الحق عن الناس او يبعدهم عنه علي أقل تقدير.
- وفي هذا دليل علي فساد تقسيم الناس الي دعاة وعلماء وأنه تقسيم باطل سببه الجهل ، بل الدعاة هم العلماء والعلماء هم الدعاة ، ومن تصدر للدعوة علي جهل فهو فاسق مفتر علي الله وعلي رسوله صلي الله عليه وسلم.
- وقوله ومن اتبعني أي من اتبعني يدعو إلي الله ، وقيل يعني أن من اتبعني يدعو علي بصيرة مثلي .

قال ابن القيم في المدارج في بيان حقيقة البصيرة:

((أن تصل باستدلالك إلى أعلى درجات العلم، وهي البصيرة التي تكون نسبة العلوم فيها إلى القلب كنسبة المرئيِّ إلى البصر، وهذه هي الخَصِيصة التي اختصّ بها الصّحابة عن سائر الأمّة، وهي أعلى درجات العلماء قال تعالى: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) أي أنا وأتباعي على بصيرةٍ وقيل: (وَمَنِ اتَّبَعَنِي) عطفٌ على المرفوع بأدعو، أي أنا أدعو إلى الله على بصيرةٍ، ومَن اتّبعني كذلك يدعو إلى الله على بصيرةٍ

وعلى القولين فالآية تدلُّ على أنّ أتباعه هم أهل البصائر الدّاعون إلى الله فمن ليس منهم فليس من أتباعه على الحقيقة والموافقة، وإن كان من أتباعه على الانتساب والدّعوة)) **انتهي**.

والبصيرة من الفرائض ؛ لأن العمل بجهل والدعوة بلا علم يوقعان العبد في الشرك والبدع المبطلة للأعمال .

- وقوله علي بصيرة أنا ومن اتبعني فيه تزكية لأصحاب النبي صلي الله عليه وسلم فهم خير من اتبعه رضي الله عنهم كما فسرها بذلك ابن عباس رضي الله عنهما فيما نقله عنه البغوي في التفسير ، وقال ابن مسعود ((مَن كانَ مُسْتَنًّا ، فَلْيَسْتَنَّ بمن قد ماتَ ، فإنَّ الحيَّ لا تُؤمَنُ عليه الفِتْنَةُ ، أولئك أصحابُ محمد - صلى الله عليه وسلم - ، كانوا أفضلَ هذه الأمة : أبرَّها قلوبًا ، وأعمقَها علمًا ، وأقلَّها تكلُّفًا ، اختارهم الله لصحبة نبيّه ، ولإقامة دِينه ، فاعرِفوا لهم فضلَهم ، واتبعُوهم على أثرهم ، وتمسَّكوا بما استَطَعْتُم من أخلاقِهم وسيَرِهم ، فإنهم كانوا على الهُدَى المستقيم)) وهو أثر تلقاه أهل العلم بالقبول علي مر القرون .

- وقوله تعالي (وما أنا من المشركين) فيه الأمر بإبعاد المسلمين عن المشركين فلا يكون منهم ولو في ظاهر الحال ولو لم يشرك ؛ لأنه لا يلبث بسكناه معهم ومخالطتهم أن يكون محبا ومواليا فمداهنا فموافقا وهذا أمر معلوم ولهذا جاءت الأحاديث عن النبي صلي الله عليه وسلم بالبراءة ممن يقيم بين ظهرانيهم فقال (أنا بريء ممن يقيم بين ظهراني المشركين) أفاده العصيمي بتصرف .

وقد سئل الشيخ ابن باز عن الإقامة والسفر لبلاد الكفر فقال:

((وأفيدك بأن الإقامة في بلد يظهر فيها الشرك والكفر ودين النصارى وغيرهم من الكفرة لا تجوز، سواء كانت الإقامة بينهم للعمل أو للتجارة أو للدراسة أو غير ذلك؛ لقول الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا إِلا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ولقول النبي ﷺ: أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين.

وهذه الإقامة لا تصدر عن قلب عرف حقيقة الإسلام والإيمان، وعرف ما يجب من حق الله في الإسلام على المسلمين، ورضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيًا ورسولًا.

فإن الرضا بذلك يتضمن من محبة الله وإيثار مرضاته والغيرة لدينه والانحياز إلى أوليائه ما يوجب البراءة التامة والتباعد كل التباعد من الكفرة وبلادهم، بل نفس الإيمان المطلق في الكتاب والسنة لا يجتمع مع هذه المنكرات، وصح عن جرير بن عبدالله البجلي أنه قال: يا

رسول الله، بايعني واشترط، فقال له رسول الله ﷺ: تعبد الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتناصح المسلمين، وتفارق المشركين أخرجه أبو عبدالرحمن النسائي.

وصح عن رسول الله ﷺ الحديث السابق، وهو قوله عليه الصلاة والسلام: أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين وقال عليه الصلاة والسلام: لا يقبل الله من مشرك عملا بعدما أسلم، أو يفارق المشركين والمعنى حتى يفارق المشركين، وقد صرح أهل العلم بالنهي عن ذلك والتحذير منه، ووجوب الهجرة مع القدرة، اللهم إلا رجل عنده علم وبصيرة، فيذهب إلى هناك للدعوة إلى الله، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وشرح محاسن الإسلام لهم.

وقد دلت آية سورة براءة: قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ .

على أن قصد أحد الأغراض الدنيوية ليس بعذر شرعي، بل فاعله فاسق متوعد بعدم الهداية إذا كانت هذه الأمور أو بعضها أحب إليه من الله ورسوله ومن الجهاد في سبيل الله

وأي خير يبقى مع مشاهدة الشرك وغيره من المنكرات والسكوت عليها**!؟** بل وفعلها كما حصل ذلك من بعض من ذكرت من المنتسبين للإسلام؟

وإن زعم المقيم من المسلمين بينهم أن له أغراضًا من الأغراض الدنيوية، كالدراسة أو التجارة أو التكسب فذلك لا يزيده إلا مقتا.

وقد جاء في كتاب الله الوعيد الشديد والتهديد الأكيد على مجرد ترك الهجرة، كما في آيات سورة النساء المتقدم ذكرها، وهي قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فكيف بمن يسافر إلى بلاد الكفرة ويرضى الإقامة في بلادهم؟ وكما سبق أن ذكرت أن العلماء رحمهم الله تعالى حرموا الإقامة والقدوم إلى بلاد يعجز فيها المسلم عن إظهار دينه.

والمقيم للدراسة أو للتجارة أو للتكسب والمستوطن، حكمهم وما يقال فيهم حكم المستوطن لا فرق، إذا كانوا لا يستطيعون إظهار دينهم وهم يقدرون على الهجرة.

وأما دعوى بغضهم وكراهتهم مع الإقامة في ديارهم فذلك لا يكفي، وإنما حرم السفر والإقامة فيها لوجوه، منها:

1- أن إظهار الدين على الوجه الذي تبرأ به الذمة متعذر وغير حاصل.

2- نصوص العلماء رحمهم الله تعالى وظاهر كلامهم وصريح إشاراتهم أن من لم يعرف دينه بأدلته وبراهينه، ويستطيع المدافعة عنه، ويدفع شبه الكافرين، لا يباح له السفر إليهم.

3- من شروط السفر إلى بلادهم: أمن الفتنة بقهرهم وسلطانهم وشبهاتهم وزخرفتهم، وأمن التشبه بهم والتأثر بفعلهم.

4- أن سد الذرائع وقطع الوسائل الموصلة إلى الشرك من أكبر أصول الدين وقواعده؛ ولا شك أنما ذكرته في رسالتك مما يصدر عن الشباب المسلمين الذين استوطنوا هذه البلاد هو من ثمرات بقائهم في بلاد الكفر، والواجب عليهم الثبات على دينهم والعمل به، وإظهاره، واتباع أوامره، والبعد عن نواهيه، والدعوة إليه، حتى يستطيعوا الهجرة من بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام.

والله المسئول أن يصلح أحوالكم جميعًا، وأن يمنحكم الفقه في دينه والثبات عليه، وأن يعينكم على الهجرة من بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام، وأن يوفقنا وإياكم وجميع المسلمين لكل ما يحبه ويرضاه، وأن يعيذنا وإياكم وسائر المسلمين من مضلات الفتن ومن نزغات الشيطان، وأن يعيننا جميعًا على كل خير، وأن ينصر دينه ويعلي كلمته، وأن يصلح ولاة أمور المسلمين ويمنحهم الفقه في دينه، وأن يوفقهم لتحكيم شريعة الله في بلادهم، والتحاكم إليها، والرضا بها، والحذر مما يخالفها، إنه ولي ذلك والقادر عليه)) **انتهي.**

- وهذا أشرف مقام يمكن أن يقيم الله عبده فيه وهو أن يكون داعيا إلي توحيد الله ومحذرا متبرئا من الشرك وأهله ، داعيا إلي دين محمد صلي الله عليه وسلم وإلي سنته وطريقته نابذا البدع ؛ فإفراد الله بالعبادة وإفراد رسوله صلي الله عليه وسلم بالمتابعة هو زبدة صريح الدين الذي ارتضاه الله لخلقه فمن عمل بذلك وعلمه غيره فليخلص لله فيه وليحمده علي أكبر نعمه

وعند البخاري من حديث أبي موسي الأشعري قال قال رسول الله صلي الله عليه وسلم

((مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ به مِنَ الهُدَى والعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أصابَ أرْضًا، فَكانَ مِنْها نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فأنْبَتَتِ الكَلأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ، وكانَتْ مِنْها أجادِبُ، أمْسَكَتِ الماءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بها النَّاسَ، فَشَرِبُوا وسَقَوْا وزَرَعُوا، وأَصابَتْ مِنْها

طائِفَةً أُخْرَى، إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلأً، فَذلكَ مَثَلُ مَن فَقُهَ في دِينِ اللَّهِ، ونَفَعَهُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ به فَعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَن لَمْ يَرْفَعْ بذلكَ رَأْسًا، ولَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الذي أُرْسِلْتُ بهِ)) انتهي.

- قال تعالي (ومن أحسن قولا ممن دعا إلي الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين)

في التفسير الميسر ((لا أحد أحسن قولًا ممن دعا إلى توحيد الله وعبادته وحده وعمل صالحًا وقال: إنني من المسلمين المنقادين لأمر الله وشرعه وفي الآية حث على الدعوة إلى الله سبحانه، وبيانُ فضل العلماء الداعين إليه على بصيرة، وَفْق ما جاء عن رسول الله محمد ﷺ))

٢ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذا إلى اليمن قال له:"إنك تأتي قوما من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله."

وفي رواية: "إلى أن يوحدوا الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ،فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب" أخرجاه .

- والحديث صريح في وجوب بدء الناس بالدعوة إلي التوحيد أولا ثم بالعبادات ، وأنه أمر توقيفي لا محل للاجتهاد فيه ؛ فما قدمه الشارع وجب تقديمه وما أخره وجب تأخيره ، فكما أنه يجب اتباعه صلي الله عليه وسلم في الصلاة كيف صلي فكذلك يجب اتباعه في الدعوة كيف دعا ؛ فإن كل باب في الدين مهما عظم فإن التوحيد أعظم منه ، والداعي إلي الله المجاهد في هداية الناس ينبغي أن يكون أكثر جهاده في بيان حق الله من التوحيد ، فمن لم يكن كذلك فاعلم يقينا أنه لم يفقه رسالة الله ، وتوحيده ناقص ولا بد ؛ فإن أعظم معالم الدعوة إلي الله عند أهل السنة والجماعة الدعوة إلي التوحيد ، وهي تقوم علي ركنين : الإخلاص والعلم ، فمتي ما نقص أحدهما صار الإفساد والفساد ملازما للداعي والدعوة بالضرورة ، فأما الإخلاص فدعوة الناس الي افراد الله بالعبادة والبراءة من الشرك والمشركين مع التصريح بالعداوة فهذا من محاسن التوحيد ، ثم العلم فالجاهل ليس من أهل هذا الشان ، ولهذا ليس بمتبع من شارك في الاحزاب والديمقراطية والبرلمانات لانها ليست بطريقة سنية للدعوة بل هي ناقضة لأصل الدين، وكذلك ليست القنوات البدعية محلا لذلك بل الواجب مباينة المشركين والمبتدعين فلا تكن منهم ولو لم تشرك أو تبتدع .

- قال القرطبي عن أهل الكتاب الذين أتاهم علي رضي الله عنه : يعني به اليهود والنصارى، لأنهم كانوا في اليمن أكثر من مشركي العرب أو أغلب، وإنما نبهه على هذا ليتهيأ لمناظرتهم، ويعد الأدلة لامتحانهم، لأنهم أهل علم سابق، بخلاف المشركين وعبدة الأوثان.

وفي التيسير : وقال الحافظ: هو كالتوطئة للوصية ليجمع همته عليها، ثم ذكر معنى كلام القرطبي. قلت: وفيه أن مخاطبة العالم ليست كمخاطبة الجاهل، والتنبيه على أنه ينبغي للإنسان أن يكون على بصيرة في دينه، لئلا يبتلى بمن يورد عليه شبهة من علماء المشركين، ففيه التنبيه على الاحتراز من الشبه، والحرص على طلب العلم.

- وفيه ان الانسان قد يكون قارئا عالما وهو لا يعرف معني لا إله إلا الله أو يعرفه ولا يعمل به .

- وأمر رسول الله صلي الله عليه وسلم معاذا رضي الله عنه أن يكون أول شيء يدعو إليه هو توحيد الله تعالي فقال فيكن أول ما تدعوهم إليه أن يشهدوا ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وفي رواية أن يوحدوا الله كما عند البخاري ، وفي رواية إلي عبادة الله ، والعبادة هي التوحيد كما تقدم في أول الكتاب في باب وجوب التوحيد، ولا يقال لأنهم مشركون ، بل المسلمون أنفسهم يُدعَون أول ما يُدعَون إلي إفراد الله بالعبادة أيضا فإن هذا هو آكد العلوم وأنفعها ، والمراد تقرير هذه العلوم في نفوس المسلمين بحيث لا يتلجلجون ولا يشكون إذا أوردت عليهم شبهة في زمان الشبهات ، غير أن الإيمان والتوحيد يزيد وينقص والقلوب ضعيفة والشبهات خطافة فينبغي معاهدة النفس عليه وتجديد التوحيد وإحياؤه فيها وإلا نُسي وضَعُف في النفس كالنبات هل يحصل الإنماء بعد انقطاع الماء ! بل يذبل ويموت فكذلك النفوس إن لم تُتعاهد بالتوحيد بتقرير مسائله ، واعلم أنك إن ظللت عمرك كله ليس لك هم إلا النظر في مسائل التوحيد وفهمها واعتقادها وتقريرها والدعوة إليها فأنت في خير عميم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ؛ إذ أعظم ما نتقرب به إلي الله - جل وعلا - هو توحيده و التفقه في مسائله علما وعملا فإنه أسمي العلوم وأنفعها علي الإطلاق وأعظمها قدرا عند الله سبحانه ، ومن فهم مسائل التوحيد وضبطها وحررها فهو في نعيم ومآله إلي نعيم ؛ فإن العارفين بتوحيد الله المتمكنين من مسائله يجدون من لذة معرفته ما يعينهم علي تحقيقه فإذا حققوه ارتقوا إلي أعلي درجات الموحدين وهم من يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب.

بالإضافة إلي أن كثيرا من المنتسبين إلي الإسلام الان لم يفهموا التوحيد فهما صحيحا ، وقول الجاهل التوحيد فهمناه من أكبر مكايد الشيطان.

قال ابن القيم في تفسيره قوله تعالي (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ترتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون)

((شَبَّهَ سُبْحانَهُ وتَعالى الكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ بِالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ؛ لِأنَّ الكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ تُثْمِرُ العَمَلَ الصّالِحَ، والشَّجَرَةَ الطَّيِّبَةَ تُثْمِرُ الثَّمَرَ النّافِعَ.

وَهَذا ظاهِرٌ عَلى قَوْلِ جُمْهُورِ المُفَسِّرِينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ " الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ هي شَهادَةُ أنْ لا إلَهَ إلّا اللَّهُ " فَإنَّها تُثْمِرُ جَمِيعَ الأعْمالِ الصّالِحَةِ الظّاهِرَةِ والباطِنَةِ، فَكُلُّ عَمَلٍ صالِحٍ مَرْضِيٍّ لِلَّهِ ثَمَرَةُ هَذِهِ الكَلِمَةِ.

وَقالَ الرَّبِيعُ بْنُ أنَسٍ: " كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ هَذا مَثَلُ الإيمانِ؛ فالإيمانُ الشَّجَرَةُ الطَّيِّبَةُ. وأصْلُها الثّابِتُ الَّذِي لا يَزُولُ الإخْلاصُ فِيهِ، وفَرْعُهُ في السَّماءِ خَشْيَةُ اللَّهِ " والتَّشْبِيهُ عَلى هَذا القَوْلِ أصَحُّ وأظْهَرُ وأحْسَنُ؛ فَإنَّهُ سُبْحانَهُ شَبَّهَ شَجَرَةَ التَّوْحِيدِ في القَلْبِ بِالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ الثّابِتَةِ الأصْلِ الباسِقَةِ الفَرْعِ في السَّماءِ عُلُوًّا، الَّتِي لا تَزالُ تُؤْتِي ثَمَرَتَها كُلَّ حِينٍ، وإذا تَأمَّلْت هَذا التَّشْبِيهَ

رَأيْتَهُ مُطابِقًا لِشَجَرَةِ التَّوْحِيدِ الثّابِتَةِ الرّاسِخَةِ في القَلْبِ، الَّتِي فُرُوعُها مِن الأعْمالِ الصّالِحَةِ صاعِدَةٌ إلى السَّماءِ، ولا تُزال هَذِهِ الشَّجَرَةُ تُثْمِرُ الأعْمالَ الصّالِحَةَ كُلَّ وقْتٍ؛ بِحَسْبِ ثَباتِها في القَلْبِ، ومَحَبَّةِ القَلْبِ لَها، وإخْلاصِهِ فِيها، ومَعْرِفَتِهِ بِحَقِيقَتِها، وقِيامِهِ بِحُقُوقِها، ومُراعاتِها حَقَّ رِعايَتِها، فَمَن رَسَخَتْ هَذِهِ الكَلِمَةُ في قَلْبِهِ بِحَقِيقَتِها الَّتِي هي حَقِيقَتُها واتَّصَفَ قَلْبُهُ بِها وانْصَبَغَ بِها بِصِبْغَةِ اللَّهِ الَّتِي لا أحْسَنَ صِبْغَةً مِنها فَعَرَفَ حَقِيقَةَ الإلَهِيَّةِ الَّتِي يُثْبِتُها قَلْبُهُ لِلَّهِ ويَشْهَدُ بِها لِسانُهُ وتُصَدِّقُها جَوارِحُهُ، ونَفى تِلْكَ الحَقِيقَةِ ولَوازِمَها عَنْ كُلِّ ما سِوى اللَّهِ، وواطَأ قَلْبُهُ لِسانَهُ في هَذا النَّفْيِ والإثْباتِ، وانْقادَتْ جَوارِحُهُ لِمَن شَهِدَ لَهُ بِالوَحْدانِيَّةِ طائِعَةً سالِكَةً سُبُلَ رَبِّهِ ذُلُلًا غَيْرَ ناكِبَةٍ عَنْها ولا باغِيَةٍ سِواها بَدَلًا كَما لا يَبْتَغِي القَلْبُ سِوى مَعْبُودِهِ الحَقِّ بَدَلًا.

فَلا رَيْبَ أنَّ هَذِهِ الكَلِمَةَ مِن هَذا القَلْبِ عَلى هَذا اللِّسانِ لا تَزالُ تُؤْتِي ثَمَرَتَها مِن العَمَلِ الصّالِحِ الصّاعِدِ إلى اللَّهِ كُلَّ وقْتٍ؛ فَهَذِهِ الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ هي الَّتِي رَفَعَتْ هَذا العَمَلَ الصّالِحَ إلى الرَّبِّ تَعالى، وهَذِهِ الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ تُثْمِرُ كَلِمًا كَثِيرًا طَيِّبًا يُقارِنُهُ عَمَلٌ صالِحٌ فَيَرْفَعُ العَمَلُ الصّالِحُ الكَلِمَ الطَّيِّبَ، كَما قالَ تَعالى: ﴿إلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ والعَمَلُ الصّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]

فَأخْبَرَ سُبْحانَهُ أنَّ العَمَلَ الصّالِحَ يَرْفَعُ الكَلِمَ الطَّيِّبَ، وأخْبَرَ أنَّ الكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ تُثْمِرُ لِقائِلِها عَمَلًا صالِحًا كُلَّ وقْتٍ.

وقال عن أثَرُ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ:

والمَقْصُودُ أنَّ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ إذا شَهِدَ بِها المُؤْمِنُ عارِفًا بِمَعْناها وحَقِيقَتِها نَفْيًا وإثْباتًا مُتَّصِفًا بِمُوجِبِها قائِمًا قَلْبُهُ ولِسانُهُ وجَوارِحُهُ بِشَهادَتِهِ، فَهَذِهِ الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ هي الَّتِي رَفَعَتْ هَذا العَمَلَ مِن هَذا الشّاهِدِ، أصْلُها ثابِتٌ راسِخٌ في قَلْبِهِ، وفُرُوعُها مُتَّصِلَةٌ بِالسَّماءِ، وهي مُخْرِجَةٌ لِثَمَرَتِها كُلَّ وقْتٍ.

وَفِي هَذا المَثَلِ مِن الأسْرارِ والعُلُومِ والمَعارِفِ ما يَلِيقُ بِهِ، ويَقْتَضِيه عِلْمُ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ وحِكْمَتُهُ.

فَمِن ذَلِكَ أنَّ الشَّجَرَةَ لا بُدَّ لَها مِن عُرُوقٍ وساقٍ وفُرُوعٍ ووَرَقٍ وثَمَرٍ، فَكَذَلِكَ شَجَرَةُ الإيمانِ والإسْلامِ؛ لِيُطابِقَ المُشَبَّهُ المُشَبَّهَ بِهِ، فَعُرُوقُها العِلْمُ والمَعْرِفَةُ واليَقِينُ، وساقُها الإخْلاصُ، وفُرُوعُها الأعْمالُ، وثَمَرَتُها ما تُوجِبُهُ الأعْمالُ الصّالِحَةُ مِن الآثارِ الحَمِيدَةِ والصِّفاتِ المَمْدُوحَةِ والأخْلاقِ الزَّكِيَّةِ والسَّمْتِ الصّالِحِ والهَدْيِ والدَّلِّ المَرْضِيِّ

وَمِنها: أنَّ الشَّجَرَةَ لا تَبْقى حَيَّةً إلّا بِمادَّةٍ تُسْقِيها وتُنَمِّيها، فَإذا قُطِعَ عَنْها السَّقْيُ أوْشَكَ أنْ تَيْبَسَ، فَهَكَذا شَجَرَةُ الإسْلامِ في القَلْبِ إنْ لَمْ يَتَعاهَدْها صاحِبُها بِسَقْيِها كُلَّ وقْتٍ بِالعِلْمِ النّافِعِ والعَمَلِ الصّالِحِ والعَوْدِ بِالتَّذَكُّرِ عَلى التَّفْكِيرِ والتَّفَكُّرِ عَلى التَّذَكُّرِ، وإلّا أوْشَكَ أنْ تَيْبَسَ، وفي مُسْنَدِ الإمامِ أحْمَدَ مِن حَدِيثِ أبِي هُرَيْرَةَ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إنّ الإيمانَ يَخْلَقُ في القَلْبِ

كَما يَخْلَقُ الثَّوْبُ فَجَدِّدُوا إيمانَكُمْ» وبِالجُمْلَةِ فالغَرْسُ إنْ لَمْ يَتَعاهَدْهُ صاحِبُهُ أوْشَكَ أنْ يَهْلَكَ، ومِن هُنا تَعْلَمُ شِدَّةَ حاجَةِ العِبادِ إلى ما أمَرَ اللَّهُ بِهِ مِن العِباداتِ عَلى تَعاقُبِ الأوْقاتِ

وَمِنها: أنَّ الشَّجَرَةَ لا تَبْقى حَيَّةً إلّا بِمادَّةٍ تُسْقِيها وتُنَمِّيها، فَإذا قُطِعَ عَنْها السَّقْيُ أوْشَكَ أنْ تَيْبَسَ، فَهَكَذا شَجَرَةُ الإسْلامِ في القَلْبِ إنْ لَمْ يَتَعاهَدْها صاحِبُها بِسَقْيِها كُلَّ وقْتٍ بِالعِلْمِ النّافِعِ والعَمَلِ الصّالِحِ والعَوْدِ بِالتَّذَكُّرِ عَلى التَّفْكِيرِ والتَّفَكُّرِ عَلى التَّذَكُّرِ، وإلّا أوْشَكَ أنْ تَيْبَسَ، وفي مُسْنَدِ الإمامِ أحْمَدَ مِن حَدِيثِ أبِي هُرَيْرَةَ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إنّ الإيمانَ يَخْلَقُ في القَلْبِ كَما يَخْلَقُ الثَّوْبُ فَجَدِّدُوا إيمانَكُمْ» وبِالجُمْلَةِ فالغَرْسُ إنْ لَمْ يَتَعاهَدْهُ صاحِبُهُ أوْشَكَ أنْ يَهْلَكَ، ومِن هُنا تَعْلَمُ شِدَّةَ حاجَةِ العِبادِ إلى ما أمَرَ اللَّهُ بِهِ مِن العِباداتِ عَلى تَعاقُبِ الأوْقاتِ وعَظِيمِ رَحْمَتِهِ وتَمامِ نِعْمَتِهِ وإحْسانِهِ إلى عِبادِهِ بِأنْ وظَّفَها عَلَيْها وجَعَلَها مادَّةً لِسَقْيِ غِراسِ التَّوْحِيدِ الَّذِي غَرَسَهُ في قُلُوبِهِمْ.

وَمِنها: أنَّ الغَرْسَ والزَّرْعَ النّافِعَ قَدْ أجْرى اللَّهُ سُبْحانَهُ العادَةَ أنَّهُ لا بُدَّ أنْ يُخالِطَهُ دَغَلٌ ونَبْتٌ غَرِيبٌ لَيْسَ مِن جِنْسِهِ، فَإنْ تَعاهَدَهُ رَبُّهُ ونَقّاهُ وقَلَعَهُ كَمُلَ الغَرْسُ والزَّرْعُ، واسْتَوى، وتَمَّ نَباتُهُ، وكانَ أوْفَرَ لِثَمَرَتِهِ، وأطْيَبَ وأزْكى، وإنْ تَرَكَهُ أوْشَكَ أنْ يَغْلِبَ عَلى الغَرْسِ والزَّرْعِ، ويَكُونُ الحُكْمُ لَهُ، أوْ يُضْعِفَ الأصْلَ ويَجْعَلَ الثَّمَرَةَ ذَمِيمَةً ناقِصَةً بِحَسْبِ كَثْرَتِهِ وقِلَّتِهِ، ومَن لَمْ يَكُنْ لَهُ فِقْهُ نَفْسٍ في هَذا ومَعْرِفَةٌ بِهِ فَإنَّهُ يَفُوتُهُ رِبْحٌ كَبِيرٌ وهو لا يَشْعُرُ؛ فالمُؤْمِنُ دائِمًا سَعْيُهُ في شَيْئَيْنِ: سَقْيِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ، وتَنْقِيَةِ ما حَوْلَها، فَبِسَقْيِها تَبْقى وتَدُومُ وبِتَنْقِيَةِ ما حَوْلَها تَكْمُلُ وتَتِمُّ، واللَّهُ المُسْتَعانُ وعَلَيْهِ التُّكْلانُ) **انتهي**.

- وفي الحديث بيان أهمية معرفة حال من تدعوهم لأن الدعوة إلي الله بجانب أنها تحتاج إلي علم شرعي صحيح في ذاتها ، تحتاج إلي فقه وعلم بحال المدعويين وبطريقة إيصال العلم علي وجهه المناسب لهم فتعرف مثلا لغتهم ونحو ذلك ولهذا قال تعالي (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم)، وقال ابن القيم - رحمه الله تعالى - في معنى قوله تعالى :((ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ : ذكر سبحانه مراتب الدعوة وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو: فإنه إما أن يكون طالبا للحق محبا له، مؤثرا له على غيره إذا عرفه، فهذا يدعى بالحكمة، ولا يحتاج إلى موعظة وجدال. وإما أن يكون مشتغلا بضد الحق. لكن لو عرفه أثره واتبعه، فهذا يحتاج إلى الموعظة بالترغيب والترهيب. وإما أن يكون معاندا معارضا، فهذا يجادل بالتي هي أحسن. فإن رجع وإلا انتقل معه إلى الجدال إن أمكن. انتهى.

وينبغي أن يحذر من الرياء وحب الظهور والرياسة فهو إنما يدعو إلي الله لا يدعو إلي نفسه ، وبين الرياء والإخلاص شعرة لا يشعر بها ويجاهد نفسه لإخلاص النية لله إلا موحد كما قال الشافعي وغيره : لا يعرف الرياء إلا مخلص .

وقال ابن القيم في الفرق بين حب الإمامة وحب الرياسة كما في كتابه الروح :

(والفرق بين حبِّ الرياسة، وحبِّ الإمامة للدعوة إلى الله، هو الفرق بين تعظيم أمرِ الله والنصحِ له، وتعظيم النفس والسعي في حظها.

فإنَّ الناصحَ لله المعظِّمَ له المحبَّ له يحِبُّ أن يطاع ربُّه فلا يُعصَى، وأن تكون كلمتُه العليا، وأن يكونَ الدين كلُّه لله، وأن يكون العبادُ ممتثلين أوامرَه مجتنبين نواهيَه، فقد ناصحَ اللهَ في عبوديته، وناصحَ خلقَه في الدعوة إلى الله، فهو يحبُّ الإمامة في الدِّين بل يسأل ربه أن يجعله للمتقين إمامًا يقتدي به المتقون، كما اقتدى هو بالمتقين فإذا أحبَّ هذا العبدُ الداعي إلى الله أن يكون في أعين الناس جليلًا، وفي قلوبهم مَهيبًا، وإليهم حبيبًا؛ وأن يكون فيهم مطاعًا، لكي يأتمُّوا به، ويقتفوا أثر الرسول على يده= لم يضرَّه ذلك، بل يُحمَد عليه؛ لأنه داعٍ إلى الله يُحِبُّ أن يطاع ويعبَد ويوحَّد؛ فهو يحب ما يكون عونًا على ذلك موصلًا إليه.

ولهذا ذكر سبحانه عبادَه الذين اختصَّهم لنفسه، وأثنى عليهم في تنزيله، وأحسن جزاءهم يوم لقائه= فذكرهم بأحسنِ أعمالهم وأوصافهم، ثم قال} :وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا فسألوه أن يُقِرَّ أعينَهم بطاعة أزواجهم وذرِّياتهم له سبحانه، وأن يَسُرَّ قلوبَهم باتباع المتقين له على طاعته وعبوديته. فإنَّ الإمامَ والمؤتمَّ متعاونان على الطاعة، فإنما سألوه ما يعاونون به المتقين على مرضاته وطاعته، وهو دعوتهم إلى الله بالإمامة في الدين التي أساسُها الصبر واليقين، كما قال تعالى} :وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ

فسؤالهم أن يجعلهم أئمةً للمتقين هو سؤالُ أن يهديَهم ويوفِّقهم، ويمنَّ عليهم بالعلوم النافعة، والأعمالِ الصالحة ظاهرًا وباطنًا التي لا تتم الإمامة إلا بها.

وتأمَّلْ كيف نسبهم في هذه الآيات إلى اسمه الرحمن جلَّ جلالُه ليعلم خلقه أن هذا إنما نالوه بفضلِ رحمته ومحضِ جُوده ومنَّته! وتأمَّلْ كيف جعل جزاءهم في هذه السورة الغُرَف، وهي المنازلُ العالية في الجنة! لمَّا كانت الإمامة في الدين من الرُّتَب العالية، بل من أعلى مرتبة يعطاها العبدُ في الدنيا، كان جزاؤه عليها الغرفة العالية في الجنة.

وهذا بخلاف طلب الرياسة، فإنَّ طلَّابها يسعَون في تحصيلها لينالوا بها أغراضهم من العلوِّ في الأرض، وتعبُّدِ القلوب لهم، وميلِها إليهم، ومساعدتِهم لهم على جميع أغراضهم؛ مع كونهم عالين عليهم قاهرين لهم. فترتَّب على هذا الطلب من المفاسد ما لا يعلمه إلا الله، من البغي والحسد والطغيان والحقد والظلم والفتنة، والحميَّةِ للنفس دون حقِّ الله، وتعظيمِ مَن حقَّره الله، واحتقارِ مَن أكرمه الله. ولا تتمُّ الرياسة الدنيوية إلا بذلك، ولا تُنال إلا به وبأضعافه من المفاسد.

والرؤساءُ في عمًى عن هذا، فإذا كُشِف الغطاء تبيَّن لهم فسادُ ما كانوا عليه، ولاسيَّما إذا حُشروا في صور الذرِّ يطؤهم أهلُ الموقف بأرجلهم إهانةً لهم وتحقيرًا وتصغيرًا، كما صغَّروا أمر الله وحقَّروا عباده) انتهي كلام ابن القيم .

قال العصيمي في شرحه (والفرق بين طلب الإمامة وطلب الرياسة أن الأول ينظر إلي حق الله في الخلق ، والثاني ينظر إلي حق نفسه فيهم ، فلتباين النظرين اختلف المقامان ، فالداعي إلي الله عز وجل الطامع في الإمامة للمتقين يبين للخلق ما يجب عليهم من حق الله عز وجل ويرشدهم إليه ويعاونهم عليه ويرغبهم فيه ، ولا يطلب لنفسه شيئا ، وأما طالب الرئاسة فإنه يريد من الخلق حظ نفسه فهو يعاملهم بقدر ما يعاملونه فمن عظمه أحسن إليه ، ومن رفعه أدناه منه ، ومن مدحه جعله صفيه وخليله ، فأمره في معاملة الناس دائرا مع ما يعاملونه به في حظ نفسه ، ومن كملت معرفته بالله سقطت من عينه رؤية حظه من الخلق ، هفو لا يريد منهم شيئا ولا يسألهم شيئا ولا يعاتبهم في فوات شيء ، فالأمر كما أخبر أبو العباس ابن تيمية ، أن العارف بالله لا يطالب ولا يعاتب ولا يغالب ، فهو لا يطالب الناس بشيء ، ولا يعاتبهم علي شيء ، ولا يغالبهم في شيء، فهو في حال والناس في حال ، وهو في واد والناس في واد ،فهو يريد من الله ولا يريد من الناس ، وينظر إلي أمر الله ولا ينظر إلي أمر الناس ، ومن كان كذلك لم يبالي بالجموع فالواحد كالألف والألف كالواحد لأن مقصوده نشر الحق ، فإن بلغ الحق اسماعا كثارا فذاك غاية المني ، وإن كانت الأذن التي يبلغها الحق من فيه اذنا وأحدة فإن ذلك امتثال لما أمر الله عز وجل من البلاغ والبيان و البيان والهداية والإرشاد ، فهو ينظر إلي ما أمر الله لا إلي ما قدر الله ، فأمره الله عز وجل أن يدعو ولم يقدر الله أن يجلس إليه كبير أحد من المدعويين ، وذلك لا يحمله أن يكف نفسه عما أمر الله سبحانه وتعالي به وشواهده في أحوال كمل الخلق كثير ، فإن نافعا مولي ابن عمر رضي الله عنهما كان يجلس بعد الفجر في مسجد النبي فلا يجلس إليه أحد في العلم إلا مالك بن أنسل ، فحمل مالك علم نافع وقلَّ الرواة عن نافع وكان إمامهم مالكا وكثر الرواة عن مالك فروي عنه مئين فنشر علم نافع برواية مالك عنه ، لما علم الله عنه من صدقه وجهاده في تبليغ ما عنده من العلم ولو لم يجلس معه إلا رجل واحد ، وكان أبو عبد الله بن مالك صاحب الألفية قد حبس نفسه علي مدرسة شرط واقفها تدريس العربية والقراءات فكان يجلس بعد صلاة الفجر كل يوم منتظرا أن يأتيه أحد يقرا عليه العربية أو القراءات ولم يكن ينقطع عند عدم مجيء أحد أياما متتابعة بل كان ملازما جلوسه كل يوم لشرط الواقف ، بل كان قبل أن ينصرف يخرج من كوة أي فتحة في جدار المدرسة ثم يقول بصوت عال هل من طالب للقراءات هل من طالب للنحو ثم يخرج رحمه الله تعالي ، وهذه حال تعظم علي النفس فإن النفس إذا كثر السامعون قويت وإذا قل السامعون ضعفت إلامن وفقه الله عزوجل ألا يري الخلق شيئا فهو لا يري إلا ما أمره الله عز وجل من الدين بالأمر بالبلاغ والهدية والإرشاد والبيان فمن قام في هذا المقام فهو قائم في ميراث البنوة ممسك بأهداب الهدي النبوي الذي كان عليه النبي صلي الله عليه وسلم ، وينبغي أن تكون هذه

هي حال المؤمن الصادق ، فهمه إصلاح الناس ودعوتهم إلي الله سبحانه وتعالي ومن صدق الله عز وجل يفتح له من أبواب الفهم والعلم والادراك ما لا يكون لغيره ومن شغل قلبه برؤية الناس وطلب العلو عليهم وجلس علي الكراسي ليكون أرفع منهم فإن هذا في قلبه كبر ومرض يمنعه من كمال العلم قال الله تعالي (سأصرف عن اياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق) قال سفيان بن عيينة أحرمهم فهم القران ، وقال الفريابي أمنعهم تدبر امري ، فما يحصل من فوت العلم لأحدنا ليس مرده إلي قلة فهه ولا إلي ضعف حفظه كلا ، بل مرده الأعظم إلي فساد في قلبه فهو محتاج إلي نفي القاذورات القلبية التي انطوي عليها ضميره من حقد أوحسد أو غل أو بغض أو غير ذلك من أدواء القلوب التي يحتاج المرء فيها إلي دوام المجاهدة مرة بعد مرة فلا ينبغي أن يغفل العبد عن قلبه ولا قدر إغماضة عين لأن القلب يتقلب سريعا فمن تقلبه ما يشربه من الأهواء والأدواء فإن يتفطن العبد إليها ويبادر إلي سرعة مداواتها بأنواع من المراهم والادوية المنعوتة في الشرع وإلا فإن قلبه يفوته ، وكم من امرئ يزاحم بالركب في مجالس العلم ثم نكص علي عقبيه وما ربك بظلام للعبيد والله أكرم الأكرمين ولا يرد مقبلا عليه ولكن الشأن أنه أقبل بالصورة الظاهرة ، وصدف بالحقيقة الباطنة فهو في ظاهر صورته مقبل علي العلم مزاحم فيه وأما في حقيقة باطنه فإن قلبه مشغول بطلب رئاسة فيه أو منصب أو مال أو حظ من الدنيا أو شهرة أو مكانة من الناس أو منطو علي شيء من هذه القاذورات النتنة من أمراض القلوب تقلعه حينئذ من مجالس العلم وتخرجه بعد أن دخل نسأل الله أن يرزقنا جميعا علما نافعا وعملا صالحا وأن يجعلنا من عباده وأوليائه) **انتهي** .

- وأن التوحيد هو أول الدعوة وآخرها وظاهرها وباطنها لانه شرط صحة العبادات ؛ فإذا أشرك العبد الشرك الأكبر لم يقبل الله منه صرفا ولا عدلا وهو من الخالدين المخلدين في النار والعياذ بالله.

قال في التيسير : (ومعنى شهادة أن لا إله إلا الله، معناها توحيد الله بالعبادة، وترك عبادة ما سواه .. وذلك هو الكفر بالطاغوت والايمان بالله الذي قال الله فيه (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقي لا انفصام لها)

ومعنى الكفر بالطاغوت: هو خلع الأنداد والآلهة ـ التي تدعى من دون الله ـ من القلب، وترك الشرك بها رأسًا، وبغضه وعداوته وتكفير من فعله .

ومعنى الإيمان بالله: هو إفراده بالعبادة التي تتضمن غاية الحب بغاية الذل والانقياد لأمره، وهذا هو الإيمان بالله المستلزم للإيمان بالرسل عليهم السلام، المستلزم لإخلاص العبادة لله تعالى، وذلك هو توحيد الله تعالى ودينه الحق المستلزم للعلم النافع، والعمل الصالح، وهو حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، وحقيقة المعرفة بالله، وحقيقة عبادته وحده لا شريك له

فلله ما أفقه من روى هذا الحديث بهذه الألفاظ المختلفة لفظًا المتفقة معنى**!** فعرفوا أن المراد من شهادة أن لا إله إلا الله هو الإقرار بها علمًا ونطقًا وعملاً، خلافًا لما يظنه بعض الجهال أن المراد من هذه الكلمة هو مجرد النطق بها، أو الإقرار بوجود الله أو ملكه لكل شيء من غير شريك، فإن هذا القدر قد عرفه عباد الأوثان وأقروا به، فضلاً عن أهل الكتاب، ولو كان كذلك لم يحتاجوا إلى الدعوة إليه)انتهي.

- وفيه دليل على أن التوحيد ـ الذي هو إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه ـ هو أول واجب، فلهذا كان أول ما دعت إليه الرسل عليهم السلام، كما قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ} ١. وقال: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}

-ومع شهادة أن لا إله إلا الله لا بد من شهادة أن محمدا رسول الله لا يكتفي بإحداها عن الأخري ، فمن شهد الأولي وكفر بسيد ولد آدم فهو كافر بهما جميعا ، قال سبحانه (من يطع الرسول فقد أطاع الله) ، ومن شهد الثانية دون الأولي فهو كافر كذلك .

- ولهذا يجب عليك أن تعلم أولا أن أي عمل يتقرب به العبد إلي الله سبحانه وتعالي لابد فيه من شرطين حتي يقبل ولا يستغني بأحدهما عن الآخر وهما : شرط الإخلاص المنافي للشرك ، وشرط السنة المنافية للبدعة.

والشرط الأول هو موضوع الكتاب في الأساس، وأما الثاني فهو توحيد المتابعة لرسول الله صلي الله عليه وسلم بحيث نطيعه هو فيما أمر ونصدقه فيما أخبر ونتنهي عما نهي عنه وزجر وألا نعبد الله إلا بماشرع وأن نتحاكم إليه في حياته وإلي سنته بعد مماته.

وحتي نحقق شرط المتابعة لا بد من تحقيق ستة شروط هي موافقة هدي الرسول صلي الله عليه وسلم في العبادة من حيث الزمان والمكان والسبب والجنس والقدر والكيفية ؛ فأما السبب فلا يخترع العبد سببا من عند نفسه كتخصيص مكان أو زمان بعبادة من العبادات كتخصيص ليلة النصف من شعبان بقيام أو يومها بصيام دون غيرها من الايام لا لشيء إلا لأنه يوم النصف ، ومثل تخصيص ليلة السابع والعشرين من شهر رجب بذلك أيضا ، فمن فعل فقد ابتدع وهو آثم وعمله مردود لحديث عائشة أن النبي صلي الله عليه وسلم (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد - أي مردود علي صاحبه -) وفي رواية : من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد

وأما المكان : فتوافق عبادة الرسول صلي الله عليه وسلم في مكانها الذي عينه فلا يعتكف مثلا في البيت وإنما يكون الاعتكاف في مسجد .

وكذلك الزمان : فمن ذبح أضحيته قبل الصلاة بنية الأضحية فعمله مردود.

والجنس : إن كانت العبادة ذات جنس معين فلا يجوز تجاوزه أو تعديه إلي غيره كالأضاحي لا تكون إلا من بهيمة الأنعام الإبل أو البقر أوالغنم فمن ضحي بزعمه بخيل أو دجاج فهو آثم مبتدع وعمله مردود، كذلك زكاة الفطر من أخرجها نقودا فهو آثم مبتدع وعمله مردود.

والقدر : فمن صلي الظهر خمسا تقربا فكذلك.

والكيفية : فمن توضا بادئا بغسل رجليه فبدعة وإثم ووضوؤه باطل .

وعلي هذا فقس سائر العبادات.

- قال ابن تيمية في المجموع :

(وقد علم بالاضطرار من دين الرسول صلى الله عليه وسلم واتفقت عليه الأمة أن أصل الإسلام، وأول ما يؤمر به الخلق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فبذلك يصير الكافر مسلمًا، والعدو وليًا، والمباح دمه وماله معصومَ الدم والمال، ثم إن كان ذلك من قلبه، فقد دخل في الإيمان، وإن قاله بلسانه دون قلبه، فهو في ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان) انتهي كلام ابن تيمية.

- قال في التيسير ((وفيه البداءة في الدعوة والتعليم يالأهم فالمهم) .

- وفيه: أنه لا يحكم بإسلام الكافر إلا بالنطق بالشهادتين. قال شيخ الإسلام: فأما الشهادتان إذا لم يتكلم بهما مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين، وهو كافر باطنًا وظاهرًا عند سلف الأمة وأئمتها، وجماهير علمائها

- قال في التيسير : هذا الذي أمر به النبي صلى الله عليه وسلم معاذًا، هو الدعوة قبل القتال التي كان يوصي بها النبي صلى الله عليه وسلم أمراءه.

قلت: فعلى هذا فيه تستحب الدعوة قبل القتال لمن بلغته الدعوة، أما من لم تبلغه فتجب دعوته

- قال في التيسير (واعلم أنه لم يذكر في هذا الحديث ونحوه الصوم والحج، مع أن بعث معاذ كان في آخر الأمر كما تقدم، فأشكل ذلك على كثير من العلماء.

قال شيخ الإسلام: أجاب بعض الناس أن الرواة اختصر بعضهم الحديث وليس الأمر كذلك، فإن هذا طعن في الرواة، لأن هذا إنما يقع في الحديث الواحد مثل حديث عبد القيس ـ حيث ذكر بعضهم الصيام وبعضهم لم يذكره ـ فأما الحديثان المنفصلان، فليس الأمر فيهما كذلك، ولكن عن هذا جوابان:

أحدهما: أن ذلك بحسب نزول الفرائض، وأول ما فرض الله الشهادتان ثم الصلاة، فإنه أمر بالصلاة في أول أوقات الوحي، ولهذا لم يذكر وجوب الحج في عامة الأحاديث إنما جاء في الأحاديث المتأخرة ، قلت: وهذا من الأحاديث المتأخرة ولم يذكر فيها الجواب.

الثاني: أنه كان صلى الله عليه وسلم يذكر في كل مقام ما يناسبه، فيذكر تارة الفرائض التي يقاتل عليها كالصلاة والزكاة، ويذكر تارة الصلاة والصيام إن لم يكن عليه زكاة، ويذكر تارة الصلاة والزكاة والصيام، فإما أن يكون قبل فرض الحج، كما في حديث عبد القيس ونحوه، وإما أن يكون المخاطب بذلك لا حج عليه.

وأما الصلاة والزكاة، فلهما شأن ليس لسائر الفرائض، ولهذا ذكر الله تعالى في كتابه القتال عليهما، لأنهما عبادتان ظاهرتان بخلاف الصوم، فإنه أمر باطن وهو مما ائتمن عليه الناس، فهو من جنس الوضوء والاغتسال من الجنابة: ونحو ذلك مما يؤتمن عليه العبد، فإن الإنسان يمكنه أن لا ينوي الصوم وأن يأكل سرًا، كما يمكنه أن يكتم حدثه وجنابته، بخلاف الصلاة والزكاة، وهو صلى الله عليه وسلم يذكر في الإعلام الأعمال الظاهرة التي يقاتل الناس عليها، ويصيرون مسلمين بفعلها، فلهذا علق ذلك بالصلاة والزكاة دون الصيام، وإن كان واجبًا كما في آيتي (براءة١١) فإن (براءة) نزلت بعد فرض الصيام باتفاق الناس

وكذلك لما بعث معاذ بن جبل إلى اليمن لم يذكر في حديثه الصيام؛ ـ لأنه تبع وهو باطن ـ ولا ذكر الحج، لأن وجوبه خاص ليس بعام، وهو لا يجب في العمر إلا مرة واحدة) **انتهي** .

فخلاصة الجواب عن ذلك أنه إما اختصار للحديث ، أو بحسب نزول الفرائض وترتيبها ، أو لأن الصيام كان مفروضا علي الأمم قبلنا وكذلك الحج علي اليهود والنصاري تبع لهم ،أو لأن الصيام عبادة باطنة في شهر واحد في السنة وكذلك الحج مرة واحد في العمر ، فقدم ما يتكرر علي غيره . أفاده العصيمي .

- وقوله فإن هم أطاعوك لذلك قد ورد في رواية أخري للشيخين (فإذا عرفوا الله) وهذا يبين لك أن الموحد فقط هو من يعرف الله ، وأما المشرك أيا كانت ديانته فهو جاهل بالله جهلا يخلده في النار ، ويعبد ربنا غير الذي نعبده.

-ثم قال فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات

وهذا يبين لك أن أول ما يدعي إليه الناس ويجتهد الداعي في هدايتهم له هو التوحيد ثم يليه الصلاة التي هي أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين ومن عظمها أنها هي الفريضة الوحيده التي فرضها الله في المعراج بعد أن كلم رسولنا الكريم صلي الله عليه وسلم ، وهو الركن الوحيد الذي يكفر العبد بتركه كما أخبر صلي الله عليه وسلم (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر) وقال (بين الرجل وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة) وعليه أدلة كثيرة

أوردتها في كتابي الإيمان وبينت أن الكفر هنا هو الكفر الأكبر لا الأصغر مع ذكر إجماع الصحابة عليه.

- ثم بعد ذلك تأتي فريضة الزكاة تؤخذ من أغنياء البلد إلي فقرائه فهم أحق من فقراء البلاد الأخري إلا لمصلحة شرعية كجهاد أو مجاعات أو لأقاربه الذين لا تجب عليه نفقتهم فيجوز ، وإلا فلا يجوز ، ودليل الجواز للمصلحة أن النبي صلي الله عليه وسلم كان يرسل السعاة فيجمعونها فيخرجها لفقراء المدينة.

وأما نقلها لمحافظات أخري في نفس البلد دون مصلحة فقال بعضهم لا يجوز ألا ما كان دون مسافة القصر لكن هذا لا دليل عليه ، وحوز بعضهم ذلك وهو الصحيح الذي كان عليه العمل في عهد الخلفاء الراشدين فإن عمرو بن العاص كان واليا علي مصر كلها وكان أبو موسي علي نصف اليمن ومعاذ علي النصف الآخر وكانوا يجمعون أموال الزكاة ثم توزع علي فقراء اليمن وهذا لا شك أكثر من مسافة القصر ، ولهذا جوز ابن تيمية نقلها في نفس الإقليم وإن بعد عن مسافة القصر وقال هو الذي عليه عمل الخلفاء الراشدين.

وإن أخرجها المزكي لغير بلده دون مصلحة أثم مع إجزاء الفريضة ، فإن قيل كيف يأثم وتجزئ عنه مع أن النهي يقتضي الفساد قلنا النهي عنا ليس عائدا لذات الشيء بل لأمر خارج وهو النقل وإلا فإنها قد دفعت لأهلها فأجزأت .

- ثم قال وإياك وكرائم أموالهم جمع كريمة وهي النفيسة عن أصحابها وإنما يأخذ العامل علي الزكاة من أواسط المال فلا ظلم للفقير ولا للمزكي ، وذلك لقوله تعالي

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ) .

2- ولهما عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر" :لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه .فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها فلما أصبحوا غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو أن يعطاها :فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقيل :هو يشتكي عينيه. فأرسلوا إليه فأتي به، فبصق في عينيه ; ودعا له فبرأ كأن لم يكن به وجع .فأعطاه الراية فقال :انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم" يدوكون أي :يخوضون.

- في التيسير : قوله: "يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله". فيه فضيلة عظيمة لعلي رضي الله عنه لأن النبي صلى الله عليه وسلم شهد له بذلك، ولكن ليس هذا من خصائصه. قال شيخ الإسلام: ليس هذا الوصف مختصًا بعلي ولا بالأئمة، فإن الله ورسوله يحب كل مؤمن تقي

يحب الله ورسوله، لكن هذا الحديث من أحسن ما يحتج به على النواصب الذي يتبرؤون منه ولا يتولونه، بل لقد يكفرونه أو يفسقونه كالخوارج. لكن هذا الاحتجاج لا يتم على قول الرافضة الذين يجعلون النصوص الدالة على فضائل الصحابة كانت قبل ردتهم ، فإن الخوارج تقول في علي مثل ذلك، لكن هذا باطل فإن الله ورسوله لا يطلق مثل هذا المدح على من يعلم أنه يموت كافرًا. وفيه إثبات صفة المحبة لله، وفيه إشارة إلى أن عليًا تام الاتباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحبه الله، ولهذا كانت محبته علامة الإيمان، وبغضه علامة النفاق ذكره. الحافظ بمعناه) انتهي .

- في التيسير (قوله قوله: "ثم ادعهم إلى الإسلام"، أي: الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله .

وفي حديث أبي هريرة عند مسلم: "فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ بن أبي طالب، فأعطاه الراية. وقال: امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك. فسار علي شيئًا ثم وقف ولم يلتفت، فصرخ: يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟ فقال: قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله"

وفيه أن الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله، المراد بها الدعوة إلى الإخلاص بها وترك الشرك وإلا فاليهود يقولونها، ولم يفرق النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة إليها بينهم وبين من لا يقولها من مشركي العرب، فعلم أن المراد من هذه الكلمة هو اللفظ بها، واعتقاد معناها، والعمل به، وذلك هو معنى قوله تعالى : قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ، وقوله : قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ وذلك هو معنى قوله" :ثم ادعهم إلى الإسلام " الذي هو الاستسلام لله تعالى، والانقياد له بفعل التوحيد وترك الشرك. وفيه مشروعية الدعوة قبل القتال، لكن إن كانوا قد بلغتهم الدعوة جاز قتالهم ابتداء، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أغار على بني المصطلق وهم غارون، وتستحب دعوتهم لهذا الحديث وما في معناه، وإن كانوا لم تبلغهم وجبت دعوتهم.

وقوله" :وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه ."أي.: في الإسلام، أي :إذا أجابوا إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حقوقه التي لا بد من فعلها، كالصلاة، والزكاة، وهذا كقوله في حديث أبي هريرة " :فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وقد فسره أبو بكر الصديق لعمر رضي الله عنهما لما قاتل أهل الردة الذين يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله .فقال له عمر" :كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوا فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها؟ !قال أبو بكر :فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقًا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلهم على منعها"

وحاصله أنهم إذا أجابوا إلى الإسلام الذي ـ هو التوحيد ـ فأخبرهم بما يجب عليهم بعد ذلك من حق الله تعالى في الإسلام من الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام الظاهرة وحقوقه؛ فإن أجابوا إلى ذلك فقد أجابوا إلى الإسلام حقًا، وإن امتنعوا عن شيء من ذلك فالقتال باق بحاله إجماعًا. فدل على أن النطق بكلمتي الشهادة دليل العصمة لا أنه عصمة، أو يقال :هو العصمة لكن بشرط العمل، يدل على ذلك قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا، ولو كان النطق بالشهادتين عاصمًا لم يكن للتثبت معنى، يدل على ذلك قوله تعالى} :فَإِنْ تَابُوا أي :عن الشرك وفعلوا التوحيد َوأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ فدل على أن القتال يكون على هذه الأمور.

وفيه أن لله تعالى حقوقًا في الإسلام من لم يأت بها لم يكن مسلمًا، كإخلاص العبادة له والكفر بما يعبد من دونه، وفيه بعث الإمام الدعاة إلى الله، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون يفعلون، وفيه تعليم الإمام أمراءه وعماله ما يحتاجون إليه.

قوله" :فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم "أن: هي المصدرية، واللام قبلها مفتوحة، لأنها لام القسم، ومدخولها مسبوك بمصدر مرفوع على أنه مبتدأ خبره "خير."

وحُمْر بضم المهملة وسكون الميم، والنعم بفتح النون والعين المهملة .أي :خير لك من الإبل الحمر، وهي أنفس أموال العرب، يضربون بها المثل في نفاسة الشيء .قيل :المراد خير من أن تكون لك فتتصدق بها. وقيل تقتنيها وتملكها، قلت:- سليمان - هذا هو الأظهر، والأول لا دليل عليه. أي أنكم تحبون متاع الدنيا، وهذا خير منه.

قال النووي :وتشبيه أمور الآخرة بأمور الدنيا إنما هو للتقريب إلى الأفهام، وإلا فذرة من الآخرة خير من الأرض بأسرها، وأمثالها معها.

وفيه فضيلة الدعوة إلى الله، وفضيلة من اهتدى على يديه رجل واحد، وجواز الحلف على الفتية والقضاء والخبر، والحلف من غير استحلاف) انتهي من التيسير.

- وقوله لأن يهدي الله بك المراد هنا هداية البيان والإرشاد لا هداية التوفيق والإلهام فهذه لله وحده ، ولهذا قال (بك) فأنت مجرد ظاع ، والتوفيق من الله وحده ، فاستحضر ذلك لزوما ولا تك في ضيق من المنكرين أو المخالفين ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، فما عليك إلا البلاغ فإن أجابوا فالحمد لله وإن لم يجيبوا فالحمد لله أن وفقك للبلاغ وإقامة الحجة .

- وقوله خير لك من حُمْر النَّعم هو كقولنا في زماننا خير لك من أطنان من الذهب ، أي أن ما في الاخرة من ثواب هداية الناس علي يديك لا يعلم قدره إلا الله ، وقيل أن هذا الثواب الجزيل خاص بهداية الناس من الكفر الي الاسلام لا هداية المسلم من المعصية الي الطاعة ، ودليلهم

القرينة الحالية التي فيها الحديث فإن عليا كان يدعو كفارا ، وقيل ان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فيشمل جميع انواع الهداية و الاهتداء .

6) باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

- هذا الباب هو المقصود من الكتاب ، والمراد تفسير توحيد العبادة ؛ لأنه هو محل النزاع بين الرسل وأقوامهم كما تقدم ، ولأن توحيد العبادة هو المقصود من تأليف الكتاب أصالة ، والتكرار يزيده بيانا وتقوية حتي يرسخ في القلوب وتطمئن إليه النفوس ، فلا يضيق صدرك - أيها الموحد - ؛ فإن من عرف التوحيد حقا فرح ولو بمعرفة مسألة واحدة منه ، وعدم التكرار لتوحيد العبادة والانشغال بغيره من العلوم هو مما يؤدي إلي ضعفه في القلب ، والغفلة عنه ، ونسيان مسائله ، وقلة المبالاة به حتي لا يبقي منه شيء ، والإيمان والتوحيد يزيد وينقص فينبغي تعاهده وإحياؤه ما دمت حيا ، والمصنف يبدي فيه ويعيد بالآخر للأول وهذا مسلك جيد جدا بل لا بد منه.

قال العصيمي (والإيغال في تحرير وتقرير مسائل توحيد العبادة هو من آكد العلم وأنفعه ، ولا يراد مجرد الفراغ من كتب العلم بل المراد الأعظم تقرر ما فيها من العلوم والمعارف في نفوس المتلقين حتي تكون هذه المسائل بينة فلا يتلجلج بإيراد شبهة من الشبهات ولا يتوقف عن رد باطل من الأباطيل هو خلاف ما تقرر عنده من البيان التام لهذه المسائل ؛ فلا ينبغي أن يكون طالب العلم والتوحيد في ضيق من ذلك ، فإن من عرف التوحيد حقا فرح بتحرير مسألة واحدة منه ولو مد القول فيها ؛ لأن تحقيق مسائل التوحيد يقوي النفوس للوصول إليه ؛ فإن العارفين بتوحيد الله المتمكنين من مسائله يجدون من لذة معرفته ما يعينهم علي تحقيقه فيرتقون لأعلي الدرجات وهي دخول الجنة بغير حساب ولا عذاب ، نسأل الله أن نكون منهم)انتهي.

- قال في التيسير : ((لما ذكر المصنف في الأبواب السابقة التوحيد وفضائله، والدعوة إليه، والخوف من ضده الذي هو الشرك، فكأن النفوس اشتاقت إلى معرفة هذا الأمر الذي خلقت له الخليقة، والذي بلغ من شأنه عند الله أن من لقيه به غفر له، ـ وإن لقيه بملء الأرض خطايا ـ: بين رحمه الله في هذا الباب أنه ليس اسمًا لا معنى له، أو قولاً لا حقيقة له، كما يظنه الجاهلون الذين يظنون أن غاية التحقيق فيه هو النطق بكلمة الشهادة من غير اعتقاد القلب بشيء من المعاني، والحاذق منهم يظن أن معنى الإله هو الخالق المتفرد بالملك، فتكون غاية معرفته هو الإقرار بتوحيد الربوبية، وهذا ليس هو المراد بالتوحيد، ولا هو أيضًا معنى " لا إله إلا الله " وإن كان لا بد منه في التوحيد بل التوحيد اسم لمعنى عظيم، وقول له معنى جليل هو أجل من جميع المعاني.

وحاصله هو البراءة من عبادة كل ما سوى الله، والإقبال بالقلب والعبادة على الله، وذلك هو معنى الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله، وهو معنى " لا إله إلا الله" كما قال تعالى: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ

وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} وقال تعالى حكاية عن مؤمن يس: {وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ}. وقال تعالى: {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي} .

وقال تعالى حكاية عن مؤمن آل فرعون: {وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ} والآيات في هذا كثيرة تبين أن معنى " لا إله إلا الله " هو البراءة من عبادة ما سوى الله من الشفعاء والأنداد، وإفراد الله بالعبادة. فهذا هو الهدى، ودين الحق الذي أرسل الله به رسله، وأنزل به كتبه.

أما قول الإنسان: " لا إله إلا الله " من غير معرفة لمعناها، ولا عمل به، أو دعواه أنه من أهل التوحيد، وهو لا يعرف التوحيد، بل ربما يخلص لغير الله من عبادته من الدعاء والخوف والذبح والنذر والتوبة والإنابة وغير ذلك من أنواع العبادات، فلا يكفي في التوحيد، بل لا يكون إلا مشركًا والحالة هذه، كما هو شأن عباد القبور)) انتهى

١- وقول الله تعالي : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ .

- قال ابن كثير

((يقول تعالى : { قل } يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله { ادعوا الذين زعمتم من دونه } من الأصنام والأنداد فارغبوا إليهم فإنهم " لا يملكون كشف الضر عنكم أي بالكلية ، { ولا تحويلا } أي أن يحولوه إلى غيركم ، والمعنى أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذي له الخلق والأمر، قال العوفي عن ابن عباس في قوله : { قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا } قال كان أهل الشرك يقولون نعبد الملائكة والمسيح وعزيرا وهم الذين يدعون يعني الملائكة والمسيح وعزيرا ؟

وقوله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُون يبتغون إلي ربهم الوسيلة) روى البخاري عن ابن مسعود في الآية قال: "ناس من الجن كانوا يُعبدون فأسلموا". **وفي رواية: "كان ناس من الإنس يعبدون ناسًا من الجن، فأسلم الجن، وتمسك هؤلاء بدينهم."**

وقال السدي عن أبي صالح عن ابن عباس في الآية: قال: عيسى وأمه وعزير. وقال مغيرة عن إبراهيم: كان ابن عباس يقول في هذه الآية هم: عيسى وعزير والشمس والقمر.

وقال مجاهد: عيسى وعزير والملائكة.

وقوله: {وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ} لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء) **انتهي.**

قال في التيسير :

(قال شيخ الإسلام: وهذه الأقوال كلها حق، فإن الآية تعم من كان معبوده عابدًا لله سواء كان من الملائكة أو من الجن أو من البشر، والسلف في تفسيرهم يذكرون جنس المراد بالآية على نوع التمثيل ، فالآية خطاب لكل من دعا دون الله مدعوًا ، وذلك المدعو يبتغي إلى الله الوسيلة، ويرجو رحمته، ويخاف عذابه. فكل من دعا ميتًا أو غائبًا من الأنبياء والصالحين سواء كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها، فقد تناولته هذه الآية، كما تتناول من دعا الملائكة والجن، ومعلوم أن هؤلاء كلهم يكونون وسائط فيما يقدره الله بأفعالهم، ومع هذا فقد نهى الله عن دعائهم، وبين أنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ولا تحويله، لا يرفعونه بالكلية، ولا يحولونه من موضع إلى موضع، كتغيير صفته أو قدره، ولهذا قال: {وَلا تَحوِيلاً} ، فذكر نكرة تعم أنواع التحويل فكل من دعا ميتًا أو غائبا من الأنبياء والصالحين، أو دعا الملائكة أو دعا الجن، فقد دعا من لا يغيثه، ولا يملك كشف الضر عنه، ولا تحويله ... فتبين أن معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله: هو ترك ما عليه المشركون من دعوة الصالحين، والاستشفاع بهم إلى الله في كشف الضر وتحويله، فكيف ممن أخلص لهم الدعوة، وأنه لا يكفي في التوحيد دعواه، والنطق بكلمة الشهادة من غير مفارقة لدين المشركين، وأن دعاء الصالحين لكشف الضر أو تحويله هو الشرك الأكبر) **انتهي .**

و(من دونه) في الآية أي مع الله ؛ فيكون المعني قل ادعوا الذي زعمتم مع الله ، لأنهم كانوا يدعون الله ويدعون غيره معه كما سبق بيانه في حال مشركي الجاهلية فإنهم كانوا أهل عبادة لله لكنهم لما عبدوه غيره معه صاروا مشركين ودللنا علي ذلك بأدلة كثيرة فلتراجعها ، ومن المشركين من لم يكن يدعوا الله أصلا وإنما يدعو غيره ، وكلاهما مشرك ، وهذا الثاني أقبح من الأول ، وقد نفت الشهادة الشرك بحذافيره بحصر استحقاق العبادات كلها لله وحده سبحانه لهذا ثقلت علي أقوام ، والله المستعان .

٢ - وقوله: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فإنه سيهدين وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون}.

- هذه الآية من الآيات المبينة لركني الشهادة نفيا وإثباتا ، فإنه لا توحيد إلا بهما معا لأن النفي المحض تعطيل محض، والإثبات المحض لا يمنع المشاركة ، ولهذا كان لا بد من إثبات استحقاق الله وحده جميع العبادات ونفيها عما سواه والبراءة من الشرك وممن فعله تصديقا للنصوص كتابا وسنة في مباينة المشركين ومفاصلتهم واعتزالهم ؛ فهم علي ملة ونحن الموحدين علي ملة فمن سوي بينهما فليس بموحد.

قال في التيسير :

((معني التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله : ألا يعبد إلا الله ولا يعتقد النفع والضر إلا في الله ، وأن يكفر بما يعبد من دون الله ، ويتبرأ منها ومن عابديها)) انتهي.

- قال ابن كثير :

((يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء، ووالد من بعث بعده من الأنبياء، الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها: إنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان فقال: {إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ} أي: هذه الكلمة؛ وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان، وهي لا إله إلا الله أي: جعلها في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم عليه السلام. لعلهم يرجعون، أي: إليها)).

- قال في التيسير :

((يعني أن قوم إبراهيم يعبدون الله ويعبدون غيره، فتبرأ مما يعبدون إلا الله، لا كما يظن الجهال أن الكفار لا يعرفون الله، ولا يعبدونه أصلاً. وروى ابن جرير وابن المنذر عن قتادة {وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ} ٤ قال: الإخلاص والتوحيد، لا يزال في ذريته من يوحد الله ويعبده.

فتبين بهذا أن معنى لا إله إلا الله هو البراءة مما يُعْبَدُ من دون الله، وإفراد الله بالعبادة، وذلك هو التوحيد لا مجرد الإقرار بوجود الله وملكه وقدرته وخلقه لكل شيء، فإن هذا يقرُّ به الكفار وذلك هو معنى قوله: {إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ} ٥ فاستثنى من المعبودين ربه وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة هي شهادة أن لا إله إلا الله قاله المصنف)).

٣ - قال: وقوله تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون }

- قال في التيسير في بيان وجه ذكر الحديث في تفسير الشهادة :

((الأحبار: هم العلماء. والرهبان: هم العباد. وهذه الآية قد فسرها رسول الله صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم، وذلك أنه "لما جاء مسلمًا دخل على رسول صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم، فقال: إنهم حرموا عليهم الحلال وحللوا لهم الحرام فاتبعوهم فذاك عبادتهم إياه" رواه أحمد والترمذي وحسنه وعبد بن حميد وابن سعد وابن أبي حاتم والطبراني وغيرهم من طرق. وهكذا قال جميع المفسرين.

قال السدي: استنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، ولهذا قال تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ} ، أي: الذي إذا حرم شيئًا فهو الحرام وما حلله حل، وما شرعه اتُّبِع ، {سُبْحَانَهُ} وتعالى {عَمَّا يُشْرِكُونَ} ، أي: تعالى وتقدس عن الشركاء والنظراء والأضداد، والأنداد، {لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} ، ولا رب سواه.

ومراد المصنف رحمه الله بإيراد الآية هنا أن الطاعة في تحريم الحلال، وتحليل الحرام، من العبادة المنفية من غير الله تعالى، ولهذا فسرت العبادة بالطاعة، وفسر الإله بالمعبود المطاع، فمن أطاع مخلوقًا في ذلك فقد عبده، إذ معنى التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله يقتضي إفراد الله بالطاعة، وإفراد الرسول بالمتابعة، فإن من أطاع الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أطاع الله، وهذا أعظم ما يبين التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، لأنها تقتضي نفي الشرك في الطاعة، فما ظنك بشرك العبادة، كالدعاء والاستغاثة والتوبة وسؤال الشفاعة وغير ذلك من أنواع الشرك في العبادة، وسيأتي مزيد لهذا إن شاء الله تعالى في باب من أطاع العلماء والأمراء)) انتهي.

4 - وقوله تعالي ((ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله))

- سيأتي بيان هذه الاية تفصيلا في باب عبادة المحبة إن شاء الله ، قال في التيسير :

((قال المصنف رحمه الله في مسائله: ومنها، أي: من الأمور المبينة لتفسير التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله، آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم: {وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ}. وذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله، فدل على أنهم يحبون الله حبًا عظيما، ولم يدخلهم في الإسلام، فكيف بمن أحب الند حبًا أكبر من حب الله؟! فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده، ولم يحب الله؟! قلت: مراده أن معنى التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله، هو إفراد الله بأصل الحب الذي يستلزم إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وعلى قدر التفاضل في هذا الأصل، وما ينبني عليه من الأعمال الصالحة يكون تفاضل الإيمان والجزاء عليه في الآخرة.

فمن أشرك بالله تعالى في ذلك، فهو المشرك، لهذه الآية، أخبر تعالى عن أهل هذا الشرك أنهم يقولون لآلهتهم وهم في الجحيم: {تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ}. ومعلوم أنهم ما ساووهم به في الخلق والرزق والملك، وإنما ساووهم به في المحبة والإلهية والتعظيم والطاعة، فمن قال لا إله إلا الله، وهو مشرك بالله في هذه المحبة، فما قالها حق القول وإن نطق بها، إذ هو قد خالفها بالعمل، كما قال المصنف. فكيف بمن أحب الند حبًا أكبر من حب الله؟! ، وسيأتي الكلام على هذه الآية في بابها إن شاء الله تعالى) **انتهي.**

- في "الصحيح" عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه، وحسابه على الله"

- وهذا الحديث تقدم شرحه في بيان شروط قبول قول الشهادة من قائلها فراجعه ؛ فإنه مهم ، وأن الدين والتوحيد قول باللسان وعمل بالجوارح واعتقاد بالقلب لا مجرد كلام يقال.

- **قال في التيسير** :

((اعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث علق عصمة المال والدم بأمرين: الأول: قول: لا إله إلا الله، الثاني: الكفر بما يعبد من دون الله، فلم يكتف باللفظ المجرد عن المعنى، بل لا بد من قولها والعمل بها.

قال المصنف: وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع التلفظ بها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم دمه وماله حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو تردد لم يحرم ماله ودمه، فيا لها من مسألة ما أجلها! ويا له من بيان ما أوضحه! وحجة ما أقطعها للمنازع!

وقد أجمع العلماء على معنى ذلك فلا بدّ في العصمة من الإتيان بالتوحيد، والتزام أحكامه، وترك الشرك كما قال تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} والفتنة هنا: الشرك، فدل على أنه إذا وجد الشرك، فالقتال باق بحاله كما قال تعالى: {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً} ، وقال تعالى: {فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} فأمر بقتالهم على فعل التوحيد، وترك الشرك، وإقامة شعائر الدين الظاهرة، فإذا فعلوها خلي سبيلهم، ومتى أبوا عن فعلها أو فعل شيء منها، فالقتال باق بحاله إجماعًا. ولو قالوا: لا إله إلا الله.

وكذلك النبي صلى الله عليه وسلم علق العصمة بما علقها الله به في كتابه كما في هذا الحديث. وفي " صحيح مسلم ". عن أبي هريرة مرفوعًا: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله"،وفي "الصحيحين " عنه قال: "لما توفي رسول الله وكفر من كفر من العرب، فقال عمر بن الخطاب لأبي بكر: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله؟ فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه، فقال عمر بن الخطاب: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي

بكر للقتال، فعرفت أنه الحق" لفظ مسلم. فانظر كيف فهم صديق الأمة أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرد مجرد اللفظ بها من غير إلزام لمعناها وأحكامها، فكان ذلك هو الصواب، واتفق عليه الصحابة، ولم يختلف فيه منهم اثنان إلا ما كان من عمر حتى رجع إلى الحق.

وكان فهم الصديق هو الموافق لنصوص القرآن والسنة. وفي " الصحيحين " أيضا عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوه عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله" ، فهذا الحديث كآية براءة بيّن فيه ما يقاتل عليه الناس ابتداء، فإذا فعلوه، وجب الكف عنهم إلا بحقه، فإن فعلوا بعد ذلك ما يناقض هذا الإقرار والدخول في الإسلام، وجب القتال حتى يكون الدين كله لله، بل لو أقروا بالأركان الخمسة وفعلوها، وأبوا عن فعل الوضوء للصلاة ونحوه، ـ أو عن تحريم بعض محرمات الإسلام كالربا أو الزنا أو نحو ذلك ـ وجب قتالهم إجماعًا، ولم تعصمهم لا إله إلا الله ولا ما فعلوه من الأركان.

وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله، وأنه ليس المراد منها مجرد النطق، فإذا كانت لا تعصم من استباح محرمًا، أو أبى عن فعل الوضوء مثلاً بل يقاتل على ذلك حتى يفعله، فكيف تعصم من دان بالشرك وفعله وأحبه ومدحه، وأثنى على أهله، ووالى عليه، وعادى عليه، وأبغض التوحيد الذي هو إخلاص العبادة لله، وتبرأ منه، وحارب أهله، وكفرهم، وصد عن سبيل الله كما هو شأن عباد القبور، وقد أجمع العلماء على أن من قال: لا إله إلا الله، وهو مشرك أنه يقاتل حتى يأتي بالتوحيد)انتهي كلامه .

- ومعني كلامه أن قول الشهادة لا يكون عاصما للدم والمال إلا إذا أتي المدعّو بحقوقها من الصلاة والزكاة وغيرها من شعائر الإسلام المتفق عليها وإلا فالقتال باق بحاله إجماعا ، ولا يلزم أن يكون كافرا منكرا جاحدا للشعائر حتي يقاتل ؛ فإن مانعي الزكاة الذين قاتلهم أبو بكر رضي الله عنه لم يكونوا كلهم مرتدين بل كان منهم المقر بوجوبها لكن منعوها بخلا ، وكان منهم الممتنع المدعي وجوبها علي غيره لا عليه ، ومع ذلك لم يفرق بينهم الصديق في القتال ، ولم يمنع مجرد قولهم الشهادة من قتالهم ، ل يقاتلون حتي يأتوا بحقوقها .

قال في التيسير : ذكر التنبيه على كلام العلماء في ذلك فإن الحاجة داعية إليه لدفع شبه عباد القبور في تعلقهم بهذه الأحاديث وما في معناها مع أنها حجة عليهم بحمد الله لا لهم.

قال أبو سليمان الخطابي في قوله: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله" ، معلوم أن المراد بهذا أهل الأوثان دون أهل الكتاب، لأنهم يقولون: لا إله إلا الله، ثم يقاتلون، ولا يرفع عنهم السيف.

قلت – محمود – وأهل الكتاب مشركون ؛ لأدلة كثيرة من الكتاب والسنة منها قوله تعالي " اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون " ، وقال صلي الله عليه وسلم لمعاذ (إنك تأتي قوما أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحدوا الله) وما ذاك إلا لأنهم مشركون ، فمنهم من كان لا يعرف الشهادة أصلا ومنهم من كان يعرفها ولا يقر بها جحودا واستكبارا لتعصبهم وعبادتهم للأنبياء ، والمراد من الحديث أن الشهادة لن تنفع من أتي بها حتي يقرنها بالعمل من إقامة التوحيد لله سبحانه والبراءة من كل معبود سواه وممن عبده، لا مجرد قولها باللسان ، ولا يكفي ذلك أيضا حتي يأتي بحق التوحيد من الصلاة والزكاة وإلا فالقتال باق بحاله إجماعا ، لكن اعلم أنه ليس معني ذلك أن ننقب عن الناس بل عصمة الدم والمال نوعان : عصمة حال يكفي فيها قول الشهادة ظاهرا ، وعصمة مآل وهذه لن تتحقق حتي نعلم إتيانهم بحقها .

وقد سبق أن النصاري علي فرق ؛ فمنهم من ادعي ألوهية عيسي ، ومنهم من زعم انه ثالث ثلاثة ، ومنهم من زعم أنه ابن ، ومنهم من كفر بعبادته إياه مع الله سبحانه ، علي اننا نقول إنهم بمجرد تكذيبهم لسيد ولد آدم عليه الصلاة وسلم فهم مشركون ؛فإن تكذيب الرسل شرك باعتبار أنه تكذيب لهم في إبطال الشرك وما ذاك إلا لشركهم ، وإن كان الأصل أن التكذيب كفر باعتبار أن الكفر هو سترالإيمان وتغطيته ، والكفر والشرك من الالفاظ التي اذا افترقت اجتمعت في المعني ، واذا اجتمعت افترقت علي النحو السابق ويكون الكفر أعم من الشرك ، وهذا باعتبار غالب استعمالهما في الشرع بأن لفظ الشرك أكثر ما يستعمل في الكفر بعبادة غير الله ، وغلب لفظ الكفر في ما سوي ذلك ، وهذا باعتبار الاستعمال ، لا باعتبار الحقيقة ؛ ولهذا لن يفرق بينهما أصحاب القواميس فقال الزبيدي في التاج : و الشرك أيضا الكفر ، وقال في القاموس : وأشرك بالله كفر .

قال في التيسير في تتمة ما سبق : وقال القاضي عياض: اختصاص عصم المال والنفس بمن قال لا إله إلا الله تعبير عن الإجابة إلى الإيمان، وأن المراد بذلك مشركو العرب، وأهل الأوثان، ومن لا يوحد، وهم كانوا أول من دعي إلى الإسلام، وقوتل عليه، فأما غيرهم ممن يقر بالتوحيد فلا يكتفى في عصمته بقوله لا إله إلا الله، إذ كان يقولها في كفره، وهي من اعتقاده، فلذلك جاء في الحديث الآخر: "ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة" .

وقال النووي: لا بد مع هذا من الإيمان لجميع ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكما جاء في الرواية الأخرى: "ويؤمنوا بي وبما جئت به" ٢.

وقال شيخ الإسلام: لما سئل عن قتال التتار مع التمسك بالشهادتين، ولما زعموا من اتباع أصل الإسلام، فقال: كل طائفة ممتنعة من التزام شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة من هؤلاء القوم أو غيرهم فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين ملتزمين بعض شرائعه كما قاتل أبو بكر والصحابة رضي الله عنهم مانعي الزكاة، وعلى ذلك

اتفق الفقهاء بعدهم قال: فأيما طائفة ممتنعة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات، أو الصيام أو الحج، أو عن التزام تحريم الدماء أو الأموال أو الخمر أو الميسر، أو نكاح ذوات المحارم، أو عن التزام جهاد الكفار، أو ضرب الجزية على أهل الكتاب، أو غير ذلك من التزام واجبات الدين أو محرماته التي لا عذر لأحد في جحودها أو تركها، التي يكفر الواحد بجحودها، فإن الطائفة الممتنعة تقاتل عليها وإن كانت مقرة بها، وهذا مما لا أعلم فيه خلافًا بين العلماء.

قال: وهؤلاء عند المحققين من العلماء ليسوا بمنْزلة البغاة، بل هم خارجون عن الإسلام بمنْزلة مانعي الزكاة ،ومثل هذا كثير في كلام العلماء.

قلت : ومانعو الزكاة الذين قاتلهم الصديق رضي الله عنه منهم من كفر بامتناعه بأنها واجبة علي غيرهم لا عليهم ، ومنهم من كفر بجحدها ، ومنهم من منع أداءها فقوتلوا جميعا .

وحينئذ لهم ثلاثة أحوال : إما أن يسلموا مع لإتيان بحق الشهادة من الصلاة والزكاة فتعصم دماؤهم وأموالهم ، وإما أن يرضوا بدفع الجزية وهي مال مفروض علي كل واحد منهم فيبقون بها رعايا في بلد الإسلام ويسمون أهل ذمة وإما أن يقاتلوا حتي يظهر دين الله علي سائر الأديان الباطلة لما قاله سبحان جل في علاه " وقاتلوهم حتي لا تكون فتنة ويكون الدين لله " وقال في آية الأنفال " وقاتلوهم حتي لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله " والفتنة الشرك .

قال في التيسير في تتمة ما سبق : والمقصود التنبيه على ذلك، ويكفي العاقل المنصف ما ذكره العلماء من كل مذهب في باب حكم المرتد، فإنهم ذكروا فيه أشياء كثيرة يكفر بها الإنسان، ولو أتى بجميع الدين. وهو صريح في كفر عباد القبور، ووجوب قتالهم إن لم ينتهوا حتى يكون الدين لله وحده، فإذا كان من التزام شرائع الدين كلها إلا تحريم الميسر أو الربا أو الزنا يكون كافرًا يجب قتاله، فكيف بمن أشرك بالله ودعي إلى إخلاص الدين لله والبراءة والكفر بمن عبد غير الله، فأبى عن ذلك، واستكبر وكان من الكافرين؟!

قوله: "وحسابه على الله" أي: إلى الله تبارك وتعالى، هو الذي يتولى حسابه، فإن كان صادقًا من قلبه جازاه بجنات النعيم، وإن كان منافقا عذبه العذاب الأليم. وأما في الدنيا، فالحكم على الظاهر، فمن أتى بالتوحيد والتزم شرائعه ظاهرًا، وجب الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك.

واستدل الشافعية بالحديث على قبول توبة الزنديق، وهو الذي يظهر الإسلام، ويسر الكفر. والمشهور في مذهب أحمد ومالك أنها لا تقبل، لقوله تعالى: {إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا} والزنديق لا يتبين رجوعه، لأنه مظهر الإسلام، مُسِرٌّ للكفر، فإذا أظهر التوبة لم يزد على ما كان منه قبلها. والحديث محمول على المشرك. ويتفرع على ذلك سقوط القتل وعدمه، أما في الآخرة فإن كان دخل في الإسلام صادقًا قبلت.

وفيه وجوب الكف عن الكافر إذا دخل في الإسلام ولو في حال القتال حتى يتبين منه ما يخالف ذلك.

وفيه أن الإنسان قد يقول: لا إله إلا الله، ولا يكفر بما يعبد من دون الله.

وفيه أن شرط الإيمان الإقرار بالشهادة، والكفر ما يعبد من دون الله مع اعتقاد ذلك واعتقاد جميع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

وفيه أن أحكام الدنيا على الظاهر، وأن مال المسلم ودمه حرام إلا في حق، كالقتل قصاصًا ونحوه، وتغريمه قيمة ما يتلفه)) انتهي من التيسير مع بعض البيان لما فيه والحمد لله .

7) باب من الشرك لُبس الحَلْقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه (واللبس بضم اللام ، والحلقة ساكنة اللام).

- مناسبة الباب:

أن المصنف بعد أن فسر التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله ببيان حقيقته أراد في هذا الباب أن يفسره بذكر ما يضاده من أنواع الشرك الأصغر والأكبر لأن الأمور تفهم وتعرف بأحد أمرين إما ببيان حقيقتها وإما بذكر ما يضادها ، وقد قال حذيفة بن اليمان كما عند مسلم في الصحيح (كان الناس يسألون رسول الله عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني)

ومن لم يعرف الشرك لم يعرف أو لم يفهم حقيقة التوحيد ، وقد تكلمنا أول ما تكلمنا في دروس التوحيد عن بيان شرك الجاهلية ومحل النزاع بين الرسل وأقوامهم وعلمنا أن البلاء حاصل بذلك حتي قلب كثير من الناس حقيقة التوحيد حتي صار لكل فرقة من الفرق الثنتين والسبعين توحيد وكل فرقة تزعم أن توحيدها هو التوحيد الذي جاء به النبي صلي الله عليه وسلم ، وصار التقرب للأولياء والصالحين والأنبياء بالعبادات والاستشفاع بهم هو التوحيد وصار من يحذر الناس من ذلك ويبين لهم أن هذا هو شرك الأولين الذي حذر الله تعالي منه في كتابه وعلي ألسنة كل رسول ونبي متنقصا من الأولياء والصالحين.

وعلمنا أن من صرف عبادة واحدة من العبادات في لحظة من اللحظات فقد أشرك بالله الشرك الأكبر المحبط لجميع الأعمال.

وكما قال قائلهم وبضدها تتبين الأشياء.

- ومن الشرك المضاد للتوحيد لبس الحلقة والخيط لرفع البلاء إذا نزل بالعبد ، أودفعه قبل نزوله

والحلقة اسم لما يدار من الحديد ونحوه مما يكون في معناه كالمسامير والسلاسل والكف والخمسة أصابع ونحوها.

فإن اتخذها العبد لرفع البلاء أو دفعه أو اتخذها وقاية من العين والحسد ونحو ذلك من أغراضهم فهذا من الشرك الأصغر لما فيه من تعلق القلب بغير الله عز وجل ، واتخاذ ما لم يشرعه من الأسباب ، فيكون العبد بذلك قد نزل نفسه منزلة المضاهي للشارع في تعيين الأسباب فاعتقد ما ليس بسبب سببا ومسبب الأسباب واحد هو ربنا سبحانه لا الخلق .

ولم نقل أنه شرك أكبر لأنه ليس كصرف العبادة لغير الله وقد تقدم أن الشرك الأصغر ضابطه أنه ما كان فيه شيء من الندية لله سبحانه وتعالي لكن لا يصل لحد صرف العبادة له ، وهنا كذلك ؛ فإن المعلق لهذه الأمور يظن أن الله جعلها سببا ولا يعتقد أنها مستقلة في التأثير وليست هي بعبادة صرفها لغير الله سبحانه ، ولهذا كان من الشرك الأصغر لأن التنديد فيه ليس تنديدا كاملا وإنما هو بعض تنديد إذ حقيقته تعلق القلب بأمر لا حقيقة له ، ومع ذلك لم يعتمد عليه اعتمادا كاملا لأنه لا يعتقد استقلاليته في التاثير ولهذا هو من الشرك الأصغر لا الأكبر لانطباق حد الأصغر عليه.

ومما يؤيد أن ذلك من الشرك الأصغر لا الأكبر - وافهم هذا حتي تنضبط عندك مسائل التوحيد لأنك إذا اعتقدت ما هو شرك أكبر أنه من الأصغر دخلتك شبهة المرجئة ، وإن عكست فاعتقدت ما هو شرك أصغر اعتقدته أكبر دخلت عليك شبهة الخوارج - فيؤيد ما قلنا أن النبي صلي الله عليه وسلم كما في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في المسند بسند صححه الألباني لم يبايع أحد الصحابة وقال إن في يده تميمة ، ولو كان المانع هو الشرك الأكبر لما نفعه خلع التميمة أصلا ، ولأمره النبي صلي الله عليه وسلم بقول الشهادة و عبادة الله وحده والبراءة من الشرك وأهله ، غير أن هذه التعاليق ليست عبادة لغير الله كما قلنا فليست شركا في العبادة وليست شركا في الربوبية كذلك لأنه لم يعتقد استقلاليتها في التاثير ، ولهذا هي من الشرك الأصغر لا الأكبر ، فافهم هذا.

وقولنا أن اتخاذ هذه التعاليق من الشرك الأصغر هو حكم عليها بالنظر إليها فقط لا بالنظر إلي قصد فاعلها ، فإنها ربما تكون شركا أكبر بحسب حال معلقها وقصده فإن اعتقد استقلالها بالنفع والضر عن إرادة الله ومشيئته وإذنه سبحانه فهذا شرك أكبر في الربوبية كما هو اعتقاد كثير من الهندوس والصينيين وغيرهم ، وكثير من جهال المسلمين ، وأما إن اعتقد أنها مجرد أسباب جعلها الله أسبابا لدفع الضر وجلب النفع فهو شرك أصغر.

- ومن القواعد في التوحيد أن الشيء الذي يتخذه الناس لغرض من الأغراض إذا لم يثبت كونه سببا فهو من الشرك الأصغر ، وثبوت سببية الشيء لا تكون إلا بأحد أمرين لا ثالث لهما:

الأول :

ثبوته سببا من طريق الشرع فيدل الدليل من الكتاب والسنة أنه سبب.

والثاني:

ثبوته سببا من طريق القدر أو بمعني آخر من طريق التجربة بشرط أن يكون تأثير هذا الشيء مقطوعا به من خلال التجارب.

فإن اتخذ العبد شيئا لم يثبت كونه سببا لا من طريق الشرع ولا من طريق التجربة فقد جعل ما ليس بسبب سببا وهذا شرك أصغر إلا إذا اعتقد العبد مع ذلك أن هذا الشيء مستقل في التأثير فيكون اتخاذ هذا الشيء حينئذ من الشرك الأكبر في الربوبية .

واعلم - بارك الله فيك - أن الشرك الأصغر يطرأ علي الأسباب من جهتين:

قال الشيخ صالح العصيمي في شرحه

الأول :

أن يتخذ منها ما ليس سببا مما لم يثبت بطريق الشرع ولا بطريق القدر ، فمتي وقع العبد في ذلك فقد وقع في الشرك الأصغر.

الثاني:

رفع السبب المأذون فيه فوق منزلة رتبته الشرعية فإن الأسباب المباحة يكون توجه القلب إليها بقدر محدد معين حده الشرع وعينه فإذا زاد اعتقاد العبد عنه وتعلق قلبه به تعلقا يتعدي هذا الحد الذي حده الشرع فقد وقع العبد في الشرك الأصغر.

وهذا القدر المأذون فيه بتوجه القلب إلي السبب هو الاطمئنان إليه والاستبشار به كما قال تعالي (وما جعله الله إلا بشري ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله) ، فإذا زاد تعلق القلب به عن هذه الرتبة وقع العبد في الشرك الأصغر.

وصورة ذلك أنه يكون بمقارنة الجزم للقلب ، فإذا وقع في القلب اعتقاد الجزم بتأثير السبب كان مرفوعا فوق رتبته الشرعية ، مثال ذلك : الدواء إذا أخذه بعض المرضي قال واحدة بواحدة ! ، فهذا مبني علي هذا المعتقد الباطل.

وهذه الطمأنينة المباحة للسبب نوعان:

الأول : طمأنينة سكون.

والثاني : طمأنينة ركون.

والفرق بينهما اقتران الثاني بالجزم ؛ فإن القلب مع طمأنينة السكون يرجو حصول مقصوده ولا يقطع به.

وأما طمأنينة الركون فيكمل تعلقه به حتي يجزم بحصول مقصوده) انتهي بتصرف.

- وأما إن اتخذ ذلك لا لرفع البلاء وإنما لمجرد الزينة دون اعتقاد شيء فيها فالأصل أنه مباح إلا إذا كان فيه مشابهة للكفار أو مشابهة للنساء فإنه ينهي عنه لقول النبي صلي الله عليه وسلم (خالفوا المشركين) وقوله (من تشبه بقوم فهو منهم) وقوله (لعن الله من لبس من النساء لبسة الرجال ومن لبس من الرجال لبسة النساء) فإذا علق العبد شيئا من ذلك علي بدنه أو علي حائط بيته أو غيره فهو مباح بشرط ألا يكون فيه مشابهة للنساء ، ولا يكون فيه مشابهة للكفار فهو جائز

ومشابهة الكفار تعرف بواحد من أربعة أمور:

أن يكون ذلك عَلَما عليهم دون غيرهم واشتهروا به .

أو يكون من شعائر دينهم .

أو يكون النص الشرعي قد جاء بمخالفتهم فيه كمعاشرة المرأة وهي حائض فهو من فعل النصاري قاتلهم الله ، وكالصلاة في النعال أحيانا إذا أمنت المفسدة .

أو كان التشبه بهم في شيء يؤدي لاندثار شيء في شريعتنا كترك لبس الجلباب علي الدوام ، ورفع الجنازة علي عربة حصان وإنما السنة حملها علي الرؤوس.

ومشابهة النساء تكون بشيء من خصائصها فالمرأة تتزين بتعليق شيء في معصمها ونحرها وأذنها فلا يجوز للرجال فعل شيء من ذلك وإنما جاءت السنة للرجال بالخاتم فقط.

فإذا علق الرجل شيئا قد خلا من هذين الأمرين جاز

وكذلك إذا علقت المرأة شيئا من السلاسل والأساور لمجرد الزينة لا لاعتقاد فيها وخلا من مشابهة الرجال والكفار فهذا مباح وليس من الشرك في شيء.

- فإن سأل سائل لم ابتدأ المصنف ببيان أمثلة الشرك الأصغر قبل أمثلة الشرك الأكبر فالجواب

الأول :

لأن نزع الشرك الأصغر من قلب العبد أهون من نزع الشرك الأكبر لأن صاحب الشرك الأصغر مؤمن لكن إيمانه ناقص فإذا تبين له الحق سهل عليه التوبة والإقلاع عن الشرك الاصغر واما المشرك شركا أكبر فهو منازع في حقيقة التوحيد فالبلية بإخراجه من الشرك الأكبر أعظم وأصعب.

الثاني :

لعموم البلوي بالشرك الأصغر ولكثرة وقوعه بين المسلمين.

١ .الدليل الأول في الباب قول الله تعالى: (قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنيَ الله بضر هل هن كاشفات ضره)الآية.

- في التفسير الميسر :

(ولئن سألت -أيها الرسول- هؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله: مَن خلق هذه السموات والأرض؟ ليقولُنَّ: خلقهنَّ الله، فهم يُقِرُّون بالخالق، قل لهم: هل تستطيع هذه الآلهة التي تشركونها مع الله أن تُبْعِدَ عني أذى قدَّره الله عليَّ، أو تزيلَ مكروهًا لَحِق بي؟ وهل تستطيع أن تمنع نفعًا يسَّره الله لي، أو تحبس رحمة الله عني؟ إنهم سيقولون: لا تستطيع ذلك. قل لهم: حسبي الله وكافِيَّ، عليه يعتمد المعتمدون في جلب مصالحهم ودفع مضارهم، فالذي بيده وحده الكفاية هو حسبي، وسيكفيني كل ما أهمني)انتهي .

ولئن كان هو المتفرد بجلب النفع ودفع الضر لا آلهتكم من الأموات والصالحين والأنبياء فهو إذن المستحق لأن نعبده وحده لا نشرك به شيئا ولو كان ملكا مقربا أو نبيا مرسلا.

وهذه الآية وغيرها من الآيات يقيم الله فيها الحجة علي المشركين بأربعة أمور تنسف الشرك وتقطعه وتُخمِدُه من أصله وهي أن يعلم المشركون أن آلهتهم مخلوقة ، ولا تستطيع أن تخلق ، ولا تستطيع نصر أنفسها ولا تستطيع نصرك وجلب النفع لك ولا دفع الضر عنك.

- والحسب هنا بمعني الكافي والكفيل ولا تطلق إلا علي الله وحده عز وجل فهو حسبنا وحسب النبي صلي الله عليه وسلم وحسب المؤمنين ولهذا قال تعالي في الأنفال (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) أي أن الله حسبك وحسب المؤمنين لا أن المعني أن الله حسبك والمؤمنين حسبك هذا غلط.

قال الطبري في تفسيره :

(يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: (يا أيها النبي حسبك الله), وحسب من اتبعك من المؤمنين، الله) .

ولهذا من أقبح الأقوال الشركية قول بعضهم لبعض محسوبك فلان ومعناه المكتفي والمتكفل بك أي أنك كافله وكافيه والعياذ بالله.

- وهذه الآية في نقض الشرك الأكبر إجماع المفسرين وليست في رد الشرك الأصغر فلماذا نستدل بها هنا علي رد الشرك الأصغر ؟

-والجواب من جهتين :

-الأولي : أن مقصود الآية إبطال جلب النفع ودفع الصر من غير الله ، سواء في ذلك الشرك الأكبر والأصغر، وسواء اعتقد العبد أن الحلقة والخيط تدفع الضر بنفسها أو أنها سبب لدفعه ، فالآية يستدل بها علي كلا الأمرين.

-الثاني : لاشتراك الشرك الأكبر والأصغر في جعل شيء من حق الله لغيره إلا أن الشرك الأكبر مخرج من الملة والشرك الأصغر لا يخرج من الملة لأن التنديد فيه ليس كالشرك الأكبر ، وهي طريقة الصحابة أيضا في الاستدلال بآيات في الشرك الأكبر علي الأصغر ، وقد سبق أول الكتاب بيان الفرق بين الشرك الأصغر والأكبر في الحد والحكم في الدنيا والآخرة.

٢ .عن عمران بن حصين رضي الله عنه، أن النبي ﷺ رأى رجلا في يده حلقة من صفر - والصفر هو النحاس - ، فقال: (ما هذه؟) - يحتمل أنه سؤال إنكاري أو استفهامي كما سيأتي - ، قال: من الواهنة- قال ابن الأثير وجع في المنكب قال ابن الأثير : وربما علق عليها جنس من الخرز يقال له خرز الواهنة وقيل خرز العصمة أي العصمة من المرض - فقال: (انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنا، فإنك لو مت وهي عليك، ما أفلحت أبدا) رواه أحمد بسند لا بأس به.

- فهنا رأي النبي صلي الله عليه وسلم رجلا يلبس حلقة من نحاس معتقدا أنها تدفع عنه المرض الذي أصيب به فسأله النبي صلي الله عليه وسلم مستفصلا ما هذه ؟ وهذا دليل علي اعتبار المقاصد في الشرك الأصغر ؛ لأنه قد سبق أن الرجل لو لبس شيئا كهذا لمجرد الزينة لا لاعتقادٍ فيها فهو جائز ، وقال بعضهم هو للإنكار ، وإنما يستدل علي اعتبار المقاصد بأدلة أخري.

فقال له الرجل من الواهنة ، فقال له الرسول صلي الله عليه وسلم انزعها أي اخلعها فإنها لن تزيدك إلا وهنا ، فإن سألت - رحمك الله - لماذا قال له الرسول ذلك مع أنها لا تأثير لها كما تقدم بيانه ، أجبتك بأن ذلك من العقوبة بنقيض قصده ، ومن تعلق قلبه بشيء لم يأذن

به الله وكله الله إليه ، ومن وكله الله إلي غيره سبحانه وكله إلي عجز وضعف وعورة كما أخبر الرسول صلي الله عليه وسلم .

ونظير ذلك قوله تعالي (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا)

وفي التفسير الميسر :

(وأنه كان رجال من الإنس يستجيرون برجال من الجن، فزاد رجالُ الجنِّ الإنسَ باستعاذتهم بهم خوفًا وإرهابًا ورعبًا. وهذه الاستعاذة بغير الله، التي نعاها الله على أهل الجاهلية، من الشرك الأكبر، الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة النصوح منه. وفي الآية تحذير شديد من اللجوء إلى السحرة والمشعوذين وأشباههم) ..

قال العصيمي في شرح فتح المجيد : وتعليق القلب بغير الله لا يزيده الا وهنا وضعفا ، وتعليقه بالله وحده لا شريك له يزيده قوة علي قوة ولهذا أعظم الأدوية علي الإطلاق هي الأدوية الروحانية الإلهية

وأعظمها أمران:

التوحيد فإنه يمد القلب بأسباب قوته.

والتوبة فإنها تخفف القلب من أسباب مرضه وعلته ، فالتوحيد من باب التحلية ، والتوبة من باب التخلية.

فينفتح باب السعادة والخير بالتوحيد ، وينغلق باب الشرور بالتوبة والاستغفار.

ثم قال له النبي صلي الله عليه وسلم (إن مت وهي عليك ما أفلحت أبدا) وبالاستقراء نفي الفلاح لم يرد في الشرع إلا في حالة الشرك الأكبر المخرج من الملة لكن ذكره النبي صلي الله عليه وسلم هنا لأمرين :

الأول : لرؤية النبي صلي الله عليه وسلم منه أنه لبسها معتقدا استقلالها بالتأثير عن إذن الله ومشيئته ، يؤيد ذلك ما في الرواية الأخري عند ابن أبي شيبة وهي مرفوعة حكما إلي النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال (إن مت وأنت تري أنها نافعتك مت علي غير الفطرة).

الثاني : أن هذا من جملة أدلة الوعيد المراد منها التغليظ كآية القتل في سورة النساء.

- وهذا الحديث دليل علي أن الشرك الأصغر وزره وعقوبته أغلظ من الكبائر لقوله ما أفلح أبدا ، ومثله حديث ابن مسعود (لأن أحلف بالله كاذبا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقا)وهو صحيح إليه سندا.

تنبيه:

دبلة الزواج إن كانت لأجل جلب المودة بين الزوجين ولدفع أسباب الفرقة فهي من الشرك ، وإن لم تكن بهذه النية ولم يكن فيها تشبه بالكفار فيجوز .

٣ ـ وله عن عقبة بن عامر رضي الله عنه مرفوعا: (من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له) وفي رواية: (من تعلق تميمة فقد أشرك).

ـ والتميمة اسم لما يعلق طلبا لتتميم الأمر من جلب نفع أو دفع ضر ، والودعة بمعني الراحة وأصلها من الترك.

قال العصيمي (ويكون تعليق التمائم شركا من جهتين :

جهة باطنة وهو قلب المعلق لها.

جهة ظاهرة وهو صورتها من الخيط ونحوه.

قال المنذري كما في الترغيب والترهيب (التميمة خرزة يعلقونها يرون أنها تدفع عنهم الآفات وهذا جهل وضلالة إذ لا مانع إلا الله ، ولا دافع إلا الله) ، وقال أبو السعادات في كتابه النهاية في غريب الحديث (خرزات كانت العرب تعلقها علي أولادهم يتقون بها العين في زعمهم فأبطلها الإسلام)

فمن هذا الكلام تكون التميمة جامعة ٣ أوصاف:

الاول : انها خرزات تجعل نسقا في خيط ونحوه .

الثاني : انها تعلق علي الأولاد.

الثالث : أن المقصود منها انتفاء العين ودفع الآفات.

وهذه الثلاثة المستفادة من كلامهما هي باعتبار المشهور عند العرب وإلا فالتميمة لا تختص بالخرزات ولا تعلق علي الأولاد فقط بل تعلق علي الدواب كذلك وعلي الحيطان والبساتين وأبواب البيوت وصدور النساء يجمعها كلها ما يعلق طلبا لتتميم أمر جلبا لنفع أو دفعا لضر ، وهي عوذة يتعوذ بها للحماية والأغلب فيها كونها مكتوبة ويلحق بها ما جري مجري الكتابة) انتهي .

ـ والتميمة اسم لم يعلق طلبا لتتميم الأمر من جلب نفع أو دفع ضر ، قال ابن الأثير (خرزات كانت العرب تعلقها علي أولادهم يتقون بها العين في زعمهم فأبطلها الإسلام).

وهذا بالنظر إلي زمنهم ، وإلا فهي أعم من ذلك فقد يعلقها الكبار وقد تعلق علي الستائر والفرش والحيطان وصدور النساء ونحو ذلك ، لكن يجمعها اعتقاد جلب النفع ودفع الضر

كالعين والحسد ، فهي عوذة يتعوذ بها بتعليقها للحماية ، وأكثر ما تكون مكتوبة ، وقد لا يكون فيها كتابة

- قول النبي صلي الله عليه وسلم لا أتم الله له ولا ودع الله له هو دعاء بعدم حصول مطلوبه ، أو بنقص يلحقه فيه ، فالمراد لا أتم الله مطلوبه ، ولا خفف الله عنه ما يخافه فتكون الجملة إنشائية المراد منها الدعاء ، ويحتمل أن يكون مراد النبي صلي الله عليه وسلم من قول ذلك الخبر عن حال متعلق التميمة أن الله لن يتم أمره ، والجملة صالحة للمعنيين.

٤ - ولابن أبي حاتم عن حذيفة أنه رأى رجلا في يده خيط من الحمى فقطعه، وتلا قوله: (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون).

- وهذا الحديث دليل علي ما ذكرنا أن الصحابة يستدلون بآيات في الشرك الأكبر علي الأصغر ، وقد تقدم سبب ذلك من وجهين .

8- باب ما جاء في الرقي والتمائم

-مناسبة الباب لما قبله:

هذا الباب أعم من الباب السابق ؛ فإن لبس الحلقة والخيط من اتخاذ التمائم - وقد سبق بيان معني التمائم في آخر الباب السابق - لكن هناك خصصنا الحلقة والخيط بالذكر عن سائر التمائم لأنها من التمائم الشركية وسنتكلم في هذا الباب عن التمائم المحرمة ، وأما الرقي فجمع رقية وهي عوذة ملفوظة لطلب الوقاية والحماية ، والمراد بهذا الباب بيان حكم الرقي والتمائم وأن التمائم ممنوعة كلها إلا أن منها ما هو شرك ومنها ما هو محرم ،وأما الرقي فمنها ما هو جائز ، و منها ما لا يجوز ، ومنها ما فيه خلاف وسنبين الراجح فيه.

ولما كانت التمائم ممنوعة كلها ، وكانت الرقي علي ثلاثة أقسام : قسم يجوز ، وقسم لا يجوز ، وقسم في جوازه خلاف لم يجزم المصنف بكونها من الشرك ؛ لأن في ذلك تفصيلا ، بخلاف لبس الحلقة والخيط ونحوهما مما ذكرناه في الباب السابق فإن ذلك شرك مطلقا.

١ - في الصحيح عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولا أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت.

- القلادة اسم لما يعلق في العنق ، والوتر هو حبل القوس الذي يشد به ، وكان من عادتهم في الجاهلية أنهم كانوا إذا تلف الوتر عقدوه علي الدواب دفعا للعين عنها.

- في هذه الرواية قال راوي الحديث (قلادة من وتر أو قلادة) فشك الراوي هل أمر النبي صلي الله عليه وسلم بقطع أي قلادة أم قلادة الوتر خاصة ، والصحيح أن مراد الحديث قلادة

الوتر خاصة لأنه ثبت عنه صلي الله عليه وسلم الرخصة في القلائد إلا الأوتار وذلك في حديث أبي وهب الجشمي عند أبي داوود بسند حسن (ارتبطوا الخيل - أي اجعلوها مربوطة عندكم - وقلدوها ولا تقلدوها الأوتار) ، وروي عن مالك أنه قال (ما سمعت بكراهتها إلا في الوتر) والكراهة هنا بمعني التحريم لا الكراهة المصطلح عليها عند الأصوليين، وقد قلد النبي صلي الله عليه وسلم هديه في الحج كما في الصحيحين (إني لبَّدت شعري وقلَّدت هديي فلا أحلُّ حتي أنحر) ، وقد نهي الله تعالي عن احترام الهدي والقلائد في الحج ونهي عن التعدي عليها لحرمتها فقال في سورة المائدة (يا أيها الذين آمنوا لا يتحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد).

قال الشيخ صالح العصيمي في شرحه (ويلحق بتعليق الوتر ما كان في معناه من رأس حمار ميت علي باب البستان ، أو شجرة صبار ، أو نعل قديمة).

وكل هذه التعاليق لدفع العين ، فإن كانت لغير اعتقاد فهي مباحة كما قررناه في الباب السابق واشترطنا في عامة التعاليق ألا يكون فيها مشابهة للكفار ولا للنساء أو العكس.

٢ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الرقى والتمائم والتولة شرك) رواه أحمد وأبو داوود.

التمائم: شيء يعلق على الأولاد من العين، لكن إذا كان المعلق من القرآن، فرخص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخص فيه، وجعله من المنهي عنه، منهم ابن مسعود رضي الله عنه.

والرقى: هي التي تسمى العزائم، وخص منه الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة.

والتولة: شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته.

- الحديث بتمامه مروي عن أبي داوود وغيره بسند صححه الألباني ، ولفظ أبي داود: "عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود أن عبد الله بن مسعود رأى في عنقي خيطًا، فقال: ما هذا؟ قلت: خيط رقي لي فيه، قالت: فأخذه فقطعه ثم قال: إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الرقى والتمائم والتولة شرك. فقلت: لم تقول هكذا؟ لقد كانت عيني تقذف، وكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقيها، فإذا رقاها: سكنت: فقال عبد الله: إنما ذلك عمل الشيطان ينخسها بيده، فإذا رقيتها كف عنها، إنما كان يكفيك أن تقولي كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أذهب البأس رب الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاءَ إلاّ شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقمًا."

قال العصيمي (والرقي جمع رقية وهي عوذة ملفوظة ، وكانت العرب تسميها العزائم لما فيها من العزم والقوة في الطلب ، وأكملها ما قارنه النفث وهو دون التفل فهو نفخ مصحوب بريق لطيفة ، فالصورة التامة للرقية تجمع أمرين :

أحدها : التلفظ بها لإرادة التعوذ وطلب الحماية.

ثانيها : اقتران التلفظ فيها بالنفث.

فإن خلت من النفخ والنفث صحت أنها رقية أيضا لكن الرقية الكاملة ما جمعت بين الأمرين) انتهي.

والتمائم تقدم أنها ما يعلق تتميما للمراد من جلب نفع أو دفع ضر.

و التولة : هي شيء يصنع لعطف أحد الزوجين علي الآخر فتتحقق محبته في قلبه ، وهي باعتبار الصورة الظاهرة من التمائم ، وباعتبار الصورة الباطنة من السحر.

-قال هنا صلي الله عليه وسلم أن الرقي شرك ، وقال في الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ قال : كُنَّا نَرْقِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ تَرَى فِي ذَلِكَ فَقَالَ: اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ.

ويفهم الحديثان بأمرين :

الأول : أن المراد بالرقي المنهي عنها ما اشتمل علي الشرك الذي كانت تعتاده العرب في الجاهلية لا سيما والذي رقي زوجة ابن مسعود يهودي.

الثاني : أن حديث ابن مسعود في أول الإسلام سدا للذريعة وسدا للشرك في قلوب الخلق.

-والرقي باعتبار حكمها علي ثلاثة أقسام:

القسم الأول :

رقي شرعية وهي الرقي السالمة من الشرك.

القسم الثاني :

رقي شركية وهي الرقي المشتملة علي شرك فيحرم الرقية بها.

القسم الثالث :

رقي مجهولة المعني لا يعرف معناها فيحرم الرقية بها أيضا لأنها ربما كانت وسيلة إلي الشرك فيمنع منها احتياطا وسدا للذريعة.

- وإليك شروط الرقية الجائزة ، وهي شروط ثلاثة مجمع عليها وسأبين لك حكم الرقية إذا سقط شرط من الثلاثة ، وهذه الشروط الثلاثة ذكرها ابن حجر في الفتح وتبعه عليها السيوطي في الحاوي:

الشرط الأول:

أن تكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته ، أو بما أنزل علي النبي صلي الله عليه وسلم.

الشرط الثاني:

أن تكون باللسان العربي.

الشرط الثالث:

أن يعتقد الراقي والمرقي أنها لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله تعالي ؛ فهي سبب إن شاء الله أعمله وأنفذه وإن شاء منعه وعطله.

فإن كانت من غير كلام الله ورسوله فاختلفوا فيها والصحيح الجواز لكنها أدني في النفع بطبيعة الحال مما جاء عن الله ورسوله ، لكن كلامنا عن الجواز ، ودليل الجواز عموم قول الرسول صلي الله عليه وسلم (لا بأس بالرقي ما لم تكن شركا) وهذا يشمل ما كان بما جاء عن الله ورسوله أوغيره من الكلام ما دام خاليا من الشرك.

وإن كانت باللسان الأعجمي كرهت مع الجواز لمن استطاع العربية لعموم الحديث السابق ، وترتفع الكراهة لمن لا يحسن العربية.

قال العصيمي في شرح فتح المجيد:

(فالرقية بالكلام الأعجمي لها حالان:

الأول : أن يكون مجهول المعني فتحرم الرقية به لأنه ربما كان وسيلة للشرك فيمنع منها احتياطا وسدا للذريعة ذكره ابن حجر في فتح الباري ، الثاني : أن يعرف معناها ويكون سالما من مخالفة الشرع فتحرم الرقية به إلا لعاجز عن الرقية).

قال ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم (١ / ٤٦٩)

(كل اسم مجهول فليس لأحد أن يرقي به، فضلًا عن أن يدعو به، ولو عرف معناه؛ لأنه يكره الدعاء بغير العربية، وإنما يرخص لمن لا يعرف العربية، فأما جعل الألفاظ العجمية شعارًا فليس من الإسلام .. وأما اعتياد الخطاب بغير العربية التي هي شعار الإسلام ولغة الفقه

حتي يصير ذلك عادة للمصر وأهله أو لأهل الدار أو للرجل مع صاحبه أو لأهل السوق أو للأمراء أو لأهل الديوان أو لأهل الفقه فلا ريب أز هذا مكروه فإنه من التشبه بالأعاجم وهو مكروه كما تقدم وإنما الطريق الحسن اعتياد الخطاب بالعربية حتي يتقنها الصغار في المكاتب وفي الدور فيظهر شعار الإسلام وأهله ويكون ذلك أسهل علي أهل الإسلام في فقه معاني الكتاب والسنة وكلام السلف بخلاف من اعتاد لغة ثم أراد أن ينتقل إلي أخري فإنه يصعب)انتهي.

-ويشترط في الراقي والمرقي اعتقاد نفع الرقيا وأنها أفضل الأدوية علي الإطلاق لأنها من كلام الله وسنة رسوله صلي الله عليه وسلم ، فمتي وجدت هذه العقيدة في الرقية منهما مع انتفاء موانع الإجابة نفعت بإذن الله ، وبه تعلم أن رقية الكافر للمسلم جائزة ، وقد تنفع ،ودليل ذلك عدم اعتراض ابن مسعود لرقية اليهودي لزينب وإنما كان اعتراضه علي الشرك الذي قد يدخله فيها ، هذا غير عموم قول النبي صلي الله عليه وسلم (اعرضوا علي رقاكم ..) ومقصوده الرقي التي كانوا يرقون بها في الجاهلية ، ولأن الرقية دعاء ودعاء الكافر ربما استجيب بنص الكتاب والسنة لكن فيها من النقص ما فيها لعدم كمال قوة اعتقاد الكافر بخلاف رقية المسلم الموحد.

-حكم التمائم من القران:

ولا يجوز التمائم من القران وما ألحق به من أسماء الله وصفاته ، ذلك لأمور ، منها:

الأول :

عموم النهي عن التمائم في الأحاديث ولا مخصص لهذا العموم خلافا لما سبق بيانه من الرقي.

الثاني:

سدا للذريعة لأنه يفضي إلي تعليق ما ليس كذلك فيترك إنكارها فيفشو التعليق في الخلق ، ويترك إنكارها ويسوي بين القران وغيره فيها .

الثالث:

تعريض كلام الله للامتهان الذي ينزه عنه القران.

الرابع:

ولأنه لم يثبت الاستشفاء بالقران علي هذه الصورة فالاستشفاء بها هكذا بدعة وإنما أنزل القران لقراءته وسماعه والنظر فيه وتدبره وحفظه والعمل به لا ليعلق.

الخامس:

أن النبي صلي الله عليه وسلم رقي غيره ورقاه غيره ولو كان تعليق القران جائزا لأمر به فقد وجد المقتضي ولم يوجد مانع من فعله ولهذا كان تعليق القران هكذا من البدع.

وهذه الوجوه الخمسة واضحة يقطع معها بتحريم التمائم كلها من القران وغير القران.

قال في التيسير :

وإذا ضممت ما ذكرناه في الباب السابق مع ما ذكرناه هنا علمت أن التمائم التي يستعملها الناس ويعلقونها علي ٣ أقسام باعتبار حكمها:

الأول:

تمائم من الشرك الأصغر وهي التعاليق المجردة التي ذكرناها في الباب السابق كالسلاسل والحلق والخيوط ونحوها.

الثاني:

التمائم التي هي من الشرك الأكبر كالتي يكتب فيها استعانة بغير الله سبحانه أو دعاؤه.

الثالث:

التمائم المحرمة وهي التمائم القرانية وما ألحق به من أسماء الله وصفاته.

قال العصيمي في شرح فتح المجيد:

(ونبه الشيخ ابن باز إلي تطرق الشرك الأصغر إلي التمائم القرانية وذلك حال توجه القلب إلي التعليق دون المعلق ، فيكون السبب المركون إليه عند معلق التميمة هو صورة التعليق لا ما فيها من القران الكريم فترجع حينئذ للشرك الأصغر لأنه اتخذ ما ليس سببا شرعيا وهو صورة التعليق) . انتهي.

٣ - وعن عبد الله بن عكيم مرفوعا: (من تعلق شيئا وكل إليه) رواه أحمد والترمذي.

-قال في التيسير:

(التعلق يكون بالقلب ويكون بالفعل ويكون بهما جميعا أي من تعلق شيئا بقلبه أو تعلقه بقلبه وفعله وكل اليه أي وكله الله إلى ذلك الشيء الذي تعلقه فمن تعلقت نفسه بالله وأنزل حوائجه بالله والتجأ إليه وفوض أمره كله اليه كفاه كل مؤنة وقرب اليه كل بعيد ويسر له كل عسير ومن تعلق بغيره أو سكن إلى علمه وعقله ودوائه وتمائمه واعتمد على حوله وقوته وكله الله إلى ذلك وخذله - أي حجب عنه الإعانة سبحانه - وهذا معروف بالنصوص والتجارب قال الله تعالى ومن يتوكل على الله فهو حسبه) .

قال العصيمي في شرح فتح المجيد:

(والعبد في باب تفويض الأمر له حالان:

الأول : أن يفوض أمره لله وينزل حاجته به.

الثاني : أن يقوض أمره لغير الله وينزل حاجته به.

فالأول معان موصول ، والثاني مهان مخذول) انتهي.

٤ - وروى أحمد عن رويفع قال: قال لي رسول الله ﷺ: (يا رويفع! لعل الحياة تطول بك، فأخبر الناس أن من عقد لحيته، أو تقلد وترا، أو استنجى برجيع دابة أو عظم، فإن محمدا بريء منه).

- قال في التيسير : هذا الحديث علم من أعلام النبوة لأنه وقع كما أخبر به صلي الله عليه وسلم ، فإن رويفعا طالت حياته إلي سنة ست وخمسين وقيل مات سنة ثلاث وخمسين.

-عقد لحيته أي شدها وطواها ، أو فتلها وجعدها.

قال العصيمي:

(عقد اللحية يفسر علي وجهين - قلت وذكره الخطابي أيضا في معالم السنن:

الأول : عقدها تكبرا وتجبرا وكانوا يفعلونه في الحروب.

الثاني : طيها وجمعها ترفا وتأنقا ، فكانوا يكرهون استرسالها لما فيها من معالم الرجولة والقوة.

فالكبر في الحالة الأولي ، ومشابهة النساء في الحالة الثانية) فالعقد له هذا الموجبان) انتهي.

وقال في قرة عيون الموحدين:

(يشبه هذا ما يفعله كثير من فتل أطراف الشارب ، وقال الرسول صلي الله عليه وسلم من لم يأخذ من شاربه فليس منا) . انتهي.

والمراد فتلها مع عقدها أو فتلها تكبرا وإلا فإن خلا من ذلك وفعله أحيانا فقد فعله عمر رضي الله عنه.

- وقوله أو تقلد وترا : سبق شرحه ، وتقليد الوتر تعليقه بقصد جلب نفع أو دفع ضر.

- قوله أو استنجي برجيع دابة أو عظم : رجيع الدابة هو روثها ، وسمي رجيعا لرجوعه لهذه الصورة بعد أن كان طعاما وعلفا ، والعظم كذلك في الحكم للحديث (نهَى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ أن نستَنجيَ بعظمٍ أو رَوَثٍ ، وقال ؛ إنَّهُما لا يُطهرانِ).

وتفصيل ذلك أن العظم والروث إن كان من غير المأكول لحمه فهو نجس لا يطهر إن كان حيا ، وميتته تزيده نجاسة علي نجاسته العينية ، وإن كان من مأكول اللحم فالروث طاهر ولكن هل يطهر ؟ فيه خلاف وحديث رويفع ظاهره العموم وهو نص في عدم التطهير ولأنه علف لدواب الجن فيحرم استعمالها في ذلك والنهي هنا عاد لذات الشيء فالتطهير به فاسد لا يصح ، وأما العظم فإنه إن زكي التزكية الشرعية فقد قال فيه النبي صلي الله عليه وسلم كما عند مسلم (أتانِي داعِي الجِنِّ فَذَهَبْتُ معهُ فَقَرَأْتُ عليهِمُ القُرْآنَ قالَ: فانْطَلَقَ بنا فأرانا آثارَهُمْ وآثارَ نِيرانِهِمْ وسَأَلُوهُ الزَّادَ فقالَ: لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عليه يَقَعُ في أيْدِيكُمْ أوْفَرَ ما يَكونُ لَحْمًا وكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لِدَوابِّكُمْ. فقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ: فلا تَسْتَنْجُوا بهِما فإنَّهُما طَعامُ إخْوانِكُمْ) فنهي عن الاستجمار بها وقال عنه وعن الروث لا يطهران فدل علي أنها لا تطهر ولو أزالت عين النجاسة ، وإن كانت عظام ميتة مأ كول اللحم فهي نجسة فلا تطهر وهذا هو المشهور من مذهب أحمد ، وذهب ابن تيمية وهو الرواية الأخري عن أحمد أنه لو حصل التطهير فقد حصل وإلا فلا.

-والبراءة في الحديث دليل علي أن المذكور كبيرة أو شرك علي ما بيناه ؛ فتقليد الأوتار شرك ، و عقد اللحية والاستنجاء بالعظام ورجيع الدواب كبيرة.

٥ - وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه، قال: (من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة) رواه وكيع.

- هذا الحديث فيه النهي عن التمائم ، ووجوب قطعها وبيان فضل ذلك والترغيب فيه.

٦ -وله عن إبراهيم - يعني النخعي - قال: كانوا يكرهون التمائم كلها، من القرآن وغير القرآن.

- وفيه إجماع الصحابة علي تمائم القران ، والكراهة عند السلف هي التحريم كما ذكره ابن تيمية ، وابن القيم في إعلام الموقعين ، وابن رجب في جامع العلوم والحكم.

9- باب من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما

(أي من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما فهو مشرك)

- قال في التيسير تكملة لعنوان الباب (كبقعة وغار وقبر ونحو ذلك مما يعتقد كثير من عباد القبور وأشباههم فيه البركة فيقصدونه رجاء البركة)انتهي .

-البركة هي كثرة الخير ودوامه وثبوته ، والتبرك تكلف حصول البركة ورجاؤها واعتقادها ولو لم يطلبها بنفسه بل يكفي مجرد الاعتقاد لما تقدم من أن الإيمان قول وعمل واعتقاد.

- قال العصيمي في شرح فتح المجيد :

(التبرك بعامة نوعان:

النوع الأول : التبرك المشروع وهو المأذون به شرعا ؛ فإن من الأعيان والأوصاف ماثبتت بركته وثبت التبرك به شرعا كالقرآن ، والعلم ، وماء زمزم ، والنبي صلي الله عليه وسلم.

وجماع شروط التبرك المشروع ثلاثة :

الأول:

ثبوت البركة في المتبرك به ؛ فما ادعي فيه البركة لا يصح ما ادعي له إلا بمجيء الدليل به ، ودليل ذلك هو الدليل الشرعي لا القدري ، فمثلا ماء زمزم ماء مبارك للحديث - يعني حديث ماء زمزم طعام طعم وشفاء يقم - فثبت بالدليل ، فإن تخلف الدليل لم يحكم بوجود البركة كالحجر الأسود فإنه ليس عينا مباركة فلا يجوز التبرك به ، ومسحنا إياه وتقبيلنا له ليس علي وجه التبرك ونيل البركة بل علي وجه التعبد ، وبه تعلم غلط كثير من المعتمرين والحجاج من مسح وجوههم وأبدانهم به بعد مسحه ، وهو محرم لأنه تبرك بشيء لم تثبت به البركة فهو من الشرك الأصغر.

الثاني:

أن يكون التبرك به علي الوجه المأذون به شرعا فإذا عدل عنه إلي غيره فقد وقع العبد في المحرم ؛ فالقرآن الكريم مثلا ثبتت بركته والتبرك به جاء علي أوجه عدة كقراءته وتعلمه ، والاستشفاء رقية به ، فإذا تبرك به علي غير ما ورد في الشرع لم يجز ذلك كمن تبرك

بالقرآن عند إرادة الفتح عليه في أمر مستغلق فيعمد للقران فيأخذه مغلقا ثم يفتحه والآية التي يقع عليها نظره يجعلها حكما في نظره ، كمن يفتحه ليري هل يدخل مكانا من الأمكنة أم لا فيفتح المصحف فيجد ادخلوها بسلام !!

الثالث:

أن ينزل السبب المتبرك به منزلته الشرعية في طلب حصول البركة منه ، وهي الاطمئنان والاستبشار - قلت كما سبق بيانه في باب من الشرك لبس الحلقة والخيط-..

فإذا رفع عن هذه المرتبة فقد وقع في الشرك الأكبر أو الأصغر بحسب ما سيأتي بيانه.

النوع الثاني:

التبرك الممنوع وهو التبرك الواقع علي خلاف الواقع في الأمر الشرعي ، وجِماعُه نوعان :

الأول :

التبرك المحرم وهو الذي ثبتت بركته بالدليل الشرعي لكن يتبرك به علي غير الوجه الشرعي كالمذكور آنفا في التبرك بالقران فتحا للمصحف فإنه يكون حراما.

الثاني:

التبرك الشركي : وله حالان:

الحال الأول : أن يعتقد استقلال المتبرك به في التأثير وأنه ينفع بذاته فهو شرك أكبر.

الحال الثاني : ألا يعتقد الاستقلال في التأثير لكن يجعله سببا شرعيا لذلك - وهو ليس بسبب في الحقيقة فلم يدل الدليل عليه وسبق أن الدليل القدري هنا لا علاقة له بثبوت التبرك - فهذا شرك أصغر في صورتين :

الأولي:

أن يتبرك بما لم يثبت بركته وهذا شرك أصغر - لما قلناه سابقا من تعلق القلب بغير الله ولجعله ما ليس بسبب سببا لهذا وليس الأمر كذلك -

الثانية:

أن يتجاوز به العبد المأذون به في النظر إليه فيقوي اعتماده عليه حتي يقارنه بالجزم بحصول التأثير ؛ فإن وجدان الجزم شيء فوق الاطمئنان والاستبشار ؛ لأو المطمئن يكون نظره الأعظم لله وأن الأسباب محكومة بقدره ، وأما الجازم به فيضعف نظره إلي الله حتي يقع في قلبه وقوع مطلوبه الذي أراد) انتهي.

قلت: و دليل بركة القران آيات كثيرة وأحاديث ، فمنها قوله تعالي (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب) ، وقوله سبحانه (وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القري ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم علي صلاتهم يحافظون) ، وقوله عز من قائل (وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ) وقوله عز وجل (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

وقول النبي عليه الصلاة وسلم (من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ألم حرف؛ ولكن ألف حرف ، ولام حرف، وميم حرف).

وتنال بركة القران بتلاوته ، وحفظه ، والعمل به ، والنظر فيه ، وسماعه ، وتعلمه وتعليمه إلي غير ذلك من الوجوه.

وأما ماء زمزم فديل بركته قوله صلي الله عليه وسلم

(إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ إِنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ - وفي زيادة وشفاء سقم)

وكذلك قوله صلي الله عليه وسلم كما عند أحمد بسند حسن (ماء زمزم لما شرب له).

وكذلك العلم وبركته معروفة قال فيه النبي صلي الله عليه وسلم كما صح عند أبي داوود والترمذي.

(من سَلك طريقًا يلتمِس فيه علمًا سهَّل الله له طريقًا إلى الجنّة، وإنّ الملائكةَ لتَضَع أجنِحَتَها لطالبِ العِلم رِضًا بما يَصنَع، وإنَّ العالم ليَستغفِر له من في السموات ومن في الأرض والحيتانُ في جوفِ الماء، وإن فضلَ العالم على العابِد كَفَضلِ القمر لَيلةَ البدرِ عَلَى سائرِ الكَواكِب، وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، وإنّ الأنبياءَ لم يوَرِّثوا دينارًا ولا دِرهمًا، وإنما ورَّثوا العِلمَ، فمن أخذه أخذَ بحظٍّ وافر).

وقال أيضا كما صح عند الدارمي في السنن

(فضل هذا العالم الذي يصلي المكتوبة ثم يجلس فيعلم الناس الخير على العابد الذي يصوم النهار ويقوم الليل كفضلي على أدناكم رجلا)

وأما بركته صلي الله عليه وسلم وهي بركة ذات وعمل

فقد أخرج البخاري في صحيحه من حديث عروة بن مسعود قال (وَاللَّهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ ، وَإِذَا تَوَضَّأَ

كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ).

- قال صاحب تيسير العزيز الحميد:

((تنبيه: ذكر بعض المتأخرين أن التبرك بآثار الصالحين مستحب كشرب سؤرهم، والتمسح بهم أو بثيابهم، وحمل المولود إلى أحد منهم ليحنكه بتمرة حتى يكون أول ما يدخل جوفه ريق الصالحين، والتبرك بعرقهم ونحو ذلك، وقد أكثر من ذلك أبو زكريا النووي في "شرح مسلم" في الأحاديث التي فيها أن الصحابة فعلوا شيئًا من ذلك مع النبي صلى الله عليه وسلم وظن أن بقية الصالحين في ذلك كالنبي صلى الله عليه وسلم.

*وهذا خطأ صريح لوجوه:

-منها: عدم المقاربة فضلاً عن المساواة للنبي صلى الله عليه وسلم في الفضل والبركة .

-ومنها: عدم تحقق الصلاح، فإنه لا يتحقق إلا بصلاح القلب، وهذا أمر لا يمكن الاطلاع عليه إلا بنص، كالصحابة الذين أثنى الله عليهم ورسوله، أو أئمة التابعين، ومن شهر بصلاح ودين كالأئمة الأربعة ونحوهم من الذين تشهد لهم الأمة بالصلاح وقد عدم أولئك، أما غيرهم، فغاية الأمر أن نظن أنهم صالحون فنرجو لهم .

-ومنها: أنا لو ظننا صلاح شخص، فلا نأمن أن يختم له بخاتمة سوء، والأعمال بالخواتيم، فلا يكون أهلاً للتبرك بآثاره.

-ومنها: أن الصحابة لم يكونوا يفعلون ذلك مع غيره لا في حياته، ولا بعد موته، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه، فهلا فعلوه مع أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ونحوهم من الذين شهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة، وكذلك التابعون، هلا فعلوه مع سعيد بن المسيب وعلي بن الحسين وأويس القرني، والحسن البصري ونحوهم ممن يقطع بصلاحهم، فدل أن ذلك مخصوص بالنبي صلى الله عليه وسلم.

-ومنها: أن فعل هذا مع غيره صلى الله عليه وسلم لا يؤمن أن يفتنه، وتعجبه نفسه، فيورثه العجب والكبر والرياء، فيكون هذا كالمدح في الوجه بل أعظم)انتهي كلامه.

ومنها أيضا أن هذا الصالح ليس سببا للبركة شرعا - وسبق أن دليل القدر لا علاقة له بثبوت البركة - فهو وإن لم يكن شركا أكبر فهو شرك أصغر ، وإن لم يعتقد أن هذا المتبرك به سببا مؤثر مستقلا.

١ - وقول الله تعالى: (أفرأيتم الَّلات والعزى ومناة الثالثة الأخري ألكم الذكر وله الأنثي تلك إذا قسمة ضيزي إن هي إلا أيماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوي الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدي أم للإنسان ما تمني فلله الآخرة والأولي).

-اللات والعزي ومناة أسماء لثلاثة آلهة كانت تعبدها العرب في الجاهلية وذكرت في الآية دون غيرها لأن أعظم آلهتهم في الجاهلية ، وأنا أذكر لك صفتها باختصار من كتاب تيسير العزيز الحميد وغيره من الكتب حتي تعرف كيفية الأوثان ، وكيفية عبادتها ، وتعرف ما هو شرك العرب الذي كانوا يفعلونه وأن شركهم كان في الأموات والصالحين كما هو حاصل في زماننا وفي كل زمان من لدن نوح عليه السلام ، وحتي تفرق بين التوحيد والإخلاص وبين الشرك والكفر.

فأما اللات فاشتقوا اسمها من الإله وهذا نوع من أنواع الشرك في أسماء الله وصفاته سبحانه كما تقدم أول الكتاب، وقيل هي هي اسم لرجل كان يلت - أي يعجن ويخلط ويبل - السويق - وهو الشعير والحنطة - للحجاج فلما مات ذلك الرجل جعلوا علي قبره وثنا أو ضريحا وهو القبر فاعتكفوا عنده ثم عبدوه ، وذكر أهل السيرأن الرسول أرسل المغيرة بن شعبة عام الفتح فهدمها.

وأما العزي فاشتقوها من اسم الله العزيز تعالي الله عما يقولون علوا كبيرا ، قال ابن كثير (كانت صخرة بيضاء منقوشة عليها بيت بالطائف له أستار - وهي ثياب يضعونها علي وثنه لتستره - وسدنة - جمع سادن وهم خدم الوثن القائمين عليه - وكان حوله فناء معظم) وكانت العزي امرأة جنية تزين للناس عبادة المكان ، وهدمها خالد بن الوليد عام الفتح وحرقها بالنار.

وأما مناة فإما أنهم اشتقوها من اسم الله المنان سبحانه وإما أنهم أرادوا كثرة ما يمني عندها من الذبائح للتبرك بها ، قيل هدمها خالد بن الوليد وقيل أبو سفيان بن حرب.

واتفقت الثلاثة في هدمها عام الفتح.

وتأمل فعل المشركين مع هذه الأوثان ووازن بينها وبين ما يفعله عباد القبور من دعائها والذبح عندها وتعليق الخيوط وإلقاء الخرق في ضرائح الأموات ونحو ذلك بل شرك المتأخرين أعظم من شرك الجاهلية لأنهم في الجاهلية كانوا يخلصون لله في الشدة ، وأما الآن فيشركون بالأولياء في الرخاء والشدة معا ، بالإضافة إلي أن الأولين كانوا يوحدون الله في ربوبيته في الجملة ، وأما الآن فيشركون في الربوبية حتي ادعي الجفري وأمثاله أن

الولي يخلق الجنين في بطن أمه !! ، وشرك أهل وحدة الوجود المتأخرين أعظم من شرك أبي جهل وأمثاله إذ ادعوا أن كل مخلوق خالق مع الله سبحانه ، غير أنهم كانوا في الجاهلية يدعون أن عبادتهم إنما لتقربهم إلي الله ، وأما الآن فيعبدون الأموات زاعمين أنه دين محمد صلي الله عليه وسلم.

- وفي التفسير الميسر:

(أفرأيتم- أيها المشركون- هذه الآلهة التي تعبدونها: اللات والعزَّى ومناة الثالثة الأخرى، هل نفعت أو ضرَّت حتى تكون شركاء لله - في العبادة -؟

أتجعلون لكم الذَّكر الذي ترضونه، وتجعلون لله بزعمكم الأنثى التي لا ترضونها لأنفسكم؟ تلك إذًا قسمة جائرة ، ما هذه الأوثان إلا أسماء ليس لها من أوصاف الكمال شيء، إنما هي أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم بمقتضى أهوائكم الباطلة، ما أنزل الله بها مِن حجة تصدق دعواكم فيها. ما يتبع هؤلاء المشركون إلا الظن، وهوى أنفسهم المنحرفة عن الفطرة السليمة، ولقد جاءهم من ربهم على لسان النبي صلى الله عليه وسلم، ما فيه هدايتهم، فما انتفعوا).

٢ - عن أبي واقد الليثي، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله أجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال رسول الله ﷺ: (الله أكبر! إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: (اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون)، لتركبن سنن من كان قبلكم). رواه الترمذي وصححه.

- خرج بعض الصحابة مع النبي صلي الله عليه وسلم إلي حنين وفي ذلك دلالة علي أن ما حصل لم يحصل من جميع الصحابة بل ممن أسلم حديثا حينها لا من كان قديم العهد بالإسلام، وكان للمشركين سدرة أو شجرة يعلقون عليها أسلحتهم لطلب البركة منها حتي تكون الأسلحة نافذة وسموها ذات أنواط لكثرة ما ينوطون بها أسلحتهم ؛ فهم عظموا شجرة بقصد نيل البركة منها ، وخضعوا لها ، وأحبوها بقصد التبرك ، وعكفوا عندها ، وأقاموا تحتها وتبركوا بها.

لكن ظن بعض الصحابة ممن أسلم حديثا أن هذا أمر محبوب عند الله فقصدوا التقرب إلي الله بذلك ، وسألوا الرسول صلي الله عليه وسلم عن التبرك بها أو أن يجعل الله مثل ذلك سببا للتبرك ، وإلا فهم أجل قدرا - وإن كانوا حديثي عهد بكفر - عن قصد مخالفة الرسول صلي الله عليه وسلم أو اعتقاد أن غير الله سبحانه يستقل بالبركة ! معاذ الله ، فكان رد الرسول عليهم - صلي الله عليه وسلم سبحان الله إنها السنن وفي رواية الله أكبر إنها السنن ، وفي تسبيح الله وتكبيره إثبات الكمالات لله وتوحيده ونفي النقائص عنه والشرك به سبحانه ،

والسنن بضم السين وفتحها بمعني الطرق ، أي لَتقعون في مثل ما وقع فيه اليهود والنصاري وغيرهم من المشركين أي في الشرك الأصغر والأكبر وسائر المعاصي باختلافها ، قلتم كما قالت بنو إسرائيل لموسي اجعل لنا إلها كما لهم آلهة

أي: طَلَبُكم هذا كطلَبِ بَني إسرائيلَ مِن نبيِّ اللهِ موسى عليه السَّلامُ عندَما طلَبوا منه أن يَجعَلَ لهم أصنامًا كما للمُشرِكين أصنامٌ، ثمَّ ما لَبِثوا أنْ جعَل لهم السَّامريُّ عِجلًا مِن ذهَبٍ فعَبَدوه، مع أنَّ هارونَ عليه السَّلامُ كان معَهم، وكان موسى عليه السَّلامُ في ميقاتِ ربِّه، فكأنَّ هذا إشارةٌ إلى أنَّ سُنَّةَ اللهِ ماضيةٌ في الأمَّةِ، وقد بدَأَت في حياةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

ثمَّ قال النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: "والَّذي نَفْسي بيَدِه"، أي: يُقْسِمُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم باللهِ الَّذي يَملِكُ أمرَ نفْسِه: "لتَركَبُنَّ سُنَّةَ مَن كان قبْلَكم"، أي: لسَوف تَفعَلون يا أُمَّةَ الإسلامِ مِثلَما فعَل مَن كان قَبلَكم مِن المشرِكين واليهودِ والنَّصارى، ولسَوف تَسلُكون سَبيلَهم، وتنهَجون منهجَهم، وتَسيرون على مِنوالِهم، وهذا إنكارٌ مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم لِمَن اقتَدَى بهم أو فعَل فِعلَهم أو تشبَّه بهم؛ فلم يترُكِ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم البيانَ لهم وَيسكُتْ على قولِهم، بل بيَّن لهم وغلَّظ هذا الأمْرَ؛ سَدًّا للذَّريعةِ لئلا يُتَساهَل بأمثالِ هذه العِبارةِ.

ولأهل العلم قولان في تفسير هذه المشابهة التي شبه الرسول بعض أصحابه بها مع اليهود ، بمعني أنه هل هو تشابه في الشرك الأكبر فيكون اليهود طلبوا إلها مع الله ليعبدوه وكذلك هؤلاء الصحابة ، أم هو تشابه فقط في اتباع سنن المشركين وإن كان اليهود قد طلبوا الشرك الأكبر ، والصحابة طلبوا مجرد التبرك مع اعتقادهم أن البركة إنما هي من الله ولا يستقل شيء بإمداد البركة مع الله سبحانه ، ولأن الشرك الأكبر والأصغر يشتركان في جعل شيء من حق الله لغيره فشابهوهم نوع مشابهة لا مشابهة تامة ؟

ذهب بعض أهل العلم إلي أنها مشابهة في الشرك الأكبر لأن اتخاذ شجرة يعكفون عندها طالبين منها البركة معتقدين أنها مستقلة بإمداد البركة عن الله سبحانه هو من اتخاذ إله مع الله وإن كانوا لا يعبدونها بالدعاء المباشر لها وصرف العبادات.

وقال بعض العلماء أنه ليس من ذلك وإنما سألوا النبي صلي الله عليه وسلم أن يجعلها سببا للبركة ؛ فهؤلاء الصحابة الذين آمنوا بالرسول وصدقوه في دعوته دعوة التوحيد هم أجلُّ قدرا وأبعد من أن يعتقدوا استقلال شجرة بالبركة عن الله سبحانه الذي آمنوا به قبل ذلك ووحدوه وكفروا بعبادة غيره.

ولهذا كان أرجح القولين وأصحهما وأقواهما هو القول الثاني أن مقصدهم كان من الشرك الأصغر ، وحتي علي القول الأول فهم لم يعتقدوا جواز ذلك ، ولم يفعلوه ، بل سألوا النبي صلي الله عليه وسلم عن ذلك فنهاهم عنه فانتهوا ، فهل هؤلاء مثل عباد القبور الذين

يسوون بين الأموات وبين الحي الذي لا يموت سبحانه مقبلين بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم بالعبادات للأموات ولم يأذن لهم أحد في ذلك ، ولم يسألوا عنه ! كلا ولهذا لم يكفروا بذلك

- واعلم - بارك الله فيك - أنه لا ينحصر التبرك الشركي في شجرة بل أي شيء لم تثبت بركته بدليل من الكتاب والسنة فمن تبرك به فقد أشرك بالله سبحانه ، ووجب علي كل صاحب سلطة أن يقطع ما يقدسه الناس بغير دليل من كتاب ولا سنة ، ويعتقدون فيه البركة حسما لمادة الشرك.

ولم يكن الصحابة رضي الله عنهم يجدون من ذلك شيئا إلا وقطعوه وأزالوه ، من ذلك شجرة بيعة الرضوان:

فقد روى البخاري في صحيحه عن ابْنِ عُمَرَ رَضِي الله عنهما قال: "رَجَعْنَا مِنَ العَامِ المُقْبِلِ فَمَا اجْتَمَعَ مِنَّا اثْنَانِ عَلَى الشَّجَرَةِ الَّتِي بَايَعْنَا تَحْتَهَا، كَانَتْ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ" (أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، بَابُ البَيْعَةِ فِي الحَرْبِ أَنْ لاَ يَفِرُّوا، [2958]).

وروى البخاري أيضاً عن طَارِقِ بن عبد الرحمن قال: "انْطَلَقْتُ حَاجّاً، فَمَرَرْتُ بِقَوْمٍ يُصَلُّونَ، قُلْتُ: مَا هَذَا المَسْجِدُ؟ قَالُوا: هَذِهِ الشَّجَرَةُ حَيْثُ بَايَعَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ، فَأَتَيْتُ سَعِيدَ بْنَ المُسَيِّبِ، فضحك فقال: حَدَّثَنِي أَبِي أَنَّهُ كَانَ فِيمَنْ بَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم تَحْتَ الشَّجَرَةِ، قَالَ: فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنَ العَامِ المُقْبِلِ نَسِينَاهَا، فَلَمْ نَقْدِرْ عَلَيْهَا، وفي رواية: فعميت علينا. فَقَالَ سَعِيدٌ: إِنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم لَمْ يَعْلَمُوهَا وَعَلِمْتُمُوهَا أَنْتُمْ؟! فَأَنْتُمْ أَعْلَمُ!" (أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحُدَيْبِيَة، [4163]).

قال الإمام أبو بكر الطرشوبي من أئمة المالكية فيما نقله عنه ابن القيم في(إغاثة اللهفان لابن القيم[1/211]):

(قال الإمام أبو بكر الطُّرْطُوشِيُّ: "انظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس، ويعظِّمونها، ويرجون البُرْءَ والشفاء من قِبَلِها، ويضربون بها المسامير والخرق؛ فهي ذاتُ أنواطٍ فاقطعوها)انتهي.

وقال أبو شامة الشافعي في كتابه (البدع والحوادث):

(ومن هذا القسم أيضًا ما قد عمّ الابتلاءُ به من تزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعمد وسرح مواضع مخصومة في كل بلد يحكي لهم حاك أنه رأى في منامه بها أحدا ممن اشتهر بالصلاح والولاية فيفعلون ذلك ويحافظون عليه مع تضييعهم فرائض الله تعالى وسننه ويظنون أنهم متقربون بذلك ثم يتجاوزون هذا الى أن يعظم وقع تلك الأماكن في قلوبهم

فيعظمونها ويرجون الشفاء لمرضاهم وقضاء حوائجهم بالنذر لهم، وهي من بين عيون وشجر وحائط وحجر) .

قال ابن القيم في إغاثة اللهفان:

(وأبلغ من ذلك: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم هدَم مسجد الضِرّار؛ ففي هذا دليل على هدم ما هو أعظم فساداً منه كالمساجد المبنية على القبور، فإن حكم الإسلام فيها: أن تُهدَمَ كلُّها حتى تُسوَّى بالأرض وهي أولى بالهدم من مسجد الضرار، وكذلك القباب التي على القبور يحب هدمها كلها؛ لأنها أُسِّست على معصية الرسول؛ لأنه قد نَهَى عن البناء على القبور كما تقدم، فبناءٌ أُسِّس على معصيته ومَخافته بناءٌ غير محرم، وهو أولى بالهدم من بناء الغاصِب قطعاً) انتهي .

10- باب ما جاء في الذبح لغير الله

(أي من الوعيد مما تضمنته أدلة الباب من كونه شركا وكبيرة ولعن صاحبه)

- مناسبة الباب : شروع في أفراد الشرك الأكبر أعاذنا الله منه ، والكلام عن عبادة الذبح وهو قطع الحلقوم والمريء لإراقة الدم ، وبيان متي يكون شركا ومتي يكون كبيرة ومتي يستحب أو يباح ، والمراد بهذا الباب الذبح لغير الله محبة وخضوعا بخلاف ما لو ذبح للحم أو لإكرام ضيف فهذا خارج عن بابنا.

١ - وقول الله تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} وقوله: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}.

-في التفسير الميسر : (قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: إن صلاتي، ونسكي، أي: ذبحي لله وحده، لا للأصنام، ولا للأموات، ولا للجن، ولا لغير ذلك مما تذبحونه لغير الله، وعلى غير اسمه كما تفعلون، وحياتي وموتي لله تعالى رب العالمين)انتهي.

- والأمر في قوله سبحانه (قل إن صلاتي ونسكي ...)

مراده أن يباشر الرسول ذلك بنفسه وهذا يدل علي تعظيم هذا الأمر ، كما هو الحال أيضا في سورة الكافرون والإخلاص والمعوذتين وغيرها مما بدئ بقل وتسمي هذه السور المبدوءة بذلك القواقل ، ومتعلق الأمر شيئان : القول مؤديا مبلغا ، والقول متعبدا.

وقال السعدي :({ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي }- أي: ذبحي، وذلك لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ودلالتهما على محبة الله تعالى، وإخلاص الدين له، والتقرب إليه بالقلب واللسان، والجوارح وبالذبح الذي هو بذل ما تحبه النفس من المال، لما هو أحب إليها وهو الله تعالى.

ومن أخلص في صلاته ونسكه، استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله.

وقوله: { وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي }- أي: ما آتيه في حياتي، وما يجريه الله عليَّ، وما يقدر عليَّ في مماتي، الجميع { لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } انتهي.

والصلاة والنسك لله أي استحقاقا و إخلاصا له سبحانه دون غيره ، فاللام هنا للاستحقاق والاختصاص لأنه المستحق للعبادات كلها وحده لا معبود بحق إلا هو ، والحياة والممات له ملكا.

قال العصيمي في فتح المجيد ((وقوله آمرا نبيه عليه الصلاة والسلام أن يقول وأنا أول المسلمين فسرت بأمرين : أحدها أنه أول المسلمين من هذه الأمة ؛ لأن جميع الأنبياء قبله دعوتهم للإسلام والتوحيد كذلك فيكون المراد بالأولية أولية نسبية ،

والقول الثاني أنها ليست أولية نسبية إضافية بل حقيقية مطلقة لأن الأولية تقع علي معنيين:

الأول : أولية حسية متعلقها الزمن وحينئذ ترجع للقول الأول.

والثاني : أولية معنوية متعلقها كمال الإقبال والاستسلام لله وحده وحينئذ تكون أولية النبي صلي الله عليه وسلم أولية حقيقية مطلقة لأنه كان أكمل الخلق إسلاما وأتمهم حالا ، فحمل الآية علي الثاني أولي)).انتهي

-وفي التفسير الميسر لآية الكوثر :

(فأخلص لربك صلاتك كلها، واذبح ذبيحتك له وعلى اسمه وحده)

والذبح هو النحر إلا أن الإبل تنحر في وهدتها ولا تذبح ، والبقر تذبح أو تنحر ،والغنم تذبح.

وقد جمعت الآية بين عبادتين عظيمتين هما الصلاة والذبح ، أما الصلاة فهي أعظم العبادات البدنية لأنها يجتمع فيها عدة عبادات قلبية وعملية وقولية كالخشوع والخضوع والرجاء والرهبة والانكسار ، هذا غير التكبير والتهليل والتسبيح والتحميد والصلاة علي رسول الله صلي الله عليه وسلم وعلي غيره من الأنبياء والرسل والدعاء لجميع المسلمين ، وكالسجود والركوع ، فلم يجتمع ذلك كله في عبادة إلا الصلاة.

والذبح من أعظم العبادات المالية بعد الزكاة التي هي أوجب منه وركن من أركان الإسلام ، وقيل أن الذبح أفضل لأنه يجتمع فيه مع إخراج المال كالزكاة إراقة الدم تقربا إلي الله

سبحانه مع عبادات قلبية أخري عظيمة كالرجاء والخشوع وقولية كالتسمية والتكبير عليها

وكلا العبادتين الصلاة والنسك بجميع ما تتضمنها من العبادات القلبية والعملية إنما تكون لله وحده ، ومن الشرك الأكبر المخرج من الملة أن تجعل لغيره كائنا من كان.

قال ابن تيمية (4-463) :

((أمره الله أن يجمع بين هاتين العبادتين العظيمتين وهما الصلاة والنسك الدالتان علي القرب ، والتواضع ، والافتقار ، وحسن الظن ، وقوة اليقين ، وطمأنينة القلب إلي الله ، وإلي عِدَته وأمره وفضله ، عكس حال أهل الكبر والنفرة وأهل الغني عن الله الذين لا حاجة في صلاتهم إلى ربهم يسألونه إياها، والذين لا ينحرون له خوفًا من الفقر، وتركًا لإعانة الفقراء وإعطائهم، وسوء الظن منهم بربهم) انتهي.

قال العصيمي (ولهذا كان النبي صلي الله عليه وسلم كثير الصلاة كثير النحر وهذا يدل علي كمال حاله في هاتين العبادتين العظيمتين الصلاة والنسك.

- وللنحر ثلاث مراتب من حيث الأجر وإليك ترتيبها من الأعلي أجرا إلي الأدني:

أولها : أن يباشر النحر بنفسه في بلده قربة الي الله تعالي وله أن يفعل باللحم ما شاء وإن كان السنة تثليثها ثلثا يطعم منه وثلثا يتصدق به وثلثا يهديه.

ثانيها : يشهده ولا يباشره وإنما يكون حاضرا عنده.

ثالثها : أن يكون في بلده غير شاهد له لكن ينيب ثقة عنه.

فهذه المراتب الثلاث يحصل بها الأجر إن شاء الله ، بخلاف ما عليه كثير من الناس من دفع أموال لجهات تزعم أنها تؤديها خارج البلاد ، فحكم بعض أهل العلم ببدعية ذلك ؛ لأن ذبح الأضاحي عبادة المراد بها إراقة الدم لله وحده لا إخراج المال ، كما أن صدقة الفطر المراد بها الإطعام لا إخراج المال)انتهي.

٢ -عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: "حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات: لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى محدثا ، لعن الله من غير منار الأرض"رواه مسلم.

- واللعن : هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، واللعين والملعون: من حقت عليه اللعنة - أي خبرا - ، أو دعي عليه بها - أي طلبا - ، واللعن من الخلق السب .

واللعن صفة فعلية اختيارية ثابتة لله عز وجل بالكتاب والسنة ، ومن أدلتها قوله سبحانه (إن يدعون إلا شيطانا مريدا لعنه الله) ،

ولعن الله من ذبح لغيره سبحانه لعن حقيقي يراد به صدور اللعنة من الله عليه بالقول فيقول لعنتك ، كصفة من صفات الله ومن كلامه ، واللعنة في إيواء المحدث وغيره مما ذكر في الحديث تحتمل أن تكون خبرية يراد منها تحقق صدور اللعن من الله لهؤلاء ، وتحتمل أن تكون إنشائية يراد منها الدعاء بوقوع اللعن من الله ، وإذا كانت اللعنة من الله لفظا حقيقيا فتفسيرها بالطرد والإبعاد تفسير بلازمها.

-و الذبح لغير الله سواء فيه التصريح باللسان فيقول المشرك أنه ذبح لغير الله ـ عياذا بالله ـ ، أو بمجرد الفعل ، والذبح الشركي إما أن يكون ذبحا لغير الله سبحانه فهذا من شرك العبادة ، وإما أن يكون ذبحا بغير اسم الله فهذا من شرك الاستعانة ، وكلاهما شرك وكفر بالله سبحانه إلا أن الأول أعظم لأن الشرك في العبادة أعظم من شرك الاستعانة الذي هو ذكر اسم غير الله في فواتح الأمور ، لأن الشرك في الاستعانة شرك في الربوبية والشرك في الألوهية والتعبيد أشد.

قال ابن تيمية عن ذلك في اقتضاء الصراط المستقيم:

((قوله تعالى : { وما أهل لغير الله به } ظاهره : أنه ما ذبح لغير الله ، مثل أن يقال : هذا ذبيحة لكذا ، وإذا كان هذا هو المقصود : فسواء لفظ به أو لم يلفظ . وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبحه للحم ، وقال فيه : باسم المسيح ، ونحوه ، كما أن ما ذبحناه نحن متقربين به إلى الله سبحانه كان أزكى وأعظم مما ذبحناه للحم ، وقلنا عليه : باسم الله ، فإن عبادة الله سبحانه بالصلاة له والنسك له أعظم من الاستعانة باسمه في فواتح الأمور ، فكذلك الشرك بالصلاة لغيره والنسك لغيره أعظم من الاستعانة باسمه في فواتح الأمور . فإذا حرم ما قيل فيه : باسم المسيح ، أو الزهرة ؛ فلأن يحرم ما قيل فيه : لأجل المسيح والزهرة ، أو قصد به ذلك، أولى . وهذا يبين لك ضعف قول من حرم ما ذبح باسم غير الله ، ولم يحرم ما ذبح لغير الله ، كما قاله طائفة من أصحابنا وغيرهم ، بل لو قيل بالعكس لكان أوجه ، فإن العبادة لغير الله أعظم كفرا من الاستعانة بغير الله . وعلى هذا : فلو ذبح لغير الله متقربا به إليه لحرم ، وإن قال فيه : بسم الله ، كما يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة الذين يتقربون إلى والكواكب بالذبح والبخور ونحو ذلك ، وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم بحال ، لكن يجتمع في الذبيحة مانعان)) انتهي .

ويعني بالمانعين أن هذه الذبيحة تحرم من جهتين: من جهة أنها مما أهل به لغير الله، وتحرم أيضا لأنها ذبيحة مرتد.

فصار الذبح من جهة صوره التعبدية علي أربعة أحوال باعتبار كونه شركا وغير شرك:

الأولي : أن يذبح باسم الله لله فهذا هو التوحيد.

الثانية : أن يذبح باسم الله لغير الله وهذا شرك في العبادة

الثالثة : أن يذبح باسم غير الله لغير الله ، فهذا شرك في العبادة وشرك الاستعانة.

الرابعة : أن يذبح بغير اسم الله ويجعل الذبيحة لله فهذا شرك في الربوبية ، ويتضمن أيضا الشرك في العبادة إلا أن التوجه بالعبادة لغير الله أعظم من الاستعانة بغير اسم الله سبحانه عليها متوجها بها لله.

- **وذبائح الكتابيين حلال للمسلمين بنص قول الله تعالي (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم)والمراد بطعامهم ذبائحهم فإنها تحل لنا منهم خاصة دون سائر الملل الكافرة ، لكن بشرط ألا يذكروا اسم غير الله عليها كاسم المسيح مثلا ، فإنها حينئذ تحرم وهو قول الشافعي وأبي حنيفة وإحدي الروايتين عن أحمد ؛ لأنه كما خرجت صفة الذبح بالكهرباء في الاستثناء من آية المائدة ولو كانت من كتابي ، فلأن يخرج ما ذكر اسم غير الله عليه من باب أولي وأحري ، فكما دخل التخصيص في صفة الذبح فكذلك التسمية.**

-والذبح لغير الله شرك أكبر مخرج من الملة سواء كان كان المجعول له الذبح ميتا ، أو حيا كسلطان ونحوه ، وهي المسألة المعروفة بالذبح عند طلعة السلطان أي بروزه للناس

قال العصيمي في شرح فتح المجيد:

((وذكر السلطان خرج مخرج الغالب ، فغيره مثله لأن الأحكام الشرعية تتناول الراعي والرعية ، وقد أفتي أهل بخاري من الشافعية بتحريمه - أي لا بكونه شركا أكبر - قالوا يذبحونه استبشارا بقدومه كالعقيقة وهو قول الرافعي ، ووجه المشاركة الاستبشار بالقدوم ، والذبح للسلطان نوعان : الأول : أن يذبح تقربا إليه فيكون من جملة الذبح لغير الله - أي هو شرك أكبر مخرج من الملة كالذبح للميت سواء بسواء -

والثاني : استبشارا بوصوله لا تقربا بل فرحا به ، وجعله سليمان بن عبد الله مباينا للأول فلا يكون شركا أكبر بل يكون حراما - أي أدني من الشرك - ويحرم لما فيه من شبهة التعظيم المخوف علي صاحبه أن يوقعه في الشرك إلا أنه لا يكون شركا أكبر ، ولا يجوز تناول هذا اللحم المذبوح لأنه كالميتة التي لا يجوز الانتفاع بها ، واتفق في حياة الشيخ محمد بن إبراهيم أن ذبح بعضا الناس إبلا عند بروز الملك سعود فحدث بين يديه لما ظهر لهم فأفتي بحرمته ، وأدب فاعله ، وأمر بحرقها فلم يؤكل منه شيء ،

وهناك نوع آخر وهو أن يذبح ضيافة وإكراما له أو شمرا لله علي سلامته بغير حضرته عند بدو طلعته وهذا جائز بل ربما صار مأمورا به لما فيه من إكرام الضيف ، إلا أنه يشترط ألا يكون الذبح عند استقباله وإلا فيلحق بالسابق ، فالذبح في هذه الحالة باختصار ثلاثة أنواع :

الأول : الذبح له تقربا إليه وهذا شرك أكبر ولو لم يكن بحضرته.

الثاني : الذبح له فرحا واستبشارا عند بدو طلعته وبروزه للناس فهذا محرم فعلا ومحرم أكلا.

الثالث : أن يذبح له عند قدومه ضيافة أو شكرا لله فهذا جائز وربما صار مأمورا به بشرط أن يكون بغير حضرته

فالأنواع الثلاثة متنوعة بالنظر إلي الباعث الحامل غليها فلا تتفق أحكامها بل بحسب النية) انتهي.

-لعن الله من لعن والديه أي أباه وأمه وإن عليا في عمود النسب ، فمثلهما أجداده وجداته منهما

ولعن الوالدين أي سبهما ، و له درجتان :

الأولي : لعن مباشر ، وهو الصادر من العبد لوالديه.

الثانية : لعن غير مباشر وهو لعن العبد غيره فيرد عليه بلعن والديه ، قال عليه الصلاة والسلام ((يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه)) وسمي ذلك سبا لأنه ناتج عن سب الأول والقاعدة أن المتسبب له حكم المباشر.

-لعن الله من آوي محدثا : أي ضمه إليه وحماه ،والمحدث بكسر الدال اسم فاعل فاللعن لمن يحمي ويضم مرتكب الجناية ، والمحدث بفتح الدال فاللعن لمن حمي الأمر المبتدع نفسه ويكون المعني الرضا به والصبر عليه ، ويشملهما الكسر لأن إحداث البدع في الدين أعظم من إحداث الجناية.

-لعن الله من غير منار الأرض : ومنار الأرض علامات يحددونها بها.

قال العصيمي في شرح فتح المجيد

((واختلف العلماء في المراد بمنار الأرض علي أربعة أقوال:

الأول : علاماتها التي تبين حدود ملكها.

الثاني : الأعلام الموضوعة لتحديد منتهي الحرم من كل جهة ، المكي منها والمدني ، فأعلام المكي معروفة عن إبراهيم عليه السلام ، والمدني معروفة عن النبي صلي الله عليه وسلم.

الثالث : أعلام يهتدي بها في السفر كاللوحات الإرشادية المضروبة علي الطرق.

الرابع : أعلام خيار أهلها من العلماء والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر فإنه يهتدي بهم لمعرفة الصراط المستقيم.

وأصح الأقوال الأربعة أولها لأنه المعهود المعروف في الزمن النبوي عند ذكر منار الأرض أنه المبين حدود الملك) انتهي.

- فلعن الله هذه الأربعة لأن الأول منها شرك أكبر مخرج من الملة ولهذا ابتدأ به النبي صلي الله عليه وسلم ، وأما الثلاثة الأخري فمن الكبائر دون الشرك .

- وقد ذكرت في كتابي (مسألة الإيمان) معتقد الجماعة في المعاصي التي لعن الله ورسوله أصحابها فراجعه .

-قال العصيمي في شرح فتح المجيد

((في الحديث جواز لعن أهل الظلم من غير تعيين أي اللعن بالصفة دون اللعن بالعين ؛ فإن اللعن يتعلق بأحد اثنين : المعين وهو المراد بذاته ، والموصوف المبهم وهو المراد بفعله.

وأما لعن الفاسق المعين ففيه قولان : الأول أنه جائز وهو اختيار ابن الجوزي ، والثاني أنه لا يجوز وهو قول ابن تيمية والخلال.

وأما المسلم الصالح فيحرم لعنه إطلاقا.

ولعن الوصف ليس بحرام كأن يلعن أصحاب الذنوب بذنوبهم ، ومع القول بجوازه فالأكمل تنزيه اللسان عن اللعن لما في صحيم مسلم ((إن اللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة)) وأيضا حديث ((ليس المؤمن بالطعان ولا باللعان ولا الفاحش ولا البذيء))

ولعن المعُيَّن له ثلاثة أقسام:

الأول : لعن المسلم السالم من الفسق وهذا حرام اتفاقا.

الثاني : لعن المسلم المتلطخ بما يفسقه من الكبائر ، وهذا حرام في أصح قولي أهل العلم لما ثبت في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن حمار شارب الخمر فنهاهم النبي صلي الله عليه وسلم عن لعنه استصحابا لأصل إيمانه وقال (فإنه يحب الله ورسوله).

الثالث : لعن الكافر المعين ، وله حالان:

١. أن يكون حيا فيحرم لعنه في أصح القولين وفيه حديث ابن عمر حيث لعن الرسول صلي الله عليه وسلم رعل وذك ان وعصية عصت الله ورسوله فأنزل الله قوله (ليس لك من الأمر شيء).

قلت : يعني كما أنه يحرم الشهادة بالنار علي الأحياء لأنه من التألي علي الله فكذلك اللعن.

٢ . أن يكون ميتا فيجوز لعنه دعاءً ، لا خبرا علي إرادة القطع بمنتهي مآله.

قال ابن تيمية (الخبر عن اللعن كالشهادة بالنار)

أما إن قام الدليل علي أنه من أهل النار بعينه كأبي لهب ، - قلت أو تحققنا أنه مات علي الكفر يقينا - فيجوز لعنه خبرا ودعاء ، فالكافر يلعن بشرط تحقق موته علي الكفر.

قلت : فإن لم يقم الدليل بتعيينه لكن عرف كفره في حياته أنه كان من الكفار لكننا لم نتحقق موته علي الكفر يقينا فيلعن دعاء لا خبرا ، لكن نعتقد كفره قطعا ونسميه كافرا استصحابا للأصل بل نكفر من لن يكفره ، لكننا هنا نتكلم عن حكم اللعن ، واللعن كالشهادة بالنار كما قال ابن تيمية وهذا لا يكون إلا بيقين.

ثم قال في مسألة الشهادة بالكفر في تتمة ما سبق : والأصل أن من حي كافرا مات كافرا ؛ فمن الورع البارد أن يقال في كل كافر لعله أسلم قبل أن يموت ؛ فإن هذه إنما تسوغ عند من توجد في حقه شبهة كأن يكون عرف بالتردد علي المساجد والاجتماع بعلماء المسلمين والسؤال عن الدين فمثل هذا إن مات ربما توقف العبد فيه - قلت بل الظاهر أنه لا يكفر كذلك - فقيد لعنه بقوله لعنه الله إن مات كافرا ، وأما من لا تعلم عنه هذه الحال ممن هو من أهل الكفر يقينا فلا يتوقف عن القول أنه مات كافرا ، بل هو بالظاهر ، ويلعن دعاء لا خبرا ، ومن أهل العلم من يتورع عن اللعن دعاء وإنما يقول لعنه الله - خبرا - إن مات علي الكفر بالتقييد) انتهي كلامه.

قلت:

وعلي هذا فإذا لم نتحقق موته علي الكفر يقينا مع كونه كان كافرا في حياته ، أو لم يرد دليل شرعي بتعيينه كأبي لهب ، فيلعن دعاء لا خبرا ، أو خبرا مع التقييد بقولنا إن مات كافرا ، وأما تكفيره فهذا نستصحب فيه الأصل ، لا يحتاج لا إلي دليل بتعيينه ولا إلي يقين أنه مات علي الكفر ، فالتكفير يكون بمجرد الظاهر ، وأما اللعن والشهادة بالنار - وهما سواء كما قال ابن تيمية- فهذا الذي يحتاج فيه إما إلي يقين أن الميت مات علي الكفر في لحظاته الأخيرة ، أو دليل بالتعيين ؛ لأن الشهادة بالنار واللعن شهادة بالمآل فيحتاج فيه إلي يقين تام وإلا فهو من التألي علي الله ، وعليه يكون حديث (إذا مررت بقبر كافر فبشره بالنار) هو من باب الدعاء لا الخبر إلا إذا تيقنا أنه ختم له بالكفر فيلعن حينئذ خبرا لا مجرد دعاء.

٣ -وعن طارق بن شهاب أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال (دخل الجنة رجل في ذباب ودخل النار رجل في ذباب ، قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : مر رجلان علي قوم لهم صنم لا يجاوزوه أحد حتي يقرب له شيئا ، فقالوا لأحدهما : قرب ، قال ما عندي شيء ، قالوا قرب ولو ذبابا ، فقرب ذبابا فخلوا سبيله ، فدخل النار ، وقالوا للآخر قرب ، قال : ما كنت لأقرب لأحد شيئا دون الله عز وجل ، فضربوا عنقه فدخل الجنة . رواه أحمد.

وهو عند ابن أبي شيبة في المصنف بسند صحيح.

- في الحديث أن رجلين دخل أحدهما الجنة ودخل الآخر النار في ذباب أي بسبب ذباب ، تقرب أحدهما به لغير الله فدخل النار بعد أن كان مسلما ؛ وذلك لأنه لو كان كافرا لم يقل دخل النار في ذباب، و أما الآخر فأبي أن يتقرب بشيء لغير الله سبحانه فقتلوه فدخل الجنة ، وهذا يدلك علي أن المقصود الأعظم هو عمل القلب فهو ميدان تفاضل الناس في أعمالهم حتي عند المشركين ، ولذلك ألزموا الرجلين بتقديم قربان لصنمهم ولو كان ذبابا ؛ لأن العبرة ليست بالمُقدمَّ وإنما بالقصد وعمل القلب.

- ومع أن الذي تقرب بالذباب لم يقصد الشرك إلا أنه أوخذ به ؛ وذلك لأنه لم يمتنع منه ولم يكن له إرادة الامتناع من هذا وإنما قال ما عندي ما أقربه ، فهو بمنزلة من يثبت الحق لله لكن لا ينفيه عن غيره من الآلهة الباطلة فلم يكفر بالطاغوت بل سوي بين الشرك والتوحيد لهذا كان كافرا ، وقيل في قول ثان لتفسير الحديث أنه استحسن الفعل لما حسنوه له وإن لم يقصده ابتداء ، وقيل علي قول ثالث أن ظاهر الحديث عدم الإكراه وإنما أُمروا أن يشركوا حتي يجاوزوا الصنم أو يرجعوا دون ارتكاب الشرك ؛ فلا إكراه ، ولهذا أوخذوا بذلك ، وقيل رابعا أنه كان في شرع من قبلنا وأن الإكراه المانع من الكفر خاص بأمة نبينا صلي الله عليه وسلم.

وأقوي الأقوال هو القول الأول.

- وفي الحديث الخوف من الشرك والحذر من الذنوب وإن دقت في نظر الناظر المتهاون ، ومنه نعلم أن العبرة بالخواتيم ، والله المستعان .

11 - باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله

- والتعبير بقوله بمكان أشمل من في مكان لأن الباء تفيد المجاوزة أو المجاورة ، كما تفيد الظرفية كما قال ابن مالك (بالبا استعن وعدّ عوض ألصق ومثل مع ومن وعن) وقال في عن الجارة (بعن تجاوزا عني من قد فطن)، فسواء ذبح لله بمكان قريب من مذابح المشركين أو فيه أي داخله فهو محرم سدا لذريعة الشرك .

- الذبح لله يمنع القول بأن الذبح في هذا المكان شرك ؛ لأنه مجعول مصروف لله لم يتوجه به لغيره ، لكن الذبح في هذا المكان الذي يذبح فيه لغيره سبحانه يجعله محرما .

قال العصيمي (فالذبح في المواضع التي يذبح فيها لغير الله محرم لأمرين:

الأول:

مباينة المشركين في عباداتهم ، ومزايلتهم في مواطنها ، ومجانبة ما يعظمونه من البقاع.

الثاني :

حسم مواد الشرك وسد الذرائع المفضية إليه) انتهى.

وستأتي أدلة الباب قي تحريم ذلك.

-ولا يختص الذبح بالنهي وإنما ذكر كمثال ، ومن هذا الباب تحري فعل العبادات عند القبور كالصلاة والصدقة والذبح ونحوها فهو محرم أيضا ولو فعلها لله ، وهذا باتفاق المذاهب الفقهية الأربعة وذلك لأمرين:

الأول أنه وسيلة للذبح للأموات المقبورين والوسائل لها أحكام الغايات في المنع ، ولأنه سبب للرياء وإرادة غير وجه الله بالعبادة.

قال ابن تيميَّة في الاختيارات : (ويحْرُمُ الذَّبْحُ والتضحيَةُ عند القبر... ولا يُشْرَعُ شيءٌ من العباداتِ عندَ القُبورِ؛ الصدقةُ وغيرُها).

وجاء في فتاوى اللَّجنَةِ الدائمة: (الذَّبحُ عند القبورِ مُحَرَّمٌ، وإن قُصِدَ به التقرُّبُ إلى صاحِبِ القبرِ فهو شِرْكٌ أكبَرُ)، وجاء فيها أيضًا: (الذَّبْحُ عند القبورِ بدعةٌ، ووسيلةٌ مِنْ وسائِلِ الشِّرْكِ الأكبَرِ).

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم:

(وأمَّا الذبحُ... فلا يخلو من أَمرينِ: أَحدُهما أَن يكونَ لله. والثَّاني: أَن يكون لصاحِبِ القبرِ. فإن كان لله فهو معصيةٌ ولا يجوز، لأنَّه وسيلةٌ إلى الذَّبْحِ لصاحِبِ القَبرِ، والوسائلُ لها حُكمُ الغاياتِ في المَنْعِ، وقد نهى عن ذلك رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فروى أَبو داودَ في سُنَنِه بإسنادِه على شَرْطِ الشَّيخينِ عن ثابِت بن الضحَّاك قال: ((نَذَرَ رجلٌ أن يَنحَرَ إبلًا ببوانة فسأَلَ النبيَّ صلَّى الله

عليه وسلَّم، فقال: ((هَلْ كانَ فيها وَثَنٌ من أَوثانِ الجاهليةِ يُعبدُ، قالوا لا. قال فهلْ كان فيها عيدٌ من أَعيادِهم؟ قالوا لا. قال فأَوفِ بنَذْرِكَ؛ فإنَّه لا وفاءَ لِنَذْرٍ في معصيةِ اللهِ، ولا فيما لا يَمْلِك ابنُ آدمَ)). فقولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: ((أَوفِ بنَذْرِكَ)) يدلُّ على أَنَّ الذَّبحَ لله في المكانِ الذي يَذْبَحُ فيه المشركون لغير اللهِ معصيةٌ. وأمَّا إذا كان لصاحِبِ القبرِ فهو شرك أكبر؛ قال تعالى: قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ *الأنعام: 162، 163* فدلَّتِ الآيةُ على أَنَّ الذَّبحَ إنَّما يكون لله وحدَه، فمن ذَبَحَ لغير اللهِ فهو مُشْرِكٌ كافر، وأمَّا الأكلُ منها فإنْ كانَتْ ذُبِحَت لغَيرِ اللهِ، فالأكلُ من لحومِ هذه الذَّبائحِ محرَّمٌ؛ لأنَّها أُهِلَّ لغيرِ اللهِ بها، وكلُّ شَيءٍ أُهِلَّ لغيرِ اللهِ به، أو ذُبِحَ على النُّصُبِ؛ فإنَّه محُرَّمٌ، كما ذَكَرَ اللهُ ذلك في سورةِ المائدَةِ في قوله تعالى :حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ، وإنْ لم يُذْبَحْ لغَيرِ اللهِ فالأكلُ منه أقلُّ أحوالِهِ الكراهةُ؛ لأنَّه يُشْبِه الذَّبْحَ لغيرِ اللهِ))انتهي.

وفي ذلك قال الرسول صلي الله عليه وسلم كما أخرجه أبو داوود في سننه وعبد الرزاق في المصنف:

عن أنس قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "لا عقر في الإسلام"، قال عبد الرزاق - صاحب المصنف-: كانوا يعقرون عند القبر بقرة أو شاة. أ. هـ.

وقال ابن تيمية في الرد علي البكري:

((ففي الجملة أحق البقاع بدعاء الله فيها المساجد التي يصلى فيها، والمشاعر التي شرع الله فيها الدعاء والذكر، وأمر أن يكون الدين خالصاً له كما قال تعالي: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

فإذا كانت الصلاة والذكر لله وحده لم يكن ذلك مشروعاً عند قبر، وكما لا يذبح للميت ولا عند قبره؛ بل "نهى النبي - صلى الله عليه وسلم - عن العقر عند القبر"وكره العلماء الأكل من تلك الذبيحة فإنها شِبْهُ ما ذبح لغير الله، فلو كانت مقابر الأنبياء والصالحين مما يستحب الدعاء عندها لكانت إما من المساجد وإما من المشاعر التي يُحج إليها، وقد نهى النبي - صلى الله عليه وسلم - عن هذا وهذا)) انتهي .

- **قال العصيمي في شرح فتح المجيد:**

((ومنه تعلم أن ما شاع بأخرة من توزيع الصدقات في المقابر كالماء وما جري مجراه لا يجوز وأنه يجب علي ولي الأمر المنع من ذلك ، ومن احتاج لماء للعطش فإن المقابر فيها مبردات مخصصة للشرب تغني عن إحضار ماء للمقبرة - يغني لأن ذلك ذريعة للشرك وعبادة الأموات والعكوف عند قبورهم والتبرك بها وبالدعاء عندها - زعموا - وبسؤال أصحابها -

ومورد التحريم في المسائل المذكورة يرجع عظمه إلي متابعة المشركين في عباداتهم - وقد حرمت مشابهة المشركين - فمتي انتفت صورة المشاركة في العبادة لم يكن من هذا الباب ، ومنه - أي من أمثلة انتفاء المشابهة - صلاة جماعة من الصحابة في كنائس النصاري ؛ فإن كنائسهم من المواضع المؤسسة علي معصية الله والكفر به واتفقت صلاة الصحابة فيها لمباينة صلاة الموحدين صلاة النصاري المشركين ؛ فإن صلاة الموحدين ذات ركوع وسجود وصلاة النصاري لا ركوع فيها ولا سجود ، فلما اختلفت الصلاتان في الصورة لم تكن من هذا الباب ، فإن اتفقت صورة العبادة منع منه كصلاة الجنازة في الكنيسة ؛ فهي تشبه في الصورة الظاهرة صلاة النصاري لاختصاصها بالقيام فحُرِّمت.

يبقي الإرشاد إلي مأخذ معتد به في المسألة المذكورة

وهو كون الكنيسة المصلي فيها غير معلنة الحرب علي الإسلام وأهله ؛ فإنها إذا كانت كذلك صارت أقرب إلي مسجد الضرار ، والكنيسة مؤسسة علي معصية الله ، وعظمت المعصية بالحرب علي الإسلام وأهله) فما بالك إذا كانت هكذا وهكذا فهو أعظم جرما وأشد في التحريم من العبادة في مكان يشرك فيه بالله تعالي) انتهي.

- وعلي هذا فالذبح لغير الله شرك أكبر مخرج من الملة ، وإن ذبح لله معتقدا بركة المقبرة فبدعة ، وإن ذبح لا لاعتقاد بركة لكن أراد أن يذبح هناك فحرام.

١ - الدليل الأول علي ما سبق بيانه قول الله تعالى: {وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ}.

- في التفسير الميسر :

((والمنافقون الذين بنوا مسجدًا؛ مضارَّة للمؤمنين وكفرًا بالله وتفريقًا بين المؤمنين؛ ليصلي فيه بعضهم ويترك مسجد «قباء» الذي يصلي فيه المسلمون، فيختلفَ المسلمون ويتفرقوا بسبب ذلك، وانتظارًا لمن حارب الله ورسوله من قبل -وهو أبو عامر الراهب الفاسق- ليكون مكانًا للكيد للمسلمين، وليحلفنَّ هؤلاء المنافقون إنهم ما أرادوا ببنائه إلا الخير والرفق بالمسلمين، والتوسعة على الضعفاء العاجزين عن السير إلى مسجد «قباء»، والله يشهد إنهم لكاذبون فيما يحلفون عليه. وقد هُدِم المسجد وأُحرِق ، لا تقم -أيها النبي- للصلاة في ذلك المسجد أبدًا؛ فإن المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى من أول يوم -وهو مسجد «قباء»- أولى أن تقوم فيه للصلاة، ففي هذا المسجد رجال يحبون أن يتطهروا بالماء من النجاسات والأقذار، كما يتطهرون بالتورع والاستغفار من الذنوب والمعاصي. والله يحب المتطهرين. وإذا كان مسجد «قباء» قد أُسِّسَ على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ، كذلك بطريق الأولى والأحرى))انتهي .

وخص القيام في الصلاة بالذكر دون غيره من أركان الصلاة لجلالته من الصلاة ، والمسجد المؤسس علي التقوي من أول يوم قيل هو مسجد قباء - بضم القاف وكسرها - وقيل هو مسجد الرسول صلي الله عليه وسلم لحديث رواه مسلم من طريق عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الذي أسس على التقوى فقال : هو مسجدكم هذا.

وفي الفتح قال:

((قد اختلف في المراد بقوله تعالى لمسجد أسس على التقوى من أول يوم فالجمهور على أن المراد به مسجد قباء وهو ظاهر الآية . وروى مسلم من طريق عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الذي أسس على التقوى فقال : هو مسجدكم هذا ،ولأحمد والترمذي من وجه آخر عن أبي سعيد : اختلف رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى ، فقال أحدهما : هو مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال الآخر : هو مسجد قباء ، فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه عن ذلك فقال : هو هذا ، وفي ذلك يعني مسجد قباء خير كثير ...يحتمل أن تكون المزية لما اتفق من طول إقامته صلى الله عليه وسلم بمسجد المدينة ، بخلاف مسجد قباء فما أقام به إلا أياما قلائل ، وكفى بهذا مزية))

وكلا المسجدين أسس علي التقوي بل كل المساجد كذلك ، لكن يؤيد أنه قباء أنه في الآية (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) وهو الذي أسس من أول يوم أتي فيه النبي صلي الله عليه وسلم المدينة قبل دخولها ، ويؤيد أنه مسجد الرسول صلي الله عليه وسلم الحديث المتقدم وقيل إنما قال ذلك لدفع توهم أنه قباء دون مسجده.

-قال العصيمي في شرح فتح المجيد:

((المعصية التي أسس عليها مسجد الضرار يتضمن أربعة أمور:

١ .أنه اتخذ ضرارا لإلحاق الضرر بالمسلمين.

٢ .أنه اتخذ كفرا ؛ فإنه من صنائع المنافقين.

٣ .اتخذ تفريقا بين المؤمنين ؛ فإنه أريد به صرف قبائل الأنصار أليه عن قباء كبني سالم وبني غنم.

٤ .الإرصاد والجمع لمن حارب الله ورسوله وهو أبو عامر الراهب الفاسق

ويجمعها أنها معصية لله ؛ فموجب النهي عن الصلاة في مسجد الضرار كونه معدا لمعصية الله ، وأن مسجد الضرار من أمكنة العذاب ، فنهي عن الصلاة في أمكنة العذاب وندب للصلاة في أمكنة الرحمة كما في المساجد الثلاثة)).

يؤيد ذلك ما قاله ابن تيمية في كتابه ((اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم)):

(وفي الصحيحين عن نافع عن ابن عمر أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحجر أرض ثمود فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا ويعلفوا الإبل العجين وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة .

ورواه البخاري من حديث عبد الله بن دينار عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من بئارها ولا يستقوا منها فقالوا قد عجنا منها واستقينا فأمرهم النبي ﷺ أن يطرحوا ذلك العجين ويهريقوا ذلك الماء .

وفي حديث جابر عن النبي ﷺ أنه قال لما مر بالحجر لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فان لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم ما أصابهم.

فنهى رسول الله ﷺ عن الدخول إلى أماكن المعذبين إلا مع البكاء خشية أن يصيب الداخل ما أصابهم

ونهى عن الانتفاع بمياههم حتى أمرهم مع حاجتهم في تلك الغزوة وهي غزوة العسرة وهي أشد غزوة كانت على المسلمين أن يعلفوا النواضح بعجين مائهم ، وكذلك أيضا روي عنه ﷺ أنه نهى عن الصلاة في أماكن العذاب .

فروى أبو داود عن سليمان بن داود أخبرنا ابن وهب حدثني ابن لهيعة ويحيى بن أزهر عن عمار بن سعد المرادي عن أبي صالح الغفاري أن عليا رضي الله عنه مر ببابل وهو يسير فجاءه المؤذن يؤذنه بصلاة العصر فلما برز منها أمر المؤذن فأقام الصلاة فلما فرغ قال إن حبيبي النبي ﷺ نهاني أن أصلي في المقبرة ونهاني أن أصلي في أرض بابل فإنها ملعونة .

ورواه أيضا عن أحمد بن صالح حدثنا ابن وهب أيضا أخبرني يحيى بن أزهر وابن لهيعة عن الحجاج بن شداد عن أبي صالح الغفاري عن علي بمعناه ولفظه فلما خرج منها مكان برز.

وقد روى الإمام أحمد في رواية ابنه عبد الله بإسناد أصح من هذا عن علي رضي الله عنه نحوا من هذا أنه كره الصلاة بأرض بابل وأرض الخسف أو نحو ذلك ،وكره الإمام أحمد الصلاة في هذه الأمكنة اتباعا لعلي رضي الله عنه ،وقوله نهاني أن أصلي في أرض بابل فإنها ملعونة يقتضي أن لا يصلي في أرض ملعونة ،والحديث المشهور في الحجر يوافق هذا فإنه إذا كان قد نهى عن الدخول إلى أرض العذاب دخل في ذلك الصلاة وغيرها من باب أولى ، ويوافق ذلك قوله سبحانه عن مسجد الضرار لا تقم فيه أبدا فإنه كان من أمكنة العذاب قال قال سبحانه أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أمَّن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم، وقد روى أنه لما هدم خرج منه دخان ، وهذا كما أنه ندب إلى الصلاة في أمكنة الرحمة كالمساجد الثلاثة ومسجد قباء فكذلك نهي عن الصلاة في أماكن العذاب

فأما أماكن الكفر والمعاصي التي لم يكن فيها عذاب إذا جعلت مكانا للايمان والطاعة فهذا حسن كما أمر النبي ﷺ أهل الطائف أن يجعلوا المسجد مكان طواغيتهم وأمر أهل اليمامة أن يتخذوا المسجد مكان بيعة كانت عندهم وكان موضع مسجده ﷺ مقبرة للمشركين فجعله ﷺ مسجدا بعد نبش القبور

فإذا كانت الشريعة قد جاءت بالنهي عن مشاركة الكفار في المكان الذي حل بهم فيه العذاب فكيف بمشاركتهم في الأعمال التي يعملونها واستحقوا بها العذاب ، فإنه إذا قيل هذا العمل الذي يعملونه لو تجرد عن مشابهتهم لم يكن محرما ونحن لا نقصد التشبه بهم فيه فنفس الدخول إلى المكان ليس بمعصية لو تجرد عن كونه أثرهم ونحن لا نقصد التشبه بهم بل المشاركة في العمل أقرب إلى اقتضاء العذاب من الدخول إلى الديار فإن جميع ما يعملونه مما ليس من أعمال المسلمين السابقين إما كفر وإما معصية وإما شعار كفر أو شعار معصية وإما مظنة للكفر والمعصية وإما أن يخاف أن يجر إلى المعصية وما أحسب أحدا ينازع في جميع هذا ولئن نازع فيه فلا يمكنه أن ينازع في أن المخالفة فيه أقرب إلى المخالفة في الكفر والمعصية وأن حصول هذه المصلحة في الأعمال أقرب من حصولها في المكان ، ألا ترى أن متابعة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في أعمالهم أنفع وأولى من متابعتهم في مساكنهم ورؤية آثارهم ، وأيضا مما هو صريح في الدلالة ما روى أبو داود في سننه حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا أبو النضر يعني هاشم بن القاسم حدثنا عبد الرحمن بن ثابت حدثنا حسان بن عطية عن أبي منيب الجرشي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ من تشبه بقوم فهو منهم وهذا إسناد جيد فإن ابن أبي شيبة وأبا النضر وحسان بن عطية ثقات مشاهير أجلاء من رجال الصحيحين وهم أجل من أن يحتاجوا إلى أن يقال هم من رجال الصحيحين .

وأما عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان فقال يحيى بن معين وأبو زرعة وأحمد بن عبد الله العجلي ليس به بأس وقال عبد الرحمن بن إبراهيم دحيم هو ثقة وقال أبو حاتم هو مستقيم الحديث ،

وهذا الحديث أقل أحواله أنه يقتضي تحريم التشبه بهم وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم كما في قوله ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، وهو نظير ما سنذكره عن عبد الله بن عمرو أنه قال من بنى بأرض المشركين وصنع نيروزهم ومهرجانهم وتشبه بهم حتى يموت حشر معهم يوم القيامة ، فقد يحمل هذا على التشبه المطلق فإنه يوجب الكفر ويقتضي تحريم أبعاض ذلك وقد يحمل على أنه صار منهم في القدر المشترك الذي شابههم فيه فإن كان كفرا أو معصية أو شعارا للكفر أو للمعصية كان حكمه كذلك ، وبكل حال فهو يقتضي التشبه بهم بعلة كونه تشبها .

والتشبه يعم من فعل الشيء لأجل أنهم فعلوه وهو نادر ومن تبع غيره في فعل لغرض له في ذلك إذا كان أصل الفعل مأخوذا عن ذلك الغير.

فأما من فعل الشيء واتفق أن الغير فعله أيضا ولم يأخذه أحدهما عن صاحبه ففي كون هذا تشبها نظر لكن قد ينهى عن هذا لئلا يكون ذريعة إلى التشبه ولما فيه من المخالفة كما أمر بصبغ اللحى

وإعفائها وإحفاء الشوارب مع أن قوله ﷺ غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود دليل على أن التشبه بهم يحصل بغير قصد منا ولا فعل بل بمجرد ترك تغيير ما خلق فينا وهذا أبلغ من الموافقة الفعلية الاتفاقية)) انتهي .

-فصار النهي عن الصلاة في مسجد الضرار لأمرين:

الأول : أنه من أمكنة العذاب ؛ لأن أهله هم أهل العذاب وهم المنافقون.

الثاني : كونه معدا لمعصية الله.

-قال ابن كثير

((وفيه دليل علي استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين المتنزهين عن ملابسة القاذورات المحافظين علي إسباغ الوضوء)) .

قال العصيمي (فمن إزكاء الصلاة وكمالها أن يتحري العبد الصلاة مع جماعة موصوفين بوصفين : طهارة الباطن المدلول عليها بقرينة الصلاح الظاهر ، وطهارة الظاهر المدلول عليها بالتنزه عن القاذورات وإكمال الطهارة للصلاة ، وكمال حال المصلي معهم - اسم مفعول بفتح اللام وتشديدها - يعين علي إكمال العبد صلاته ، كما أن نقص حال المصلي معهم يوقع العبد في نقصان صلاته ، فمن كان يصلي مع إمام يتم الركوع والسجود كملت صلاته ، ومن يصلي مع إمام لا يتم الركوع والسجود نقصت صلاته)انتهي .

٢ -عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال: " نذر رجل - قلت وهو شرذم بن سفيان الثقفي - أن ينحر إبلا ببوانة - قلت : بضم الباء وفتحها وهي موضع قيل دون يلملم ميقات اهل اليمن وقيل في ينبع دون الشام - ، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟ - قلت وتقدم أن الوثن أعم من الصنم فيشمل ما كان بصورة وما لم يكن بخلاف الصنم ما كان علي صورة وقد يطلق علي الوثن أيضا علي قلة - قالوا: لا. قال: فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟ قالوا: لا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم" رواه أبو داود وإسناده على شرطهما.

- في هذا الحديث تحريم الوفاء بالنذر إن كان في مكان النذر وثن يعبد مع الله سبحانه ولو بعد زواله ، أو كان فيه عيد من أعياد المشكين ولو هجروه ؛ وذلك مبالغة قي مقاطعة أماكن الشرك ، وحماية للتوحيد من نجاسة الشرك والتنديد ، ومقاطعة لمواطن الشرك المعروفة بذلك.

- قال ابن تيمية في الاقتضاء:

((العيد يجمع أمورا منها يوم العائد كيوم الفطر والجمعة فإنه يعود مرة بعد مرة ، ومنها ما يقصد بالتعظيم بالاجتماع فيه فيتهافت عليه الخلق ، ومنها أعمال تتبع ذلك من العادات والعبادات ؛ إذ الاجتماع عادة لا يخلو من عمل يتواطأ عليه المجتمعون ، وقد يختص العيد بمكان معين فيصير مقيدا به وقد يكون مطلقا لا يتقيد بمكان ، فكل هذه الأمور تسمي عيدا.

فدليل الزمان قول الرسول صلي الله عليه وسلم في الجمعة :إنَّ هذا يومٌ جعله اللهُ عيدًا للمسلمين ، فمن جاء إلى الجمعةِ فلْيغْتَسِلْ ، و إن كان طِيبٌ فليمَسَّ منه ، وعليكم بالسِّواكِ.

ودليل الاجتماع حديث ابن عباس : شهدت العيد مع رسول الله صلي الله عليه وسلم.

ودليل المكان قوله صلي الله عليه وسلم : لا تتخذوا قبري عيدا.

وقد يكون العيد اسما لمجموع اليوم والعمل فيه وهو الغالب لقول الرسول صلي الله عليه وسلم عن غناء الجارية يوم العيد (دعهما يا أبا بكر فإن لكل قوم عيدا)) انتهي.

قال العصيمي في شرح فتح المجيد:

وأبين شيء ذكر في الإعراب عن حقيقة العيد ما ذكره ابن القيم في إغاثة اللهفان أن العيد : ما اعتيد قصده بالتعظيم من زمان أو مكان ، فحقيقة العيد جامعة أمرين:

قصد تعظيمه بذاته ، واعتياد ذلك وجعله عادة متكررة.

ومتعلق اعتياد القصد بالتعظيم له محلان :

أحدها الزمان ، والآخر المكان.

فربما كان العيد زمانيا وربما مان مكانيا.

قلت : والزماني كعيد الأم ونحوه من أعياد الجاهلية ، والمكاني مثل تعظيم بعض الناس لبعض البقاع واعتيادها كالقبور وإقامة الموالد عندها.

فربما كان العيد زمانيا كالجمعة والفطر والأضحي ، وربما كان مكانيا كالكعبة وعرفة ومني ومزدلفة.

فالأعياد نوعان باعتبار متعلقها :أحدها أعياد زمانية ، والآخر أعياد مكانية.

·والأصل في الأعياد أنها توقيفية ؛ فلا يعد شيء من الأزمنة أو الأمكنة عيدا إلا بدليل شرعي ؛ لما يكتنف العيد من التعظيم ، وذلك لحفظ دين الناس وحراسته من الوقوع في الغلو بالمبالغة فيه ،

فليس لأحد أن يجعل عيدا زمانا أو مكانا إلا ما جعله الله ورسوله ، وما خرج عن المقرر شرعا فهو من جنس أعياد الجاهلية.

فالأعياد بالنظر إلي حكمها نوعان :أحدها أعياد إسلامية وهي الواردة في الشرع ، والأخري أعياد بدعية وهي المحدثة بلا دليل شرعي.

فكل عيد أحدث لم يأت به الشرع فهو من أعياد الجاهلية المحرمة كعيد الأم ، أوعيد العمال ، أو عيد الميلاد ، ولا يختص المنع بما وجد فيه اسم العيد فقط بل يتناول ما صح فيه معناه ؛ لأن العبرة بالحقائق والمعاني لا بالألفاظ والمباني ، فإذا اعتيد قصده بالتعظيم - يعني أنه صار يتكرر لتعظيم الناس له - ، أو سمي ملتقي ، أو مشهدا ، أو يوما ، أو مقاما ، أو اجتماعا ، أو لقاء ، فإنه عيد من جنس أعياد الحاهلية المحرمة ، وقد عظم البلاء وجل الخطب بما أحدثه الناس بهذه الأعياد من مبني أو معني ؛ فقل إنكارها وقل بيان شرها مع كونها من أعمال الجاهلية وراياتها ، فيحب إنكارها ومنعها ، ويجب الاختصاص بأعياد المسلمين فقط.

•وأشد أعياد الجاهلية خطرا الأعياد الكفرية ؛ لأنه يتخوف علي العبد الوقوع في الردة.

ويقرب منها في الحرمة أعيادهم الدنيوية لأنه يزيد علي تحريم العيد موافقة المغضوب عليهم والضالين من اليهود والنصاري.

•فصارت أعياد الجاهلية ثلاث دركات:

الأولي : أعياد الكفار المخاصة بهم في دينهم من أهل الكتاب وغيرهم وهي أشدها تحريما.

الثانية : أعياد الكفار المختصة بهم في دنياهم ، وهي دون الأولي.

الثالثة : الأعياد التي لا تختص بالكفار في دين ولا دنيا ، فهذه محرمة وهي دون الدركتين الأوليين ، وما غلب منها للدين أشد مما نسب إلي الدنيا. انتهي من العصيمي .

قال في قرة عيون الموحدين :

((وقد أحدث هؤلاء المشركون أعيادا عند أهل القبور التي تعبد من دون الله ويسمونها عيدا كمولد البدوي بمصر وغيره ، بل هي أعظم لما يوجد فيها من الشرك والمعاصي العظيمة)).

قال ابن باز في شرحه :

((من أقام المولد بقصد التقرب لهم رجاء نفعه وبركته أو لدفع عن مقيم المولد بعض الضرر فهذا يعتبر عبادة لصاحب القبر ، فإن دعاه بعد ذلك أو استغاث به ، أو نذر له ، أو غيرها صار ذلك شركا إلي شرك ، وهذا ما يفعله كن يقيم الموالد للنبي صلي الله عليه وسلم والحسين رضي الله

عنه أما من يقيم المولد لله ظنا منه أن ذلك من العبادات التي يحبها فهذا لا يكون عابدا لصاحب المولد ما لم يأت بشيء من الشرك لكنها من البدع)).

-قال العصيمي في فتح المجيد:

((ففيه أن الموالد التي تقام من جملة الأعياد وأن يكتنفها حكمان : الأول أنها موالد شركية إذا اشتملت علي الشرك كأن يقصد التقرب حبا وتعظيما لصاحبها ولدفع ضر أو جلب نفع ، والثاني أنها أعياد بدعية كأن تكون مفعولة لله سبحانه فتكون محرمة لا شرك)).

-ففي الحديث فوائد:

١ .المنع من الوفاء بالنذر في مكان عيد جاهلي ولو بعد زواله.

٢ . سد الذريعة المفضية للوقوع في الحرام أو الشرك.

٣ .ترك مشابهة المشركين لما تقرر شرعا من المباينة بين دين الموحدين ودين المشركين كما قرره ابن تيمية في الاقتضاء.

٤ . المنع من ما هو وسيلة إلي ذلك.

٥ . و هذه الأماكن لما صارت محلا لما يسخط الله حَرُم علي الموحد أن يفعل فيها عبادة من العبادات ، ولا يختص ذلك بالذبح وإنما ذكر الذبح كالمثال.

·قال في القرة : وقد استشكل بعضهم جعل محل اللات بالطائف مسجدا، والجواب-والله أعلم- أنه لو ترك هذا المحل في هذه البلدة لكان يخشى أن تفتتن به قلوب الجهال فيرجع إلى جعله وثنا كما كان يفعل فيه أولا، فجعله مسجدا والحالة هذه ينسى ما كان يفعل فيه، ويذهب به أثر الشرك بالكلية، فاختصر هذا المحل لهذه العلة وهي قوة المعارض والله أعلم.

قال العصيمي :

(وبيانه أنه أراد الإعلام بأن الواقع من جنس تخصيص العام ، وذكر ذلك أيضا ابن قاسم في حاشيته).

ويعني بتخصيص العام تخصيص ما كانت عبادة الموحدين فيه مباينة لعبادة المشركين كالذي ذكرناه في صلاتنا في الكنائس فصلاتنا ذات ركوع وسجود بخلاف صلاتهم ، وكذلك عبادة المشركين عند القبور فقد كانت العكوف عنده وصب السمن والعسل علي تلك الصخرة وهذا أيضا تخالفه صلاتنا فجازت ، وكذلك مراده تخصيص اللات دون غيره للمصلحة الشرعية التي ذكرها.

ولكن عورض بأن هناك أماكن أعظم شركا ولم يفعل فيها ذلك وهو موضع صنم ذي الخُلَصة ، والجواب : أن الصخرة المقصودة بالتعظيم هناك أزيلت فلم يبق لها أثر ؛ فإن المغيرة بن شعبة دكّها بمعوله فذهب المعظم وتلاشي.

-فأحاديث الباب أدلة واضحة علي أن الذبح أو النذر أو أي عبادة في مكان معروف بحصول الشرك فيه فحرام لكن ليس شركا ، وسبب عدم كونه شركا أن العبادة مجعولة لله لا لغيره ، وسبب كونه محرما سد الذرائع المفضية للشرك .

ولوجوب مباينة المشركين في عباداتهم ومزايلتهم في مواطنها واجتناب ما يعظمونه من البقاع ، ولقوله صلي الله عليه وسلم في الحديث (إنه لا وفاء لنذر في معصية الله ، ونذر المعضية يحرم الوفاء به إجماعا ، ولقول الله جل وعلا في آية التوبة عن مسجد الضرار " لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس علي التقوي من أول يوم أحق أن تقوم فيه. "

-أما نذر الطاعة أو ما يسمي بنذر التبرر كنذر الواجب أو المستحب فهذا يجب الوفاء به إجماعا ، إلا أن نذر الواجب بأصل الشرع فيه خلاف هل هو لغو غير منعقد أم مثله مثل نذر المستحب من حيث الانعقاد ووجوب الكفارة فيه إن لم يوف ، وسيأتي بيان أحوال النذر في الباب القادم - إن شاء الله -

-وأما نذر المعصية فيحرم الوفاء به ، واختلفوا في انعقاده ووجوب الكفارة فيه علي قولين هما رواية عن الإمام أحمد والمشهور من مذهبه وجوبها ، وهو كذلك مذهب أبي حنيفة ، وروي عن ابن عباس ، ورجحه ابن تيمية ، وبه أفتت اللجنة الدائمة وذلك لأمور:

أولا : عموم حديث عقبة بن عامر الذي أخرجه مسلم في صحيحه (كفارة النذر كفارة يمين) فهو حديث عام يشمل كل أنواع النذر إلا نذر المحال ، ونذر الواجب علي خلاف.

ثانيا : ولحديث عائشة رضي الله عنها (لا وفاء لنذر في معصية الله وكفارته كفارة يمين) ، وما أطلق في أحاديث أخري كحديث الباب فإنه يحمل علي المقيد في حديث عائشة رضي الله عنها ، وهو وإن كان مختلفا في تصحيحه لكن يغني عنه عموم حديث عقبة بن عامر.

ثالثا : أن صح كما عند البخاري من حديث عائشة بلفظ (من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه) فهذا ظاهر في انعقاد نذر المعصية كنذر الطاعة إلا أنه لا يجوز الوفاء به.

-فنذر المعصية يترتب عليه أمران : تحريم الوفاء به ، كفارة اليمين وجوبا علي الصحيح المتقدم ، وكفارة اليمين هي إطعام عشرة مساكين من أوسك ما نطعم أهلنا لقوله تعالي ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة ، وهذه الثلاثة علي التخيير فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، وذلك لقوله تعالي (

فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أعليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم)

وقد اختلف الفقهاء في تقدير هذا الطعام الذي هو من أوسط ما نطعم أهلينا علي أقوال نذكر منها قولين بناء علي تفسير الآية:

الأول : أن المراد بأوسط الطعام وجبة مشبعة ، وهو الصحيح الوارد من فعل الصحابة وكانوا يقولون أن المراد خبز وتمر أو خبز وسمن أو خبز ولبن وأعلاها خبز ولحم ، أي وجبة مشبعة بحسب العرف، وهو مذهب مالك ونصره ابن تيمية ، وعليه فلا يكفي إخراج أرز فقط لأن الناس لا يأكلون الأرز وحده بل معه شيء آخر.

والمشهور من مذهب الإمام أحمد أن لكل مسكين نصف صاع قياسا علي كفارة الأذي في الحج كما في حديث كعب بن عجرة، وفسر الأوسط في الآية بالأجود ، وأنه إن كان من البر فعلي النصف أخذا بفعل معاوية وغيره من الصحابة رضي الله عنهم ، لكن قال أبو سعيد الخدري كما في الصحيحين ((أما أنا: فلا أزال أخرجه كما كنت أخرجه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مد)) وهو أحوط لأن النبي صلي الله عليه وسلم لم يستثن لا برا ولاغيره.

-ولا نذر فيما لا يملك ابن آدم يعني أنه لا نذر فيما هو ملك لغيرك لأنه من أكل مال الناس بالباطل وهو داخل في نذر المعصية كأن ينذر أن يبيع شيئا ملكا لغيره، وقيل أن معناه لا نذر في المحال كمن نذر أن يطير في الهواء فهذا لغو ، وأما إذا ألزم نفسه شيئا في الذمة فهو ثابت كمن نذر إن شفي الله مريضه أن يتصدق بشيء ليس معه فإذا شفي الله مريضه ثبت ذلك في ذمته.

-والنذر الواجب الوفاء به لا بد فيه من أمرين:

أن يكون المنذور لله وإلا فهو من الشرك الإكبر علي ما سيأتي بيانه في الباب القادم ، وأن يكون طاعة لله ورسوله .

12- باب من الشرك النذر لغير الله

-النذر في اللغة بمعني الإيجاب ، فقول القائل نذرت هذا علي نفسي أي أوجبه علي نفسه ، والواجبات علي نوعين : فالأول ما هو واجب بأصل الشرع كالصلوات الخمس ، والثاني ما التزمه العبد لله وحده مما لا يجب عليه بأصل الشرع وهذا هو النذر التوحيدي ، وأما النذر الشركي فهو ما التزمه العبد لغير الله - أي متوجها به لغير الله - وسواء في ذلك عَقْدُ النذر أو الوفاءُ به ، وهذا هو محل كلامنا وتحذيرنا في هذا الباب.

-فالنذر في الشرع إيجاب خاص ، وهو : إلزام المكلف نفسه شيئا لله يملكه غير محال ؛ فخرج بذلك إلزام غير المكلف فهذا لغو غير منعقد لأنه مرفوع عنه القلم ،وخرج أيضا النذر المجعول لغير الله فهذا شرك أكبر ، و خرج أيضا النذر بشيء غير مملوك للناذر ، فهو من نذر المعصية لأنه لا يجوز له أن يتصرف فيما هو ملك لغيره بل هذا من أكل مال الناس بالباطل كمن نذر أن يعتق عبد غيره أو يتصدق بمال غيره ونحو ذلك ، وسيأتي بيان حكم نذر المعصية ، وأما إذا التزم في الذمة شيئا بأن قال إن شفي الله مريضي فلله علي كذا وهو لا يملكه فيثبت في ذمته إن شفي الله مريضه ، وخرج بقولنا غير محال نذر المحال كمن نذر أن يطير أو يعتق الحر فهذا غير منعقد لأنه لغو ، وينعقد النذر ولو من كافر فإن وفي به حال كفره برئت ذمته وإن لم يوف به لزمه أن يوفي به بعد إسلامه ؛ لحديث عمر رضي الله عنه كما عند البخاري في صحيحه قال : إني نذرت أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام في الجاهلية فقال له النبي - صلي الله عليه وسلم - أوف بنذرك.

- قال في القول المفيد ((النذر لغير الله مثل أن يقول: لفلان علي نذر، أو لهذا القبر علي نذر، أو لجبريل علي نذر، يريد بذلك التقرب إليهم، وما أشبه ذلك. والفرق بينه وبين نذر المعصية: أن النذر لغير الله ليس لله أصلا، ونذر المعصية لله، ولكنه على معصية من معاصيه، مثل أن يقول: لله علي نذر أن أفعل كذا وكذا من معاصي الله، فيكون النذر لله والمنذور معصية، ونظير هذا الحلف بالله على شيء محرم، والحلف بغير الله، فالحلف بغير الله مثل: والنبي، لأفعلن كذا وكذا، ونظيره النذر لغير الله، والحلف بالله على محرم، مثل: والله، لأسرقن، ونظيره نذر المعصية، وحكم النذر لغير الله شرك، لأنه عبادة للمنذور له، وإذا كان عبادة فقد صرفها لغير الله، فيكون مشركا وهذا النذر لغير الله لا ينعقد إطلاقا، ولا تجب فيه كفارة، بل هو شرك تجب التوبة منه، كالحلف بغير الله، فلا ينعقد، وليس فيه كفارة.

وأما نذر المعصية فينعقد، لكن لا يجوز الوفاء به، وعليه كفارة يمين، كالحلف بالله على المحرم ينعقد، وفيه كفارة)) انتهي.

فالفرق بين النذر واليمين أنه إذا نذر أن يصلي نفلا فهو نذر طاعة يجب الوفاء به ، وأما إذا حلف أن يصلي نفلا لم يجب بالحلف لكن يستحب له الوفاء به .

- وسأحصر لك الان أحوال النذر في تسع حالات واعلم أن حديث عقبة بن عامر أن كفارة النذر كفارة يمين عام في كل أنواع النذور إلا نذر المحال فهو لغو لا كفارة فيه ، وكذلك نذر الطاعة فإن الوفاء به واجب ، وما سوي هذين فالناذر مخير بين الوفاء والكفارة إلا نذر المعصية فيحرم الوفاء به مع وجوب الكفارة علي الصحيح:

الحالة الأولي : نذر المحال ، وهو لغو كما سبق.

الثانية : نذر في ما لا يملكه ابن آدم وهو ملك لغيره فهذا من نذر المعصية وسيأتي حكمه أنه حرام إلا أنه منعقد وفيه كفارة علي الصحيح ، وأما إن نذر ما لا يملكه لكن أثبته في ذمته فيثبت.

الثالثة : نذر الواجب بأصل الشرع كمن نذر أن يخرج زكاة ماله المفروضة عليه أصلا أو نذر أن يصلي الصلوات الخمس ، ففي هذه الحالة قال بعض أهل العلم أنه لغو لأنه واجب عليه شرعا وإن لم ينذر ، وقال آخرون وهو ظاهر مذهب الحنابلة أنه منعقد ولا يمنع كونه واجبا بأصل الشرع أن يكون واجبا بالنذر مع ذلك ؛ فيكون واجبا باعتبارين ، فإن لم يصلّ أو لم يزكّ فهو آثم لفوات الواجب الشرعي ، وعليه مع ذلك كفارة يمين لحنثه في نذره ، فعليه الإثم والكفارة معا.

الرابعة : نذر المحرم أو نذر المعصية ، وقد ذكرت حكمه والراجح من الخلاف في انعقاده في الباب السابق مما يغني عن تكراره.

الخامسة : نذر المكروه ، فإذا نذر الإنسان شيئاً مكروهاً استحب أن يكفر ولا يفعله.

السادسة : نذر المستحب أو نذر الطاعة والتبرر مطلقا كان أو معلقا ، فيجب الوفاء به لقول النبي صلي الله عليه وسلم كما في الصحيح (من نذر أن يطيع الله فليطعه)

السابعة : نذر المباح ، كلبس ثوبه وركوب دابته ، فيخير بين فعله وبين كفارة يمين ؛ للحديث المروي عند أحمد والترمذي أن امرأة نذرت أن تضرب علي رأس النبي - صلي الله عليه وسلم - بالدف فقال أوف بنذرك ، فهذا دليل علي انعقاد نذر المباح، كمن نذر إن نجح أن يذبح شاة فرحا وسرورا فهو مباح بهذه النية ، وأما إن نذر ذلك شكرا لله وتصدقا باللحم فهو حينئذ داخل في نذر الطاعة ويكون الوفاء به واجبا.

الثامنة : نذر اللجاج والغضب أي الخصومة ، وهو تعليق نذره بشرط يقصد المنع منه ،أو الحمل عليه وهو عكس الأول - وليس فيه لجاج ولا غضب لكن يجمعه العلماء في الحكم مع اللجاج والغضب لاتفاقهما في الحكم ولا مشاحة في الاصطلاح - أو التصديق أو التكذيب.

فنذر اللجاج كأن يعزم علي ألا يفعل شيئا من الأشياء فينذر تأكيدا علي الامتناع منه ، وعكس هذا النذر نذر الحمل علي الفعل ، والنذر علي التصديق أو التكذيب كأن يتحدث بحديث وينذر علي صدقه أو كذبه ، ففي هذه الحالات يخير بين فعله وكفارة يمين، ودليل التخيير عموم حديث عقبة بن عامر أن كفارة النذر كفارة يمين.

التاسعة : نذر المطلق ، أي غير المعين كأن يقول لله علي نذر فقط ، سواء سمي في نفسه شيئا أو لم يسم فلا عبرة بالتسمية ما لم ينطق بها ، وحكمه أنه منعقد وفيه كفارة يمين لعموم حديث عقبة بن عامر "كفارة النذر كفارة يمين " وروي بزيادة " إذا لم يسم "وسواء قلنا أنها شاذة أو زيادة ثقة فعموم حديث عقبة كاف في ثبوت الكفارة .

-فما سبق هو ما يترتب علي النذر من أحكام ، وأما حكم الإقدام علي النذر هل هو عبادة أم مكروه أم محرم ؟ فالعلماء فيه علي أقوال : فمن قائل بالكراهة بإطلاق وهم الجمهور ، ومن قائل بالتحريم بإطلاق وهو أظهر من الأول لما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تَنْذِروا ، فإن النذر لا يغني من القدر شيئا ، وإنما يستخرج به من البخيل " ، وكذلك ما اتفق عليه الشيخان من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهانا عن النذر ويقول : " إنه لا يرد شيئا ، وإنما يستخرج به من الشحيح " ، والنذر المعلق أشد في المنع من غير المعلق لما فيه من اعتقاد أهل الجاهلية أنه من أسباب حصول مطلوبهم ، فصحح النبي صلي الله عليه وسلم هذه العقيدة الفاسد بأنه لا يأتي بخير ، ونصر هذا القول ابن تيمية وابن القيم، وأيضا لما يكتنفه من سوء الأدب مع الله تعالي وتعليق طاعته علي حصول مطلوبه وهذا سوء أدب

لأن الله سبحانه غني عن العباد وعباده هم المفتقرون إليه ، وفسر أصحاب هذا القول قوله تعالي (يوفون بالنذر) بأن المدح فيها إنما هو للموفين لا للناذرين ابتداء .

والقول الثالث وهو الراجح :

القول بالتفصيل ، وهو أن النذر محرم - لكن يتناوله مع ذلك ما رتب عليه في الشرع من الأحكام السابقة - إلا بشروط ثلاثة يكون النذر بها قربة لله تعالي غير محرم ولا مكروه ، وهذه الشروط هي:

الأول:

أن يكون نفلا غير واجب عليه بأصل الشرع ، وقد سبق حكم نذر الواجب.

الثاني :

أن يكون من النذر المعين ، لا المطلق الذي سبق حكمه أن فيه كفارة.

الثالث:

ألا يكون معلقا ، بمعني أن يوقعه الناذر علي وجه البر لا علي وجه الجزاء والمقابلة ، ومثال هذا النذر الذي تحققت فيه هذه الشروط أن ينذر أن يصوم يوما ، فالنذر هنا نذر طاعة غير واجبة بأصل الشرع ، ومعين لا مطلق ، ومعلق لا مقيد بحصول مصلحة ، فإن علقه بحصول مطلوبه كشفاء مريض ونحو ذلك فهو من النذر المحرم الذي نهي عنه النبي صلي الله عليه وسلم وقال أنه لا يغني عن القدر شيئا وإنما يستخرج به من البخيل.

وفسر أصحب هذا القول ثناء الله علي الموفين بأنه متضمن أيضا للثناء علي الإقدام علي النذر لكن في حالة واحدة وهي نذر الطاعة المعين غير المعلق كما سبق في الشروط الثلاثة .

-والحكم بكون النذر لغير الله شركا أكبر مبني علي أن النذر عبادة ؛ لأن الله مدح في قوله تعالي (يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا) من أوفي بالنذر ؛ ومدح الفعل أو الفاعل في الخطاب الشرعي دال علي كون المذكور عبادة وهذا يتضمن أن عقده ابتداء عبادة ، فالنذر عبادة من طرفين : أحدهما عقده ابتداء ، والآخر الوفاء به انتهاء ، والنذر الذي هو عبادة الذي مدح الله عاقده والموفي به هو ما جمع الشروط الثلاثة السابقة : أن يكون نفلا ، معينا ، غير معلق.

غير أن الله سبحانه قرنه بالنفقة في قوله تعالي (وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه) والنفقة في سبيل الله من أعظم العبادات ، و المراد بعلمه سبحانه بالنفقة والنذر هو علم الجزاء بالإحسان أي ما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه منكم فعلا ويعلمه لكم جزاء.

وما دام أن الفعل أو القول أو الاعتقاد ثبت أنه عبادة فيكون صرفه لغير الله شركا أكبر ، والقران كله في الأمر بإفراد الله بجميع العبادات كما سبق في مقدمة الكتاب.

- والنذر له شقان : النذر ، والوفاء به ، وكلا الأمرين إذا صرف لغير الله فهو شرك أكبر مخرج من الملة ، ومثال النذر لغير الله أن يتوجه بالنذر للمشاهد والقبور أو للنبي صلي الله عليه وسلم أو لأحد من أصحابه كعلي وفاطمة رضي الله عنهم ، وكذلك في الوفاء لغير الله ولو كان النذر لله فهو شرك أكبر أيضا كمن نذر إن شفي الله مريضه أن يذبح لفلان - والعياذ بالله - ففي كلا الحالين شرك.

-والنذر لغير الله الذي هو شرك أكبر نوعان كما سبق في عبادة الذبح لله : أحدهما من شرك الاستعانة وذلك إذا ذبح أو نذر لله علي اسم غير الله كمن يذبح لله لكن باسم فلان أو ينذر لله لكن باسم غير الله سبحانه ، والثاني إذا نذر أو ذبح لغير الله ابتداء والعياذ بالله.

١ - وقول الله تعالى: {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً} ، وقوله: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ}.

-سبق أن النذر في اللغة بمعني الواجب ، وهنا مدح الله الموفين بالنذر سواء فيه الواجبات والفرائض التي أوجبها الله عليهم بأصل الشرع كأركان الإسلام فقد سماها الله نذورا في قوله تعالي (وليوفوا نذورهم) ، أو الواجبات التي أوجبوها علي أنفسهم بالنذر ؛ فالآية شاملة للأمرين

قال ابن كثير في تفسير آ ية الإنسان:

((أَيْ: يَتَعَبَّدُونَ لِلَّهِ فِيمَا أَوْجَبَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ فِعْلِ الطَّاعَاتِ الْوَاجِبَةِ بِأَصْلِ الشَّرْعِ، وَمَا أَوْجَبُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِطَرِيقِ النذر)) .انتهي .

وقال في التيسير ((وجه الدلالة من الآية علي الترجمة أن الله تعالي أخبر بأن ما أنفقناه من نفقة أو نذرناه من نذر متقربين بذلك إليه أنه يعلمه ويجازينا عليه فدل ذلك علي أنه عبادة ، وبالضرورة يدري كل مسلم أن من صرف شيئا من أنواع العبادة لغير الله فقد أشرك)) انتهي.

وقال في آية البقرة:

((يخبر تعالي بأنه عالم بجميع ما يعمله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذورات وتضمن ذلك مجازاته علي ذلك أوفر الحزاء للعاملين لذلك ابتغاء وجهه ورجاء موعوده)) انتهي.

٢ -وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه"

وقد سبق بيان ما في الحديث من أن نذر الطاعة واجب ، ونذر المعصية محرم وفيه كفارة يمين علي الراجح.

13- باب من الشرك الاستعاذة بغير الله

- والاستعاذة مصدر من استعاذ يستعيذ استعاذة أي طلب الالتجاء والحماية والاعتصام ، والمعاذ - بفتح الميم - اسم مكان مما يلجأ إليه ويُحتمي فيه ، ويسمي أيضا ملجأ ووزرا ، والفرق أن الملجأ يلجأ إليه اللاجئ مختفيا ، والوزر يلوذ به المستعيذ مختفيا مختبئا ، فالفرق بين العياذ واللياذ أن العياذ مطلق التجاء وأما اللياذ فالتجاء مع اختباء وسرعة وخفاء ولهذا قال تعالي (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا) ، ولهذا خطَّئوا المتنبي في قوله (يا مَن ألوذ به فيما أؤمله * ومَن أعوذ به مما أحاذره ،لا يجبرُ الناسُ عظماً أنت كاسرُه * ولا يهيضون عظماً أنت جابره)

وقال بعض اللغويين أن العياذ لدفع شر واللياذ لطلب الخير.

-وللاستعاذة أربعة أركان:

الأول : المستعيذ وهو الملتجئ طالب الحماية.

والثاني : المستعاذ به وهو المطلوب حمايته وعصمته.

والثابث : المستعاذ منه وهو المخوف منه.

والرابع : صيغة الاستعاذة وهو القول المدلول به علي ذلك ، وقد تكون بمجرد الاعتقاد القلبي وإن لم يصاحبه قول ولا عمل ظاهر بحيث يقوم بقلب المستعيذ الاعتصام بهذا المطلوب منه العوذ ، والالتجاء لهذا المطلوب منه العوذ والتحرز به فإذا اجتمع في القلب هذه الأشياء صار مستعيذا ولو لم يفصح بلسانه فتكون الاستعاذة بذلك عبادة قلبية ، وقد تكون عبادة عملية بالفعل المجرد عن القول والعمل القلبي كمن يلتجئ بالأولياء والأموات والعياذ بالله.

وذلك لأن الإيمان عند جماعة أهل السنة الفضلاء النبلاء حقيقةٌ مركبة من قول واعتقاد وعمل لا يجزئ واحد من الثلاثة إلابالآخر كما بيناه سابقا بشيء من التفصيل.

١ -وقول الله تعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً}

-أي: كان الإنس يعبدون الجن ويستعيذون بهم عند المخاوف والأفزاع ، فزاد الإنس الجن رهقا أي: طغيانا وتكبرا -وكفرا - لما رأوا الإنس يعبدونهم، ويستعيذون بهم، ويحتمل أن الضمير في زادوهم يرجع إلى الجن ضمير الواو أي: زاد الجن الإنس ذعرا وتخويفا لما رأوهم يستعيذون بهم ليلجئوهم إلى الاستعاذة بهم، فكان الإنسي إذا نزل بواد مخوف، قال: " أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه " انتهي من السعدي بتصرف.

فالاستعاذة بالجن من الاستعاذة بغير الله وهو من الشرك الأكبر ؛ وهذا مبني علي مقدمتين : الأولي: أن الاستعاذة عبادة يحبها الله سبحانه وأمر بها عباده في عدة آيات كما في قوله (قل أعوذ برب الناس) ، وقوله (قل أعوذ برب الفلق) وقال سبحانه (فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) ،

والثانية : أن القران كله في الأمر بإفراد الله بجميع العبادات كما في قوله (وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) فبهاتين المقدمتين تعلم أن الاستعاذة بغير الله شرك أكبر.

لكن تجوز الاستعاذة بالمخلوق إذا اجتمعت فيه أربعة شروط وهي : أن يكون حيا لا ميتا ، حاضرا يسمع لا غائبا ، وقادرا لا عاجزا ، وأن تكون الاستعاذة به استعاذة عادة لا عبادة أي لا تكون مقرونة بحب وخضوع وخوف ورجاء للمستعاذ به لأن هذه هي استعاذة العبادة وهي لا تكون الا لله وحده فإذا صرفت لغير الله وقع العبد في الشرك الأكبر بخلاف استعاذة العادة الخالية من ذلك فهذه جائزة مع بالشروط الأخري ؛ فإذا سقط شرط من هذه الأربعة فهي الاستعاذة الشركية المخرجة من الملة والعياذ بالله.

وإذا اجتمعت هذه الشروط الأربعة فقال أحد الناس أعوذ بفلان من فلان جاز وصار كقوله أخاف من فلان فكما أن خوف العادة لا يدخل في الشرك كما سيأتي في باب الخوف فكذلك استعاذة العادة.

ودليل جواز الاستعاذة بمخلوق بشرط أن يكون حيا حاضرا يسمع قادرا وأن تكون الاستعاذة به استعاذة عادة لا عبادة قول النبي صلى الله عليه وسلم عن الفتن: (ومن وجد فيها ملجأ أو معاذًا فليعذ به) وفي صحيح مسلم: (أن امرأة من بني مخزوم سرقت فأتي بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فعاذت بأم سلمة)، وقوله صلى الله عليه وسلم: (يعوذ عائذ بالبيت فيُبعث إليه بعث...)

وما أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه بإسناد ثابت عن إبراهيم النخعي تلميذ ابن مسعود أنه يجوز قول أعوذ بالله ثم بك.

قال في التيسير:

((فتبين بهذا أن الاستعاذة بالله عبادة لله، ولهذا أمر الله بالاستعاذة به في غير آية، وتواترت السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم بذلك. قال الله تعالى: {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} ، وقال: {وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ} ، وقال: {فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ، وقال: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} ، وقال تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ} ، فإذا كان تعالى هو ربنا وملكنا وإلهنا، فلا مفزع لنا في الشدائد سواه، ولا ملجأ لنا منه إلا إليه، ولا معبود لنا غيره، فلا ينبغي أن يدعى ولا يخاف ولا يرجى ولا يحب غيره، ولا يذل ولا يخضع لغيره، ولا يتوكل إلا عليه، لأن من تخافه وترجوه وتدعوه وتتوكل عليه، إما أن يكون مربيك والقيم بأمورك، ومتولي شأنك، فهو ربك، ولا رب لك سواه، أو تكون مملوكه وعبده الحق، فهو ملك الناس حقًّا، وكلهم عبيده ومماليكه، أو يكون معبودك وإلهك الذي لا تستغني عنه طرفة عين، بل حاجتك إليه أعظم من حاجتك إلى حياتك وروحك، فهو الإله الحق إله الناس، فمن كان ربهم وملكهم وإلههم فهم جديرون أن لا يستعيذوا بغيره، ولا يستنصروا بسواه، ولا يلجئوا إلى غير حماه ، فهو كافيهم وحسبهم وناصرهم ووليهم ومتولي أمورهم جميعًا بربوبيته وملكه وإلهيته لهم، فكيف لا يلتجئ العبد عند النوازل ونزول عدوه به إلى ربه وملكه وإلهه، وهذه طريقة القرآن يحتج عليهم بإقرارهم بهذا التوحيد على توحيد الإلهية، هذا معنى كلام ابن القيم، فإذا تحقق العبد بهذه الصفات: الرب والملك والإله، وامتثل أمر الله واستعاذ به، فلا ريب أن هذه عبادة من أجل العبادات، بل هو من حقائق توحيد الإلهية، فإن استعاذ بغيره فهو عابد لذلك الغير، كما أن من صلى لله وصلى لغيره يكون عابدًا لغير الله كذلك في الاستعاذة، ولا فرق إلا أن المخلوق يطلب منه ما يقدر عليه ويستعاذ به فيه، بخلاف ما لا يقدر عليه إلا الله، فلا يستعاذ فيه إلا بالله، كالدعاء، فإن الاستعاذة من أنواعه)) انتهي.

و قال أبو بطين في تأسيس التقديس:

((فلما كان مستقرا عند العلماء أن الاستعاذة بالله عبادة له قالوا لا تجوز الاستعاذة بمخلوق، فلما كان هذا الأصل مستقرا عندهم استدلوا به على أن كلام الله غير مخلوق لأنه ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم الاستعاذة بكلمات الله التامات فعلا منه وقولا، وهذا من حجة أهل السنة على الجهمية القائلين بخلق القرآن - يقولون - لو كان القرآن مخلوقا امتنعت الاستعاذة به، فعلى ما ذكرنا أن الاستعاذة نوع من الدعاء كما قرره شيخ الإسلام تقي الدين، وهو واضح، فالعلماء القائلون بامتناع الاستعاذة بالمخلوق يقولون لا يجوز دعاء المخلوق، لأن الاستعاذة دعاء حقيقة، لأن المستعيذ بربه يطلب منه دفع مكروه أو رفعه وهذا حقيقة الدعاء.

قال شيخ الإسلام تقي الدين - رحمه الله -: فالاستعاذة والاستجارة والاستغاثة كلها نوع من الدعاء، وهي ألفاظ متقاربة، وسمى النبي صلى الله عليه وسلم الاستعاذة دعاء، كما في السنن أن

رجلا قال يا رسول الله علمني دعاء أدعوا به قال: "قل اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي ومن شر بصري ومن شر لساني ومن شر قلبي ومن شر منيي. "

وقال أبو هريرة: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوا فيقول: اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة" ، رواه أبو داود بإسناد صحيح، وفي السنن عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم "كان يدعوا بهؤلاء الكلمات:اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار، وعذاب النار، ومن شر الغنى والفقر" ، وفي صحيح مسلم: "كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك وفجأة نقمتك وجميع سخطك."

والمقصود من إيراد هذه الأحاديث بيان أن الاستعاذة تسمى دعاء في كلام النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

فلما قال العلماء إن الاستعاذة لا تجوز بمخلوق بل هي مختصة بالله سبحانه لأنها دعاء فهكذا سائر أنواع الدعاء، إذا تقرر هذا فمن المعلوم بالضرورة أنه لو خاف إنسان من عدو له فالتجأ إلى حي حاضر ليجيره من عدوه لم يكن بهذا بأس عند جميع المسلمين، وليس بداخل تحت قول العلماء إن الاستعاذة لا تجوز بمخلوق، فهذا شيء واحد اختلف حكمه باختلاف متعلقه، فبالنسبة للحي الحاضر جائز وبالنسبة لغيره ممتنع، فكذلك دعاء غير الله بطلب قضاء الحاجات لا يجوز لقوله تعالى: {فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} ولا يدخل في هذا النهي طلب الإنسان حاجة من حي حاضر مما يدخل تحت قدرة البشر)) انتهي كلام أبو بطين .

-والاستعاذة بالجن هي من الاستعاذة بالغائب ولهذا كانت شركا أكبر كما هو مدلول الآية ، ولا يدل حصول المنفعة الدنيوية - إذا حصلت - للمشرك المستعيذ بالجن علي أنه ليس من الشرك ! ؛ وذلك لأن حصول هذه المنفعة أمر قدري والاستعاذة بغير الله سبحانه أمر شركي منهي عنه شرعا ودينا ، والشرع لا ينازع بالقدر فضلا عن أن يقدم عليه ويستدل بضده!

وقد بينت في كتابي (كتاب القضاء والقدر) الفرق بين إرادة الله الكونية القدرية وبين إرادة الله الشرعية الدينية ، فالأولي تكون فيما يُحِب وما لا يُحِب وهي حاصلة بإذنه لا محاله ؛ امتحانا وابتلاء للخلق وسيحاسبهم علي كل صغيرة وكبيرة ، والثانية لا تكون إلا فيما يُحِبه وقد تكون وقد لا تكون : تكون من المؤمن الطائع وتتخلف عن المشرك والعاصي ، وهذه المنفعة أراد حصولها سبحانه كونا ونهي عنها شرعا فلا يستدل بحصولها علي أنها ليست من الشرك الذي نهي عنه ربنا في كتابه وعلي ألسنة رسله – عليهم الصلاة والسلام - من إفراد الدين له والبراءة من الشرك به سبحانه وممن أشرك.

- قال في التيسير :

((قال ملا علي القاري الحنفي: ولا تجوز الاستعاذة بالجن، فقد ذم الله الكافرين على ذلك فقال:: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً} ١، إلى أن قال: وقال تعالى: {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الأِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الأِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ} فاستمتاع الإنسي بالجني في قضاء حوائجه وامتثال أوامره، أو إخباره بشيء من المغيبات، واستمتاع الجني بالإنسي تعظيمه إياه، واستعاذته به، واستغاثته وخضوعه له. وفيه أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر أو جلب نفع لا يدل على أنه ليس من الشرك. ذكره المصنف)) انتهي.

-قال العصيمي:

((والألفاظ التي تذكر بها الاستعاذة أربعة:

الأول : أعوذ بالله ، وهذه غاية التوحيد.

الثاني : أعوذ بالله ثم بفلان وهي جائزة ؛ ثبت هذا عن إبراهيم النخعي عند ابن أبي شيبة - قلت - محمود - ولأن المخلوق له قدرة علي أن يعيذ غيره كما أنه له مشيئة ولهذا جوز الرسول صلي الله عليه وسلم قول ما شاء الله ثم شاء محمد فكذلك الاستعاذة - ومحل الجواز قطعا إذا تحققت الشروط السابقةأن يكون حيا حاضرا يسمع وقادرا وألا تكون استعاذةَ عبادة بل استعاذة عادة.

الثالث : أعوذ بالله وبفلان ، وهذا شرك لفظي أصغر ، وبه صرح ابن قاسم العاصمي في حاشيته لأن الواو تقتضي التسوية.

الرابع : أعوذ بفلان ، وهذا إن أريد به استعاذة العبادة فهو شرك أكبر ؛ لأن فيه من التوجه لغير الله التجاء واعتصاما ، وإن أُريد به استعاذة العادة جاز مع الشروط الثلاثة السابقة ويكون قوله أعوذ بفلان بمنزلة قوله أخاف من فلان.

٢ -وعن خولة بنت حكيم قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من نزل منْزلا فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرحل من منْزله ذلك" رواه مسلم.

- قال العصيمي ((اختلف في معناه من جهتين : من جهة معني كلمات الله ، ومن جهة وصفهن بالتامات ، أما الأولي فقال القرطبي إنها القران ، والصحيح أنها نوعان : أحدهما الكلمات الشرعية وهي التي يظهر بها شرعه ومنها القران الكريم ، وثانيها الكلمات الكونية وهي التي يظهر بها قدره ، والمعني يشمل هذا وهذا.

وأما التامات ففيها قولان : أنها الكاملة التي لا نقص فيها ، والآخر الكافية الشافية ، وكلاهما معني صحيح ؛ فإن وصفها بالكمال بالنظر إلي ما هي عليه في نفسها ، ووصفها بالشفاء والكفاية بالنظر إلي ما تثمره في نفوس المؤمنين بها.

- **ويستدل بهذا الحديث علي أن كلام الله غير مخلوق إذ لا يجوز الاستعاذة بمخلوق علي ما تقدم.**

قلت في كتابي ((اللآلئ المنتظمة شرح المقدمة فيما علي قارئ القران أن يعلمه)):

((وقد صح أن النبي – صلي الله عليه وسلم – قال كما أخرج مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة (مَن قال إذا أمْسى ثلاثَ مَرَّاتٍ: أعوذُ بكَلِماتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ ما خَلَقَ، لم تَضُرَّه حُمَةٌ تلك اللَّيلةَ. قال: فكان أهلُنا قد تَعَلَّموها، فكانوا يقولونَها كلَّ لَيلةٍ، فلُدِغتْ جاريةٌ منهم، فلم تَجِدْ لها ألَمًا)

فهل يستعيذ النبي – صلي الله عليه وسلم – بمخلوق إذ قالت الجهمية وأفراخها أنه مخلوق !!

قال ابن بطة في الإبانة

(فَتَفَهَّمُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ، فَهَلْ يَجُوزُ أَنْ يَعُوذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَخْلُوقٍ، وَيَتَعَوَّذُ هُوَ وَيَأْمُرُ أُمَّتَهُ أَنْ يَتَعَوَّذُوا بِمَخْلُوقٍ مِثْلِهِمْ؟ وَهَلْ يَجُوزُ أَنْ يُعَوِّذَ إِنْسَانٌ نَفْسَهُ أَوْ غَيْرَهُ بِمَخْلُوقٍ مِثْلِهِ؟ فَيَقُولُ: أُعِيذُ نَفْسِي بِالسَّمَاءِ أَوْ بِالْجِبَالِ أَوْ بِالْأَنْبِيَاءِ أَوْ بِالْعَرْشِ أَوْ بِالْكُرْسِيِّ أَوْ بِالْأَرْضِ؟. وَإِذَا جَازَ أَنْ يَتَعَوَّذَ بِمَخْلُوقٍ مِثْلِهِ، فَلْيُعَوِّذْ نَفْسَهُ وَغَيْرَهُ بِنَفْسِهِ، فَيَقُولُ: أُعِيذُكَ بِنَفْسِي أَوَلَيْسَ قَدْ أَوْجَبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى مَنْ حَلَفَ بِالْقُرْآنِ بِكُلِّ آيَةٍ كَفَّارَةً؟ فَهَلْ يَجِبُ عَلَى مَنْ حَلَفَ بِمَخْلُوقٍ كَفَّارَةٌ؟) .

- ومورد الشر المستعاذ بالله منه هو العذاب أو الأذي الذي يقع علي العبد أو الأسباب المؤدية له.

-والموجودات باعتبار ما فيها من خير أو شر قسمان لا ثالث لهما ، قلت في كتابي القضاء والقدر

(قال ابن القيم في شفاء العليل

(قدرها الله سبحانه وقضاها لحكمته، وهي باعتبار تلك الحكمة نوع من إحسانه، فإن الرب سبحانه لا يفعل سوءاً قط، بل فعله كله حسن وخير وحكمة، كما قال تعالى: بيدك الخير. وقال أعرف الخلق به صلى الله عليه وسلم: والشر ليس إليك، فهو لا يخلق شراً محضاً من كل وجه، بل كل ما خلقه ففي خلقه مصلحة وحكمة، وإن كان في بعضه شر جزئي إضافي، وأما الشر الكلي المطلق من كل وجه فهو تعالى منزه عنه وليس إليه) انتهي كلامه .

فالموجودات - باعتبار ما فيها من خير أو شر- قسمان لا ثالث لهما :

الأول : ما هو خير محض .

الثاني : ما فيه شر جزئي .

ولهذا قال تعالي (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) ، وقال (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما إلا بالحق ولكن اكثرهم لا يعلمون) ، وقال في آية الأنبياء (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ، لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين) ، وقال تعالي (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية) قال الطبري : يقول تعالى ذكره: وما خلقنا الخلائق كلها، سماءها وأرضَها، ما فيهما وما بينهما ، يعني بقوله (وَمَا بَيْنَهُمَا) مما في أطباق ذلك (إِلا بِالْحَقِّ) يقول: إلا بالعدل والإنصاف، لا بالظلم والجور . انتهي كلام الطبري .

وهذا الشر الجزئي المفعول المقدور الذي هو شر في محل وخير في محل آخر أو لنفس ذات المحل لا يضاف إلي الله إلا علي أحوال ثلاثة كما قال ابن تيمية (8/ 94) :

الأول : علي سبيل العموم كقوله تعالي (الله خالق كل شيء) ، فالله خالق الشر والخير وخلقه للشر لحكمة بالغة فلا يفعل شيئا إلا لحكمة علمناها او لم نعلمها ، فإضافته لله سبحانه علي سبيل العموم يفيد عموم القدرة والمشيئة والخلق .

الثاني : إضافته إلي السبب الفاعل المخلوق كقوله تعالي (وإذا مرضت فهو يشفين) .

الثالث : حذف فاعله كقوله تعالي (وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا) وكقوله صلي الله عليه وسلم (والشر ليس إليك) فإن هذا من حسن الأدب مع الله تعالى في عدم نسبة الشر إليه وإن كان هو خالقه وموجده سبحانه) انتهي من كتابي القضاء والقدر.

- وهذا الذكر في الحديث إذا قاله العبد ضمن أذكار الصباح والمساء أو إذا نزل منزلا فلن يصاب بضر بإذن الله وإن أصابه فسيكون الضرر خفيفا .

- - تنبيه:

قد دلت الأدلة علي جواز الاستعاذة بصفات الله سبحانه كما في حديث الرقية (أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر) وقوله صلي الله عليه وسلم (أعوذ برضاك من سخطك) وغيرها من الاحاديث ، لكن لا يجوز دعاؤها كقول بعض الناس يا قوة الله ! ويا رحمة الله ! وإنما نقول يا قوي ويا رحمن.

وسبب جواز الاستعاذة بصفات الله وعدم جواز دعائها أن الاستعاذة بالصفات سؤال بها فكأننا نقول نسألك يا رب بأنك عزيز قدير أن تشفينا مما أصابنا من ضر وهكذا فهذا من باب التوسل فهو جائز.

وأما دعاء الصفة فهذا سؤال منها وهو موهم لانفصال الصفة عن الذات كما هو منهج المعتزلة والجهمية القائلين بأن الصفات مخلوقة ! قاتلهم الله وتعالي الله عن ذلك علوا كبيرا ؛ ولهذا ذكر ابن تيمية أنه كفر بإجماع المسلمين .

14- باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

- والاستغاثة مصدر استغاث يستغيث استغاثة أي طلب المساعدة في الشدة ، فإن طُلِبت المساعدة في غير شدة فهي الاستعانة ، وأما الدعاء فيشمل هذا وذاك ، فهو أعمها ، ولهذا كانت الاستغاثة دعاء خاصا.

-والدعاء نوعان سبق بيانهما في الأبواب : دعاء مسألة ودعاء عبادة.

أولها:

دعاء المسألة وهو أن تدعو الله بأسمائه فتقول يا رحيم ارحمني ويا رزاق ارزقني وهكذا بما يناسب سؤالك من جلب نفع أو دفع ضر ، وقد يكون دعاء المسألة بهذا المعني من الله سبحانه فيما لا يقدر عليه إلا هو ، وقد يكون من مخلوق علي وجه جائز وذلك بالشروط الأربعة التي سبق بيانها في الاستعاذة : أن يكون السؤال من حي لا ميت ، وحاضر يسمع لا من غائب ، وقادر لا عاجز ، وألا يكون علي وجه التعبد الذي صورته اقتران السؤال بالحب والخضوع والخوف والرجاء من المسؤول.

وثانيها :

دعاء العبادة ، وهو العبادة نفسها ، أن تعبد الله بمقتضي أسمائه علي وفق ما شرع في كتابه وعلي لسان رسوله صلي الله عليه وسلم ؛ وذلك لأنك بعبادتك لله تدعو بلسان حالك أن يتقبل الله منك ويدخلك جنته ويباعدك عن ناره ، وهذا النوع من نوعي الدعاء لا يكون إلا لله وحده فهو من خصائصه وحقوقه سبحانه ، بخلاف التفصيل الذي سبق في دعاء المسألة .

وعلي هذا فكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة ، وكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة.

قال العصيمي في الفروق بين نوعي الدعاء :

((الفرق بين دعاء المسألة ودعاء العبادة :

أولا : أن دعاء العبادة هو الحكمة من خلق الخلق ؛ فهو الغاية ، ودعاء المسألة وسيلة مقتضية له.

ثانيا : أن دعاء المسألة يراد فيه من الله ، ودعاء العبادة يراد فيه الله.

ثالثا : أن دعاء المسألة يحصل به العبد مطلوبه من ربه ، ودعاء العبادة يقوم فيه العبد بحق ربه.

رابعا : أن دعاء المسألة طلب وسؤال ، ودعاء العبادة حب وتعظيم للواحد المتعال.

خامسا : أن دعاء المسألة من متعلقات توحيد الربوبية لاعتقاد العبد في ربه النفع والضر ، ودعاء العبادة من متعلقات توحيد الألوهية لاعتقاد العبد في ربه الإلهية حبا وتعظيما.

سادسا : دعاء المسألة من جملة الأمر الكوني ، ودعاء العبادة من جملة الأمر الشرعي.

سابعا : دعاء العبادة من باب الخبر ، ودعاء المسألة من باب الإنشاء .

ثامنا : دعاء المسألة يكون لله ولغيره ؛ فيسال العبد ربه عبادة ، ويسال غيره عادة أما دعاء العبادة فهو لله وحده.

تاسعا : أن دعاء المسألة يفعله العبد لنفسه ولغيره

تاسعا : أن دعاء المسألة يفعله العبد لنفسه ولغيره فيدعو لها ويدعو لمن التمس منه الدعاء ، وأما دعاء العبادة فيختص بالعبد ؛ فلا يصلي أحد عن أحد ولا يصوم أحد عن أحد.

عاشرا : دعاء المسألة باللسان فقط ، ودعاء العبادة بالقلب واللسان والجوارح.

الحادي عشر : أن استجابة دعاء المسألة بالمنح والإعطاء ، ودعاء العبادة استجابة بالإثابة والجزاء.

الثاني عشر : دعاء المسألة يكون من المؤمن والكافر ، ودعاء العبادة يكون من المؤمن وحده.

الثالث عشر : دعاء المسألة ربما قبل من الكافر ، وأما دعاء العبادة فلا يقبل من الكافر.

قلت : يعني أنه ربما استجيب لدعاء الكافر وذلك لأنه مشمول بربوبية الله العامة ، والكافر نفسه داخل تحت العبودية العامة لله سبحانه كما سبق أن بيناه في باب وجوب التوحيد؛ ولهذا قد يجاب دعاؤهم لا إكراما فإنهم ليسوا أهلا للإكرام وإنما الكرامة للموحد وأما هؤلاء فلا كرامة لهم لكن قد يستجاب دعاؤهم استدراجا أو اختبارا وامتحانا لغيرهم ، أو عذابا لأن النعمة قد تكون نقمة ، وقد ينعم الله بالبلوي إذا عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعم .

الرابع عشر : أن دخول الإسلام يكون بدعاء العبادة لا بدعاء المسألة.

الخامس عشر : أن دعاء العبادة طلب من الله بالمعني أي بحاله دون مقاله) انتهي.

- ودليل كون الاستغاثة عبادة قوله تعالي في سورة الأنفال (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم) ووجه كونها عبادة يحبها الله أنه أتي بها في معرض الثناء علي من استغاث به سبحانه وأنه رتب عليها الإجابة ، والمستقر كما تقدم أن العبادات إنما تجعل لله وحده لا تصرف لغيره كائنا من كان ، والدليل من السنة علي ذلك سيأتي ضمن أحاديث الباب ، لكن يجوز الاستغاثة بالحي الحاضر السامع القادر كما تقدم في شروط الاستعاذة بالمخلوق ودليل الجواز قوله تعالي عن موسي (فاستغاثه الذي من شيعته علي الذي من عدوه) وكذلك قوله تعالي (وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر) ، وعموم قوله تعالي (وتعاونوا علي البر والتقوي).

- وأما دليل الدعاء فآيات كثيرة في القران نصت علي الأمر به وعلي التحذير من صرفه لغير الله سبحانه من هذه الايات قوله سبحانه (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم) فسمي الدعاء عبادة ، وقوله تعالي (وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين) ، وقولت تعالي (ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون) وهلاك كل شيء إلا وجهه سبحانه يراد به أمران عند جماعة أهل السنة : الأول ما أريد به وجهه سبحانه إخلاصا له وبراءة من الشرك في الأقوال و الأعمال ، فكل شيء منها هالك أي حابط لا ينتفع به إلا ما جعل وصرف له وحده إخلاصا وتوحيدا ، والثاني أن المراد ذاته لان الوجه في كلام العرب قد يقع اسما للنفس كلها ، ومن السنة قوله عليه الصلاة والسلام (الدعاء هو العبادة).

-وقد اجتمع دعاء العبادة ودعاء المسألة في ايات من القران الكريم ، منها قوله تعالي عن قول إبراهيم لأبيه وقومه (وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسي ألا أكون بدعاء ربي شقيا فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا)

فقوله (وأعتزلكم وما تدعون) أي ما تعبدون لأنه قال بعدها فلما اعتزلهم وما يعبدون ، وقوله (وأدعو ربي) أي وأسأل ربي فتضمَّنتِ الآيةُ نوعي الدعاء .

وكذلك قوله تعالي (و أن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا) .

قال ابن سعدي في تفسيره :

((أي: لا دعاء عبادة، ولا دعاء مسألة، فإن المساجد التي هي أعظم محال العبادة مبنية على الإخلاص لله، والخضوع لعظمته، والاستكانة لعزته،﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ أي: يسأله ويتعبد له ويقرأ القرآن كَاد الجن من تكاثرهم عليه أن يكونوا عليه لبدا، أي: متلبدين متراكمين حرصا على سماع ما جاء به من الهدى ، ﴿قُلْ﴾ لهم يا أيها الرسول، مبينا حقيقة ما تدعو إليه:

﴿إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ أي: أوحده وحده لا شريك له، وأخلع ما دونه من الأنداد والأوثان، وكل ما يتخذه المشركون من دونه ، ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ فإني عبد ليس لي من الأمر ولا من التصرف شيء ، ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾

أي: لا أحد أستجير به ينقذني من عذاب الله، وإذا كان الرسول الذي هو أكمل الخلق، لا يملك ضرا ولا رشدا، ولا يمنع نفسه من الله [شيئا] إن أراده بسوء، فغيره من الخلق من باب أولى وأحرى.

﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ أي: ملجأ ومنتصرا) انتهي.

و في التفسير الميسر ((وأن المساجد لعبادة الله وحده، فلا تعبدوا فيها غيره، وأخلصوا له الدعاء والعبادة فيها؛ فإن المساجد لم تُبْنَ إلا ليُعبَدَ اللهُ وحده فيها، دون من سواه. وفي الآية وجوب تنزيه المساجد من كل ما يشوب الإخلاص لله، ومتابعة رسوله محمد ﷺ.)).

**وهنا شبهة يُلبِّس بها عباد القبور علي كثير من المسلمين فيقولون أن الدعاء الذي يصرف لله وحده هو دعاء العبادة دون دعاء المسألة ! حتي يجوزوا طلب المدد والشفاعة من الأموات - نعوذ بالله من الكفر - مع أن القران كله في الأمر بإفراد الله بجميع العبادات التي علي رأسها الدعاء بنوعيه ، قال في التيسير:

((إذ احتج عليهم بما ذكر الله في القرآن من الأمر بإخلاص الدعاء له.

قالوا: المراد به العبادة، فيقولون في مثل قوله تعالى: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَداً} أي: لا تعبدوا مع الله أحدًا، فيقال لهم: وإن أريد به دعاء العبادة، فلا ينفي أن يدخل دعاء المسألة في العبادة، لأن دعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة، كما أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة، هذا لو لم يرد في دعاء المسألة بخصوصه من القرآن إلا الآيات التي ذكر فيها دعاء العبادة، فكيف وقد ذكر الله في القرآن في غير موضع. قال الله تعالى: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} ، وقال تعالى: {وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً} وقال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ} ، وقال تعالى: {وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ} ، وقال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ}

وقال تعالى: {لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ} ، وقال تعالى: عن إبراهيم عليه السلام: {إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} ، وقال عنه أيضًا: {وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ... } ، وقال تعالى:

{ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} ، وقال تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً} ، وقال تعالى: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً} ، وقال تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} ، وقال تعالى عن زكريا عليه السلام: {قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً} ، وقال تعالى: {وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ} ، وقال تعالى: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} ، فكفى بهذه الآيات نجاة وحجة وبرهانًا في الفرق بين التوحيد والشرك عمومًا وفي هذه المسألة خصوصًا.

وقال تعالى: {فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ} وقال تعالى: {وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ} ، وقال {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ} ، وقال تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} ، وغير ذلك من الآيات.

وفي الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ما لا يحصى، منها قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: "يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم" ٣. رواه مسلم "وقوله صلى الله عليه وسلم ينْزل ربنا تبارك وتعالى إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ثم يقول: من يدعوني فأستجب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟ " رواه البخاري ومسلم.

وقوله: "ليس شيء أكرم على الله من الدعاء" رواه أحمد والترمذي وابن ماجة وابن حبان، والحاكم وصححه. وقوله: "من لم يدع الله يغضب عليه" رواه أحمد وابن أبي شيبة والحاكم وقوله: "سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل" رواه الترمذي، وقوله: "الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين، ونور السماوات والأرض"، رواه الحاكم وصححه، وقوله: "الدعاء هو العبادة" ، رواه أحمد والترمذي. وفي حديث آخر: "الدعاء مخ العبادة" ، رواه الترمذي، وقوله لما سئل: "أي العبادة أفضل؟ قال: دعاء المرء لنفسه". رواه البخاري في "الأدب" وقوله: "لن ينفع حذر من قدر ولكن الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينْزل فعليكم بالدعاء يا عباد الله"رواه أحمد. وقوله: "سلوا الله كل شيء ، حتى الشسع١ إذا انقطع، فإنه إن لم ييسره لم يتيسر" رواه

أبو يعلى بإسناد صحيح. وقوله: "ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأله شِسع نعله إذا انقطع وحتى يسأله الملح" ، رواه البزار بإسناد صحيح.

والأحاديث والآثار في ذلك لا يحيط بها إلا الله تعالى. فثبت بهذا أن الدعاء عبادة من أجل العبادات، بل هو أكرمها على الله كما تقدم، فإن لم يكن الإشراك فيه شركًا، فليس في الأرض شرك، وإن كان في الأرض شرك فالشرك في الدعاء أولى أن يكون شركًا من الإشراك في غيره من أنواع العبادة، بل الإشراك في الدعاء - هو أكبر شرك المشركين الذين بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنهم يدعون الأنبياء والصالحين والملائكة، ويتقربون إليهم ليشفعوا لهم عند الله، ولهذا يخلصون في الشدائد لله وينسون ما يشركون، حتى جاء أنهم إذا جاءتهم الشدائد في البحر يلقون أصنامهم في البحر ويقولون: يا الله يا الله، لعلمهم أن آلهتهم لا تكشف الضر ولا تجيب المضطر. وقال تعالى: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ} ، فهم كانوا يعلمون أن ذلك لله وحده، وأن آلهتهم ليس عندها شيء من ذلك، ولهذا احتج سبحانه وتعالى عليهم بذلك أنه هو الإله الحق، وعلى بطلان إلهية ما سواه. وقال تعالى:: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ}.فهذه حال المشركين الأولين.

وأما عباد القبور اليوم فلا إله إلا الله، كم ذا بينهم وبين المشركين الأولين من التفاوت العظيم في الشرك، فإنهم إذا أصابتهم الشدائد برًّا وبحرًا أخلصوا لآلهتهم وأوثانهم التي يدعونها من دون الله، وأكثرهم قد اتخذ ذكر إلهه وشيخه ديدنه، وهجيراه إن قام وإن قعد وإن عثر. هذا يقول: يا علي [الشّاذلي] ، وهذا يقول: يا عبد القادر [الجيلاني] ، وهذا يقول: يا ابن علوان، وهذا يدعو البدوي، وهذا يدعو العيدروس. وبالجملة ففي كل بلد في الغالب أناس يدعونهم ويسألونهم قضاء الحاجات، وتفريج الكربات. بل بلغ الأمر إلى أن سألوهم مغفرة الذنوب، وترجيح الميزان، ودخول الجنة والنجاة من النار، والتثبيت عند الموت والسؤال، وغير ذلك من أنواع المطالب التي لا تطلب إلا من الله. وقد يسألون ذلك من أناس يدعون الولاية، وينصبون أنفسهم لهذه الأمور وغيرها من أنواع النفع والضر التي هي خواص الإلهية...

ويقع من ذلك كثير في مدح غيره، فإن عباد القبور لا يقتصرون على بعض من يعتقدون فيه الضر والنفع، بل كل من ظنوا فيه ذلك بَالَغُوا في مدحه وأنزلوه منْزلة الربوبية وصرفوا له خالص العبودية ، بعض أشعار المادحين لسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم قول البوصيري:

١٥٢ يا أكرم الخلق ما لي مَنْ أَلُوذُ به ... سواك عند حلول الحادث العمم.

١٥٣ ولن يضيق رسول الله جاهك بي ... إذا الكريم تجلى باسم منتقم.

١٤٦ فإن لي ذمة منه بتسميتي ... محمدًا وهو أوفى الخلق بالذمم.

١٤٧ إن لم يكن في معادي آخذًا بيدي ... فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم.

فتأمل ما في هذه الأبيات من الشرك ، منها :

منها: أنه نفى أن يكون له ملاذًا إذا حلت به الحوادث، إلا النبي صلى الله عليه وسلم وليس ذلك إلا لله وحده لا شريك له، فهو الذي ليس للعباد ملاذ إلا هو.

الثاني:أنه دعاه وناداه بالتضرع وإظهار الفاقة والاضطرار إليه، وسأل منه هذه المطالب التي لا تُطْلَبُ إلا من الله، وذلك هو الشرك في الإلهية.

الثالث: سؤاله منه أن يشفع له في قوله :ولن يضيق رسول الله. البيت. وهذا هو الذي أرادها المشركون ممن عبدوه، وهو الجاه والشفاعة عند الله، وذلك هو الشرك وأيضًا فإن الشفاعة لا تكون إلا بعد إذن الله فلا معنى لطلبها من غيره، فإن الله تعالى هو الذي يأذن للشافع أن يشفع لأن الشافع يشفع ابتداء.

الرابع: قوله :فإن لي ذمة. إلى آخره. كذب على الله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم فليس بينه وبين من اسمه محمد ذمة إلا بالطاعة، لا بمجرد الإشراك في الاسم مع الشرك.

الخامس: قوله :إن لم يكن في معادي البيت. تناقض عظيم وشرك ظاهر، فإنه طلب أولاً أن لا يضيق به جاهه، ثم طلب هنا أن يأخذ بيده فضلاً وإحسانًا، وإلاّ فيا هلاكه! فيقال :كيف طلبت منه أولاً الشفاعة ثم طلبت منه هنا أن يتفضل عليك؟ !فإن كنت تقول :إن الشفاعة لا تكون إلا بعد إذن الله، فكيف تدعو النبي صلى الله عليه وسلم وترجوه وتسأله الشفاعة؟! فهلا سألتها مَنْ له الشفاعة جميعًا الذي له ملك السموات والأرض الذي لا تكون الشفاعة إلا من بعد إذنه، فهذا يبطل عليك طلب الشفاعة من غير الله.

وإن قلت :ما أريد إلا جاهه، وشفاعته بإذن الله .قيل :فكيف سألته أن يتفضل عليك ويأخذ بيدك في يوم الدين، فهذا مضاد لقوله تعالى : وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ فكيف يجتمع في قلب عبد الإيمان بهذا وهذا؟ !وإن قلت :سألته أن يأخذ بيدي، ويتفضل علي بجاهه وشفاعته قيل :عاد الأمر إلى طلب الشفاعة من غير الله، وذلك هو محض الشرك.

السادس: في هذه الأبيات من التبري من الخالق - تعالى وتقدس - والاعتماد على المخلوق في حوادث الدنيا والآخرة ما لا يخفى على مؤمن، فأين هذا من قوله تعالى : إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ }فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ }وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً} {قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا رَشَداً قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً إِلاَّ بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ.

فإن قيل :هو لم يسأله أن يتفضل عليه، وإنما أخبر أنه إن لم يدخل في عموم شفاعته فيا هلاكه .قيل :المراد بذلك سؤاله، وطلب الفضل منه، كما دعاه أول مرة وأخبر أنه لا ملاذ له سواه، ثم صرح بسؤال الفضل والإحسان بصيغة الشرط والدعاء، والسؤال كما يكون بصيغة الطلب يكون بصيغة الشرط كما قال نوح عليه السلام} :إِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) .

إذا تبين ذلك، فاعلم أن العلماء أجمعوا على أن من صرف شيئًا من نوعي الدعاء لغير الله فهو مشرك، ولو قال لا إله إلا الله محمد رسول الله وصلى وصام، إذ شرط الإسلام مع التلفظ بالشهادتين أن لا يعبد إلا الله، فمن أتى بالشهادتين وعبد غير الله فما أتى بهما حقيقة وإن تلفظ بهما كاليهود الذين يقولون :لا إله إلا الله وهم مشركون، ومجرد التلفظ بهما لا يكفي في الإسلام بدون العمل بمعناهما واعتقاده إجماعًا .

وقال شيخ الإسلام في "الرسالة السنية :"فإذا كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم من انتسب إلى الإسلام من مرق منه مع عبادته العظيمة، فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام والسنة في هذه الأزمان أيضًا قد يمرق أيضًا من الإسلام وذلك بأسباب :منها الغلو الذي ذمه الله في كتابه حيث قال} :يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ،وكذلك الغلو في بعض المشايخ، بل الغلو في علي بن أبي طالب، بل الغلو في المسيح عليه السلام، فكل من غلا في نبي أو رجل صالح وجعل فيه نوعًا من الإلهية، مثل أن يقول :يا سيدي فلان انصرني، أو أغثني، أو ارزقني أو اجبرني، أو أنا في حسبك، ونحو هذه الأقوال، فكل هذا شرك وضلال، يستتاب صاحبه، فإن تاب وإلا قتل، فإن الله إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده، ولا يدعى معه إله آخر والذين يدعون مع الله آلهة أخرى، مثل المسيح، والملائكة، والأصنام، لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق أو تنْزل المطر، أو تنبت النبات، وإنما كانوا يعبدونهم أو يعبدون قبورهم، أو يعبدون صورهم، يقولون :إنما }نَعْبُدُهُمْ ... لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، ويقولون هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ {فبعث الله رسله تنهى أن يدعى أحد من دونه، لا دعاء عبادة، ولا دعاء استغاثة. انتهى كلام ابن تيمية من التيسير .

ثم ذكر في التيسير أقوال الأئمة الأربعة وغيرهم من علماء المسلمين في ذم هذا الشرك وتكفير من فعله ونقل الإجماعات في ذلك ، ثم قال

وقال شيخ الإسلام :من جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم يدعوهم ويسألهم، كفر إجماعًا، نقله عنه غير واحد مقررين له، منهم ابن مفلح في "الفروع "وصاحب "الإنصاف المرداوي " وصاحب "الغاية مرعي الكرمي " [وصاحب "الإقناع الحجاوي وشارحه البهوتي ، وغيرهم، ونقله صاحب "القواطع ابن حجر الهيثمي " في كتابه عن صاحب "الفروع."

قلت :وهو إجماع صحيح معلوم بالضرورة من الدين، وقد نص العلماء من أهل المذاهب الأربعة، وغيرهم في باب حكم المرتد، على أن من أشرك بالله فهو كافر، أي :عبد مع الله غيره بنوع من أنواع العبادات.

وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن دعاء الله عبادة له، فيكون صرفه لغير الله شركًا.

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في "شرح المنازل "ومن أنواعه أي: الشرك، طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، فضلاً لمن استغاث به أو سأله أن يشفع إلى الله، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده، فإن الله سبحانه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، والله سبحانه لم يجعل سؤال غيره سببًا لإذنه، وإنما السبب لإذنه كمال التوحيد، فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن، والميت محتاج إلى من يدعو له، كما أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم إذا زرنا قبور المسلمين أن نترحم عليهم، وندعو لهم، ونسأل لهم العافية والمغفرة، فعكس المشركون هذا وزاروهم زيارة العبادة، وجعلوا قبورهم أوثانًا تعبد، فجمعوا بين الشرك بالمعبود وتغيير دينه، ومعاداة أهل التوحيد، ونسبتهم إلى التنقص بالأموات، وهم قد تنقصوا الخالق سبحانه بالشرك وأولياءه الموحدين بذمهم ومعاداتهم، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص، إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا، وأنهم أمروهم به، وهؤلاء هم أعداء الرسل في كل زمان ومكان .وما أكثر المستجيبين لهم! ولله در خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام حيث قال}:وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ .وما نجا مَنْ أشرك بهذا الشرك الأكبر، إلا مَنْ جرد توحيده لله، وعادى المشركين في الله، وتقرب بمقتهم إلى الله) انتهي من التيسير .

١ -الدليل الأول من أدلة الباب قول الله تعالى: {وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}.

- قال الطبري في تفسيره

((يقول تعالى ذكره: ولا تدع، يا محمد، من دون معبودك وخالقك شيئًا لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يضرك في دين ولا دنيا، يعني بذلك الآلهة والأصنام. يقول: لا تعبدها راجيا نفعها أو خائفًا ضرَّها، فإنها لا تنفع ولا تضر "فإن فعلت"، ذلك، فدعوتها من دون الله ﴿فإنك إذًا من الظالمين﴾ ، يقول: من المشركين بالله، الظالمي أنفُسِهم ، قال تعالي: {إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}))

.انتهي.

-والخطاب من الله سبحانه للنبي صلي الله عليه وسلم بقل لا يعني حصر الأمر والنهي فيه بل المراد الأمة كافة لأنه - صلي الله عليه وسلم - قدوتنا وهو مبلغ عن ربه و أمته له تبع .

- وقول الطبري يا محمد في تفسير الايات المصدرة بقل خلاف الأدب الكامل ، وإنما نقول يا أيها الرسول الكريم أو يا أيها النبي فننزله منزلته التي أنزله الله إياها ، وأما ما ورد في الحديث القدسي " يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد " فهذا من خطاب الرب لعبده ، وأما ذكرنا نحن له فإنما يكون بيا أيها الرسول لأنه من خطاب التابع لمتبوعه وهذا من كمال التأدب معه عليه الصلاة والسلام.

-ومحاجة المشركين الذين يعبدون غير الله من الأموات أوالصالحين والأولياء أوالقبور أوالجن والشياطين أو الملائكة أو النار أو الكواكب أو الأحجار أو الأصنام أو النور أو الحيوانات وغيرها مما عبده المشركون ، محاجة هؤلاء كثيرا ما تكون في القران بأربعة أمور تنسف أصول الشرك ، وهي أن يعلموا أنها مخلوقة، وأنها لا تستطيع أن تخلق شيئا ، وأنها لا تجلب نفعا ولا تدفع ضرا ، وأنها لا تستطيع نصر أنفسها ، فضلا عن أن تستطيع نصرك ، ولهذا قال تعالي في آيات محكمات في القران يفهمها كل من يسمعها (إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ).

فمقام النفع لأنفسهم وغيرهم منفي ، وكذلك مقام الدفع ، ومن كان هذا حاله فلا يصلح أن يكون إلها يعبد.

٢ - وقوله: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ}.

- في التفسير الميسر :

(لا أحدَ أضلُّ وأجهل ممن يدعو من دون الله آلهة لا تستجيب دعاءه أبدًا؛ لأنها من الأموات أو الأحجار والأشجار ونحوها، وهي غافلة عن دعاء مَن يعبدها، عاجزة عن نفعه أو ضره ، وإذا حُشر الناس يوم القيامة للحساب والجزاء كانت الآلهة التي يدعونها في الدنيا لهم أعداء، تلعنهم وتتبرَّأُ منهم، وتنكر علمها بعبادتهم إياها) انتهي.

- فتضمنت الآية أمورا ، منها : أنه لا أضل ولا أشر حالا ممن يدعو غير الله الأحد الذي تصمد إليه وتتوجه إليه جميع الخلائق طوعا وكرها المستحق للعبادة وحده سبحانه ، وأن المدعوين من دون الله سبحانه غافلون عن دعاء المشركين لهم ولا يسمعونهم كما قال تعالي (والذين تدعون

من دونه لا يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير) فسمي الله دعاء غيره شركا وسماهم مشركين - والعياذ بالله - ، وأن المدعوين من دون الله يبغضون هؤلاء المشركين وسيتبرؤون منهم ومن شركهم يوم يبعث الله الناس إليه سبحانه وتعالي.

٣ - وقوله: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ}.

- وهذه الآية كغيرها من الايات الكثيرة في القران التي يقيم الله الحجة علي المشركين الذين يعبدون مع الله غيره بأنهم لا يجلبون نفعا ولا يدفعون ضرا وهم مخلوقون غير خالقين وهم علي ذلك من الشاهدين لكن مع ذلك يعبدون غير الله ! أي عقل يقبل هذا !

وفي التفسير الميسر ((أعبادة ما تشركون بالله خير أم الذي يجيب المكروب إذا دعاه، ويكشف السوء النازل به، ويجعلكم خلفاء لمن سبقكم في الأرض؟ أمعبود مع الله يُنعم عليكم هذه النعم؟ قليلًا ما تذكرون وتعتبرون، فلذلك أشركتم بالله غيره في عبادته)) انتهي.

٤ - وروى الطبراني بإسناده "أنه كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله"

- قال العصيمي في تفسير الحديث في شرح فتح المجيد - بتصرف -

(يحتمل أمرين :

الأول:

أن النبي صلي الله عليه وسلم كان قادرا لكنه نهاهم لكراهية ما يوهمه هذا اللفظ من التعلق بغير الله.

و استغاثتهم بالنبي - صلي الله عليه وسلم - لأنه كان حيا حاضرا قادرا وإنما نهي - النبي صلي الله عليه وسلم - تأدبا ؛ لأنه كره أن يستعمل هذا اللفظ في حقه وإن كان يقدر عليه في حياته ؛ حماية لجناب التوحيد وسدا لذرائع الشرك ، وتواضعا لله ، وبيانا للأمة ، وتحذيرا لها من وسائل الشرك في الأقوال والأفعال كما في الحديث "أن رجلا قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت ، فقال: أجعلتني لله ندا؟ ما شاء الله وحده " ، وباب الأدب مع الله باب عظيم واسع أطال فيه ابن القيم في مدارج السالكين ، وهو مهم لطالب العلم ، وأهمه الأدب مع الله في التوحيد ؛ فإن حسن الأدب عنوان سعادة العبد ، وسوء الأدب عنوان شقاوته.

فإن كان - صلي الله عليه وسلم - قال ذلك فيما لا يقدر عليه ، فكيف بمن يستغيث به بعد موته !

الثاني:

أن النبي - صلي الله عليه وسلم - لم يكن قادرا علي إغاثة من استغاث به من الصحابة علي المنافق ابن سلول ، فعجزُ النبي صلي الله عليه وسلم إما عجز حقيقي لعظم شر هذا المنافق في بداية قدومه المدينة ، وإما عجز حكمي لما يتعلق بذلك من المصالح والمفاسد كما قال صلي الله عليه وسلم (لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه).

شبهة كثيرا ما يثيرها عباد القبور من ذلك أنهم احتجوا بحديث رواه الترمذي في "جامعه علي جواز التوسل بذوات الأموات "حيث قال: حدثنا محمود بن غيلان، ثنا عثمان بن عمرو، ثنا شعبة عن أبي جعفر عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن عثمان بن حُنَيْف "أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ادع الله أن يعافيني، قال :إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت، فهو خير لك قال :فادعه، فأمره أن يتوضأ، ويحسن وضوءه، ويدعو بهذا الدعاء :اللهم إني أسألك، وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، إني توجهت به إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى، اللهم فشفعه في."

وجواب ذلك من وجوه :

أولا :

أنه في غير محل النّزاع، فأين طلب الأعمى من النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو له، وتوجهه بدعائه مع حضوره، من دعاء الأموات، والسجود لهم، ولقبورهم، والتوكل عليهم، والالتجاء إليهم في الشدائد والنذر والذبح لهم، وخطابهم بالحوائج من الأمكنة البعيدة :يا سيدي يا مولاي افعل بي كذا؟! فحديث الأعمى شيء، ودعاء غير الله تعالى والاستغاثة به شيء آخر، فليس في حديث الأعمى شيء غير أنه طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو له، ويشفع له، فهو توسل بدعائه وشفاعته، ولهذا قال في آخره "اللهم فشفعه في ."فعلم أنه شفع له .

ثانيا :

أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره هو أن يدعو الله ويسأله قبول شفاعته، فهذا من أعظم الأدلة على أن دعاء غير الله شرك، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أمره أن يسأل قبول شفاعته، فدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يدعى. ولأنه صلى الله عليه وسلم لم يقدر على شفائه إلا بدعاء الله له. فأين هذا من تلك الطوام .

ثالثا :

أنه لم يسأل من النبي - صلي الله عليه وسلم - وإنما سأل من الله بدعائه .

رابعا :

أن قوله :يا محمد إني أتوجه إلخ لم تثبت في أكثر الروايات، وبتقدير ثبوتها لا يدل على جواز دعاء غير الله، لأن هذا خطاب لحاضر معين يراه ويسمع كلامه، ولا إنكار في ذلك، فإن الحيَّ يُطلب منه الدعاء كما يطلب منه ما يقدر عليه، وقد سبق أنه يجوز نادا فلا يعتاد، فأين هذا من دعاء الغائب والميت لو كان أهل البدع والشرك يعلمون؟. !

انتهت الأبواب الأربعة عشر الأولي من كتاب التوحيد ، وسيأتيك أيها القارئ الكريم سائر الأبواب قريبا إن شاء الله.

تقبل الله مني ومنكم.

وقد استفدت أثناء هذا العمل من عدة شروح لهذا الكتاب وغيرها من كتب الاعتقاد ، ومنها:

١. تيسير العزيز الحميد.

٢. فتح المجيد.

٣. القول المفيد.

٤. التمهيد.

٥. إبطال التنديد.

٦. إعانة المستفيد.

٧ . شرح الشيخ صالح العصيمي لإبطال التنديد.

٨ . شرح الشيخ صالح العصيمي لفتح المجيد.

٩ . شرح الشيخ سليمان الرحيلي لكتاب التوحيد.

١٠ . قرة عيون الموحدين بتحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين

١١ . شروح الأصول الثلاثة.

١٢ .شروح كشف الشبهات.

١٣. شروح القواعد الأربع.

١٤ . الدرر السنية.

١٥ . كتابي (مسألة الإيمان وما يتعلق بها من أحكام والرد علي المرجئة والخوارج)

١٦ . كتابي (كتاب القضاء والقدر) .

١٧ .كتابي (القول الفصل في مسألة العذر بالجهل وقيام الحجة الرسالية والرد علي المرجئة والخوارج)

١٨ . مجموع فتاوي ابن تيمية

١٩ . القول السديد شرح كتاب التوحيد

وكتب أخري يعسر علي حصرها .

الفهرس